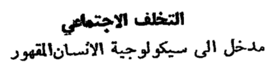
معهد الانماء العربي

التخلّف الاجتماعي

مَدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور

د. مصطفى حجازي

الدراسات الانسانيّة
علم النفس



التخلف الاجتماعي

مدخل الى سيكولوجية الأنسان المقهور

الدراسات الإنسانيّة

علم النفس

التخلّف الاجتماعي

مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور

د. مصطفى حجازي

معهد الإنماء العربي

فرع لبنان



معهد الانماء العربي

المركز الرئيسي : ص.ب : ٨٠٠٤ طرابلس - ج.ع.ل.

فرع لبنان : ص.ب : ١٩/٥٣٠٠ بيروت

الطبعة الاولى

بيروت ـ ١٩٧٦

مقدمة

أصبحت الكتابات حول التخلف منذ أوائل الخمسينات غزيرة ، نظرا لبروز ظاهرة الدول المستقلة حديثا ، فيما يطلق عليه اسم العالم الثالث ، والمشكلات والقضايا التي طرحتها مهمات النهوض الاجتماعي فيها . اتخذت هذه الدراسات وجهات متعددة ، ولكنها تركزت أساسا حول الاقتصاد والصناعة ، والعناية بالسكان (صحة ، تعليم ، تغذية ، أعمار الخ ...) نشأ عن ذلك علم اقتصاد وعلم اجتماع التخلف . ولكن الانسان المتخلف لم يعط الاهتمام نفسه الذي وجه الى البنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . صحيح أن هذا الانسان هو وليد البنية الاجتماعية المتخلفة ، ولكنه ليس مجرد أمر مادي قابل للتغيير تلقائيا .

يعاش التخلف على المستوى الانساني ، كنمط وجود مميز له ديناميته النفسية والعقلية والعلائقية النوعية . والانسان المتخلف ، منذ أن ينشأ تبعا لبنية اجتماعية معينة ، يصبح قوة فاعلة ومؤثرة فيها . فهو من ناحية يعزز هذه البنية ويدعم استقرارها ، وهو من ناحية ثانية ، يقاوم تغييرها نظرا لارتباطها ببنيته النفسية . العلاقة اذا جدلية بين السبب والمسبب (البنية والنمط الانساني الذي ينتج عنها) مما يحتم علينا الاهتمام بهما كليهما عند بحث حالة أحد المجتمعات المتخلفة ، بغية وضع الخطط التنموية .

ولقد أوقع تجاهل هذه الحقيقة دارسي التخلف وعلماء التنمية ومن ورائهم القادة السياسيين الذين يقررون عمليات التغيير الاجتماعي،

في مآزق أدت الى هدر الكثير من الجهد والوقت والامكانات المادية ، بشكل اتخذ طابع التبذير الذي لا يمكن للمجتمع المتخلف ، ذي الاعباء الثقال . أن يسمح لنفسه به . انطلق هؤلاء جميعا في مشاريع تنموية طنانة ، ذات بريق ووجاهة ، قائمة على دراسات ومخططات جزئية ، لم تتجاوز السطح معظم الاحيان ، كي تنفذ الى دينامية البنية المتخلفة من ناحية ، أو الى التكوين النفسي والذهني للانسان المتخلف الذي أريد تطويره من ناحية ثانية . وضعت خطط مستوردة عن نماذج طبقت ونجحت في بلدان صناعية ، ولكن مسيرة هذه الخطط لم تخط بعيدا فلقد فشلت التجارب المستوردة ، والمشاريع الملصقة من الخارج ، كما فشلت المشاريع ذات الطابع الدعائي الاستعراضي في تحريك بنية المجتمع ككل ، وفي الارتقاء بانسان ذلك المجتمع .

ذلك لان انسان هذه المجتمعات لم يؤخذ بعين الاعتبار ، كعنصر أساسي ومحوري في أي خطة تنموية . التنمية مهما كان ميدانها ، تمس تغيير الانسان ونظرته الى الامور في المقام الاول . لا بد اذا من وضع الامور في اطارها البشري الصحيح ، وأخذ خصائص الفئة السكانية التي يراد تطوير نمط حياتها بعين الاعتبار . ولا بد بالتالي من دراسة هذه الخصائص ومعرفة بنيتها وديناميتها . وهو ما ندر الاهتمام به الى الآن، فعلم النفس لم يحتل بعد مكانته المفروضة في هذا المضمار ، مع انه يملك مفاتيح هامة لمعرفة الانسان ،والقوى التي تحركه داخليا وعلائقيا ، والمقاومات التي يظهرها اذا مس توازنه ، وكل تنميته لا بد لها اذا كانت فعالة ، من المساس بهذا التوازن لاحلال آخر أكثر تطورا ومرونة مكانه. لا بد من شمول النظرة من خلال الاهتمام بالبعد الذاتي (الانساني) اضافة الى البعد الموضوعي (الاجتماعي الاقتصادي) ، ومن خلال فهم العلاقة الجدلية بينهما ، اذا أردنا السير على طريق يحالفها الحظ في ايصالنا الى الهدف .

ومن هذا المنظور ، تنبع أهمية محاولتنا لدراسة نفسية الانسان المتخلف . فاذا توقفنا ونظرنا مليا ، نجد أن ظواهر حياة هذا الانسان التي تبدو مشتتة تذهب في كل اتجاه ، وأن تصرفاته ونظرته ومواقفه واستجاباته التي يبدو عليها التفكك ، هي في الحقيقة كل متماسك ، له بنيته الخاصة وديناميته المتطورة . فحياة الانسان المتخلف تنتظم في وحدة قابلة للفهم جدليا ، وحدة لها تاريخها ومسيرتها رغم ما يبدو عليها من سكون ظاهري ، يسبغه تحكم التقليد وما يفرضه من جمود في المجتمع المتخلف .

يتلخص وجود الانسان المتخلف ، في نظرنا ، في وضعية مأزقية ، يحاول في سلوكه وتوجهاته وقيمه ومواقفه مجابهتها ، ومحاولة السيطرة عليها بشكل يحفظ له بعض التوازن النفسي ، الذي لا يمكن الاستمرار في العيش دونه . هذه الوضعية المأزقية هي أساسا وضعية القهر الذي تفرضه عليه الطبيعة التي تفلت من سيطرته وتمارس عليه اعتباطها ، والمسكون بزمام السلطة في مجتمعه الذين يفرضون عليه الرضوخ . ولذلك فان سيكولوجية التخلف من الناحية الانسانية تبدو لنا على أنها، أساسا ، سيكولوجية الانسان المقهور . تنبت علاقات القهر والتسلط من ناحية ، ورد الفعل عليها من رضوخ او تمرد من ناحية ثانية في كل ثنايا وجود الانسان المتخلف ، لانها تكاد تكون من الناحية البنيوية ، الخاصة الاساسية للمجتمع المتخلف . تكوين الانسان المتخلف النفسي ، وتركيبه الذهني ، وحياته اللاواعية محومة كلها بالاعتباط والقهر وما يولدانه من قلق جذري ، وانعدام الشعور بالامن والاحساس بالعجز أمام المصير ، ولا يقف الانسان المقهور مكتوف اليدين ازاء هذه الوضعية عسيرة الاحتمال ، نظرا لكونها تزلزل التوازن الوجودي ، بل يحاول أن يجابهها بأساليب دفاعية عديدة ، متعارضة جدليا أو متكاملة في تعارضها . يطغي في كل مرحلة من تاريخه

نماذج سائدة منها تتغير ، تبعا لتغير ظروفه . والكثير من معتقدات واتماءات وممارسات الانسان المتخلف ، تبدو في النهاية كمحاولات دفاعية للسيطرة على وضعيته المأزقية وايجاد حلول معينة لها . هذه الحلول تتخذ أشكالا فاترة أو نشطة ، تشده الى الوراء أو تدفع به الى الامام ، تميل به الى الاستكانة والانسحاب ، أو تدفعه الى المجابهة والتصدي ، ولكنها دوما تشكل نماذج من الاستجابات الممكنة ، في ظروف تاريخية وعلائقية محددة لما يحيط بحياته من ضغوط .

التكوين النفسي والتكوين الذهني للانسان المتخلف ، بديناميته الخاصة ، وحركته التاريخية ، والاساليب المتنوعة التي يجابه بها مأزقه الوجودي ، يشكلان قسمي هذا البحث . ففي القسم الاول ترسم الملامح النفسية الاساسية للانسان المقهور . أما في القسم الثاني فنستعرض أهم الاساليب الدفاعية التي يجابه بها وضعيته في تفاعلها وتناقضها وتغيرها . ويتضح من هذين القسمين ان حياة الانسان المتخلف وممارساته وتطلعاته ، هي أبعد ما تكون عن العشوائية والتشتت اللذين يبدو أنهما يميزانها ظاهريا .

رغم ان الحديث يدور دوما حول الانسان المتخلف بشكل عام ، الا أن المادة مستقاة أساسا من واقع الانسان اللبناني خاصة ، والعربي عامة. بالطبع لا ينطبق كل ما سيقال على كل لبناني أو كل عربي ، فهناك بالضرورة خصائص نوعية في كل حالة ، تجعل سيادة نماذج معينة من التكوين النفسي ومن الاساليب الدفاعية أمرا محتوما. الا أن الخصوصية هذه لا تمنع محاولات النظر في امكانية التعميم ، انطلاقا من مقارنة مختلف وضعيات الانسان المتخلف في مختلف البلدان خارج العالم العربي .

ان انفجار العنف في « لبنان » ، كما هي الحال خلال فترة كتابة

هذه السطــور : والاشكال التي اتخذها ويتخذهــا ، وما يحيط به من ظروف ، وما تحركه من قوى وعوامل ، تعتبر في نظرنا فرصة كاشفة لما يعتمل في بنيــة المجتمع المتخلف من عنف ، وما يصطرع فيها من مــآزق وتناقضات . وهي بالتالي تبين لنا ما يتعرض له الانسان في ذلك العــالم من قهر واعتباط ، وما يحل بقيمته الانسانية من هدر . واذا اتخذ العنف وما يدفعه من قهر وهدرلكيانالانسان في الحالة الراهنة ، طابعا صريحــا صارخــا ومأساويا ، فانه هو نفسه ، في رأينا ، فاعل في بنى المجتمعات المتخلفة على تعددها، ومحرك لها، ومحدد لانماط العلاقات والاستجابات فيها ، انما بأشكال مقنعة وغير مباشرة ، وراء حالة من السكونالظاهري. ذلك هو على الاقل ، افتراضنا الاساسي الذي دفعنا الى الحــديث عن سيكولوجية الانسان المقهور باعتباره النتاج الرئيسي للتخلفالاجتماعي.

تقوم هذه المحاولة منهجيا على الملاحظة والتحليل النفسيوالاجتماعي للظواهر المعاشة . وهي تدخل في اطار علم النفس الاجتماعي العيادي ، الذي يدرس الظواهر النفس اجتماعية بالطريقة العياديــة . وقد يطرح كونها لا تستند الى أبحاث ميدانية أو تجريبية محددة بدقة ، بعض ظلال من الشك حول درجة اليقين الذي تتمتع به نتائجها . ذلك صحيــح ولا شك . على أن الغاية من هذه المحاولة ليست الوصول الى نتائج نهائية ، فهذه تحتاج الى أبحاث طويلة النفس ، تكفي لملء حيــاة فريق كبير من العلماء . ان ما نهدف اليههوكتابة نوع من المدخل الى علم نفسالتخلف، واسهامه الغني جدا بالنتائج التيتكمل الدراسات الاجتماعيةوالاقتصادية لهذه الظاهرة . قيمة هذه المحاولة الاساسية ، في نظرنا ، هي في طــرح منهجية نفسية لدراسة الانسان المتخلف ، بمختلف خصائصه الوجودية. هذه المنهجيــة تبين ، بلا شك ، أنهذا الوجود متماسك في ظواهره على تنوعها وتشتتها ، وهو ينتظم في بنيــة دينامية ، هي وضعيــة الانسان المقهور .

هذه المحاولة بما يعتورها من ثغرات ، تطمح الى فتح الطريق أمام أبحاث نفسية ميدانية ، تحاول فهم الانسان المتخلف بنوعيته وخصوصية وضعه ، وبشكل حي وواقعي ، لتكون مرتكزات علم نفس التخلف . بذلك وحده يمكننا أن نضع أخيرا حدا لالباس هذا الانسان القوالب النظرية ، والتفسيرات الموضوعة لانسان العالم الصناعي ، والتي أدت الى تعميمات متسرعة كان من نتيجتها انها حادت عن غرضها المعرفي، نظرا لما تحمله من خطر اخفاء وطمس الواقع الحقيقي . تكون هذه المحاولة قد حققت غايتها ، اذا تمكنت معطياتها من اتخاذ طابع الافتراضات العملية ، التي تطلق أبحاثا ميدانية تتمتع بالدقة والعمق الكافيين ، لفهم واقع انساننا العربي . هذا الفهم العلمي ، وحده ، يمكننا من وضع خطط تنمية وتطوير فعالة ، ويجعل مسيرتنا واضحة المعالم وطريقنا الى أهدافنا في الارتقاء مضمونة .

القسم الاول

الملامح النفسية للوجود المتخلف

تمهيد

المهمة المطروحة أمامنا في هذا القسم ، هي رسم صورة نفسانية حيّة ، متكاملة وشاملة ، ما أمكن ، للوجود المتخلف . اذ أن البنية الاجتماعية المتخلفة تتخذ على المستوى المعاش نمطا من الوجود ، من النظرة اليه والى الذات ، هي التي تحكم في النهاية السلوك الفردي . هذا النمط يشكل البعد الذاتي من مسألة التخلف ، الذي يكمل البعد الموضوعي ويتفاعل معه جدليا ، في حالة من تبادل التأثير والتحديد . ولا يستقيم بحث في التخلف الا اذا استوعب كلا البعدين معا ، والا فانه يقع في التجزيئية الاختزالية التي تضلل الباحث والقارىء معا ، وتجعل الواقع يفلت من محاولة التنظيم والتنظير الفعالة ، التي تسمح وحدها بوضع خطط تنموية مثمرة .

ليست هذه الصورة التي سنرسمها ، سوى محاولة مبدئية تجرّب أن نجعلها تعكس غنى الواقع ما أمكن . ولكن ، مما لا شك ، فيه ، انها ستترك مناطق ظلال تجعل هذا الواقع يفلت منا جزئيا . ذلك أمر حتمي في البحث العلمي الذي لا بد أن يسير في اتجاه العمق والشمول بشكل تدريجي . كل طرح أو منظور يؤدي مهمته ، بالقدر الذي يلقي أضواء جديدة على الظاهرة موضوع البحث ، ويسمح باثارة مسائل تتجاوز تلك الاضواء وتقفز بمعرفة الواقع قفزة جديدة الى الامام ، من

خلال الابحاث التالية التي لا بد أن تمهد لها السبيل • ذلك هو المنطلق المنهجي المضمون معرفيا • كل معرفة لا تحمل في طياتها بذور تجاوزها ، ولا تفسح المجال أمام هذا التجاوز ، مضللة منهجيا ويجب الحذر منها •

القيمة الاساسية في نظرنا لهذه المحاولــة هي في شق طريــق البحث النفساني في مسألة التخلف • هي في ادخال تنظيم مبدئي فيما كان يبدو عشوائيا واعتباطيا في تصرفات وممارسات الانسان المتخلف • قيمتها في المنهجية التي تحاول جمع شتات هذا الوجود المتخلف في كل مترابط ، له بنيته وديناميته وصيرورته •

الصورة التي سنرسمها ، لا بد لها اذا أرادت أن تعكس الواقــع ويعبّر عنه ، من أن تتصف بالحركية ، وأن تبتعد عن السكونيةوالجمود بقدر دينامية الوجود المتخلف ذاته • بذلك تتجنب المنزلق السكونيالذي وقع فيه نفر من الباحثين في علم الاجتماع ، عندما قالوا بتوحيد التخلف والتقليد • ليس هناك من مجتمع ساكن حتى ولو أغرق في التقليد • قد تكون حركيته ضئيلة في وتيرتها ، وقد تكون خفيفة في مظاهرها ، ولكنها موجودة حتما • هناك دائما انتفاضات ومحاولات تغييرية تبرز من آن الى آخر في أقل البنى دينامية ، ولكنها تطمس بسرعة نظرا لشدة قوىالقمع• حتى قوى القمع هذه ، قــوى فرض السكــون الظاهري على المجتمــع التقليدي ، لا تخلو من دينامية ، انها دينامية فيما تمارسه من قمع • اذا كانت البنية الاجتماعية المتخلفة دينامیــة رغم جمودها الظاهري ، فان الجانب الذاتي منها (البنية النفسية للتخلف) دينامية بدورها ، سواء في خصائصها وملامحها الاساسية ، أم في أولياتها الدفاعية •

المقصود بهذا البحث في مختلف أبوابــه وفصوله هو الجمــاهير العفوية ، غير المنظمــة او المؤطرة سياسيا ، التي لم تتح لها ممارستهــا

الوصول الى التعامل مع الواقع انطلاقا من الوعي بجدليته وموضوعيته.
تبدو خصائص التخلف النفسية وأولياته الدفاعية بأبرز صورها في نمط حياة هذه الجماهير ، وأسلوب توجهها ونظرتها الى الكون ، وخصوصا في النسيج العلائقي الذي تنغرس فيه . ولكن هذا لا يعني أن الفئات المنظمة والمؤطرة ، التي لديها تاريخ من الممارسة السياسية ، قد تخلصت فعلا من قيود التخلف ذهنيا وانفعاليا وعلائقيا . العكس هو الصحيح في معظم الاحيان ، اذ يلاحظ تداخل بين أعلى درجات التنظير الفكري ، وأشد أشكال التخلف في الممارسة . بل يمكننا القول ان هذا التداخل يميز اجمالا الممارسة السياسية ، والعلمية ، والاجتماعية في العالم الثالث. وفي أحيان أخرى نلاحظ نوعا من الهوة ، بين الفكر ، وبين المعاش اليومي خارج اطار الممارسة العامة . فبينما يتصف السلوك في الحالة الاولى بدرجة عالية من التقدم والتطور ، نلاحظ ان المعاش اليومي على مستوى الحياة الخاصة ، لا زال محكوما بمعايير وقيم ومرتبية علائقية ، وبنظرة الى الذات والآخرين على درجة كبيرة من التخلف . ذلك كله سنقف عنده بشيء من التفصيل في مواضع متعددة .

حتى نعطي أقصى درجة من الوضوح والبروز لخصائص الوجود المتخف وأوالياته الدفاعية ، لا بد من تركيز حديثنا حول الفئة السكانية الاكثر غبنا في سلم السيطرة والخضوع . لا بد من الانطلاق من دراسة الانسان المسحوق . على أن الفئة التي تتمتع بقدر من الحظ وتقترب من مواقع السيطرة على هذا السلم ، لا تخلو بدورها من التخلف على جميع الاصعدة . الواقع انها تتصف الخصائص نفسها وان اتخذ الامر طابعا مخففا أو خفيا في غالب الاحيان . انها متسترة بقناع من التقدم ، يكفي تمزيقه حتى تتحقق ان سلوكها تحكمه نفس القوى والمعايير والنظرة الى الحياة التي تميز الانسان المسحوق . انها على الاقل تعيش بشكل متخلف

في النظام المرتبي الذي يربطها بالمجتمعات الصناعية المتقدمة . فبينما يتماهى الفلاح بسيده ويشعر بالدونية تجاهه ، نرى السيد يتماهى بدوره بالمستعمر أو الرأسمالي الاوروبي ، ويشعر بنفس الدونية تجاهه . واذا كان السيد المحلي الذي ينمي النظرة المتخلفة الى الوجود عند الانسان المسحوق : كي يستمر في الاحتفاظ بامتيازاته ، يتمتع ببعض مظاهر التقدم ، فان هذه تبقى معظم الاحيان سطحية ، انها تتاج ما يطلق عليه الباحثون في علم اجتماع التخلف اسم (اثر الاستعراض) [1] . ويقصد بهذا المصطلح محاكاة المظاهر الخارجية للتقدم في جانبها الاستهلاكي على وجه الخصوص ، دون أن يصل الامر حد البعد الانتاجي الابتكاري . شأن الكثير من متعلمي البلاد النامية ، هو أيضا شأن القلة ذات الحظوة من هذه الناحية . فوراء العلم الظاهري تظل النظرة الاساسية الى الوجود ذات طابع متخلف . ليس تجاوز التخلف بالامر السهل نظرا لرسوخ خصائصه وأوالياته في أعماق النفس على المستوى الفردي ، وفي مختلف مظاهر البنية الاجتماعية على مستوى المجتمع. ان التغييرات الاستعراضية لا تكفي . لا بد من جهد طويل الامد على المستوى الاجتماعي ، ومن عملية وعي دائب على المستوى الفردي ، للقضاء على مكامن التخلف النفسي التي تفعل فعلها بشكل خفي .

يقسم حديثنا عن الوجود المتخلف الى فصول أربعة يتكوّن منها هذا القسم الاول . بعد فصل تمهيدي في تحديد التخلف وتعريفه ، نتناول في فصل ثان ، الخصائص النفسية للتخلف ، ثم نتبعه بالحديث عن الخصائص العقلية للتخلف في فصل ثالث ، أما الفصل الرابع فنعرض فيه بسرعة لبعض ديناميات الحياة اللاواعية للانسان المقهور .

---

(١) اثر الاستعراض Effet de démonstration

الفصل الاول

تحديد وتعريف

العالم الثالث ، التخلف ، التنمية ، كلمـات ثلاث تكـاد تتلازم ، طارحة أكبر قضية أو تحد تواجهه البشرية في القرن العشرين . ونعني به تحدي النهوض بثلاثة أرباع البشرية كي تلحق بركب بلدان العالم الاول (الصناعي الرأسمالي) ، وبلدان العالم الثاني (الاشتراكي) التي يطلق عليها اسم البلدان المتقدمة . هذا التحدي يطرح على مجمل بلدان العالم الثالث والبلدان المتقدمة على حد سواء .

ولقد برز مصطلح التخلف بعد نهايـة الحرب الكونية الثانيـة مع حصول عدد كبير من البلدان المستعمرة على الاستقلال . وذاع صيتـه وكثرت الكتابات حوله ابتـداء من الخمسينات . وتجمعت خلال خمس عشرة سنة آلاف المقالات والابحاث حول موضوع التخلف ، ذاهبة في كل اتجاه ومنطلقة من محطات مختلفة ومنظورات متنوعة ، لدرجة صار يصعب معها على الباحث تنسيق هذه المعطيـات في كل توليفي ، يشكل نظرية التخلف وتعريفا له . هنـاك الآن اذاً خلاف بيّن حـول محكات التخلف وحول منظوراته وحول تعريفه . يرجع هذا الخلاف الى تعـدد من تعاطوا بحث هذه المسألة . فبعد أن كانت حكرا على نفر من علمـاء الاقتصاد ، اذا بسيـل من الباحثين من مختلف الاختصاصات يخوضون فيها : علماء اجتماع ، سياسة ، قانـون ، تاريـخ ، جغرافية ، علمـاء

لسان [1] ، علماء أنام [2] • وقد يكون من الغريب أن لا نجد ذكرا بين هؤلاء لعلماء النفس الذين يأتون عادة متأخرين رغم أهمية اسهامهم ••

أصبح مصطلح التخلف ، ونظرية التنمية التي يتضمنها بالضرورة ، خاصا بوضعية بلدان العالم الثالث ، اذ لم يعد من الممكن اعتبار التخلف مشكلة اقتصادية محضة مرتبطة بنظرية الاقتصاد التقليدي ، خارج اطار الزمان والمكان • فلقد كانت بلدان العالم الثالث تدمج قبل الخمسينات في النظرية والممارسة الاقتصادية الشائعتين في البلـــدان القديمة ، حيث كان يعتقد أنه يكفي لتحريكها ، اللجوء الى نفس الديناميات التي حركت العالم الصناعي ، أي حرية التفاعـــل الاقتصادي والمبادرة الفرديـــة ، وتأسيس الاعمال والمشاريع الصناعية والانتاجية • لقد فشل هذا المنطلق بشكل واضح في بلدان العالم الثالث بعد استقلالها ، حين ظن أنه يكفي الحصول على رؤوس الاموال الكافيـــة والاطر الفنية الملائمة والادارة التقنية ، كي تنطلق على درب التنمية • لقد فشلت تمامـــا نظرية ادارة الاقتصاد انطلاقا من الاساليب التي نجحت في البلدان الصناعية • وظلت هذه المحـــاولات في أحسن الحـــالات جزراً من التقـــدم في محيط من الجمود والبؤس ، عاجزة تماما عن تحريك المجتمع بأكمله •

هذا الفشل هو الذي اطلق دراسات التخلف والتنمية ، بعـــد أن اتضحت نوعية وخصوصية حالـــة بلدان العالم الثالث • فالبلدان النامية حاليا مختلفة نوعيا عن بقية العالم ، لا كميا فحسب • انها حالة خاصة في علم الاقتصاد ، فرضت ربط كل من الاوضاع السياسية ، من ناحيـــة ، وعلم الاجتماع من ناحية ثانية ، بعد اقتصاد التخلف ، نشأ علم اجتماع

---

(1) علماء لسان (علم اللسان) Linguistique
(2) علم الاجناس Ethnologie

التخلف ، حين ثبت فشل تطبيق نظريات علم الاجتماع التقليدي ، الموضوعة في بلدان العالم القديم . وانطلاقا من بناها الخاصة فشل تطبيقها على بلدان العالم الثالث . ولا بد في رأينا من وضع سيكولوجية خاصة للتخلف ، تكمل اقتصاده واجتماعه ، وتلقي الاضواء على مناطق الظلال التي تركها هذان العلمان، وهو ما نحاول أن نسهم بنصيب متواضع فيه ، في هذا البحث . وقد اتضح من الابحاث على مسألة التخلف ، ضرورة التنسيق بين معطيات مختلف العلوم في كل جدلي شمولي ، متجاوزين التفتت والبعثرة في دراسة الظواهر التي عانت منها دراسة الانسان قرونا طويلة . وقد يكون ذلك من فضائل العالم الثالث على المنهجية العلمية .

اولا : نظريات التخلف

انطلقت الابحاث حول التخلف من منظورات متنوعة ، كما ذكرنا ، ومرت خلال تلمس الطريق الى لب" المشكلة بفترة غير قصيرة من التشتت والتضارب حول تحديد التخلف ومحطاته وتعريفه . ولكن تقدم الابحاث بدأ يبرز معالم اللقاء بين مختلف النظريات ، فالمنطلق الاقتصادي بدأ يصب في الدراسات الاجتماعية ويبين حتمية أخذ الوضعية الاجتماعية والبنية الاجتماعية بين الاعتبار . وقد بدأ المنطلق الاجتماعي يتجاوز دراسة العوامل الداخلية والبنى الداخلية ، كي يصب في منظور علائقي بين البلدان المتخلفة والبلدان المتقدمة ، واضعا الاصبع على البعد السياسي الدولي والداخلي للمسألة على أنها قضية استغلال فئة قليلة لفئة كبيرة من السكان في الحالتين ، ومبيّنا بجلاء ان التخلف هو في النهاية ثمرة الاستغلال والاستعباد [1] .

---

(1) Encyclopaedia Universalis vol. V, Développement.

وهذا ما نلتقي تماما معه حين ننطلق من أن سيكولوجية التخلف التي سنخوض في خصائصها ، هي في جوهرها سيكولوجية الانسان المستغل والمسحوق .

.. لم تصل الابحاث هذا المستوى من العمق والدينامية . الا بعد أن اصطدمت بالطبع بقصور وعجز المنطلقات والمحكات السطحية التي شاعت في البداية . ولذلك ، فلا بد ، ضمانا لحسن التسلسل المنهجي ، من الاستعراض السريع لمختلف المنطلقات وتطورها قبل أن نحدد المنطلق النفساني لمسألة التخلف .

١ ـ الطريقة السطحية في دراسة التخلف :

الطريقة الاكثر قدما وشيوعا ، لدراسة التخلف ، في رأي واضعي دائرة المعارف العالمية هي التي تعرّف الظاهرة بأغراضها . والنموذج عليها : الابحاث والكتابات التي نشرتها الامم المتحدة. فمن مميزات التخلف مثلا : الفقر ، حالة التغذية ، الحالة الصحية ، التعليم ، وأهمها على الاطلاق متوسط الدخل الفردي . وهنا تقسم البلاد الى عدة فئات من الاكثر تخلفا الى الاكثر تقدما . فالبلاد من الفئة الاولى ، هي التي يقل دخل الفرد فيها عن / ١٠٠ / دولار سنويا . أما البلاد النامية فيتراوح الدخل فيها ما بين / ١٠٠ / الى / ٣٠٠ / دولار ، وهي البلدان التي تضم النسبة الكبرى من سكان الكرة الارضية . وهناك بلاد على طريق النمو يتراوح الدخل فيها ما بين / ٣٠٠ / و / ٥٠٠ / دولار ، وبلاد فقيرة ، الدخل فيها ما بين / ٥٠٠ / و / ١٠٠٠ / دولار . وأخيرا البلدان الصناعية المتقدمة ويتجاوز الدخل فيها / ١٠٠٠ / دولار ويصل أحيانا، كما في الولايات المتحدة الى أكثر من ألفين من الدولارات .

الا أن مؤشر الدخل القومي مقسما على عدد السكان مضلل جدا.

فهو من ناحية لا يبين التشتت الكبير في مستوى مختلف الفئات التي يتكون منها المجتمع . فالدخل لا يتوزع مطلقا بالتساوي . هناك فئة قليلة تحظى بالنسبة الكبرى من الدخل ، وتعيش فوق مستوى الفئة المماثلة لها في البلاد المتقدمة ، وفي حالة من البذخ المادي المفرط . بينما الغالبية الكبرى من السكان تعيش دون مستوى الكفاف ، دون الحد الادنى الحيوي . ومن ناحية ثانية هناك ظاهرة الغنى المفاجىء في البلدان البترولية ، دون أن تعكس هذه الثروة تطورا في البنى الاقتصادية والاجتماعية يرتقي بها الى مستوى التقدم . هذه الثروة وليدة قطاع محدود ومعزول عن بقية قطاعات الانتاج التي تظل متخلفةجدا .وبدائية . ثم ان استخدام الثروات النفطية لا زال ، في كثير من حالاته وفي نسبة هامة منه ، من النوع المتخلف (الاستهلاك الداخلي للسلع المستوردة أو التوظيف في الخارج) .

أما «لاكوست» (1) فيلخص المحكات السطحية للتخلف في ثلاثة : الدخل القومي للفرد بالمتوسط ، الوحدات الحرارية المستهلكة فيالتغذية، مستوى التعليم او نسبة انتشار الامية . هذه المحكات لا تتوافق دائما فيما بينها . فالدخل القومي قد يكون كبيرا ولكن التغذية سيئة او بالعكس . ومن رأيه ان الجوع هو أخطر اعراض التخلف وأكثرها عمومية ، فهو يميز حاليا مجمل البلاد النامية (ص ٢٦) ، ثلاثة أرباع البشرية تعاني من سوء التغذية . وتزداد المشكلة خطورة بسبب التفاوت الهائل في المستوى المعيشي والغذائي للسكان . فهناك قلة تستهلك اكثر بكثير مما يجب منالوحدات الحرارية (الكمية اللازمةعادة ما بين / ٣٠٠٠

(1) Yves Locost, géographie du sous-développement, Paris, 2ème edi P,U,F.. 1968.

و ٣٥٠٠ / وحدة حرارية يوميا) . ولكن الغالبيـــة العظمى تعـــاني من النقص الذريع في الغذاء . يضاف الى ذلك ويضاعف من خطورته انحسار زراعة المواد المعيشية ، وتحـــول قسم هام من الزراعـــة الـــى التصدير الخارجي ، مما يحرم غالبية السكان من المواد الغذائية الضرورية . وهنا يتعرض انسان العالم الثالث، فيرأي «لاكوست»، الى غبن آخر خارجي، يضاف الى سوء توزيع الثروة والغذاء داخليا ، وهو انعدام التكافؤ في عمليات التبادل الدولي بين المنتجات الزراعية والمنتجات المصنعة لمصلحة البلدان المتقدمة .

لا تشرح الطريقة السطحية الظاهرة كنتاج للخصائص البنيويةللعالم الثالث ، ولا الاواليات [١] التي انتجت هذه البنـــى ، وهي بالتـــالي لا تساعد على حسن التشخيص ووضع السياسات التنموية الملائمة . انها تنطلق من مقارنة البلدان المتخلفة بما كانت عليه البلدان الصناعية قبـــل قرنين أو أكثر أو أقل من الزمن، متجاهلة الفروق النوعية بينها. فالتخلف ظاهرة حديثة في رأي «لاكوست» . والبلدان النامية تشهد تفجرا سكانيا هائلا لم يكن موجودا في البلدان الصناعية في أوائل الثورةالصناعية.هذا التفجر السكاني مسؤول عن تفاقم حالة بلدان العالم الثالث ، ووقوعها في ورطة التخلف ، أي انعدام التوازن بين عدد السكان وكمية الانتاج .

تعرّف الطريقة السطحية التخلف اذاً كظاهرة دونيـــة [٢] أساسا . فالبلد المتخلف هو أقل مستوى من بقية البلدان من حيث تأمين الحاجات الحيوية الضروريـــة للانسان (غذاء وصحة وسكن وتعليـــم الخ ..) ومستوى انجازاته الاقتصادية والتقنية منخفض . ولكن هذا التعريف

---

(١) اوالية (اواليات) Mecanisme

(٢) دونية Infériorité

لا يستقيم نظرا لعدم توحيد المعايير من ناحية ، ولصعوبة المقارنة بين البلدان المتقدمة والنامية من ناحية ثانية • ولوجود بلدان غنية حاليا ، ولكنها لا زالت متخلفة اجتماعيا من ناحية ثالثة • لا بد اذاً من دراسة نوعية البنى الاقتصادية والاجتماعية لبلد ما كي نحدد التخلف •

٢ ـ الطريقة الاقتصادية في دراسة التخلف

ركزت هذه الطريقة في مرحلة اولى على ادوات الانتاج ومستواه ، متخذة منطلقا تقنيا صناعيا • ثم تطورت في مرحلة تالية للاهتمام بدراسة البنى الاقتصادية الاجتماعية للبلد المتخلف ، وهو تطور يذهب في اتجاه مزيد من العمق والشمول في البحث عن ديناميات التخلف ، بينما اعتبرت المرحلة الاولى التخلف مجرد مسألة تأخر تقني : بدائية في وسائل الانتاج، ضآلة في مستوى التصنيع•

أ ـ التخلف الصناعي والتقني

يكاد التخلف يكون مرادفا لقلّة التصنيع وبدائيته • هناك سوء استغلال للثروات ، يصل أحيانا درجة انعدام الاستغلال ، وتبقى الوسائل الصناعية المستوردة (آلات وغيرها) مكدسة يصيبها التلف بعد حين ، لعدم وجود من يستخدمها ولرداءة صيانتها • وتكون الزراعة بالوسائل البدائية والاعمال الحرفية ضئيلة المردود هي النشاطات الاكثر انتشارا•

يميز فالكووسكي [1] الذي يربط الاقتصاد المتخلف بمستوى الانتاج وتطور أدواته ، بين الاقتصاد المتأخر، والاقتصاد قاصر النمو ، والاقتصاد في طريق النمو •

---

(١) فالكووسكي ، مشكلات تنمية العالم الثالث ، بيروت ، دار الحقيقة ، ١٩٧١ •

أما البلد المتأخر فيتصف بالطابع السكوني للاقتصاد . وهذا يعني مستوى منخفضا من القوى الانتاجية ، وبالتالي مستوى منخفضا من وسائل العمل ومهارة اليد العاملة . فوسائل الانتاج بدائية بشكل عام ، يطغى عليها الطابع اليدوي الحرفي . وسائل الانتاج لم تتغير منذ قرون طويلة على عكس حالة البلدان المتقدمة . وتنجم عن هذه الوسائل انتاجية ضعيفة ودخل منخفض هو السبب الرئيسي في ظاهرة الفقر وبؤس السكان معيشيا . العلة في رأيه ترجع الى الافتقار الى وسائل ترفع المستوى التقني للانتاج . والافتقار الى اليد العاملة الفنية التي لا يمكن بدونها الافادة من وسائل الانتاج الحديثة . وينتج عن هذين الامرين انخفاض في الدافع الى التوظيف المالي بسبب قلة الربح .

ولن لا يفوت هذا الباحث أن يوضح ان انخفاض مستوى القوى الانتاجية ، يرتبط أساسا بالبنية الاجتماعية ، وبالنظام الاجتماعي السياسي السائد ، وهو عادة من النوع الاقطاعي الذي تندر فيه التحولات الرأسمالية . ان ربط المستوى التقني بالبنية الاجتماعية بالاضافة الى ضرورته ، يضع المشكلة في اطارها الصحيح . فالعلاقات الانتاجية الاقطاعية لا تسمح ، كما سنرى ، بالتطوير الاجتماعي الكلي ، وهي تعتبر في رأي معظم الباحثين المحدثين المعرقل الاساسي لعملية النمو .

ويورد المؤلف ، من هذا المنظور ، تعريفا قدمه اوسكار لانج لخصائص الاقتصاد المتخلف على النحو التالي : « انه اقتصاد لا يكفي مجموع رؤوس الاموال المتوفرة فيه ، لاستخدام اليد العاملة المتوفرة ، على أساس التقنية الحديثة للانتاج ولا لاستثمار الثروات الطبيعية » (نفس المرجع ص ٢٢) . واضح ان هذا التعريف يركز على مشكلة رأس المال من ناحية وعلى أدوات الانتاج من ناحية ثانية . ولكن يؤخذ عليه

أن رأس المال ، المتوفر أحيانا ، كما هو حال بعض الدول النامية الغنية ، لا يوظف في غايات انتاجية ، انما يصرف في أغراض استهلاكيةاستعراضية. أما مسألة قلّة الاطر الفنية ، وبدائية وسائل الانتاج ، فهي نتائج لعوامل أعمق منها ، تضرب جذورها في بنية المجتمع المتخلف .

ولقد أصبح واضحا لمعظم الاختصاصيين في التنمية صعوبة السير في الطريــق التقليدي ، أي الاكتفاء بتأمين رأس المال والتكنولوجيــا . فالصناعة كما يقول «رستو» (ذكره «لاكوست» في كتابه السابق ص٤٨) لا تكفي وحدها لتصنيع بلد ما . ان التصنيع ظاهرة أكثر اتساعا وتعقيداً من الصناعة . التصنيع هو مجمل الخصائص الاقتصادية والاجتماعيــة التي هي أسباب ونتائج النمو الصناعى الذى شهدته البلدان المصنّعة منذ القرن التاسع عشر .

ان البلدان النامية لا تفتقد الصناعة المتطورة ولا الزراعة المتطورة كليا . انها ليست مطلقا ما كانت عليه البلــدان الصناعية قبــل الثــورة الصناعية. ولكن التصنيع والتطور الزراعي فيها يتصفان بخصائص مميزة ليس لها سابقة في تاريخ البشرية .

هناك في الزراعة ، قطاع يستغرق النسبة الكبرى من اليــد العاملة بين المواطنين ، ولكنه ذو انتاج هزيل ، انه القطاع الوطني . وثمة الــى جانبه قطاع آخر متقدم جدا ، وذو انتاجية عالية ، ولكنه محدود في حجمه وهو حكر على المستعمرين وعلى حلفائهم في الداخل ، تذهب نتائجه الى الخارج او تتركز في أيدي القلّة ذات الامتياز .

أما على المستوى الصناعي، فيقول «لاكوست» (ص ٤٨ وما بعدها) بوجود تناقض صارخ بين قطاع الحرف ذات الطرق البدائية والقطــاع

الصناعي المتقدم والحديث ، والانفصال الاقتصادي بينهما شبه تام . فالحرف من نصيب سكان البلاد ، أما القطاع الصناعي فهو يخص القلة أو المستعمر . وهو متوجه الى الخارج أساسا ، من حيث الاستيراد والتصدير ومصير الارباح . هذا القطاع المتقدم يظل معزولا اجتماعيا لا تأثير له في تغيير وتطوير بنية المجتمع ، كما أن مردوده المادي لا ينعكس على المستوى الشعبي رخاء وازدهارا . ثم ان الصناعة تظل موجهة نحو انتاج السلع الاستهلاكية ، لا لتأسيس صناعة وسائل الانتاج . تظل الصناعة معزولة ، كما ينعدم التنسيق بين مختلف القطاعات الصناعية ، وفي الحالتين لا تؤدي الى تحريك التصنيع بشكل عام .

أما في البلاد المتقدمة ، فالتصنيع ظاهرة شاملة ، متنوعة ، متماسكة وتراكمية . فهي تشمل مختلف قطاعات السكان ، وتنعكس عليها وعلى نمط حياتها . وهي متماسة فيما بينها ، فهناك تكامل بين الالات والمواصلات والنظم الحسابية ، وهي تراكمية بمعنى ان نظم الالات تنتج آلات أخرى ، تطورها وتزيد من فعاليتها . ذلك هو الفرق بين الصناعة والتصنيع كما أوضحه روستو ، وهو الفرق عينه بين البلاد المتقدمة والبلاد المتخلفة .

قصور التصنيع واستغلال الموارد والثروات الاولية ، لا يترجم اذاً قصورا في الامكانات فقط ، بقدر ما يترجم تنوّع وقوة الكوابح الاجتماعية التي تمنع الرجال من النشاط والفعل (لاكوست ، ص ٤٠). وهنا يلتقي علماء التنمية الغربيون مع الشرقيين في تقرير واقع البلدان النامية . يقول الاخيرون ان التخلف الصناعي ينتج من ضمن ما ينتج عن بنية اجتماعية متيبسة تشلّ النمو عن طريق الاستهلاك الترفي ، أو الاكتناز الذي لا يوظف في مشاريع منتجة (فالكووسكي ص ٢٧) . عملية التنمية في رأيه تشمل ، في آن معا ، بحث القوى الانتاجية

والعلاقات الاجتماعية • ان التنمية الزراعية والصناعية على حد سواء ، « انما تعني تغيرات متلازمة في التقنيات وفي مجال العلاقات الاجتماعية• ويبدو ان الجمع الواعي بين العاملين الاجتماعي والتقني ، هــو الشرط الذي لا غنى عنه لنجاح أي مشروع » (فالكووسكي ، ص ٩٠) •

ب ـ التخلف الاقتصادي البنيوي (١)

اذا كان البلد المتخلف هو الذي يتّصف ببنية جامدة ساكنة ، من وجهة نظر تقنية صناعية ، فانه من وجهــة النظر الاقتصادية البنويــة ، أبعد ما يكون عن السكون • انه دينامي ولكن هذه الديناميــة تتصف بخصائص مميزة هي في مختلف نقاطها ، على النقيض من دينامية البلدان المتقدمة ، مما يحد من امكانيات التطوير في الحالة الاولى ، بينما يساعد عليه في الحالة الثانية •

تتصف بنية الاقتصاد المتخلف ، في رأي دائرة المعارف العــالمية ، بمحكات ثلاثة : التفاوت الهائل في التوزيــع القطاعي للانتــاج ، تفكك النظام الاقتصادي، والتبعية للخارج• ويضيف اليها «لاكوست» محكات أخرى أهمها تضخم قطاع الخدمات على حساب قطــاع الانتاج ، ومــا يتضمنه ذلك من بروز واضح للنشاطات الطفيلية ؛ والاستغلال التجاري الفادح على مستوى الانتاج والاستهلاك معا • ونستطيع ان ننسق هذه المحكات المختلفة في صورة متماسكة تشكل بنية الاقتصاد المتخلف •

١ ـ تفاوت التوزيع القطاعي للانتاج

يلاحظ في البلاد النامية ، وجود قطاعات انتاجية متقدمة جدا ، في الزراعة والصناعــة على حد سواء • ولكنها محدودة لا تتجاوز كونها

---

(١) انبناء او بنية . Structure

جزءاً تطور في محيط من التأخـر ، يسيطر عليها ويحظـى بثرواتها قلـة ضئيلة من الوجهاء المحليين ، المتحالفين مع الرأسمالية الخارجية او مع المستعمر . الى جانب هذه القطاعات ، هناك غالبية السكان التى لا تحظى الا بنسبة ضئيلة من الدخل تمارس أعمالا حرفية بدائية ، وأساليب زراعية متخلفة ، ذات مردود ضئيل ، مما يفرض عليها البؤس المادي والحياتي . ينشأ عن ذلك تفاوت هائل في مستوى معيشة السكان قد يصل واحدا الى ١٠ أو أكثر ، بينما نجده لا يتجاوز واحدا الى ٣ في البلدان النامية. هذا التفاوت الهائل يؤدي الى تبخيس تدريجي للعمل في الريف ، وفـي الحرف ، والى الهجرة الى المدينة للتكدس حولها في أحياء الصفيح ، التي تشكل أحزمة بؤس حول عواصم البلدان النامية . وبمقدار بوار الارض وتدهور الحرف التقليدية ، تزداد نسبة النشاطات الطفيلية التي يمارسها سكان أحياء البؤس ، نشاطات تهدف الى الارتزاق تبعا للظروف،وكيفما تيسر ، بشكل تختلط فيه الاعمال المشروعة بالنشاطات المخالفة للقانون . والنشاط في الحالتين ظرفي عـابر تتخلله فترات من البطـالة الظاهرة أو المقنّعة . وهكذا يتعرض مفهوم العمـل ، في البلاد النامية ، لنوع من التشويه والتبخيس ، فوجاهة النقود المكتسبة بدون عمل عظيمة جدا والمهن التي تسمح بالكسب السريع تتمتع بجاذبية كبرى (لاكوست ، ص ٥٧) . ويؤدي هذا الامر الى بروز ظاهرة الاستزلام وتفشي الهامشية المهنية ، مما يفتح السبيل أمام ازدهار مختلف أشكال السلوك الجانـح عند الكبار والاحداث على حد سواء .

٢ ـ تفكك الصلات في النظام الاقتصادي

تتكامل قطاعات النشاط الاقتصادي الثلاثة في البلدان الناميـة . قطاع الانتاج الاولي (معادن ، مواد أولية) مرتبط بشكل وثيق ومتناسق مع القطاع الثاني (صناعة الآلات والمواد الاستهلاكيـة) ، وكلاهمـا

متوازن ومتكامل مع القطاع الثالث (تجارة وخدمات) • وهكذا فكل نمو في أحد القطاعات ، ينعكس على بقية القطاعات ، دافعا اياها الى النمو بدورها ، نظراً لتكامل دورة الانتاج والتوزيع داخليا • أما في المجتمعات المتخلفة فنجد تفككا في الدورة الانتاجية والاستهلاكية ، مما يجعل الاقتصاد برمته أسير الاقتصاد الخارجي • وهكذا يزدهر انتاج المواد الاولية للتصدير • كما تزدهر تجارة الاستيراد خصوصا استيراد المواد الاستهلاكية • ويرتبط قطاع الخدمات (المصارف) أساسا بحركة التصدير والاستيراد هذه ، دون توظيف كافٍ لرؤوس الاموال في مشاريع انتاجية أو في تصنيع أساسي • وينحسر قطاع الصناعة كي يقتصر على صناعة المواد الاستهلاكية ، التي لا تزيد الثروة القومية ، خصوصا وانه يعتمد على آلات مستوردة ومواد نصف مصنّعة في الكثير من الاحيان •

هذا التفكك يؤدي الى طغيان القطاع التجاري ، على قطاع الانتاج الصناعي • ففي البلاد النامية يمتص التجار النسبة الكبرى من فائض رأس المال من أثمان المواد الاولية المصدرة ، في استيراد سلع استهلاكية تطغي عليها الكماليات • وذلك ما يسمح للتاجر بتحقيق ربح كبير • كما ان التجار يبتاعون المحاصيل الزراعية بأرخص الاسعار ، ويسوقونها بأسعار عالمية ، كي يبيعوا للمزارعين المواد المستوردة (من آلات ومواد زراعية ومواد استهلاكية) بأغلى الاسعار • وهكذا تتجمع الثروة تدريجيا في أيدي هذه الفئة ، بدل أن تنعكس رخاء عاما على جميع فئات السكان في المجتمع •

ويميل التجار وأصحاب الثروة في البلاد النامية حين يفكرون بتوظيف أموالهم محليا الى قطاع البناء • هذا التوظيف الكبير في قطاع البناء على حساب التصنيع ، يعطي انطباعا بتقدم زائف ، حين تنشأ أحياء

سكنية فخمة ملفتة للنظر ، لتناقضها مع البؤس وسوء التجهيزات السكنية (المساكن الشعبية) المحيطة بها • نشأة المدن الكبرى الجديدة في العالم الثالث مع ما يستتبعها من حركة نزوح كبيرة من الريف وتفريغ سكاني له ، هي ، في رأي «لاكوست» ، من مظاهر الخلل في البنية الاجتماعية الاقتصادية للبلدان النامية • ويسبب هذا الامر مشكلات مأساوية لتلك البلدان غير المؤهلة لتأمين الخدمات الكافية ، لهذا التكدس السكاني الكبير في المدن الجديدة (من الامثلة الصارخة على ذلك القاهرة وبيروت) • هذا الامر يشجع نشأة الاعمال الطفيلية التي أشرنا اليها في النقطة السابقة •

٣ ـ التبعية للخارج

يؤدي طغيان انتاج المواد الاولية للتصدير واستيراد المواد الاستهلاكية ، وما يجرّانه من تضخم لقطاع الخدمات والتجارة ، الى نشوء تبعية للاقتصاد الخارجي • ينتج عن هذه التبعية افقار تدريجي للبلد من خلال استنزاف المواد الاولية ، ورخص أسعارها من ناحية ، والاحتفاظ بأثمانها كتوظيفات مالية في البلد الخارجي ، أو استرداد هذه الاموال كثمن للمواد المصنّعة الاستهلاكية ، التي يصدّرها البلد المتقدم بأسعار عالية • ثم هناك ظاهرة استنزاف رؤوس أموال البلدان النامية من خلال بيع الاسلحة لها ، والتي أصبحت أكبر سوق لنهب ثروات العالم الثالث ، بعد ان تفجرت فيه الصراعات الداخلية أو الصراعات بين أقطاره •

وهكذا نجد ان العلاقات الاقتصادية الاساسية للبلدان النامية هي مع البلدان الصناعية الرأسمالية • بينما النسبة الكبرى لتجارة هذه الاخيرة هي فيما بينها أو داخلية •

تستنتج دائرة المعارف العالمية من هذا الامر خلاصة صريحة حول التخلف الاقتصادي : « ان التخلف من الناحية الاقتصادية هو جزء من آلة النظام الرأسمالي العالمي، انه يلعب دورا محددا ووظيفة معينة في هذا النظام . وكأن هناك توزيعا دوليا للعمل لمصلحة الرأسمالية العالمية . هذه المصلحة هي التي سببت بروز البلدان النامية ، وحافظت عليها لتخدم أغراض التراكم الرأسمالي . نظرية التخلف والتنمية لا يمكن الا أن تكون نظرية تراكم رأسمال على مقياس عالمي . التخلف هو اذاً ثمرة الاستغلال والاستعباد .. ولا بد للتنمية ان تتموضع في منظور تحرر اقتصادي وطني»(دائرة المعارف العالمية ، المجلد الخامس،ص٥٠٥ـ٥٠٦)

مرة أخرى تقودنا أبحاث التخلف في منظور البنوية الاقتصادية الى القضية الاجتماعية السياسية ، الى قضية العلاقة الاستغلالية داخل المجتمع المتخلف ، والعلاقة الاستغلالية بين هذا المجتمع والمجتمعات الرأسمالية المتقدمة .

٣ ـ الطريقة الاجتماعية في دراسة التخلف

بعد فشل محاولات تطبيق نظريات علم اجتماع البلدان المتقدمة على بلدان العالم الثالث ، بدأت تظهر ملامح علم اجتماع خاص بالبلدان النامية . اتخذ الامر أولا طابع الافتراضات النظرية والافكار القبلية التي لم تؤيدها الحقائق الميدانية . ثم من خلال الاحتكاك المباشر أخذت الخصائص الاجتماعية للبلدان النامية تتضح تدريجيا .

وهنا ايضا انطلقت الابحاث من المستوى السطحي على شكل رصد لمحكات التخلف الاجتماعية الاقتصادية ، ثم سارت شيئا فشيئا على طريق النظرة الدينامية .

محكات التخلف الاجتماعية عديدة أهمها المحكات الاقتصادية

والانتاجية أشرنا اليها في الفقرات السابقة (الاقتصاد هزيل المردود ، تبديد الثروات وسوء استغلالها ، سواء استغلال الطاقة العاملة المتوفرة ، اختلال البنى الاقتصادية ، تصنيع محدود وغير كامل ، تضخم وطفيلية القطاع الثالث ، وضعية التبعية الاقتصادية) ، يضاف اليها محكات خاصة بالسكان ، واخرى متعلقة بالبنى الاجتماعية .

أما السكان فيتصفون بعدة خصائص أولية ، أهمها على الاطلاق في نظر «لاكوست» الانفجار السكاني الذي يشهده العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية . بعض بلدان العالم المتخلف يتضاعف عدد سكانه خلال خمس عشرة سنة ، وبالتالي فسيزيد أربع مرات خلال السنوات العشر التالية . تنشأ هذه الزيادة الهائلة من عدة عوامل ، أهمها انخفاض المستوى الثقافي ، وانحسار نسبة الوفيات بين الاطفال نتيجة للقضاء على الاوبئة والامراض الفتاكة جماهيريا بفضل العقاقير الحديثة رخيصة الثمن ، وصغر سن المرأة عند الزواج ، مما يجعل فترة الاخصاب متسعة المدى . يقدر بعض الباحثين مسيرة الامومة عند المرأة في العالم المتخلف بحوالي عشرة اولاد بينما هي حوالي النصف أو الثلث في العالم المتقدم .

وعلى عكس هذه الزيادة الهائلة فان الموارد الاقتصادية لا تزيد القدر نفسه ، مما يخلق اختلالا متزايدا في التوازن بين عدد السكان والموارد المتوفرة ، ويؤدي الى مآزق اقتصادية واجتماعية متنوعة تسير نحو تفاقم الخطورة مهددة بالكوارث .

يزداد الاختلال نظرا لقلة الانتاجية النابعة من الامية المتفشية ولسوء التغذية ، وقلة العناية الصحية والنظافة . هذه العوامل الاخيرة تساعد على تفشي الامراض المزمنة التي تهد الصحة وتستنزف قوى اليد العاملة مما يجعل انتاجية العامل متضائلة باضطراد . كما أن غزو الامراض المزمنة

نصحة العامل ، تجعله يخرج بسرعة كبيرة نسبيا من دائرة الانتاج ،دافعة اياه الى الهامش المهني ، الى الطفيلية والبطالة المقنعة •

يضاف الى ذلك كله ، ويضاعف من خطورة اختلال التوازن بين عدد السكان والموارد ، انتشار قلة الاستخدام بشكل واسع ، وبمظاهر متنوعة • « فالعالم الثالث هو عالم العاطلين المزمنين عن العمل ، التخلف وانخفاض امكانيات العمل يسيران معاً » (لاكوست ، ص ٩٤) •

ولا تقتصر قلة الاستخدام أو انخفاضه على العمل اليدوي ، بل تشيع في مختلف القطاعات الفكرية والادارية والاقتصادية ، « حتى ان مفهوم العمل يصبح صعب التحديد (لاكوست ، ص ٩٥) •

ثم هناك الكثير من أشكال البطالة المقنعة ، أهمها كثرة عددالموظفين أو العاملين في مهمات لا تحتاج لهذا العدد ، وتضخم عدد الخدموالعناصر الرديفة • المهم الارتزاق وليس الانتاج ، مما يفتح السبيل عريضا أمام الوساطات والاستزلام ، عوض أن تكون الكفاءة هي المقياس •

ويكتسب الارتزاق (الدخول في عمل ، أو وظيفة دون حاجة فعلية الى الشخص) طابع الحظ مما يبخس مفهوم العمل تماما ، نظرا لان المثل الاعلى لطالب الوظيفة ليس المؤهلات والجهد الانتاجي ، بل هو تلك الفئة المحظوظة التي تسبح في الرخاء المادي ، والعاطلة عن العمل بالوراثة ، نظرا لتكدس الثروة في أسرها •

هذه المحكات السطحية على صوابها ، ليست سوى الاعراض الاجتماعية للتخلف • انها نتاج بنية متخلفة من الضروري النظر فيها لاستشفاف ديناميتها •

على مستوى البنية الاجتماعية للتخلف ، هناك من عدد بعض المحكات

انطلاقا من الربط بين التخلف والمجتمع التقليدي «أ• هاجن » (دائـرة المعارف العالمية المجلد الخامس ، مادة علم اجتماع التنمية) يعدد خمسة محكات لذلك المجتمع : انتقال السلوك من جيل الى آخر بشكل جامد اجمالا ، تحكم العادةوالتقليد بالسلوك لا القانون . نظام اجتماعي تحكمه مرتبية جامدة ، تحديد المكانة الاجتماعية للفرد ولاديا ، أكثر مما تتحدد من خـلال الكفاءة ، انتاجية منخفضة جدا • وأهم من ذلك هناك مقاومة للتغيير تنبع من تضافر نظرة رضوخية الى العالم الطبيعـي (الرضوخ لسيطرة البيئة والقوى الماورائية) ، مع بنى اجتماعية ذات نمط تسلطي (أو سلطوي) تنشأ شخصية ذات بنية سلطوية ، مما يخلق ويعمم نظاما من العلاقات يتصف بالسيطرة = الرضوخ ، والامتثـال يعرقـل عمليـة التغيير من خلال سد السبيل أمام ظهور قوى الرفض •

رغم ان هـذا الباحث يؤكد على خصائص هامة البلدان النامية من حيث تحكم المرتبية الجامدة فيها ، وانتشار بنى التسلطيةـ الرضوخية ، فان الكثيرين يأخذون عليه رد هذه البنى الى التقليد والسلفية • ان في ذلك الرد نوعـا من التستر على حقيقـة المشكلة التسلطية التـي تتحكم ببلدان العالم الثالث ، و لاتعود الى التقليد ما تعود الى تحالف قوى معاصرة داخلية وخارجية ضد القطاع الاكبر من السكان ، خالقة بذلك ظاهرة التخلف بالمنظور الاقتصادي الذي عرضنا له في العنوان السابق• ان ظاهرة بنية التسلط ـ الرضوخ معاصرة تماما ، أو هي قد استفحلت في هيمنتها وآثارها السلبية منذ ظهور الاستعمار بأشكاله المختلفة • انها ظاهرة سياسية في نهاية المطاف ، تتميز بالقهر المفروض على مجمل السكان في البلدان النامية • يتحدث «لاكوست» عن هذه الظاهرة تحت عنوان « البنى الاجتماعية القامعة والمولدة للشلل » (صفحة ٧٣ وما بعدها) • فمن الخصائص الاساسية قطعا للبلاد الناميـة ، التعاض الحاد والصارخ

بين الغنى المفرط لقلة من السكان ، وبؤس غالبيتهم الساحقة . هـذا التفاوت العنيف مميز لكل البلاد النامية .

بين هذه القلة ذات الامتيازات المفرطة ، والغالبية البائسة ، تقوم علاقات اقطاعية أو شبه اقطاعية . العلاقات الاقتصادية بين المستخدم ورب العمل لا تقوم على العقد ، بـل تتصف بالتبعيـة . يرتبط الفلاح بمالك الارض ، والعامل بصاحب رأس المال ، في علاقات شبه عبودية تفرض عليه الرضوخ ، اذا اراد ضمان قوته والاطمئنان ليومه وغده . مالك الارض هو السيد بالنسبة للفلاح . يجد هذا الاخير عنده الحماية (من خـلال الرضوخ والاستزلام) من بعض غوائل الطبيعة والناس .. مصير الفلاح أو العامل مرهون برب عمل واحد ، ليس له حرية الحركة في عمله او في اقامة اتفاقياته . انه رهن اعتباط قانون السيد . ولا بد له اذا اراد تجنب التشرد أو الاضطهاد من البقاء في حالة التبعية هذه ، لا يملك من خيار الا الانتقال من الولاء لسيد الى سيد آخر . هناك أيضا التبعيـة للمرابي الذي يقيد ، بالديون المزمنة .

هذه التبعية تنتقل من الريف الى المدينة ، ومن مجال العمل الزراعي واليدوي أو الصناعي الى مجمل العلاقات الانسانية ، العلاقات التسلطية نفسها في كل مكان . وترسخ السلطة الرسمية علاقات التبعية هذه من خلال انظمة الحكم ، ذات الطابع الاستبدادي اجمالا . (ديكتاتورية ، تسلط فردي ، ثيوقراطية ، الخ ..) فليس هناك ديمقراطية (أي علاقات مساواة وتكافوء) في البلدان النامية . كما ترسخها الادارة الفـاسـدة التي تخدم اغراض وامتيازات القلة . ويتوج الكل جهاز شرطة وجيش قمعيين أساسا .

هذه القلة متوجهة نحو الخارج اجمالا ، ومتحالفة تقليديا مـع

الاستعمار القديم منه والحديث.ولقد ادى هذا التحالف الى توليد أنظمة اجتماعية اقتصادية هجينة ذات سطوة كبيرة . فلقد تحالفت قوة رأس المال والتكنولوجيا مع قوة الاقطاعي المستمدة من استعبادالفلاحوالعامل. وهكذا تحول الصناعي الاوروبي الى رأسمالي قامع مستعبد ، وتحول الاقطاعي الى رأسمالي مهيمن بشكل مزدوج بشريا وماليا . واكتسب كلاهما قوة ندر أن تمتعا بها قبل قيام هذا الحلف . هذه القوة المهيمنة على الانسان والانتاج ، هي لب البنية الاجتماعية المتخلفة . وهي المعطل الاول لنمو البلدان المتخلفة ، لانها افقرت تدريجيا القدرة الانتاجية والشرائية لمجموع السكان ، وحدت من قدرة السوق المحلي . كما انها المسؤولة عن الحد من الخدمات والتقديمات الحيوية ، (التعليم والصحة والتجهيزات الحضرية والريفية) مما يفاقم مشكلة التخلف .

تلتقي النظرة الاجتماعية للتخلف اذا مع النظرة الاقتصادية ، كما تلتقي كلتاهما مع النظرة التقنية ، وحتى السطحية كما رأينا من العرض السابق ، في أن لب مسألة التخلف هو بنية تتصف بالقمع والقهر ،بالتسلط والرضوخ ، أي بحرمان الانسان من انسانيته . وهو ما سنحاول طرحه من خلال المنظور النفساني الذي يكمل في رأينا الصورة ، ويشكل في الاساس موضوع هذا البحث .

ثانيا : المنظور النفساني للتخلف

المنطلقات التقنية والاقتصادية والاجتماعية ، السطحية منها والدينامية أكدت على نوعية وتركيب البنى المتخلفة . ولكنها جميعا ، فيما عدا اشارات عابرة ، أهملت البنى الفوقية (النفسية ، العقلية ، القيم الموجهة للوجود) ، التي لا بد ان ترافق البنى الاجتماعية الاقتصادية ، وتنتج عنها وتكملها.ولذلك فلا يستقيم الحديث عن التخلف ،ولا يمكن لصورته

ان تكتمل الا اذا أعطينا لهذه البنى الفوقية مكانتها . فهي وان كـانت في الاصل تتاجا للبنى الاجتماعية الاقتصادية،ومايحكمها من قيمومعايير التنشئة والتشريط وأنماط التربية والعلاقات،وما يحكمها من قيم ومعايير وأساطير ، قوة قائمة بذاتها متفاعلة جدليا مع البنى التحتية . انها تتحول الى عامل يرسخ هذه البنى التحتية ويعزز وطأتها . فاذا كان تحالف القلة المحظوظة مع القوى الاجنبية يشكل ، كما رأينا في العنوان السابق ، أكبر عقبة في طريق التطوير لانه السبب الاهم في بروز ظاهرة التخلف وتضخمها فان البنية الفوقية النفسية التي تتلخص في خلق انماط البشر وانمـاط من الوجود متميزة بطابع التسلط والرضوخ ، تشكل مصدرا هاما لمقاومة التغيير . وليس من باب المبالغة في شيء ، ان نقرر أن ذوي المصلحة في التغيير ، في الخروج من هوة التخلف ، يشكلون في مرحلة ما احـدى العقبات الاساسية أمام هذا التغيير ، بعد ما تعرضوا له من استـلاب لانسانيتهـم .

المثل الافصح على ذلك هو المرأة ، التي يقع عليها عادة الغرم الاكبر ويفرض على كيانها القسط الاوفر من الاستلاب ، من خلال ما تتعرض له من تسلط وما يفرض عليها من رضوخ وتبعية وانكار لوجودها وانسانيتها. هذه المرأة المستلبة اقتصاديا وجنسيا في البلدان النامية ،تعاني من استلاب اخطر بكثير وهو الاستلاب العقائدي . ويقصد بالاستلاب العقائدي تبني المرأة لقيم سلوكية ، ونظرة الى الوجود تتمشى مع القهر الذيفرض عليها، وتبرره جاعلة منه جزءا من طبيعة المرأة .وبذلك فهي تقاوم تحررها، وترسخ البنى التسلطية المتخلفة التي فرضت عليها . وأكثر من هذا تعممها على الآخرين ، من خلال نقلها الى اولادها . تنقلها الى البنـات منهم حين تفرض عليهن عملية تشريط من أجل الرضوخ للرجل (الاب والاخ والزوج) وتفرضها على الصبيان من خلال غرس النظرة الرضوخية للسلطة ، والتبعية لسيادة القلة ذات الحظوة .

واذا كان التخلف في جوهره ولبه : هو استلاب اقتصادي اجتماعي من الناحية المادية . فانه لا بد أن يولد استلابا نفسيا على المستوى الذاتي. لا بد اذاً من الخوض في هذا الاستلاب الذاتي ، حتى تكتمل امامنا الصورة . ونتمكن من السيطرة على كل القوى الفاعلة في ظاهرة التخلف مما يشكل شرطا ضروريا لاي عملية تغيير . لاي مشروع تنمية يؤمل أن يكون له من النجاح نصيب معقول ومتناسب مع مقدار الجهد الذي وظف فيه .

التخلف هو ظاهرة كلية ذات جوانب متعددة ، تتفاعل فيما بينها بشكل جدلي . تتبادل التحديد والتعزيز ، مما يعطي الظاهرة قوةوتماسكا كبيرين . ويسدها بصلابة ذات خطر كبير في مقاومة عمليات التغيير .

واذا كان التخلف التقني والصناعي والاقتصادي والاجتماعي واضحا في خصائصه ومحطاته : فان التخلف النفسي الوجودي لا زال بحاجة الى جهد كبير لاستجلاء غوامضه .

التخلف نفسيا هو ، فوق هذا أو ذاك من المحكات المادية ، نمط من الوجود ، اسلوب في الحياة ينبت في كل حركة أو تصرف ، في كل ميل أو توجه ، في كل معيار أو قيمة ، انه نمط من الوجود له خرافاته وأساطيره ومعاييره التي تحدد للانسان موقعه ، نظرته الى نفسه ، نظرته الى الهدف من حياته ، اسلوب انتمائه ونشاطه ضمن مختلف الجماعات ، أسلوب علاقاته على تنوعها . انه موقف من العالم المادي وظواهره ومؤثراته ، وموقف من البنى الاجتماعية وانماط العلاقات السائدة فيها ، على المستوى الذاتي الحميم ، كما على المستوى الذهني ، هناك مجموعة من العقد التي تميز الوجود المتخلف . نمط الوجود المتخلف غير محتمل فهو يولد آلاما معنوية تهدم التوازن النفسي . ولذلك تبرز اواليات دفاعية ضد

هذه الآلام وذاك الخطر المهدد للتوازن ، اواليات تجعل تحمل وضعية الاستلاب ممكنا . هذه الخصائص وتلك الاواليات تشكل محور بحثنا.

هذا النمط من الوجود المتخلف ، بماذا يتصف ؟ وراء مختلف العقد والاواليات والقيم والتوجيهات والممارسات ، يبرز التخلف كهدر لقيمة الانسان . انه الانسان الذي فقدت انسانيته قيمتها ، قدسيتها ،والاحترام الجديرة به . العالم المتخلف هو عالم فقدان الكرامة الانسانية بمختلف صورها . العالم المتخلف هو العالم الذي يتحول فيه الانسان الى شيء ، الى أداة أو وسيلة ، الى قيمة مبخّسة . يتخذ هذا التبخيس ، هذا الهدر لقيمة الانسان وكرامته صورا تتلخص في اثنين أساسيتين : عالم الضرورة والقهر التسلطي .

أما عالم الضرورة فهو تعبير عن الاستلاب الطبيعي الذي يتعرض له الانسان في البلد المتخلف . انه اسير الاعتباط حين يرضخ لغوائل الطبيعة التي تهدده في صحته ، وأمنه ، وقوته ، وسلامته . انسان العالم المتخلف منذ أن يولديخرج الى الحياة بشكل شبه اعتباطي . انه يولد كمصادفة أو عبء ، او اداة لخدمة اغراض ورغبات اهله او الاخرين.انهلا يولد لذاته ولايعيش حياته لذاته . ثم هو يتعرض لغزو المرض ، ولسيطرة الامية والجهل ، ولقسوة الطبيعة وغوائلها بدون حماية أو سلاح كافيين. يتعرض لسوء التغذية وفقدان فرص العمل ، وصعوبة المأوى . يقفعاجزا أمام عالم الضرورة هذا ، لا يعلم أي نوع من الضحايا يمكن أن يكون ، أين ومتى ؟

وأما عالم القهر التسلطي ، فهو عالم سيادة القلة ذات الحظوة التي تفرض هيمنتها على الغالبية بالتحالف مع قوى خارجية استعمارية صريحة او مقنعة ، خالقة نموذجا عاما من علاقة التسلط والرضوخ ، تمارس فيها

أنواعا متعددة من العنف المادي والمعنوي • علاقات التسلط والعنف هذه تميز مختلف المستويات المرتبية وتتغلغل في نسيج الذهنية المتخلفة ،مكونة الشبكة الاجتماعية للتخلف • هناك دائما علاقة سيطرة من طرف ،ورضوخ وتبعية من طرف آخر • سيطرة تفرض من خلال لغة العنف أساسا • نجد هذا النمط من أعلى قمة الهرم الى أدناها : من الحاكم الاول الى مرؤوسيه ومن هؤلاء الى مرؤوسيهم ، ومنهم الى غالبية السكان • وبين هؤلاء من الاقوى الى الاضعف : من الرجل الى المرأة ، من الكبار الى الاطفال ، وبين الاخوة من الاكبر سنا الى الذين يتلونهم • واما قمة الهرم فهي ترضخ لنمط مقنع من السيطرة يفرض من خارج الحدود • اذ ان علاقة التحالف بين القلة ذات الامتياز والقوى الخارجية المالية والسياسية والعسكرية التي تدعمها ؛ ليست علاقة تكافؤ ومساواة ، بل علاقة سيادة وتبعية • هناك استلاب لقيمة الانسان يفرض بالتسلط والعنف أبدع «فرانزفانون» في عرضه وتحليله في كتاباته المتعددة حول ظاهرة الاستعمار •

فالسيد المستعمر يقوم يوميا «بأدخال العنف الى عقول وبيوت المستعمرين وهو يدخل في وعيهم أنهم ليسوا بشرا وانما أشياء (١) » •

في رسالة استقالته الشهيرة التي وجهها الى الحاكم الفرنسي في الجزائر من منصبه كطبيب في مستشفى الامراض العقلية ، ابان حرب التحرير يقول : « •• ان الانسان العربي في الجزائر ، يحس بالغربة والوحشة في بلده •• انه يعيش في حالة تجريد من آدميته •• ان البناء الاجتماعي الذي فرضته فرنسا على الجزائر يعادي كل محاولة لانتشال الفرد الجزائري من حالة عدم الآدمية ، واعادته الى حالة الآدمية التي هو

---

(١) بسام طيبي ، نظرية فانون عن العنف وتأثيرها بالفلسفة الهيجلية ، مجلة «دراسات عربية» ، السنة السادسة، العدد ٧ ، بيروت ١٩٧٠

بها جدير [1] .. »

الاستعمار تهديم مستمر ويومي لشخصية الفرد الجزائري .. لقد تكشفت «لفانون » من خلال عمله العلاجي ، عقـد النقص التي غرسهـا وعمقها الرجل الابيض في الفـرد الجزائري .. تكشفت لـه الاساليب الاوروبية في امتصاص دماء الكرامة من شرايين الفرد الجزائري، واحلال الخوف والمذلة والمهانة مكانها [2] .

بدل الفهم والحوار الذي لا يقوم الا في حالة التكافوء الانساني، هناك لغة السوط القمعي ، بدل الاقناع هناك الاخضاع . وليس المستعمر الصريح فقط هو من يفرض هذا الاستلاب الذي يسفّل الانسان،بل قوى التسلط الداخلي على مختلف مراتبها . وليس العنف الصريح أو القمع الظاهر فقط هو الذي يمارس ، بل هناك العديد من أشكال العنف المبطن والقمع المستتر تمارس على نطاق أوسع انتشارا وأكثر تغلغلا ، وتحت اكثر الشعارات بريقا ونبلا .

والامر ليس وقفا على البلدان الناميـة تقنيـا وصناعيا ، بل يطال العديد من المجتمعات التي وصلت قمة التقدم التقني،ويضم كل المجتمعات التي تصدر العنف الى خارج حدودها . التقدم الصناعي اذا كان يخلص الانسان من قهر عالم الضرورة ، لا زال في الكثير من أحواله عاجزا عن اعطاء الانسان كل قيمته واعتباره . في تلك المجتمعات لا زال الانسان اداة انتاج واستهلاك . كل ما يقدم له ، أو الكثيرمما يقدم له على مستوى الخلاص من عالم الضرورة ، لا يعدو كونه من نوع الصيانة التي تعطى

---

(1) د. ابراهيم سعد الدين ، فرانز فانون وفلسفة العنف الثوري، مجلة «دراسات عربية» ، السنة السادسة ، العدد ٥ ، بيروت ١٩٧٠ .
(2) نفس المرجع

للاداة كي تستمر في عملها بشكل جيد . ذلك هو سبب بروز تيارات الرفض وثورة الشبيبة في البلدان المتقدمة . انها ثورة على الاعتداء الحاصل على قيمة الانسان وضد تحويله الى مجرد أداة انتاج واستهلاك. ثورة الشباب : كثورة المرأة من أجل استعادة الانسان لذاته ومقاومة عمليات استلابه : انها ثورة من أجل استعادة كيانه واحترامه من خلال فضح أساليب القمع الخفية (التشريط والتدجين وتزيين قيم حياتية وهمية ذات طابع استهلاكي) .

التخلف بالمنظور النفسي العريض يتجاوز اذاً الى حد بعيد مسألة التكنولوجيا والانتاج ، ليتمحور حول قيمة الحياة الانسانية والكرامة البشرية . كل هدر لها أو تحويل الى أداة هو تخلف . سيكولوجية التخلف ، هي في رأينا : سيكولوجية الانسان المسحوق او المشيأ [1] معيار التخلف ومستواه يبرزان من خلال بحث حالة وحجم اقل فئات الناس حظا في المجتمع الواحد،وأقل المجتمعات حظا على مستوى كوني. ذلك هو المعيار الحقيقي ، وأما التقدم المادي مهما بلغ مستواه فليس سوى مظهر جزئي لا يجوز ان يخفي المشكلة الحقيقية .

---

(١) مشيء (تشييء) Chosifié (chosification)

الفصل الثاني

الخصائص النفسية للتخلف

تطرح علينا دراسة النفسية المتخلفة مهمــة منهجية ذات وزن ، اذا أردنا أن نعطي عنها صورة دينامية متماسكة تجمع شتاتها الظـاهري . لدينا منهجان ديناميان يتكاملان جدليا ، يغطي كل منهمــا وجها أساسيا من وجوهها . الاول هو المنهــج الانبنــائي الذي يجمــع هذا الشتات الظاهري : في شبـكة متناسقــة ذات معنى هي نمط الوجـود المتخلف . والثاني هو المنهج التاريخي الذي يتتبع خصائص هذا الوجود الغالبة في كل مرحلة من مراحل تطوره ، اذ ان النفسية المتخلفــة متغيرة ومتطــورة الاخر . ينطلق كلاهما من محور أساسي يشكــل لب الوجود المتخلف ، يرتكز اليه من يقولون بالجمود والثبات .

لا غنى لأحد المنهجين عن الآخر ، كما انه لا أسبقية لأحدهما على الآخر . ينطلق كلاهما من محور أساسي يشكل لب الوجود المتخلف ، وهو علاقة التسلط والرضوخ ، علاقة السيطرة والقهر التي تجعل الانسان المسحوق المعبــر الافصح عــن التخلف ، من الناحيــة النفسيــة . كل الخصائص النفسية التي سنتحــدث عنهــا هي مظــاهر متنوعة لهــذه العلاقة ، تتاج لها ، رد فعل عليها أو دفاع ازاءها . هذه العلاقة تخلق ، انبنائيا ، نمطا من الوجود ، متطورا بدرجات مختلفــة السرعة تاريخيا . وفي كل مرحلة تطغى على بنية هذا الوجود سمات بارزة تميزها عن غيرها من المراحل .

يعيش الانسان المسحوق في عــالم من العنف المفروض . عنف يأتي من الطبيعة وغوائلها التي لا يستطيع لها ردعــا - والتي تشكل تهديــدا فعليا لقوته وأمنه وصحته (الجفاف ، الفيضانات ، الحريــق ، الامراض والاوبئة ، الحروب ، الآفات الزراعية الخ ...) . هذا العنف يجعلــه يعيش في عالم الضرورة ، في حالة فقدان متفاوت في قدرة للسيطرة على مصيره . انه اعتباط الطبيعــة عندما تقسو دون أن يجد وسيلة لحمــاية ذاته ، للشعــور بالامن ازاء ما تشكله من تهديد . انه يفتقر الى سلاح للمجابهة . ولذلك تبدو أخطار الطبيعة مضخمة وبنفس القدر تتضخم مشاعر عجزه وقلقه . يعيش الانسان المتخلف في حالــة تهديد الطبيعــة الدائم الصريح أو الكامن لحياته . هل ستحمل له الخير والرخــاء من خلال عطائها أم البلاء والشقاء من خــلال قسوتها ؟ القلق على الصحــة والرزق والامن يلازمــه على الدوام منذ الصباح حتى المساء ، خــارج البيت وداخله .

ان الانسان المعرّض دوما لكــل مفاجــأة قد تحمــل المصيبة أو الخير ، ليس أكيدا البتة من أية ضمانة فعلية له او لذويه ، ما عدا تلك التي يؤمنها التمسك بالماورائيات ، التقرب من القوى التي تسيطر علــى الكــون ، أو تلك الي يؤمنهــا الرضوخ للسيــد . عندما نستمع الى الادعية التي يبدأ بها يومه ، ونبحث في نوعها ، نلاحظ الى أي حــد هي من نوع محاولة مجابهة هذا الاعتبــاط الذي يتهدده بالتمني السحــري ، أو التعلق بالخرافة ، أو الاتكالية المفرطة .

لدى الانسان المتخلف ميل سحري لانسنة [1] الطبيعة . انه يصورها

---

(1) الانسنة Anthropomorphisation

على غرار الام الرحوم المعطـاء تارة ؛ وعلى صورة الاب القاسي العنيف الذي ينزل أشد العقاب وشر البلاء بأبنائه تارة أخرى ؛ أو على غـرار صورة الام التي تمنع عن ولدها العطاء . وذلك ما يثير فيه أشد أشكال القلق الضمني بدائية : قلق الرضيع لترك الام اياه ، قلـق الطفـل ازاء قصاص الاب القاسي . انه يعيش بشكل نكوصي [1] كل القلق والمخاوف التي عاناها في طفولته : من حالات الاحباط أو الاهمـال والقسوة التي ألمت به وتحيا في لاوعيه [2] كعقاب له على ذنب وهمي اقترفه أو غلطـة ارتكبها . اعتباط الطبيعة الراهن يحرك ويثير كل مشاعر العنف التي لا بد قد تصورها في طفولتـه . وهو عنف بدائي وطفلـي ، أي عنف بلا حـدود .

وكعجز الطفل أمام هذه المشاعر التي تملأ عالمـه ، يعاني الانسان المتخلف عجزا شبه جذري أمام غوائـل الطبيعـة . القدرية والامثـال الشعبية ، كلها محاولات سحرية لادخال بعض التنظيم على هذا الاعتباط، بغية السيطرة عليه ، اما من خلال الاستكانة للمقدر والمكتوب ، أو من خلال تبريره كجزء من طبيعة الحياة نفسها يجب قبوله كما هو .

علاقة القهر والرضوخ تجاه الطبيعـة ، علاقة العنف الكامن بينـه وبينها ،تضاف الى قهر من نوع آخر ، قهر انساني . الانسان المتخلف ، هو في النهاية الانسان المسحوق أمام القوة التي يفرض السيد عليه قهرها، أو التسلط ، أو الحاكم المستبد ، أو رجـل البوليس ، أو المالك الذي يتحكم بقوته ، أو الموظف الذي يبـدو وكأنه يملك العطـاء والمنع ، أو المستعمر الذي يفرض احتلاله . بالطبع هذه السلسلـة تترابط حلقاتها لما

---

(١) نكوصي — Regression

(٢) اللاوعي — Inconscient

تقـوم بينها من مصالح . كي تقيّده وتفقـده السيطـرة على مصيره ، فارضة عليه قانونها الذي يتميز أساسا بالاعتباط ، وبذلك يصبح الانسان الذي لا حق له . ولا مكانة ، ولا قيمة ، الا ما شاء الطرف المتسلط أن يتكرم به عليه .

لا يجد الانسان المسحوق من مكانة له في علاقة التسلط العنفي هذه سوى الرضوخ والتبعية ؛ سوى الوقوع في الدونيـة كقدر مفروض . ومن هنا شيوع تصرفات التزلف والاستزلام ، والمبالغة في تعظيم السيد، اتقاء لشره أو طمعا في رضاه . انه يعيش في عالم بلا رحمة أو تكافؤ اذا !راد المجابهة !و فكر في التمرد . فسيأتي الرد عندها حاسما يقنعه بقمع أفكاره التمردية . ان عالم التخلف هو عـالم التسلط واللاديمقراطية ، يختل فيه التوازن بين السيـد وبين الانسان المسحـوق . ويصل هذا الاختلال حدا تتحول معه العلاقة الى فقدان الانسان لانسانيته ، وانعدام الاعتراف بها وبقيمتها . تنعدم علاقـة التكافؤ لتقـوم مكانها علاقـة التشيىء [1] .

بدل علاقـة أنا ـ أنت التي تتضمن المساواة والاعتراف المتبـادل بانسانية الآخر وحقه في الوجـود ، ذاك الاعتـراف الذي يشكل شرط حصولنا على انسانيتنا من خلال اعتراف الآخر بنا كقيمة انسانية ، بدل هذه العلاقة تقوم علاقة من نوع أنا ـ ذاك . ذاك هـو الشيء ، هـو الكائن الذي لا اعتراف به، بانسانيته وقيمتها ، أو بحياته وقدسيتها . باعتباره شيئا ، يصبح كل ما يتعلق به أو ما يمت اليه مباحا (غبن، اعتداء، تسلط . استغلال ، قتل الخ ...) ، ذلك هو الانسان المسحـوق ،

---

(1) التشيىء Chosofication

انسان العالم المتخلف . على العكس تتضخم ذاتية المتسلط بشكل مفرط يحتوي الآخر الشيء . ويجعله تابعا له وأداة لخدمته في حالة من طغيـان الانويـة [1] . لا اعتراف الا بـ أنا ـ السيد ، لا حياة الا له ، لا حق الا حقه . مما جعل كل تصرف ، كل نزوة ، كل استغلال وتسلط مبرراً كجزء من قانون الطبيعة . وبمقدار ما تتضخـم ذات المتسلط تفقد ذات التابع المسود أهميتها واعتبـارها حتـى تكاد تتلاشى انسانيتها كليـا . والواقع ان السيد ينظر الى الآخر المسحوق كـانسان فعلي . انه يفقـد التعاطف معه والاحساس بمعاناته وآلامه ومخاوفه وحاجاته . ومن هنا تلك القسوة البادية في تصرفاته تجاه من يخضعون له ، تلك اللامبـالاة تجاه معاناتهم .

تحتاج علاقة القمع باستمرار الى تغذية نرجسية السيد ، الى مزيد من تضخم أناه ، حتى لا يتهددها بروز الحس الانساني ، بروز التعاطف النابع من التكافؤ بين الذاتيـة والغيريـة . ومن هنا استمـرار العنف والتعسف ، واستمرار التبخيس الذي يصيب انسانية الانسان المسحوق. نجد نموذجا لذلك في التسلط الاقطـاعي أو التسلط الاستعماري . ففي الحالتين لا يتم التفاهم والحوار الا بلغة السياط . يعمل كلاهما على خنق كل انتفاضة لانسانية الانسان المقهـور ، أو حتى مجرد التفكير بهـذه الانتفاضة ، التفكير بالتعبير عن حقوقه . فالحق هو حق السادة والحياة هي حياتهم فقط . السيد المحلي وحليفـه المستعمر يقوم كلاهما يوميـا « بادخال العنف الى عقول وبيوت المستعمرين .. يدخـلان في وعيهـم وعيهـم أنهـم ليسوا بأنـاس ، انما هـم أشـاء [2] » . كـلاهمـا

---

(١) الانوية Egocentrisme

(٢) بسام الطيبي ، نظرية قانون عن العنف وتاثرها بالفلسفة الهيجلية ، مجلة «دراسات عربية» السنة السادسة، العدد ٧ ، بيروت ١٩٧٠ .

ينظر الى ابنـاء الفئـة المستغلة ككائنـات هزيلة : مستضعفة وجبانة ، ولا بد أن تبقى على هذه الحالة . لا بالاقنـاع والمنطـق ، بل بالقـوة والقسر . وبمقدار ما يخسّ الانسان المسحوق ، ويفرض عليه الانحطاط والشقاء ، يصبح اتكاليا مستكينا مستضعفا . وهذا بدوره يؤكد في ذهن المتسلط أسطورة تفوقه وخرافة غباء وعدم آدمية الانسان المستضعف .
من الامثلة البارزة على ذلك نظرة الامبريالية الصهيونية الى العرب . انها نظرة ازدراء واحتقار . بينما ينظر الصهيوني الى نفسه بتعال وتفوق من خلال نشر أساطير القدرة في الانتاج والعلـم والغنى والحرب . أما العربي فيصوّر ككائن جاهل متأخر ، أهوج ، لا يفيد و لايستفيد شيئا مـن البيئـة حـوله [1] . تلـك كـانت صـورة الانسـان العربـي قبـل الغزو الصهيوني لفلسطـين في كتـابات زعمـائهم (هـرتزل ، الدولة اليهودية) . مـن انه لـن يكون للعـرب سـوى وظيفـة واحدة وهـي القيـام بـالاعمال المنحطـة (تنظيف وجمع القمامـة ، تجفيف البرك . ملاحقة الثعابين وتطهير الأرض منها الخ ..) .

بقدر ما تتضخم « أنا السيد » ، وينهار الرباط الانساني بينه وبين المسود ، يصبح الاول أسير ذاته ومرآتها ، وينحدر الثاني الى أدنى سلم الانسانية . ويصبح عنف علاقة التسلط مضاقا ومتفاعلا مع قسوة الطبيعة ، واعتباطها هو القانون الذي يدفع حياة الانسان المسحوق بأجمعهـا (على مختلف مستوياتها وأوجهها وتفاصيلها) . يعمم نموذج التسلط والخضوع على كل العلاقات وعلى كل المواقف من الحيـاة والآخرين والاشياء . تتسم علاقة الرئيس بالمرؤوس بهذا النمط التسلطي الرضوخي ، كما تتسم به

---

(١) د. ابراهيم سعد الدين . فرانز فانون وفلسفـة العنف الثـوري مجلة «دراسات عربية» السنة السادسة ، العدد ٥ . بيروت ١٩٧٠ .

علاقة الرجل بالمرأة والكبير بالصغير ، والقوي بالضعيف ، والمعلم بالتلميذ والموظف ورجل الشرطة بالمواطن . كل سلطة ، مرتبية كانت أم طبيعية ، تصطبغ لا محالة بهذه الصبغة . حتى الموقف من الحيوان والجمادات يتميز بالموقف التسلطي الرضوخي نفسه . تنبت علاقة القهر والرضوخ بما تحمله من عنف في نسيج الحياة النفسية بجوانبها الانفعالية والعاطفية والذهنية . حتى الحب يعاش في البلاد النامية تحت شعار التسلط والرضوخ ، تسلط المحبوب ورضوخ الحبيب .. حتى حب الام لابنائها بكل ما يتميز به من حرارة عاطفية يغلب عليه الطابع التملكي ، أي في النهاية التسلط من خلال أسر الحب .. وهكذا كيفما تحرك انسان العالم الثالث : في العمل كما في المدرسة ، في البيت كما في الشارع ، يجابه باستمرار بأشكال متنوعة من علاقات التسلط والقهر ، تفقده الشعور الاساسي بالأمن والسيطرة على مصيره ، وتجعله نهبا للاعتباط والقلق . كل انسان راضخ وتابع على أي مستوى معين من سلم السيطرة والقهر ، يلعب دور المتسلط على من هم أدنى منه مرتبة أو قوة .

كل الخصائص النفسية للانسان المتخلف التي نعرض لها في هذا الفصل تنبع من هذا الواقع المحوري : التسلط والاستكانة ، وما يتبعهما من انعدام جذري للشعور بالامن . فاذا أخذنا بالمنهج التاريخي نجد ان واقع الانسان المتخلف قابل لان ينتظم في أنماط ثلاثة من الوجود من مرحلة الرضوخ الى مرحلة التمرد والثورة مرورا بمرحلة اضطهادية . وسنجد ان لكل مرحلة بنيتها نفس الاجتماعية وخصائصها المميزة ، التي تعكس بمجموعها جانبا من الوجود المتخلف .

اولا : مرحلة القهر والرضوخ

خلال هذه المرحلة التي تمتد زمنا طويلا نسبيا ، يشكل زمن

الرضوخ والاستكانة أو الفترة المظلمة من تاريخ المجتمع، عصر الانحطاط، وتكون قوى التسلط الداخلي والخارجي في أوج سطوتها وحالة الرضوخ في أشد درجاتها • عملية انهيار قيمة الانسان المسحوق وطغيان انوية المتسلط تأخذ أبرز أشكالها وضوحا وصراحة • تكون الجماهير المسحوقة في حالة قصور واضح في درجة التعبئة التي تؤهلها للرد والمقاومة ، فيبدو وكأن الاستكانة والمهانة هي الطبيعة الازلية لهذه الجماهير ، وهذا ما تحاول قوى التسلط على كل حال غرسه في نفسيتها، في حملة تيئيسية منظمة تقطع السبيل أمام أي انتفاضة أو أمل في الانتفاضة • سكون الموت المخيم لا تقطعه سوى فقاعات تمرد فردي ، لا تلبث أن تغيب ، مخلفة وراءها مزيداً من القناعة في استحالة الخلاص من خلال المجابهة ، نظرا لما تقابل به من ردود فعل عنيفة ، تأخذ شكل البطش الذي تمارسه الفئة المتسلطة •

هذه المرحلة لوّنت بخصائصها ، وصبغت بسماتها البارزة ، الافكار الشائعة عن التخلف بكل ما فيه من سلبية وجمود وخرافية وانحطاط • وهي التي شجعت الاحكام التبخيسية المسبقة التي كونها المستعمر والمتسلط الداخلي عن الشعوب المقهورة ، جاعلا من خصائص مرحلة واحدة طبيعة ثابتة لتلك الشعوب ، مما يبرر استغلاله وتسلطه : انها جماهير منحطة لا تستطيع أن تحكم نفسها أو تستغل امكاناتها وثرواتها، ولذلك فلا بد لها من حاكم متسلط ، ولا بد لها من مستغل حليف له ، يثمّن هذه الثروات المهدورة • معظم الكتابات الغربية عن التخلف لم تستطع أن ترى منه سوى هذه المرحلة التي تتصف بالعجز والقصور على جميع الاصعدة • وهو أمر يدعو للدهشة حقا ، نظراً لما يعتوره من عمى ادراكي ، يؤدي فعلا الى تبخيس مقصود ، أو لا ارادي لهذه الشعوب ولطاقاتها التغييرية الكامنة حين لم تر سوى الكسل والجهل والمرض ،

والرضوخ والغرق في الخرافة والقدرية . تلك هي مشكلة الملاحظة الخارجية والنظرة التي تظل طافية على السطح ، والتي لا تدرك سوى الظواهر الخادعة ، وهي في الحقيقة مشكلة البرود الانساني ، انعدام التعاطف مع الانسان المتخلف موضوع البحث والنظر اليه كظاهرة مادية جامدة . انها لم تستطع الغوص في وجدان هذه الشعوب المقهورة كي تتلمس بذور التمرد والانتفاضة التي تنمو في احشائها بصمت وبطء ولكن بشكل أكيد وحتمي . وعندما تحين ساعة الانتفاض تنفجر الطاقات التغييرية التي تفاجىء أول ما تفاجىء الفئة المتسلطة داخليا وخارجيا وتتجاوز في مداها تصورات أكثر الملاحظين الخارجيين تفاؤلا .

ولكن بين هذه الملاحظة وبداية عملية القهر الانساني تعيش الشعوب المتخلفة ليلا طويلا تجتر خلاله مأساة المعاناة الوجودية .

أبرز ملامح هذه المرحلة اجتياف [1] عملية التبخيس [2] التي غرسها المتسلط في نفسية هذه الجماهير . تتمثل عدوانيته وقهره ذاتيا على شكل مشاعر اثم ودونية . يزدري انسا نالعالم المتخلف ذاتهويخجل منها ويود لو تهرب من مواجهتها ، كما ينقم عليها في نفس الوقت . وهنا يكيل النعوت السيئة لنفسه ، متهما اياها بالتقصير والتخاذل والجبن . يميل الى انزال العقاب بنفسه حتى انه يرى أحيانا في القهر والظلم الانسانيين ، كما في قسوة الطبيعة واعتباطها ، عقابا مستحقا له على تخاذله واستكاناته . وبذلك يصبح حليف المتسلط الاول في حربه ضد وجوده ، ووجود الآخرين أمثاله . بينه وبين هؤلاء تقوم علاقة ازدراء ضمني ،لانهم يعكسون له مأساته وعاره ، كما يعكس مأساتهم وعارهم .

---

(١) اجتياف — Introjection
(٢) تبخيس — Dépréciation

ويصيب المرأة والاتباع في عمليـــة التحقير هذه النصيب الاوفر • تصب عليها كل مشاعر العار والضعف ، والعجز والرضوخ • العار غير المحتمل، نظرا لما يولده من آلام معنوية وما يفجـره من قلق حول انهيار قيمـة الذات ، لا بد له من أن يفرّغ بصبه على الخارج ، على العناصر الاضعف والاقل حظا • وهكذا تسفّل المرأة من خلال ادوار الرضوخ التي تفرض عليها (رضوخ للاب وللاخ ثم للزوج) ، تحـول الى أداة للمصاهـرة والانجاب ، الى خادمة ، الى المعبرة عن المأساة ، الى الانسان العـاجز القاصر الجاهل الغبي الذي يحتـاج الى وصي ، تماما كحـال الانسان المسحوق أمام القوى التي تسلطت عليه ، فما يلقاه من تبخيس ومهانة ، وما يفرض عليـه من تبعية يعود فيمارسه على زوجتـه ونساء أسرتـه ، كما يمكن أن يفرضه على أتباعه ومن هم في أمرته •

تكثر في هذه الحالة الميول الانتحارية النابعة من تفاقم مشاعر الاثم ومن تراكم العدوانية المرتدة الى الذات • تتخذ هذه الميول طابعا صريحا أو رمزيا ، والاخير هو الاكثر شيوعا • ومن أبرزها القسوة على الذات وارهاقها ، التعرض للاصابات ، وللحوادث ، التعرض للامراض المتنوعة• وهنا يحدث تواطؤ بين هذه الميول المرضية وبين قوى القمع التي تهمـل مسؤولياتها في الحفاظ على صحـة المواطنين ووقايتهم من الامـراض ، تحرمهم التغذية الجيدة والعناية الصحية من خـلال استنزاف طاقتهم في الأعمال المضنية ، تهمل اتخاذ اجراءات الامان الضروريـة في العمل مما يعرض العامل الى أخطار متعددة • وعندما يلم الخطب بالانسان المسحوق يعيشه كمصيبة حلت به عقابا على ذنب هوامي [1] •

---

(١) هوام Fantasme

الا ان أبرز مظاهر اجتياف التبخيس والعدوانية اللذين يفرضهما المتسلط هو الاعجاب به والاستسلام له في حالة من التبعية الكلية . وبمقدار ما ينهار اعتباره لذاته يتضخم تقديره للمتسلط يرى فيه نوعا من الانسان الفائق [1] الذي له حق شبه الهي في السيادة والتمتع بكل الامتيازات . تلك علاقة رضوخ «مازوشي» من خلال الاعتراف بحق المتسلط بفرض سيادته . ومن هنا تبرز حالات الاستزلام والتزلف والتقرب . يتحدد الاعتبار الذاتي انطلاقا من درجة التقرب من المتسلط . ولا بد من الاشارة هنا الى التواطؤ الذاتي الذي يحدث بين الانسان المسحوق وبين ما يمارسه عليه المتسلط من قهر . في الواقع ، لم يترك المتسلط مجالا لنوع آخر من العلاقة مع الانسان المسحوق . وهو عندما يدفع به الى ذلك الموقع المازوشي التبعي ، يعود فيزدريه من جديد لرضوخه واستكانته وتبعيته ، محملا اياه كل الوزر ، معتبرا دونيته كجزء لا يتجزأ من طبيعته ، مما يبرر لنفسه كل أشكال القهر التي يمارسها « هؤلاء لا يحسون ، انهم لا يفهمون بالكلام ، انهم لا يمشون الا هكذا ... بالقوة ، بالسوط .. » . ويغيب عن باله ان الاستزلام والتزلف هما الوسيلتان الوحيدتان اللتان تركهما للانسان المسحوق كي يضمن لنفسه بعض الامن على حياته وقوته . فاذا حاول هذا الاخير رفض الواقع ، كانت استجابة المتسلط عنيفة بشكل يكفل ردعه عن كل محاولة ، مع ما يضاف اليها من اتهام بالجحود ونكران النعمة ، وقلة الوفاء والغدر ، مما يبرر له بطشه . وذلك بدوره يثير مشاعر الذنب والقلق عند الانسان المسحوق دافعا اياه الى حالة من هجاس [2] الحفاظ على النعمة التي تكرم بها عليه السيد من خلال تكرار مظاهر الرضوخ والتبعية .

---

(١) الانسان الفائق — Surhomme

(٢) هجاس — Obsession

على أن العلاقة ليست جامدة بهذا الشكل وبصفة مستديمة ، يغلب عليها واقعياً التجاذب الوجداني (١) ، التذبذب ما بين التبعية والرضوخ وبين الرفض والعدوانية الفاترة (٢) . يحاول الانسان المسحوق كما سنرى جليا في بحثنا للمرحلة الاضطهادية ، الانتقام بأساليب خفية (السل ، التخريب) أو رمزية (النكات والتشنيعات) . وهذا يخلق ازدواجية في العلاقة : رضوخ ظاهري ، وعدوانية خفية . أبرز مثل على هذه الازدواجية هو موقف الرياء والخداع والمراوغة والكذب والتضليل . محاولة النيل من المتسلط تصبح قيمة بحد ذاتها باعتبارها نوعا من البراعة والحذق (كما يشيع جماهير المصريين) . الانسان المسحوق متربص دوما للمتسلط كي ينال منه كلما استطاع ، وبالاسلوب الذي تسمح به الظروف . هذه الازدواجية تشكل مرحلة وسطا بين الرضوخ والتمرد . ولكن ، هنا أيضا ، نجد الانسان المسحوق يستخدم أسلوب السيد المتسلط نفسه ويخاطبه بلغته نفسها . الكذب والخداع والتضليل هي قوام اللغة التي يخاطب بها المتسلط الجماهير المسحوقة . ان خطابه هو أبدا كذب ونفاق عندما لا يكون تهديدا صريحا . خطابه وعود معسولة وتضليل تحت شعار الغايات النبيلة : الوعود الاصلاحية ، الخطط الانمائية ، الاخلاق ، الرقي والتقدم ، المستقبل الافضل .. كلها هراء اعتادت عليه الجماهير . وهي بدورها تخادع وتضلل حين تدعي الولاء وتتظاهر بالتبعية .

وهكذا يصبح الكذب جزءاً أساسيا من نسيج الوجود المتخلف ، على مختلف الاصعدة وفي كل الظروف . الكذب بين المتسلط والانسان

---

(١) تجاذب وجداني — Ambivalence

(٢) فاتر — Passif

المقهور يعمم على كل العلاقات : كذب في الحب والزواج ، كـذب في الصداقة ، كذب في ادعاء القيم السامية ، كذب في ادعاء الرجولة ، كذب في المعرفة ، كذب في الايمان • نسيج العـالم المتخلف حلـة براقة من الخارج ، وعنف واهتراء من الداخل • كما يكذب المسؤول على المواطن، وكما يكذب رجل الشرطة حين يدعي الحفاظ على القيم والاخلاق والنظام، وكما يكذب الموظف على صاحب الحـاجة ، وكما يكذب التـاجر على المشتري ، كذلك يكذب الحرفي على الزبون • معظم العلاقات زائفـة ، معظم الحوار تضليل وخـداع • يكفي أن نرى كيف يزين النـاس في العالم الثالث الامور لبعضهم بعضا ، حتى يتم استدراج الاخر واستغلاله• ذلك الاستدراج عندما ينجح يعتبر نوعا من البراعة في التجارة والعمـل والوظيفة وممارسة المسؤولية • وعندما يتحول العالم الى زيف وتضليل يصبح لزاما على كل واحد أن يلعب اللعبة كما تسمح له امكانياته ، وويل لذوي النية الطيبة • انه لا يغرّم فقط من خلال استغلاله ، بـل يزدرى باعتباره ساذجا وغبيا •• تدلنا علاقات التكاذب والتضليل على مـدى الانهيار الذي ألم بقيمة الانسان في العـالم المتخلف ، حين يتحول الى مضلل أو ضحية تضليل • فالآخر ليس مكافئـا لنا بل أداة نستغلهـا بمختلف الوسائل الممكنة ، أداة لخداعنا • ولكننا في النهاية نحكم على انسانيتنا بالتبخيس من خلال هذا الخداع •

هذ الوضعية العلائقية وما يتبعها من احساس بالعجـز أمام المصير المهدد دوما ، وانعدام مشاعر الامن تجاه قوى الطبيعة ، تؤدي الى بروز مجموعة من العقد تميز حياة الانسان المسحوق ، أهمها عقـدة النقص ، وعقدة العار ، مع اضطراب الديمومـة واصطبـاغ التجربة الوجوديـة بالسوداوية• وهذه جميعا تدفع الانسان المسحوق بدورها نحو الاتكالية النكوصية والقدرية الاستسلامية ، وطغيان الخرافة على التفكير والنظرة

الى الوجود . لا بد اذا من وقفة قصيرة عند كل من هذه النقـاط كي تكتمل لدينا صورة الانسان المسحوق في مرحلة القهر .

ا ــ عقدة النقص

تميز مشاعر الدونية بشكل عـام موقف الانسان المسحـوق من الوجود . فهو يعيش حالة عجز ازاء قوى الطبيعة وغوائلها ، وازاء قوة السلطة على مختلف أشكالها . مصيره معرض لاحداث وتغـيرات يطغى عليها طابع الاعتباط أحيانا والمجانية أحيانا أخرى . يعيش في حالة تهديد دائم لأمنه وصحته وقوته وعياله . يفتقر الى ذلـك الاحساس بالقـوة والقدرة على المجابهة الذي يمد الحياة بنوع من العنفـوان ويدفع الى الاحترام والمجابهة . الانسان المسحوق عاجز عن المجابهة . تبـدو له الامور وكأن هناك باستمرار انعداما في التكافؤ بين قوته وقوة الظواهر التي يتعامل معها . وبـالتالي فهو معظم الاحيان يجد نفســه في وضعيـة المغلوب على أمره . يفتقد الطابع الاقتحـامي في السلـوك ، سرعان ما يتخلى عن المجابهة منسحبا أو مستسلما أو متجنبـا ، أما طلبا للسلامـة وخوفا من سوء العاقبة ، أو يأسا من امكانية الظفر والتصدي . وبذلك يفقد موقفه العام من الحياة ، الطابع التغييري الفعال ، ويقع في أسلوب التوقع والانتظار ، والتلقي الفاتر لما قد يحدث . ثم هناك انعدام للثقة بالنفس ، اذ لا شيء مضمون في وجوده . فقدان الثقة هذا يعمم منه على كل الآخرين أمثاله . وهكذا يشعر أنه واياهم لا يستطيعون شيئـا ازاء قهر الطبيعة وقوى التسلط . ويصل الامر حد انعـدام الثقـة بقـدرة الجماهير على الفعل والتأثـير ، مما يلقـي به ، وبشكـل نكوصي ، في الاتكالية على منقذ منتظر بشكل سحـري . صورة هذا المنقذ هي على العكس تماما من صورته عن ذاته . انه القـوي الذي يتمتع بالجبروت ، الكفيل بقلب الامور رأسا على عقب ، حامل الخلاص العـاجل . ومن

البديهي ان ذلك الموقف يهيىء الجماهير المسحوقة الى التعلق بالزعيم الفرد ، تعلقا يغري بالتسلط والدكتاتورية ، تحت شعار انقاذ الوطن وخلاص الجماهير . انسان العالم المتخلف يفتقر نظرا لما يعانيه من مشاعر دونية الى الايمان بالجماهير . يحس احساسا عميقا بأنه لا يمكن أن يُنْتَظَرَ شيء يذكر من هذه الجماهير المسحوقة على غراره . واذا كان هناك من خلاص مسكن فهو بالتأكيد لن يأتي ، في نظره ، عن طريق هذه الجماهير العاجزة . كل ذلك يشكل عقبة فعلية ازاء تحريك هذه الجماهير وتعبئتها لاغراض النضال والتغيير الاجتماعي . محاولات التحريك ستجابه بنوع من المقاومة النابعة من الاحساس بالعجز عن تحمل المسؤولية الذاتية ومسؤولية المصير . عقدة النقص التي تتحكم بانسان العالم المتخلف ، تجعله عدوا للديمقراطية التي تنبع في الاساس من الايمان بالجماهير وطاقاتها الخلاقة .

عقدة النقص تجعل الخوف يتحكم بالانسان المسحوق : الخوف من السلطة ، الخوف من قوى الطبيعة ، الخوف من فقدان القدرة على المجابهة، **الخوف من** شرور الاخرين . مما يلقي به في ما يمكن تسميته بانعدام الكفاءة الاجتماعية [1] والمعرفية . فهو يتجنب كل جديد ، ويتجنب الوضعيات غير المألوفة . اذا خرج عن دائرة حياته الضيقة يحس بالغربة الشديدة وبانحسار الذات ، يجمد في الزاوية التي هو فيها في نوع من الشلل الوجودي . كل جديد يثير فيه القلق ، واحساسه الجذري بانعدام الامن، ولذلك فهو يخشى التجريب ، ويتشبث بالقديم والتقليدي والمألوف . مما يجعل عملية التحديث تجابه في معظم الاحيان بمقاومة شديدة تحبط البرنامج التنموي .

---

(١) انعدام الكفاءة الاجتماعية Incapacité sociale

وتتجلى عقدة النقص بوضوح ظاهر في موقف الانسان المسحوق من العلم والتكنولوجيا • فهو يضع نفسه مسبقا في وضعية العاجز عن استيعاب التكنولوجيا الحديثة • يظل امامها مبهورا لان الالة بالنسبة له ليست عبارة عن أواليات تحكم حركتها وبنيتها مجموعة من القوانين الفيزيقية والرياضية ، بل هي كيان سحري يمت الى عالم يتجاوز عالمه• ولهذا فهو يقبل عليها بحذر وتردد ، يصاب أمام معرفتها والسيطرة عليها بنوع من الصد [1] المعرفي • ذلك أيضا يشكل عقبة أمام التغيير والتطوير ، لانه يدفع بالانسان المسحوق نحو التقليدي والمألوف سواء في الوسائل والطرق الانتاجية او في الادوات •

لا شك ان الفئة المتسلطة ، بغية استمرار تسلطها ، تعمل على تغذية عقدة النقص والعجز هذه عند الجماهير المسحوقة ، حتى تظل على استكانتها وتبعيتها ، وحتى لا تحاول اتخاذ زمام المبادرة في تقرير مصيرها بنفسها • الامثلة على ذلك لا تحصى ، ويكفي أن نرى ما يحاوله المستعمر عادة من غرس مشاعر النقص في الشعوب التي يستغلها، من ناحية ، وغرس وهم تفوقه عليها علما وفنا وتقنية وحياة ، لدرجة التضليل ، والزعم انه أتى لتعليمها والارتقاء بها من خلال احتذاء مثاله • ويقوم عادة كي يصل الى هذه النتيجة ، باستعراض قوته وأدواته التي يحيطها بنوع من الجبروت السحري ، جاعلا منها وسائل لا تقهر،وبالتالي فهو نفسه لا يمكن أن يقهر ، وليس هناك من سبيل أمام الجماهير الا القبول بالامر الواقع •

٢ ـ عقدة العار

عقدة العار هي التتمة الطبيعية لعقدة النقص • الانسان المسحوق

---

(١) الصد Inhibition

يخجل من ذاته ، يعيش وضعه كعار وجودي يصعب احتماله • انــه في حالة دفاع دائم ضد افتضاح أمره ، افتضاح عجزه وبؤسه • ولذلــك فالسترة هي احدى هواجسه الاساسية • انه الكائن المعرّض ويخشىأن ينكشف باستمرار • يخشى ألا يقوى على الصمود • يتمســك بشــدة بالمظاهر التي تشكل ستراً واقياً لبؤسه الداخلي • هجاس الفضيحة يخيم عليه (فضيحة العجز أو الفقر أو الشرف أو المرض)• حساسيته مفرطــة جدا لكل ما يهدد المظهر الخارجي الذي يحاول ان يقدم نفسه من خلاله للاخرين • ولذلك فان جدلية الحياة الحميمة والمظاهر الخارجية ، جدلية ما يخفى وما يعلن ، تجعله يعيش حالة امتحان دائم ، وتهديد دائم بفقدان توازنه من خلال فقدان دفاعاته ، وتعرّي حياته الحميمة التي يجتر مأساتها بصمت وألم • همه الاول اجتياز الامتحان والاحتفاظ بـ « السترة » • نظرة الاخرين ، تعليقاتهم ، تكتسب قوة شديدة الوطأة على نفسه ،تهدد مكانته الركيكة واعتباره الذاتي الذي يحافظ عليه بمشقة بالغة •

مع هذه العقدة نضع الاصبع على ما يمكن تسميته نفسيا «بالجرح النرجسي » [1] وهو الذي يشكل أكثر مواطن الوجود الانساني ضعفــا وحسا بكبريائه الذاتي ، انها الكرامة المهددة • ولذلك فان العزةوالكرامة تحتل مكانة أساسية في خطاب الانسان المسحوق : بقاء الرأس مرفوعا ، « الاحتماء من كلام الناس » قضايا مصيرية بالنسة له • يستطيع الانسان المسحوق أن يعيش بدون خبز ، ولكنه يفقد كيانــه الانساني اذا فقــد كرامته وظل عاريا أمام عاره • تلك هي النقطة التي تنهار معها الطاقةعلى احتمال مأساة القهر والبؤس • ذلك ان العار على صلة ، من النــاحية اللغوية ، بالوزن والتقويم ، وهو تقويم سلبي ، دليــل العيب والسبّة وموطن الضعف •

---

(١) الجرح النرجسي — Blessure natcissique

ولكن الرجل المقهور يُسْقِط العار أساسا على المرأة : المرأةالعورة أي موطن الضعف والعيب • بسبب هذا الاسقاط يربط الانسانالمسحوق شرفه كلهوكرامته كلها بأمر جنسي ليس له أي مبرر من الناحيةالبيولوجية المحضة ، ونعني به الحياة الجنسية للمرأة • طبعا ان للوظيفة الاجتماعية لحياة المرأة الجنسية دورا بارزا في هذا الربط ، كما سنرى في الفصل المخصص للحديث عن المرأة في العالم المتخلف • ولكن من الناحية الظواهرية المحضة ، ليس من قبيل المصادفات ان تحاط المرأة بكل هذه الاساطير حول دورها في التعبير عن الشرف المهدد • فطالما أن اكبر درجات الغبن تلحق عادة بالمرأة في المجتمع الذي يتصف بالقهر ، ليس من المستغرب اذاً أن يربط الشرف بها ويسقط العار عليها • يصل الامر حدا من التطرف يجعل القتل مبررا ومعترفا به اجتماعيا تحت اسم جناية الشرف • مبررا لانه يعتبر انتفاضة مشروعة لاستعادة الكرامة والسمعة اللتين هدرتا • يحق لنا أن نتساءل بعد دراسة عدة حالات مما يسمى بجنايات الشرف (قتل الاخت ، او البنت ، او الزوجة ، او الام لاسباب جنسية) اذا لم يكن في الامر خدعة تمارسها الفئة المتسلطة من خلال القيم التي تفرضها على الفئة المسحوقة ، حيث تصور لها ارتباط شرفها وكرامتها بالمرأة بدل أن تربط بالمكانة الاجتماعية والمهنية ، أليس في ذلك تحويلا للانظار عن مصدر العار وسببه وهو الاستغلال والتسلط وما يفرضانه من قهر على الانسان ودوس لكرامته ؟ فالانسان المسحوق ، بدل أن يثور ضد مصدر عاره الحقيقي ، يثور ضد من يمثل عاره الوهمي وهو المرأة المستضعفة • هذا بينما تحتفظ الفئة المستغلة لنفسها بلقب الشرف والنبل من خلال ما تتمتع به من امتيازات •

ان الكثير من التصرفات الاستعراضية التي تشيع في البلدان النامية ، تهدف ، بالتحديد ، الى التستر على عقدة العار ، خصوصا

الاستعراض الاستهلاكي•يأتي بعده كل أشكال الادعاء والتبجح وخداع الاخرين بجاه او مال او حظوة لا أساس لهما من الواقع • ان انسان العالم المتخلف هو أسير المظاهر ، مهما كانت سطحيتها ، ما دامت تخدم غرض التستر على عاره الذاتي •

ليست عقدة العار وقفا على الفئة المسحوقة ، بـل هي عامـة في المجتمع ، حتى الفئة ذات الحظوة لا تخلو منها ، وان كان درع المظاهر الذي تحتمي به أقوى وأصلب وأكثر مناعة • القوة المتسلطة ليست بمنأى عـن خـوف الفضيحة التي تكشف هزال وجودهـا وزيف وجاهتهـا وامتدادها • كما انها لا تخلو من عقدة النقص ازاء الاجنبي والمستعمر الذي يشكل نموذج الرقي بالنسبة اليها • وكما ان الانسان المسحـوق يتشفى من المرأة كي يستر عاره ، كذلك يشتط المتسلط في فرض سلطانه وبطشه على المستضعفين من الناس • من خلال بطشه يحس بالمتعةوالقوة، ساترا بذلك نقصه وعاره •

٣ ـ اضطراب الديمومة

وجود الانسان منغرس في المكان وصائر في الزمان•ولا بد للسلوك كيما يتكيف ويصل مرتبة الخلق ، من التوافق مع جدلية الزمان والمكان هذه ، وملاءمتها بدورها للمشروع الوجودي • والتقدم ، من حيث هو سيطرة على المصير ازاء قانون الطبيعة وقانون السلطة ، يتلخص في مدى السيطرة على قوى الزمان والمان • وبالتالي فالتخلف يبدو مـن هـذه الزاوية ، كعجز متفاوت الدرجة عن هذه السيطرة •

عجز الانسان المتخلف عن التحكم بمصيره مرتبط بوثوق،باضطراب الديمومة • ونقصد بهذا المصطلح ان الزمان جدلي وليس تسلسليا يذهب

من الماضي الى المستقبل : مرورا بالحاضر باتجاه واحد جامد . الماضي والحاضر والمستقبل تشكل الابعاد الثلاثة للديمومة ، أي للتجربة الوجودية المعاشة زمنيا . فالماضي يحدد الحاضر والمستقبل . ولكن الحاضر يلوّن بخصائصه تجربة الانسان التاريخية من ناحية ، ويصبغ استشفافه لمستقبله من ناحية ثانية . كذلك فان المستقبل يؤثر على نوع تجربتنا الحاضرة ، على ادراكنا له ، كما يؤثر على ادراكنا لماضينا . كل من أبعاد الديمومة يتحدد بالبعدين الباقيين ، ويحددهما في آن معا ، مما يجعلنا نعيش الزمن في أي لحظة كوحدة كلية لها لونها الوجداني المميز . آلام الماضي تؤثر على الحاضر فتجعله أشد وطأة ، وعلى المستقبل تجعله أكثر مدعاة للقلق . أفراح الحاضر تدخل التفاؤل على المستقبل كما انها تخفف من معاناة الماضي . الامال التي يحملها المستقبل تخفف بدورها من وطأة المعاناة الحاضرة وتنسينا متاعب الماضي . تلوّن أي بعد من أبعاد الديمومة ،ينعكس سلبا أو ايجابا على الديمومة كلها . ولكن هذا اللون بدوره يتحدد شدة ودلالة انطلاقا من كلية الديمومة .

ان طول معاناة الانسان المسحوق ، ومدى القهر والتسلط الذي فرض عليه ، ينعكس على تجربته الوجودية للديمومة على شكل تضخم آلام الماضي ، وتأزم في معاناة الحاضر ، وانسداد آفاق المستقبل . العجز أمام التسلط وما يستتبعه من عقدة نقص ، والعجز أمام قوى الطبيعة وما يحمله من انعدام الشعور بالامن ، يجعلان الانسان المتخلف فاقدا للثقة بنفسه وامكاناتها ، فاقدا الاحساس بالسيطرة على مصيره في يومه وغده. كذلك فان انعدام الضمانات في الصحة والرزق يجعله نهبا للظروف واعتباطها . فهو لا يدري متى يعمل ويحصل على قوته وقوت عياله ، واذا عمل فلا يدري كم يستمر العمل وكم يدوم الرزق . وهو لايدري متى يقعده المرض والى أي حد وماذا سيحل به وبذويه من بؤس .

القهر والعجز وانعدام الضمانات المستمرة ، ماضيا وحاضرا ، تصبغ المستقبل بالتشاؤم ، فتنسدّ آفاقه ، ويفقد الانسان المتخلف الثقة بامكانية الخلاص • انسداد آفاق المستقبل يضخم بشكل غير محتمل آلام الحاضر ومشكلاته • اليأس من الخلاص ، ومن خلال الجهد الذاتي، هو ما يميز نظرة الانسان المسحوق الى المستقبل•ولذلك فانقلق الحاضر ومصاعبه تأخذ طابعا متأزما • كل شيء يثير في نفسه خوف الكارثة • اذ أن المعاناة الحاضرة التي لا تجد لها امكانية خلاص في مستقبل منظور تحول الحياة الى جحيم • درجة التوتر الانفعالي عالية بشكل غير طبيعي مما يجر ردود فعل متطرفة ، وذات طابع انفعالي خال من العقلانية والتقدير الموضوعي للواقع • ومع ذلك التوتر تزداد العدوانية المتراكمة والمقموعة وطأة ، وتصل عتبة الانفجار ، مما يثير قلق الانسان المسحوق خوفا من نتائج عدوانية التي يخشى ان تفلت من عقالها • وهو لهذا السبب يضاعف جهده لقمع طاقته الحيوية ، من خلال مزيد من الرضوخ الاستسلامي طلبا للسلامة •

ازاء هذه الازمة الوجودية لا يملك الانسان المسحوق حلا سوى الهروب في الماضي : الخرافي أو الواقعي الذي قد تحمل امجاده بعض العزاء له • كما قد يهرب من اطار الزمن بتفجير الديمومة من خلال الغرق في الممارسات التي تنسيه واقعه المؤلم : كالذكر ، والمخدرات ، والزار ، والتخريف • ومن وسائل الهروب الشائعة التمسك بأوهام الخلاص السحري ، من خلال معجزة ما ، تقلب الواقع وتنسف معطياته وتغير مصيره : الخلاص على يد زعيم منقذ ، أو من خلال تدخل الحظ ، أو العناية الالهية •

على عكس الحلول الهروبية ، وبالاضافة اليها ، يشيع في العالم

المتخلف الاجترار السوداوي [1] للمأساة الوجودية . هذا الاجترار يجمد الزمن من خلال اجتياف [2] مرارة الحياة ، وبالتالي يسيطر على هذه المأساة . من هنا نفهم طغيان الطابع الحزين على الحالة المزاجية للانسان المسحوق . طابع الحزن يعمم على كل شيء تقريبا ويبدو بأوضح صوره في الاغاني الشعبية التي تكاد تدخل جميعا في اطار المراثي . ومن الملفت المنظر أن نلاحظ ندرة الاغاني ذات الطابع الفرح المتفائل والدينامي في الموقف من الحياة . ان الاغنية تعبير فصيح عن المعاناة الوجودية عموما ؛ وليس تركزها حول عذاب وآلام العشق سوى ستار يخفي آلام الوجود التي تسقط [3] على علاقة الحب . الاغنية الحزينة مرآة يرى فيها انسان مجتمعات القهر ذاته ويعيش من خلال احباطاته [4] . بالاضافة الى الاغاني ؛ هناك القصص الشعبي والملاحم الشعبية التي تغنى في المناسبات ، وهناك الافلام وما يطغي عليها من حزن ، كلها مرآة تعكس اجترار الآلام التي لا خلاص منها والتي يغرق فيها ذلك الانسان .

تتفاعل عقد النقص والعار واضطراب الديمومة فيما بينها ، مما يزيد حدتها ووطأتها لدرجة يصعب احتمالها . وهكذا يغرق الانسان المسحوق في ضعفه وعجزه واستسلامه ازاء قوى يحس ان لا قبل له بمجابهتها تتحكم بمصيره الذي لا يملك السيطرة عليه . كلما زاد غرقه اشتد تخلفه بالضرورة لانه يفقد العزم ، يفقد القدرة على الفعل والتأثير والمبادرة والمجابهة ، ويقع في التخاذل ويسيطر عليه الجمود ، فينطوي على ذاته مجترا مأساته .

---

(١) اجترار سوداوي — Rumination mélancolique
(٢) اجتياف — Introjection
(٣) اسقاط — Projnction
(٤) احباط — Frustration

ولكن الآلام المعنوية والمعاناة الوجودية التي تنتج عن هذهالوضعية، لا يمكن احتمالها الا بقدر ولمدة معينة • فجميع وسائل الهروبوالاجترار لا تحل المشكلة بشكل جذري ومقبول•وهي لا تسمح للانسانالمسحوق بالاحتفاظ بالتوازن النفسي الضروري ، كيما يتمكن من الاستمرار في العيش • وهكذا عاجلا او آجلا ، لا بد للتوتر أن يزداد وللعدوانية أن تتراكم • وهنا يدخل في زمن الاضطهاد قبل الوصول الى مرحلة التمرد والانفجار •

ثانيا : مرحلة الاضطهاد (١)

يشكل الموقف الاضطهادي من الآخرين والطبيعة ، مرحلة وسطى بين حالة الرضوخ ومرحلة التمرد والانتفاض • ويتداخل مع كل من المرحلتين السابقة والتالية • فنلاحظ هناك حالات رضوخ اضطهادي على طرف ، يقابلها حالات اضطهاد تمردي على الطرف الآخر • وتتوقف هذه المرحلة من حيث امتدادها وشدتها على نوعية بنية المجتمع من ناحية ، وعلى المعادلة الشخصية للفرد من ناحية قواه النزوية وتركيبه النفسي من ناحية ثانية • وحديثنا عن مرحلة قائمة بذاتها ، لا يعني تساوي الميول الاضطهادية عند جميع أفراد المجتمع • الامر لا يعدو كونه تيارا عاما يبرز عما عداه من التيارات الرضوخية والتمردية ، وغيرها التي تكون فاعلةفي الوقت نفسه • هذا التيار يبرز عادة بعد مرور المجتمع المتخلف بمرحلة الرضوخ المتفاوتة طولا وشدة تبعا لتاريخه الخاص •

مع بروز التيار الاضطهادي ، تكون الحالة النفسية للانسان ، قد بلغت درجة عالية من التوتر الانفعالي والوجودي العام • يدخل في

---

(١) اضطهاد Persécution

مرحلة من الغليان الداخلي للعدوانية التي كانت مقموعة بشدة ، والتي بدأت تفلت من القمع وتطفو على السطح ، بعد أن كانت مرتدة على الذات من خلال أوالية التبخيس الذاتي ، وما يرافقها من رضوخ مازوشي . اذ أن كل اواليات مرحلة الرضوخ تظل عاجزة عن التصريف الملائم للتوتر العدواني الناشىء عن القهر . انها لا تفي بالحاجة الى التوازن النفسي الضروري لان الانسان لا يمكنه احتمال التبخيس الذاتي بشكل دائم . لا بد له من الاحساس بشيء من العزة والكرامة ، بشيء من الاعتبار الذاتي في نظر نفسه ونظر الاخرين . ان فشل تحقيق الذات ، فشل الوصول الى قيمة ذاتية تعطي للوجود معناه ، يولّد أشد مشاعر الذنب ايلاما للنفس ، وأقلها قابلية للكبت والانكار . هذه المشاعر تفجر بدورها عدوانية شديدة تزداد وطأتها تدريجيا بمقدار تراكمها الداخلي . وعندما تصل العدوانية الى هذا الحد لا بد لها من تصريف يتجاوز الارتداد الى الذات وتحطيمها ، كي يصل حد الاسقاط على الاخرين .

لب الشعور الاضطهادي هو التفتيش عن مخطىء يحمل وزر العدوانية المتراكمة داخليا . الانسان الاضطهادي بهذا المعنى ، لا يستطيع أن يكتفي بادانة ذاته . انه بحاجة لادانة الاخرين ووضع اللوم عليهم . الانسان الاضطهادي يصاب بذعر لا يمكنه احتماله ازاء امكانية شعوره بالذنب ، انه لا يستطيع أن يتحمل مسؤونية ذنبه ، لان العدوانية في هذه الحالة تهدد وجوده بالانفجار . وهكذا لا يجد أمامه من سبيل الا اتهام الاخرين بالذنب ، وبالتالي بالعدوانية . انه يصب عدوانيته فيهم وعليهم ويجعلهم ممثلين لها ، حاملين أوزارها وأوزار تقصيره الوجودي . تحويل الاخر بهذا الشكل الى مصدر للعدوانية ورمز لها ، يفسح المجال في مرحلة تالية لامكانية تبرير الاعتداء عليه . الاعتداء يصبح مشروعا لانه يتخذ طابع الدفاع عن النفس : اذا كنت عدوانيا تجاه الاخر ، فما ذاك الا

كي أدافع عن نفسي ضد التهديد الذي أتعرض له من عدوانية • ثم ان الصاق العيب الذاتي بالآخر يحوله الى رمز للنقص والعـار • تتخلص بذلك من عارنا الذاتي من ناحية (مما يمكننا من استعادة بعض الاعتبار الذاتي) • ونجعل الاعتداء عليه مشروعا ومبررا لانه عدوان على رمز العيب والعار • الاعتداء على الاخر انطلاقا من هذه الوضعية ، ليس اعتداء على قيمة انسانيته ، بلهو بكل بساطة تحطيم لرمز السوء والعار• من خلال الوضعية الاضطهادية يتحول الآخر الى عقبة تعرقل الوصولالى تحقيق الذات • وبمقدار ما تترسخ هذه النظرة عن الاخر كعقبة ، يفقد انسانيته تدريجيا في نظرنا ، ويتحول الى اسطورة شر ليس هناك منالتزام تجاهها أو حرمة لوجودها ، بل على العس لا بد من القضاء عليها فـي حالة من التشفي • وهو فعل يتخذ طابع القضاء على العقبة الوجودية ، مما يجعلنا نفهم السهولة المذهلة التي يتم فيها العدوان •

في المرحلة الاضطهادية اذاً ، تسقط مشاعر الذنب والتبخيس الذاتي على الاخر ، لا المتسلط بـل الشبيه ، الاخر المقهور او الأكثر قهرا • وتوجه اليه العدوانية المتراكمة متخذة طابع الحقد المتشفي • والهدف من ذلك هو تحطيم الصورة غير المقبولة عن الـذات التي يعكسها للانسان المسحوق من هو أكثر غبنا منه ، مما يعطيه انطباعا ، ولو وهميا ،بالافلات من ذلة القهر • أما تجاه المتسلط فتبدأ العدوانية بالظهور نحوه ، انمـا من خلال التعبير اللفظي والرمزي ، وكل أشكال التعبير غير المباشر الذي لا يتضمن مجابهة صريحة • وهكذا يخلق مناخ عام من العنف يسبـغ العلاقات الاجتماعية بمجملها بطابعة •

وهذا المناخ وما يتضمنه من أسلوب متوتر في التفاعل ، كان بدوره مصدرا استغله المستعمرون والمتسلطون الداخليون ، حين فسر بشكـل مزور على انه جزء من طبيعة بعض الشعوب التي عانت طويلا من القهر •

تلك الشعوب اكتسبت شهرة الدموية او العناد وركوب الرأس او العدوانية ، التي فسرت جميعا بأسباب عرقية أو ما شابهها من التفسيرات المجحفة ، التي لا هدف لها سوى تبرير البطش الذي ينزله المستعمر او المتسلط الداخلي بها : انهم لا يفهمون سوى لغة القوة .. اللطف لا يجدي معهم .. لا يجوز التساهل معهم ، لانهم سيستجيبون بالعنف والتخريب ، سيتطاولون على أرباب نعمتهم .. » . هنا نلاحظ مأزقا آخر يحشر فيه الانسان المسحوق . انه ضحية عنف مزمن ومنظم ، ولكن يطلب منه أن يكون مهذبا ولطيفا ، يلام على خشونته وتوتره . في الحقيقة ان ما يطلب منه هو الرضوخ .

تتحول الحالة النفسية في مناخ العنف لتتخذ مظاهر متنوعة من الاضطهاد ، بالاضافة الى العدوانية الحركية الموجهة الى الاقران . من هذه المظاهر الحساسية المفرطة لادنى مظاهر الغبن ، الاستجابات المفرطة في شدتها لما لا يتناسب مطلقا مع أسبابها المادية المباشرة . اقل نزاع يأخذ أبعادا مضخمة قد ينتهي بمأساة ، كالاقتتال على رأس ماشية ، او اتلاف زهيد الخسائر لمتاع يخص الاخر ، او حتى القتل على افضلية المرور (كما حدث مرات عديدة في بيروت قبل انفجار الحرب الاهلية بفترة وجيزة) . ثم هناك الشك والحذر من الاخرين ، كل الاخرين ، وكأن العالم قد تحول الى غابة ذئاب لا يمكن فيها الاطمئنان حتى الى أكثر الناس قربا ، ولا يمكن الثقة حتى بأكثر الناس صدقا. لانه الاسباب يحدث تشكيك في أطيب الناس من حيث النوايا . ويصاحب تعميم مشاعر الاضطهاد وعلاقات الاضطهاد ، تعبئة نفسية موازية ، استعداد دائم للهجوم أو الرد في أية لحظة ، الغضب والعنف حاضران دائما للانفجار.

وبشكل أكثر خفاء تعمم علاقات اضطهادية من النوع الخوافي [1]

---

(١) خواف Phobic

التطيري [1] ، خصوصا قبل تراكم العدوانية . في الواقع هذه العلاقات وما يصاحبها من ممارسات هي أقرب من حيث شيوعها الى مرحلة القهر. ولكننا نتحدث عنها هنا لان الاوالية [2] التي تسيرها هي الاسقاط ، الحسد والغيرة ، والعين وما تقاوم به من كتابة وأحجبة ورقى وتعاويذ، كلها تخفي شكا وحذرا من الاخرين . كلها تخفي الخوف من المكروه والشر الذي يتوقعه الانسان المسحوق من أمثاله عندما يصيبه غنم(رزق، أو ولد) . في هذه الحالة يضع الانسان نفسه في وضعية المحظوظ ويخشى العدوانية الكامنة (الحسد هو الرغبة العدوانية في الحلول محل صاحب الحظ) التي يشعر بها المغبون تجاهه . انه في الواقع يسقط حسده المزمن لذوي الحظوة على شبيهه هو ، ويتمنى أن يكون محظيا ومحسودا .

كما ان هذه الممارسات تساعد على اسقاط مسؤولية التقصير الذاتي على الاخرين . اذا أصابني سوء أو فشل أو تعثر فليس بسبب قلة حيلة وتدبير ، أو جهد ، بل لنتيجة حسد الاخرين الذين يتربصون بي ويريدون تحطيمي أو بقائي في موقع الفشل والمعاناة . نلمح من هذه الحالة مدى شيوع المناخ الاضطهادي ، ومدى الاحساس بالعدوانية الكامنة لدى الانسان المسحوق .

تلقى اذاً علاقات الاضطهاد ، مسؤولية فشل تحقيق الذات الذي يعاني منه الانسان المسحوق ، على الاخرين (خصوصا الاقران والمشابهين) ، مما يسمح بتصريف العدوانية المتراكمة بصبها عليهم وتحميلهم وزر المأساة الذاتية . ورغم نجاح هذه الاوالية في تخفيف المأزق الوجودي نسبيا ، بالمقارنة مع أوالية الرضوخ ، الا انها لا تحمل

---

(1) تطير Superstition
(2) اوالية Mécanisme

حلا ملائما بصفة دائمة . فالاضطهاد مرهق كنمط وجودي ، يجعل الانسان يعيش دائما في حالة توقع للخطر مما لا يسمح بارتياح كاف . ثم ان الاخرين الذين نصب عليهم نقمتنا ونفرغ عدواننا ليسوا الاعداء الحقيقيين ، بالاضافة الى الصلات الايجابية التي تربطنا بهم : صلات تعاون وتساند وصلات قربى،وصلات تعاطف نابعة من المأساة المشتركة. العلاقة معهم ليست اضطهادية محضة ، ولا هي علاقة تعاطف خالص ،انها من النوع المتجاذب عاطفيا بحيث يختلط الحب والحدب مع العداء والحقد بقدر متفاوت . ولذلك فالحل الاضطهادي يظل واهيا . ولا بد بعد فترة تطول أم تقصر من الوعي بمصدر المأساة الحقيقي ، وهو المتسلط الداخلي وحليفه الخارجي! . ولا بد بالتالي من توجيه العدوانية والعنف نحو هذا المصدر ، بعد فترة اعداد واختمار تنضج خلالها فكرة التمرد والانتفاضة.

ثالثا : مرحلة التمرد والمجابهة

وهكذا فالشعب الذي « ظلوا يقولون له انه لا يمكن ان يفهم غير لغة القسوة ، يحزم امره الان ، على أن يعبر عن نفسه بلغة القسوة » (فانون ، معذبو الارض ، دار الطليعة) ان بزوغ فجر الكفاح المسلح «يشير الى أن الشعب قد قرر أن لا يثق الا بالوسائل العنيفة » ، وان « الاستعمار لا يفهم الا بلغة القسوة » [1] .

« العنف المسلح هو السبيل الوحيد ليتخلص الشعب المقهور من عقد النقص والجبن والخوف التي غرسها في عروقه الاستعمار الغربي . انه ايضا من خلال هذا العنف الثوري يحقق الشعب ذاته ، وينقي نفسه من الكسل والخبل والاتكالية »[2] « يطهر العنف من السموم، انه يخلص

---

(١) عباس محمد علي ، مجلة « دراسات عربية » ، السنة السابعة، العدد ٢ ، بيروت ١٩٧٠ .

(٢) د. ابراهيم سعد الدين (عن فانون) مجلة « دراسات عربية » السنة السادسة ـ العدد ٥ ، بيروت ١٩٧٠ .

المستعمر من مركب النقص الذي يعيث في نفسه فسادا ، كما يحرره من مواقفه التأملية اليائسة ويبعد عنه الخوف، ويرد اليه اعتباره في نظر نفسه» (بسام الطيبي عن فرانز فانون من كتاب معذبو الارض) .

يصل المجتمع المتخلف بالضرورة في مرحلة من مراحل تطوره الى العنف ، بعد فترة شيوع العلاقات الاضطهادية . وهنا يتوجه العنف ضد القوى المسؤولة عن القهر (المستعمر والمتسلط الداخلي) . يتضح للشعب المقهور ان العنف المسلح هو السبيل الوحيد كي يعبر عن نفسه وعن حقه في الوجود . لقد يئس من امكانية الوصول الى الحق الذاتي بالرضوخ أو بالعنف الداخلي . ليس هناك من لغة ممكنة مع قوى التسلط سوى لغة مماثلة للغتها ، لغة القسوة ، لغة الغلبة . ومع ترسخ اليأس من الحوار السلمي او الرضوخ ، يترسخ الاحساس بضرورة العنف والا تحول الشعب الى ضحية دائمة ونهائية . نحن هنا أمام الظاهرة التي يسميها علماء الاحياء برد الفعل الحرج الظاهرة التي تتلخص في الخيار بين الفناء أو المجابهة . وهي تلاحظ عند الانسان والحيوان على حد سواء . فقد يستسلم الكائن الحي ويرضخ او يهرب طالما برزت لديه امكانية للنجاة ولكن عندما تنعدم هذه الامكانية يتحول الضعف الى قوة يستجيب برد فعل حيوي يعبىء ، كل طاقاته ويكثفها في دفاع مستميت عن وجوده . ومن المعروف في هذه الحالة ان فئة مستضعفة قد تغلب فئة قوية ، انست الى قوتها واطمأنت الى أن الغلبة ستكون بجانبها ، ولذلك فهي تستجيب بشيء من التراضي الذي يشكل مقتلا لها . الكثير من الانتصارات المفاجئة وغير المتوقعة التي حققتها فئة قليلة ضد فئة تفوقها عدة وعددا ، كان للاستجابة الحرجة دور هام فيها .

يمد العنف في مجابهة المتسلط بنوع من الاحساس بالقوة ، التـــي تصبح رمز الحياة . المهمة الاساسية ، أو المرحلة الحاسمة في هذه المجابهة هي في التغلب على خوف الموت . ان تحدي الموت وقهره يحمل في النهاية معنى الانتصار على القهر والرضوخ اللذين يعنيان موتا معنويا ووجوديا. منذ اللحظة التي يبدأ فيها الانسان المسحوق بتحدي الموت والظفر عليه يكون قد قلب ، من الناحية النفسية الذاتية المحضة ، معادلـــة التسلط والرضوخ وانتصر على ذاته ، مما يتيح له الانتصار على قوى القهر فيما بعد . ان الانتصار على الموت هو قضاء على أجتياف التبخيس الذاتي الذي يعني النقص والمهانة ، ويعني بالتالي أنعدام القيمة الذاتية . ومن هنا نلاحظ أهمية الشعارات التي تطرح في بداية مرحلة التحدي والانتفاض: استعذاب الموت والشهادة ، قوافل الشهداء ، تمجيد العمل المسلح . ان الحاجة الى قهر الموت هي المدخل الى عملية التحرير . ففي ذلك انتصار على كل العقد الذاتية ، انتصار على الخوف والاستكانة ، انتصار على اليأس ، انتصار على قلق الحاضر والمستقبل ، وتحول في المصير . قهر الموت ينسف مشاعر الخوف المتأصلة في نفسية الانسان المقهور . كما ان العنف ينسف مشاعر التنكر للذات وللجماعة وصب الحقد عليها . انه يوحد الشعب ، يقيم صلحا بين الذات وبين الجماعة ، ويرد اليهما معـــا الاعتبار الذاتي ، يحفظ كيانهما ويحقق الأمل المشترك في الوصول الى الانسانية . ولذلك تنشأ لحمة قوية بين أفراد الشعب المسحوق ، وتبرز مشاعر الاعتزاز بالانتماء اليه . تتغير دلالة الذات والجماعة من سلبية مطلقة الى ايجابية مطلقة ، من أشد درجات التبخيس الى أقصى درجات التقديـــر .

من خلال السلاح يحدث انقلاب جذري في الادوار ،يتحول الضعف الى قوة . يتخذ السلاح دلالة مبالغا فيها تكاد تكون سحرية ، فهو درع وحماية ، وهو رمز الوجود الجديد . ومن هنا مباهاة الانسان المقهور باستعراض سلاحه ، استعراض كيانه الجديد الذي قضى نهائيا على الرضوخ . يصبح السلاح او يكاد القيمة الحقيقية الوحيدة . ولذلك يتعرض العمل التحرري اذا لم يكن منظما ومؤطرا بشكل كاف : الى نوع من الانتفاضة السحرية . وكأن التحرر كله هو في حمل السلاح الذي أعطى الانسان المقهور الحرية الذاتية . تنحسر قيمة العمل الصامت طويل النفس (الاعداد والتنظيم) لحساب القتال . وبما ان الحاجة الى التحرر واستعادة الاعتبار الذاتي ملحة ومزمنة ، فان الشعب المقهور لا يستطيع الانتظار طويلا ، انه يريد نتائج عاجلة وآنية ، عملا ملموسا يطمئنه ، انه يريد حلا سحريا ، ويستخدم السلاح كعصا سحرية ، تقضي على الماضي الاسود اليائس الى غير رجعة .

هذه الحاجة الى خلاص سريع من خلال القتال ، قد تخلق عقبة فعلية في وجه التنظيم والاعداد لمعركة طويلة النفس ، من خلال خطر تحول الثورة الى فورة، واختزال العمل الثوري في مجرد خوض معارك قتال . وتنبع هذه العقبة ، كما سنرى بعد قليل ، من استمرار تأثير أساليب العمل القديمة والمرتبية القديمة (مرتبية التسلط والرضوخ) فعالة حتى في العمل المسلح والعلاقات الجديدة المسلحة .

لا يعم استخدام القوة كل الشعب مباشرة . لا بد في البداية من قلة تقود هذا العمل . وتتماهى [1] الجماهير بهذه القلة متمثلة شيئا من

---

(١) التماهي Identification

بطولتها ، وجاعلة منها رموزا للجماعة . ومن خـلال عملية التماهي هذه تكتسب الجماهير شيئا من الثقة بالنفس والامكانات الذاتية ، وتبـرز لديها الحاجة الى تجاوز استسلامها وشعورها بالعجز . والقلة القائـدة فعلا هي التي تستطيع أن تعمم أسلوب المجابهة عند كل الناس المسحوقين. اذ هناك خطر لان تظل منفردة في مواقع البطولة ، تستقطب الجماهير التي تظل على تبعيتها المزمنة ، مع تغيير في التبعيـة ، من متسلط قـديم الى مخلّص جديد .

عندما ينتفض الشعب المسحوق ويحمل السلاح بما يعنيه من معاني الخلاص السحري ، ويقهر الموت منتصرا على خوفه منه ، يلاحظ تغير في التجربة المعاشة والسلوك ، هو على النقيض تماما من مرحلة الرضوخ . فبدل عقدة النقص تبرز عقدة التفـوق والاستعلاء ، وبـدل العجـز والاستسلام تبرز عقدة الجبروت [1] ، وبدل انعدام المكانة تبرز عقدة الاستثناء . الانسان المسحوق الذي حمل السلاح ، دون انتماء سياسي منظم وتثقيف كـاف ، وفي كثير من الاحيـان مع توفر هذين الامرين ، يعوض عن نقصه بنوع من التفوق والاستعلاء على من حولـه . يحس بشيء من الجبروت ، بأنه وجماعته المسلحـة فئة لا تقهر ، تنهار أمامهـا الحواجز والصعاب . يحس بنوع من الاستثناء ، فكل شيء مسموح له، وكل التجاوزات . ولذلك فهو يزدري كل القيم السابقة ، ويشعر بالحاجة الى كسر كل القواعد التي حكمت حياته . ويحدث في أغلب الاحـوال نوع من التركز حول الذات ، فكأن العـالم كله يجب أن ينتظم انطلاقا منه هو وتبعا لوضعه . هناك تضخم ذاتي يقابله انحسار في قيمـة وأهمية المحيط ، على العكس تماما من مرحلة الرضوخ . هذا التضخم

---

(1) الجبروت Toute puissance

يؤدي الى سيطرة مزاج نفاجي [1] على الانسان ، نوع من الاحساس بالامتداد والعظمة . فبدل الاجترار السوداوي وما يرافقه من ادانة للذات وانحسار لها وجمود للديمومة ويأس من المستقبل ، نلاحظ ان الانسان المسحوق الذي حمل السلاح وقهر الموت ، يعيش نوعا من السيادة على مصيره ، كأن الزمن قد انصاع له ، فتكتسب الحياةدينامية متسارعة ، وتسود العجلة ، وتظهر التصرفات الاهتياجية [2] بما فيها من تسرع وطنين وصخب ، ويبدو كل شيء في متناوله ، ويطغى نوع من الحبور على الحالة المزاجية ، ويصطبغ المستقبل بالتفاؤل المفرط والمبالغ فيه دون سند كاف من الواقع . هذه الحالة اذا كانت حتمية في بداية العمل المسلح ، فانها تحمل خطر التحول من خلال ترسخها والثبات عليها (لما تحمله من ارضاءات وتعويضات نفسية) الى عقبة أمام عملية التحرر طويلة الامد ، التي تتطلب الكثير من الجهد الصامت والتعامل الصبور مع الواقع بكل تفاصيله . اذ أن سيطرة المزاج النفاجي والحالة النفسية الاهتياجية تلغي الواقع تماما من خلال ازدرائه ، وهنا مكمن الخطورة فيها ، وضرورة التنبه لها . فمن الممكن الغاء الواقع سحريا ، ولكن ذلك لن يغيره بحال من الاحوال . تلك مشكلة توقف عملية التحرير عند حد ردود الفعل التعويضية [3] .

من الاخطار التي تنتشر في هذه المرحلة ، نظرا لغياب الاطر المرجعية الجديدة (التغييرية) وعدم حلولها محل الاطر المرجعية السابقة ، استمرار هذه الاطر ، وممارسة العمل المسلح من خلال مرتبية التسلط والرضوخ . نقصد بذلك تحديدا مسألة التماهي بالمتسلط في استعمال العنف والسلاح .

---

(١) نفاج — Mégalomanie
(٢) الاهتياج — Massie
(٣) رد الفعل التعويضي — Réaction de compensetion

فالانسان المسحوق الذي حمل السلاح دون ثقافة سياسية كافية ، توجّه وضعه الجديد ، قد يقلب الادوار في تعامله مع الجمهور أو مع من هم في أمرته فيتصرف بذهنية المتسلط القديم • يبطش ، يتعالى ، يتعسف ، يزدري ، وخصوصا يستغل قوته الجديدة للتسلط والاستغلال المادي والتحكم بالآخرين • أو هو يمارس العمل المسلح بذهنية عشائرية ، يتمسك بالانتماء العشائري والاقليمي في تعامله مع الآخرين جمهورا ومسلحين ، مما يوقعه في تحيزات تشكل عقبة فعلية في وجه التحرر الحقيقي • ومن الاشكالات الشائعة في هذه المرحلة الانشطار [1] الذي يحدث بين مختلف قطاعات الحياة والشخصية ، بين الثقافة الثورية النظرية والممارسة المسلحة والحياة اليومية • فهو متحدث ممتاز في النظريات الثورية ، ولكنه يمارس العمل المسلح بشكل سحري ، ويعيش حياته اليومية بشكل عشائري أو مرتبي (يتحكم بالاخرين ، يعامل زوجته واولاده بشكل تسلطي الخ ••) كل تلك أمور قد يكون لنا وقفة ثانية عندها •

التخلف ظاهرة كلية ، وعلاجها يجب أن يكون شموليا ، يتنبه الى كل مواطن مقاومة التغيير التي يتضمنها ويتصدى لها بنفس طويل •وأشد نقاط المقاومة استعصاء على التغيير هي البنية النفسية التي يفرزهاالتخلف، بما تتميز بهمن قيم ونظرة الى الكون • فكما أن الالة ، نتاج التقنية المتقدمة ، قد يعاد تفسيرها كي تستخدم بشكل خرافي أو سحري في البلد النامي ، كذلك عملية التغيير الجذري (الثورة) قد يعاد تفسيرها كي تمارس من خلال الاطر النامية وتفقد بالتالي قدرتها التغييرية •

---

(1) الانشطار Clivage

الفصل الثالث

العقلية المتخلفة

لا بد لاي دراسة نفسانية للتخلف ، من وقفة هامة عند العقلية التي تحكم السلوك وتحدد النظرة الى الكون ، العقلية المتخلفة أو الذهنية المتخلفة ، تحتل مكانا بارزا في الآراء الشائعة عن التخلف ، حتى يكثر الربط بين هذه الظاهرة ونمط التفكير والنظرة الى الامور • فالتخبط الذهني ، والفوضى ، والعشوائية ، وسوء التخطيط والارتجال كلها تعد من ملامح التخلف الاساسية •

تنبع أهمية دراسة الذهنية المتخلفة وخصائصها من الدور الحاسم الذي يلعبه الفكر في تقدير الواقع وتكوين الاحكام الموجهة للسلوك • هذه العقلية اذا اتصفت ببعض الخصائص التي تجعل ملامستها للواقع سطحية ، عاجزة عن الغوص فيه والسيطرة عليه ، وإذا اتسمت بالجمود والقطيعة ، تؤدي الى خلق عقبات معرفية جدية تعرقل خطط التنمية التي لا بد أن تنطلق من التقدير الدينامي الشمولي لذلك الواقع • انها تعطي المبررات الذهنية لمقاومة التغيير • والاخطر من الامرين معا احتمال اعادة تفسير المنهجيات النظرية والاساليب التقنية المستخدمة في التنمية ، من خلال القوالب التقليدية للذهنية المتخلفة ، مما يفقدها بدورها قدرتها التغييرية ، أو على الاقل يحد منها الى درجة كبيرة •

لا بد لنا أن نكون منهجيين في دراستنا للعقلية المتخلفة • وأول

شروط هذه المنهجية الاعتراف بحدودنا الذاتية . ان ما سنستعرضه في هذا الفصل من خصائص الذهنية المتخلفة وأسبابها الممكنة ، لا يعدو كونه محاولة أولية لا تدعي الشمول في عرضها للواقع ، ولا تدعي لذلك القطيعة. فهي عبارة عن محاولة مبدئية لتنسيق معطيات الملاحظة والمعايشة اليومية للنمط المتخلف من النظرة الى الوجود ، والتعامل مع ظواهره . أنها لا تستند الى بحث تجريبي أو استقصاء يغطي الظاهرة ويسمح باستنتاجات نهائية . المهمة المطروحة امامنا في هذا الفصل ، هي بكل بساطة محاولة رسم صورة تدخل بعض التنظيم ، تعرض بعض الخصائص الاساسية وأسبابها . وهي تصل غايتها اذا تمكنت من طرح تساؤلات حول ما تتضمنه من ثغرات تشكل منطلقا لابحاث ميدانية أكثر تحديدا .

الحديث عن العقلية المتخلفة يتضمن مرحلتين . الاولى رصد الملامح والخصائص الاساسية ، أما الثانية فهي محاولة بحث الاسباب والقوى المولدة لهذه العقلية ، التي تغذيها وتعمل على استمرارها .

اولا : الخصائص الذهنية للتخلف

الملامح الذهنية للتخلف متعددة ومتنوعة ، قابلة للانتظام في موضوعات أساسية ، وأخرى متفرعة عنها تبعا للمنظور الذي يتخذه الباحث . ونحن لا يسعنا أن نكتفي بمجرد سرد هذه الملامح وتوضيح كل منها ، بل لا بد من تبيان الرابطة بينها ، ما أمكن ، من خلال تصنيف يبدو لنا أكثر منطقية وواقعية من سواه : هناك من ناحية خصائص ذهنية منهجية ، ومن الناحية الاخرى خصائص ذهنية انفعالية . ترتبط الاولى باضطراب منهجية التفكير ، وقصور التفكير الجدلي . أما الثانية فتختص بتبيان تدخل العوامل الذاتية والعقلانية في النظرة الى الوجود . هذه النظرة تختلف في البلدان المتقدمة عنها في البلدان النامية . فبينما الاولى تسير نحو مزيد

من التجرد من الانفعال والتجريد والموضوعية ، نرى الثانية لا زالت أسيرة الانفعال والذاتية والغيبية ، وخصوصا أسيرة نظـام القهر (التسلط والرضوخ) ، الذي يحكم الوجود المتخلف . على أن تقسيما كهذا لا يعني انفصالا على مستوى الواقع والممارسة . فالعقلية المتخلفة هي جزء من ظاهرة كلية ، هي الوجود المتخلف الذي يتصف بالدينامية والتماسك الداخلي ، شأنه شأن أي نمط آخر .

١ ـ الخصائص الذهنية المنهجية

وهي الاكثر ألفة بين الناس حين الحديث عن التخلف من الناحيـة العقلية . وتتلخص في أمرين أساسين : اضطراب منهجية التفكير من ناحية، وقصور الفكر الجدلي من ناحية ثانية . ويتلخص الخلل في الحالتين بصعوبة السيطرة الذهنية على الواقع بكل تفصحاته . هناك عجز عند الانسـان المتخلف (المسحوق خصوصا) ازاء ظواهر الطبيعة والحياة والعلاقات ، تجعله يظل راضخا مستسلما تجاه ما يبدو عليها من غموض وتداخـل . تبدو له ظواهر الحياة والمجتمع أقوى من طاقته على الاستيعاب . ذلك أمر مرتبط بعقدة النقص التي ناقشناها في الفصل السابق . وهو لذلك يتوسل وسائل سحرية أو خرافية لسد النقص هذا . من وجهة نظر التحليل النفسي يأخذ الامر على المستوى اللاواعي طابع الخصاء الذهني [١] ، الذي يميز بعض حالات الضعف العقلي الزائف [٢] . ويتلخص الخصاء الذهني بنوع من صد [٣] القدرة على الفهم ، بنوع من العجز عن توكيد الذات في مواجهة العالم . أما من الناحية الاجتماعية فيرجع الامر الـى

---

(١) الخصاء الذهني — Castration mentale

(٢) ضعف عقلي زائف — Pseudo-débilité

(٣) صد — Inhibition

رضوخ الانسان المتخلف لاعتباط قوى الطبيعة ، وتسلط الفئة المسيطرة .
هذا الرضوخ هو المسؤول عن توليد حالة الخصاء الذهني التي نحن بصددها ، والتي تشكل الامتداد النفسي لوضعية القهر الاجتماعي .
وهكذا فالانسان المتخلف لا يقبل على العالم بخطى ثابتة ، يبدي التردد ويتجنب وضع امكاناته العقلية موضع الاختبار خوف الفشل،وقد يذهب في ذلك الى درجة يدعي معها عدم القدرة سلفا حتى لا يصاب بخيبة أمل أو حتى لا يتفضح عجزه . يبدو هذا الموقف واضحا أمام كل الظواهر غير المألوفة ، ازاء كل مستجد أو غريب . أو هو يميل الى التعسف هربا من عجزه فيطلق الاحكام المسبقة والآراء المتسرعة مدعيا القدرة على آنية الفهم وفجائيته ، دون أن يجشم نفسه عناء الجهد الفكري الضروري لتحليل الواقع ، والوصول الى استنتاجات بشأنه . في الحقيقة يتذبذب الانسان المتخلف ما بين الشعور الشديد بالعجز عن استيعاب العالم ، وبين طغيان مشاعر السيطرة على الواقع من خلال الحذق (الفهلوة) ، الذي يعتد به الجمهور كوسيلة مفضلة للفهم .

أ ــ اضطراب منهجية التفكير

اول ما يطالعنا في اضطراب منهجية التفكير هو سوء التنظيم الذهني في التصدي للواقع . تقترب الذهنية المتخلفة من الواقع وتتعامل معه دون خطة مسبقة ذات مراحل منطقية واضحة سلفا . الفوضى والعشوائية والتخبط والمحاولة شبه العمياء هي المميزة . وهكذا فبدلا من تنظيم الواقع والسيطرة عليه تزيد من حدة ما يبدو عليه من فوضى وانعدام في التماسك . يقع الانسان المتخلف في الغموض والحيرة مما يجعله يلجأ الى التمنيات بخروج سحري من المأزق . ففي مناقشة مسألة ما مثلا ، نجد الحديث يتشعب ، ويذهب كل مذهب ، في حالة من تداعي الافكار التي

تبتعد تدريجيا عن الموضوع الاصلي ، ثم تعود اليه كي تطرح قضايا جديدة تكون بدورها منطلقا للانجراف في أمور جانبية • وهكذا يخرج المجتمعون بعد نقاش طويل دون تكوين تصور واضح عن المسألة وايجاد الحلول لها • تطرح عدة قضايا تظل جميعا معلقة لا يذهب التفكير فيها ابعد من السطح ، ويتحول عنها عند الاصطدام بما تتضمنه من عقبات وصعوبات تتطلب جهدا لاستجلائها وحلها •

بينما نرى العقلية المنهجية تتقيد عادة بعدة خطوات في بحثها لأي مسألة ، يبدأ الامر بمحاولة تعريفها بأكثر ما يمكن من الدقة والوضوح، ثم تحدد الهدف المطلوب الوصول اليه من هذا البحث • بعد التعريف وتحديد الهدف تأتي خطوة بحث المشكلات التي تتضمنها • وهذه تقسم الى أساسية وثانوية مع تبيان العلاقة بين الفئتين • الخطوة التالية هي جمع المعلومات والمعطيات المتوفرة عن المسألة في مختلف جوانبها ومستوياتها • وفرز هذه المعلومات من حيث أهميتها ومدى تمثيلها للواقع • عند هذا الحد يصبح ممكنا طرح تصورات متعددة عن الحلول الانسب تبعا للهدف المقرر • هذا الطرح يتلوه مناقشة كل حل ومدى فعاليته ، وما يعترضه من صعوبات وما يتضمن من تسهيلات • وانطلاقا من هذه المناقشة للحلول يمكن ترجيح الحل الانسب تبعا لاطار المشكلة وظروفها من ناحية ، وللهدف المحدد من ناحية ثانية • وأخيرا ترسم خطوات ومراحل التنفيذ وأدواته وأساليبه • طبعا لا يأخذ الامر دوما هذا التسلسل المنهجي المتين • انما في الذهنية المتقدمة هناك باستمرار تنظيم للتفكير واسترشاد باطار منطقي يمكن الباحث من العودة الى الطريق السليم ، اذا انجرف في اعتبارات جانبية •

أما الذهنية المتخلفة فهي تغرق في التخبط عند كل مرحلة من المراحل

السابقة • كما تقفز من مرحلة اولية الى مرحلة نهائية كي يتضح لها العجز عن متابعة السير ، فتعود القهقرى الى الوراء • وتظل هكذا بين اقدام واحجام . لا تستطيع أن ترجح حلا على آخر • وهي ان فعلت فأغلب الظن نتيجة لتدخل عوامل ذاتية وانفعالية أكثر منها مراعاة لاعتبارات منطقية• ومن هنا ندرك مدى الهدر في الوقت والجهد الذي تتعرض له العقليـة المتخلفة ، ومدى التذبذب وانعدام اليقين ، نظرا لافتقار الحلول الـى المتانة المنطقية •

ولا يتوقف هذا التخبط والمحاولة والخطأ على بحث الامور النظرية بل هو النمط الشائع في التصدي للحياة بقضاياها اليومية • حتى ان العمل المهني لا يسلم من هذا التخبط•فنجد العامل مثلا يقدم على تصليح آلة ما عن طريق المحاولة والخطأ ، وهو ليس على يقين من مصدر العلة ولا من احتمالات النجاح في علاجها • يرجع هذا الامر بطبيعة الحال الى الجهل في أغلب الاحيان ، والاقدام على ممارسات يفتقر فيها العامل الى التخصص الكافي • ولكنه نظرا لحاجته لكسب قوته يدعي المعرفة فيما لا خبرة له فيه ، فاذا نجح كان ذلك حظا وتوفيقا ، واذا فشل فانه يغطي فشله باختلاق أعذار وتفسيرات تبدد جهد ومال من استعان بخدماته •

واذا كان التخبط واعتباطية الالتماس يميزان اسلوب الفئات غير المتعلمة ، فانهما لا يقتصران عليها مطلقا • انهما على درجة كبيرة مـن الانتشار بين اغلب فئات المتعلمين ، حتى اولئك الحاصلين على الدرجات الجامعية • على المستوى الجامعي يلاحـظ المرء مدى الصعوبـات التي تعترض الطلاب من الناحية المنهجية • هناك عجز شبه تام عن اتباع المنهج المنطقي في عرض الامور ، ذلك هو السبب المباشر لفشل نسبة هامة من الطلاب في الامتحانات ، رغم حفظهم المادة عن ظهر قلب • انهم لا يعرفون ماذا يختارون للاجابة ، ولايعرفون كيف يعرضون المادة المختارة ، مما

يجعل اجابتهم أقرب الى تداعي الافكار منها الى عرض منظم للموضوع. تبلغ هذه الصعوبة أقصى درجاتها حدة في الدراسات العليا . تبعالخبرتنا الشخصية ، يمكننا القول ان العجز المنهجي هو العقبة الاساسية التي يصطدم بها الراغب في القيام ببحث علمي . يبدو القصور مذهلا على هذا المستوى ، وهو الذي يصرف غالبية هؤلاء عن متابعة مشاريعهم ، بعد نجاحهم في امتحان الدروس النظرية . عندما نطلب الى الواحد منهم وضع تصميم للموضوع الذي اختاره يعجز عن تحديد ماذا يريد ان يبحث وكيف . الغموض يسيطر عليه لدرجة اليأس اذا لم يلق مساعدة هامة من المشرف على بحثه . التشويش والتداخل يجعلانه عاجزا عن الاستفادة من معلوماته .

لا يقتصر الامر على الطلاب ، بل نجد الكثير من المؤلفين الجامعيين يفتقرون الى الدقة والتنظيم المنهجي في كتاباتهم . انهم يذهبون في كل اتجاه ، ويتحدثون عما يلائم وما لا يلائم الموضوع ، ويقعون في التكرار ، مما يجعل كتاباتهم اقرب الى تكديس المعلومات منها الى تنسيقها . ان الذهن المتخلف لا زال عاجزا عن ادخال التنظيم على الواقع ، لانه يفتقر هو ذاته الى التنظيم والمنهجية ، ويعيش في التخبط والعشوائية .

ويرتبط بمسألة انعدام المنهجية قصور عمليات التحليل والتوليف كخطوتين مترابطتين ومتتابعتين في بحث المسائل . يظل الانسان المتخلف على مستوى الملاحظة الساذجة والانطباعات الاولية ، مما يدفع به الى الاكتفاء بالمعرفة الحدسية التي لا تذهب بعيدا عادة في البحث العلمي ، اذ أنها تشكل مرحلة أولية منه . وهكذا يظل على السطح ، لا يمسك من الظواهر سوى جوانبها الخارجية . هنالك عجز عن الغوص في تحليل التفاصيل والمقارنة بينها . وهناك عجز عن استعراض مختلف جوانب المسألة . يظل التفكير انطباعيا قاصرا عن الالتماس النقدي (ما لكل أمر

وما عليه) • أن تحليل الظواهر عمقا واتساعا هو الشرط الاساسي للسيطرة على الواقع • وبمقدار عمق التحليل ترتقي الاستنتاجات • يعجز الذهن المتخلف عن الذهاب بعيدا في تحليله للامور ، لانه لا يدرك ان لكل ظاهرة مستويات متعددة من العمق والاتساع • وانها تبدو مختلفة تبعا لكل مستوى • والخطر كل الخطر هو في الاكتفاء بالمستويات الخارجية التي تشكل عادة قناعا يخفي الحقيقة بقدر ما يعبر عنها • خطر هذا الموقف المتسرع ، يتلخص باطلاق الاحكام القطعية والنهائية بشل مضلل •فالحقيقة نسبية دائما وقيمتها رهن بالمستوى التحليلي الذي بنيت على أساسه •كل حقيقة تخفي وراءها أخرى أكثر محورية منها • كل حقيقة هي بهذا المعنى قناع ، لا بد من تجاوزه عمقا واتساعا اذا أردنا الارتقاء بالمعرفة الانسانية للوجود •

يبدو وكأن الذهن المتخلف العاجز عن الغوص في تحليل الظواهر عمقا واتساعا ، مصاب بنوع من الصد المعرفي ، بشيء مما يسمى في علم النفس باسم «الحشرية الممنوعة» •فهو أسير النقاط العمياء في عملية الادراك التي تظل قاصرة ومليئة بالثغرات • ويرتبط هذا الامر بما عرضنا له من عجز أساسي عن السيطرة على الواقع ، ومن شعور بالنقص تجاه ظواهر الطبيعة والعلاقات •

لا يقف الامر عند حدود العجز عن التحليل الشامل ، بل يتخذ مظهرا آخر هو صعوبة الانتقال من هذا التحليل الى مرحلة التوليف [1] •ليس التحليل من قيمة عملية الا بالقدر الذي يسمح معه بالخروج بتصورات متماسكة عن الواقع ، تؤدي الى قرارات ومواقف فعالة • وكما أن هناك عجزاً في استعراض مختلف جوانب الظاهرة ، هناك ايضا عجز في الربط

---

(١) توليف Synthèse

بينها في وحدات كلية ، وعجز في اعادة ترتيبها في صيغ جديدة . فالفكر الخلاق هو ذاك القادر على اعادة تفسير الوقائع، أي بلغة مدرسة الشكل[1] اعادة ترتيبها في علاقات جديدة توضح خصائصها التي كانت غامضة ، مما يجعل الواقع يبدو أكثر شفافية وتماسكا . الذهن المتخلف يظل حائرا أمام شتات الظواهر ، لا هو بقادر على النفاذ الى لبها ، ولا هو بمستطيع اعادة ربطها فيما بينها في صيغ جديدة ، ولذلك فهو يصطدم بصعوبات الحل . كما انه يعاني من صعوبات في الانتقال من مرحلة التفصيلات ، الى مرحلة التنسيق الكلي . ويرتبط هذا الامر بخاصية الجمود والقطعية التي يبدو انه يتصف بها . فهو يعمل ، كما سنرى في الفقرة التالية تبعا لمبـدأ « اما ، أو » عاجزا عن جمع الطرفين معا .

وبهذا المعنى فان الذهن المتخلف يعاني من قصور الفكر النقدي ، انه متحيز بشكل تلقائي نظراً لتدخل العوامل الانفعالية والعاطفية في آلية التفكير . وهو قطعي في تحيزه ، فاما ان يكون مع أو ضد أمر ما . ويبدو قصور الفكر النقدي بالتالي من خلال العجز عن الجمع في سيـاق واحد بين الاوجه الموجبة والاوجه السالبة لمسألة ما، بين المميزات والعيوب. فقط هذا الجمع يسمح بتلطيف الاحكام، وزيادة قدرتها التمييزية، وبالتالي زيادة فعاليتها من خلال التقدير الفعلي لوزن ومدى الاوجه المختلفة للظاهرة. ان هذا القصور في الفكر النقدي هو نتيجة طبيعية للانفعالية المسيطرة على عقل الانسان المتخلف . هذه الانفعالية هي بدورها ، كما سنرى نتـاج مباشر لسيطرة نظام التسلط والقهر على وجوده ، ذلك النظام الذي ينسف كل منطق ، ويعطل كل عقلانية .

بالاضافة الى قصور عمليات التحليل والتوليف ، وقصور التفكـير

---

(١) مدرسة الشكل ـ علم نفس الشكل école de la forme (Gestalt)

النقدي ، يتسم الذهن المتخلف بانعدام المثابرة • التركيز على التفكير في أمر ما محدود زمنيا ، سرعان ما يدخل اليه التعب والتشتت ، ينطلق بحماس كبير ولكنه نفقد حماسه بنفس السرعة التي بدأ فيها • ان حماسه والتزامه بلا غد • ولذلك تكاد الخطط بعيدة المدى تصبح مستحيلة • انه بحاجة الى نتائج آنية وشبه سحرية • ولا قدرة له على الجهد الطويل النفس المركز حول نفس المسألة • وينتج هذا الامر ، كما اتضح لنا في الفصل السابق عن اضطراب الديمومة • ولهذا يصعب على الانسان المتخلف ان يكون باحثا متخصصا ، لان البحث يحتاج الى جهد دؤوب ومثابرة تتغلب على صعوبات البداية ، وصعوبات وملل مرحلة الاعداد والاختمار قبل الوصول الى النتائج • تلك نتيجة منطقية لعالم يحكمه الحظ والحظوة ولا مكان فيه للارتقاء من خلال الجهد الذاتي بعيد المدى • انه نتيجة اليأس من امكانية الوصول من خلال الجهد الذاتي • وهكذا يظل الطابع السائد في المجتمع المتخلف لمواجهة الامور ، هو طابع تدبير الحال ، طابع البحث عن المناسبات التي تحمل امكانات النجاح السريع •

من السمات البارزة أيضا للعقلية المتخلفة في تقديرنا ، انعدام الدقة والضبط في التصدي للواقع ، وفي تقدير الامور • كل شيء يظل على مستوى التقدير الاجمالي ، والانطباع العام • الدقة الرياضية لا مجال لها في العالم النامي • كل شيء عرضة للتهاون والتراخي والتساهل حتى الاستهتار • نلمح ذلك في مختلف أشكال الالتزام تجاه الاخرين : الالتزام بالواجبات ، الالتزام بالمسؤوليات ، الالتزام بالتعهدات التي قطعها الانسان على نفسه ، الالتزام بدقة المواعيد • العالم النامي يطفو على سطح الظواهر ويكتفي بعمومياتها • كل شيء يعمل كيفما اتفق ، من تصليح الالة ، الى تنفيذ المهمات ، الى مسائل الانتاج ووضع خطط مختلف المشاريع • ان مقدار الدقة والضبط في التعامل مع الواقع والاخرين يدل على مدى السيطرة

على الوجود ، ومدى تحديد المسؤوليات والالتزامات • ولا غرابة اذن في فقدان العقلية المتخلفة للضبط والدقة ، ما دام الانسان يعيش في حالة تعمية للمسؤوليات وتنكر للالتزامات ورضوخ لاعتباط الطبيعة وقهر المتسلط •

تتلخص كل الخصائص السابقة في العجز عن التخطيط ، فالذهنية المتخلفة تنظر الى الواقع بشكل تجزيئي زمانيا ومكانيا • من الناحية الزمنية يغلب عليها التركز على الحاضر ، الانحسار ضمن حدود آنية ، الافق المستقبلي يظل ضيقا ولا يصل مستويات بعيدة المدى • بينما يخطط العالم المتقدم لعدة سنوات وحتى لعشرات السنوات مع تقسيم للمراحل ، تجد العالم النامي يعيش ليومه • يلاحظ احيانا نوع من الحماس للتخطيط فتوضع (ثلاثية ، وخمسية الخ ••) ولكن ندر أن تنفذ ، ومن الاندر ، اذا نفذت ، ان تصل غايتها • توقف الخطة بعد فترة تطول أو تقصر ، تحور وتبدل مما ينسف جوهرها، مع ما في ذلك من تبديد خطير للجهد والامكانات التي يحتاجها العالم الثالث أكثر من غيره • وتظل الامور على حالها من التخبط • يلاحظ هنا ان المسؤولية لا ترجع فقط الى قصور القدرة على التخطيط ، بقدر ما ترجع الى انعدام رغبة من هم في موقع المسؤولية في التنفيذ • توضع الخطط لايهام الجمهور بمستقبل يضع حدا لآلامه ، وتظل في النهاية من نوع الالهاء وامتصاص النقمة •

ان الآنية ، العيش في الحاضر وانسداد آفاق المستقبل ، هي احدى الخصائص النفسية للوجود المتخلف ، انها نتيجة تعرض الانسان المسحوق لاعتباط قوى الطبيعة وقوى السلطة ، وهي ايضا نتيجة انعدام الضمانات الحياتية • فالانسان الذي فقد السيطرة على مصيره يستحيل عليه التخطيط لهذا المصير ، ويظل بالتالي اسير الظروف • يعيش ليومه غير عارف ما يمكن ان يحمله الغد • ان التخطيط باعتباره وسيلة للسيطرة على المصير

وتوجيهه وجهة ملائمة للانسان ، يشكل تحديا فعليا للانسان المتخلف لانه لا يمتلك اسبابه . ولذلك فان عجز هذا الانسان يسير عموما في اتجاه التفاقم ، نظرا لان التخبط والعيش في اللحظة الراهنة يرسخان وضعه . وهكذا يتقلب الانسان المتخلف ما بين التفاؤل والتشاؤم تبعا لطبيعة اللحظة الراهنة التي يمر فيها ، يفرط في تفاؤله أمام الظفر العابر ، ويفرط في تشاؤمه أمام الانتكاسة الآنية .

أما مكانيا ، فالانسان المتخلف يظل تجزيئيا ، يعجز عن النظر ابعد من دائرة ضيقة ، هي حدود محيطه المباشر . انه عاجز عن الشمول ، وعن استشفاف آفاق بعيدة ، عن وضع خصائص المحيط المباشر في أطر اكثر اتساعا وعمومية . هذا الانحسار لحدود المجال الحيوي الذي يعيش ضمنه الانسان المتخلف يؤدي عموما الى بروز ، أو ترسيخ ظواهر نكوصية (١) في التفكير ، الذي يكتسب ساعتئذ خصائص طفلية وبدائية . وهي بدورها تزيد من درجة التوتر الانفعالي الذي يفقد الذهن صفاءه وشموله ، ويلقي به في مزيد من الآنية والعينية . وهكذا يجد الانسان المتخلف نفسه متمسكا بالمحسوس والملموس ومكتفيا بما هو آني . ويؤدي انحسار المجال الحيوي على هذا الشكل الى تضخيم الامور حتى التافه منها . تأخذ القضايا البسيطة أبعادا مفرطة في حدتها لدرجة تطمس معها رؤية ما عداها ، واستئناف ما يتجاوزها . ان هذه القضايا البسيطة تطغى على وجود الانسان المتخلف حتى تشكل محوره . وبالتالي يتوجه السلوك انطلاقا من هذه المحورية الضيقة مما يجعل قدرته على التصدي للواقع ضئيلة أو شبه منعدمة ، طالما ان الثانوي يحتل امانية التكيف ، ويفسح المجال أمام الانفعالات والتفكير السحري للبروز والسيطرة على الادراك والممارسة . يتوقف مستوى التكيف

---

(١) نكوص — Regression

عموما على اتساع المدى الزماني والمكاني للادراك •هذا الاتساع كلما كان شاملا ساعد على التفكير الخلاق والسلوك الناجح المبتكر • انه وحده الذي يسمح بسلوك الالتفاف [1] الذي يشكل أحد الشروط الاساسية للسيطرة على الواقع • ويتلخص هذا السلوك في الابتعاد الآني عن الهدف للوصول اليه بشكل أكثر فعالية ودواما من خلال سلوك مسارات غير مباشرة • ذلك ما يميز اجمالا السلوك الاستراتيجي الذي يتضمن تخليا جزئيا أو خسارة مؤقتة من اجل نجاح أكبر •

عندما توضع الظواهر المحلية في اطار أعم وأشمل تأخذ حجمها الطبيعي ، ضمن نظام عام من القوى ، مما يسمح بسيطرة أكبر على الواقع• ان السيطرة على المصير رهن فيالنهاية بمدىشمولية النظرة زمانيا ومكانيا• بذلك يحتل العقل دوره الحقيقي في توجيه الحياة ، وبذلك ينحسر طغيان الانفعالات وما يرافقها من نكوص •

لا يقتصر الامر على المستوى الفردي ، بل ان التخطيط الرسمي يشكو في البلدان النامية من جزئية النظرة ومحدوديتها • توضع مشاريع كثيرة وتصرف عليها الاموال الطائلة ، ولكنها تظل مشاريع معزولة أو قطاعية ، لا تدخل ضمن تخطيط شامل ، لا تدرس أبعادها ونتائجها انطلاقا من حالة مختلف قطاعات المجتمع • فالتصنيع مثلا يتخذ في الكثير من الاحيان شكل المشاريع الرائدة ، أو المجمعات الكبرى ، أو جزيرات الصناعة الثقيلة ، دون اعداد كاف وتخطيط مستفيض • وبالتالي تقع هذه المشاريع في مآزق متعددة بعد فترة غير طويلة من الزمن : فقدان الاطر الفنية ، فقدان القدرة على الصيانة ، فقدان التخطيط الكافي للتسويق ، فقدان التبصر بالمقاومات

---

(١) سلوك الالتفاف . Conduite de détour

الممكنة لهذه المشاريع : فقدان التبصر بتأثيرها على التوازن الاجتماعي والسكاني والسلوكي ، يضاف الى ذلك فقدان القدرة على تطوير هذه المشاريع مما يجعلها تقع في السكونية فتصبح قديمة ، سرعان ما يتجاوزها التجديد المتصاعد في البلدان الصناعية . وهكذا تتحول في بعض الحالات الى نوع من هدر الثروة القومية ، دون أن تؤدي الى التطوير الاجتماعي المرتجى . ليس هذا الهدر غريبا في الواقع على جشع أوساط المال والصناعة في البلدان المتقدمة ، تلك الاوساط التي لا تفكر الا باصطياد فرص الربح الاكبر والاسرع التي توفرها البلدان النامية ، وهكذا تزين هذه الاوساط من خلال الخبراء الذين يبدون محايدين وعقلانيين ، مشاريع ضخمة تدغدغ نرجسية الحكام وحاجتهم الى الشعور بالعظمة ، من خلال المظاهر الطنانة الدعائية . تقام هذه المشاريع التي تصور كمفخرة قومية ، في اطار عام متخلف عاجز عن استيعابها والاستفادة منها بالشكل المرجو ، واذا بالعقبات الانتاجية تبرز تباعا بعد فترة لا تطول . ولا يستبعد ان يأتي خبراء آخرون ليكتشفوا أخطاء كبيرة في انشائها ، ولا يستبعد أن يقرروا عدم ملاءمتها اصلا لذلك المجتمع ، مما يؤدي الى قرارات بالغائها أو تجميدها . الامر الاكيد في رأينا ، انها ليست مطلقا مسألة مصادفة ، أن لا تحدث اكتشافات مأساوية بهذا الشكل الا في المشاريع الطنانة التي تقام في البلاد النامية .

ب ـ قصور التفكير الجدلي

قصور التفكير الجدلي هو لب الذهنية المتخلفة . فهي جامدة قطعية، وحيدة الجانب ، تتبع مبدأ السببية الميكانيكية، عاجزة عن العمل تبعا لمبدأ التناقض . ويلاحظ هذا القصور في مختلف النشاطات وعلى مختلف الاصعدة ومختلف مستويات المسؤولية . وذلك ما حدا بأحد الباحثين [1] الى

(١) د. نديم بيطار ، التخلف السياسي وابعاده الحضارية ، مجلة « دراسات عربية » السنة العاشرة ، العدد ٩ ، بيروت ١٩٧٤

الحديث عن التخلف في العمل السياسي ، باعتباره أساسا عجزاً عن استخدام المنهج الجدلي بمختلف مبادئه .

تنطلق الذهنية المتخلفة في نظرتها للامور من مبدأ العزل والفصل . الشيء قائم بذاته ، منفصل عن بقية الاشياء والظواهر . تطلق حكما تقويميا نهائيا بشأنه . من خلال اطلاق صفة الثبات عليه ، الاشياء هي ما هي عليه. على العكس من ذلك نجد المنهج الجدلي يقول بالدينامية والصيرورة من ناحية ، وبالتحديد العلائقي من ناحية ثانية . الشيء لذاته هو تجريد فارغ لا حياة فيه . كل شيء هو لذاته وللاخرين كذلك ، كل شيء هو دوما في علاقة ، أو مجموعة علاقات مع أشياء أخرى . ليس الانسان وحدة منعزلة، بل هو جملة العلاقات الاساسية التي يقيمها مع الاخرين والتي ينغرس فيها تاريخيا . انه جملة الدلالات التي يأخذها انطلاقا من هذه العلاقات . بينما تظل النظرة المتخلفة للواقع تفتيتية تكديسية ، تعزل الظواهر عن بعضها بعضا ، لتعود فتكدسها بدون ادراك علاقات الترابط، القائمة بينها بالضرورة مما يجعل العالم يبدو كفسيفساء لا لحمة بينها . كما أن الذهنية بعجزها عن النظرة الكلية الدينامية ، لا ترى من الامور الا جانباً واحداً فقط . انها تخفق في ادراك الترابط والتفاعل الشبكي والتاريخي بين الظواهر ، وما ينتج عنه من حركية وتغير .

تتحكم نظرية الجوهر الثباتية بالنظرة المتخلفة الى العالم . فالاشياء تبدو ساكنة بصفة مستديمة . ويبدو العجز واضحا عن رؤية التحولات الحتمية في هذه الاشياء . وعندما تدرك الحركة في ظاهرة ما ، فهي تدرك كحركة ميكانيكية ، تذهب في اتجاه واحد ، صاعدا أو هابطاً ، لا تستطيع أن ترى ترابط القفزات ، وتكامل حركة التقدم وحركة التقهقر كوحدة جدلية . انها تعجز عن « ادراك الصيرورة الزمنية على أنها قفزات متناقضة

ولكنها مترابطة ومحددة لبعضها البعض ، وليست خطا متواصلا صاعدا ؛
(د • نديم البيطار : المرجع السابق) •

تنطلق الذهنية المتخلفة من مبدأ السببية الميكانيكية في النظر الى الامور : السببية ذات الاتجاه الواحد : سبب معين يؤدي الى نتيجة معينة ، التأثير يأتي من السبب ويؤدي الى النتيجة • أما الحركة في الاتجاه المعاكس (تأثير النتيجة على السبب) فغير متصورة • كما انها تنطلق من السببية المبسطة : سبب واحد أو عدة اسباب مترابطة تؤدي الى نتيجة ما • وتقوم بين هذا السبب وتلك النتيجة علاقة مغلقة تعزلهما عن بقية الاسباب والنتائج • وهي بذلك تقصر عن الامساك بالواقع الذي تتفاعل فيه الظواهر زمانيا ومكانيا ، وتتبادل التحديد والتأثير •

ومن أخطر أوجه القصور في الذهنية المتخلفة العجز عن رؤية قانون التناقض ، أو تكامل الاضداد • الاشياء والانسان هما دائما في علاقة • هذه العلاقة تضم طرفين أو أكثر في حالة تفاعل دائم وتأثير متبادل • ولا بد لفهم أمر ما من دراسة كل من طرفي العلاقة وفهم المركز الخاص الذي يحتله كل منهما ، والشكل المحدد الذي يعتمد به على الآخر • فكل طرف يتطلب وجود الطرف الآخر ، المتناقض معه كشرط لوجوده • وحدة العلاقة تقوم على دينامية التناقض • الحقد مثلا ليس ظاهرة تذهب في اتجاه واحد • انه لا يتم الا في علاقة مع آخر ينصب عليه الحقد ، ويقف منه موقفا محددا يعطي لذلك الحقد طابعه الخاص ، وبدونه لا يظل ممكنا • الحاقد وموضوع الحقد، تجمعهما وحدة العلاقة رغم تعارضهما • شحنة الحقد تنطلق من الطرف الاول ، وتصل الى الطرف الثاني الذي يستجيب لها بشكل مميز ، استجابة تنعكس على الطرف الاول وتعدل من موقفه ومن قوة الشحنة الانفعالية • وهذا التغيير الجديد يعود

فينعكس على الطرف الثـاني مما يؤدي الى تغييرهـا في حركة تاريخية دائمة . العلاقة السببية ليست طويلة ، بل تفـاعلية تصاعدية تذهب من الاول الى الثاني ومن الثاني الى الاول ، بشكل يجعل كلاً من الطرفين فاعلا ومنفعلا ، سببا ونتيجة في آن معا .

لا تقتصر الذهنية المتخلفة في ادراك هذه العلاقة فقط ، بل انها تعجز عن تقدير دور كل من طرفي التناقض . تعجز عن التفريـق بين الاساسي والثانوي ، بين المحوري والحدودي ، بين القاعـدي والعابر ، تساوي كل هذه الامور في الاهمية ، وتساوي بين وزن هذه الظواهر جميعا . بينما يعلمنا المنهج الجدلي أن هناك دائما طرفا أساسيا وطرفا ثانويا في التفاعل . كما يعلمنا ان العلاقة لا تظل ثابتة على الدوام في صيغة واحدة، كما يذهب الذهن المتخلف ، بل هي متحوّلة ، فالطرف الذي كان أساسيا في التفاعل قد يصبح ثانويا في مرحلة تالية ، بينما يحتل الطرف الثانوي دورا أساسيا .

بالاضافة الى التناقض الخارجي بين شيء ما وغيره من الاشياء ، هناك التناقض الداخلي ضمن ذلك الشيء . فالظاهرة ليست كتلة واحدة متماسكة بل هي نتاج تفاعل قوى داخلية متعددة في اتجاهها ومتكاملـة في تعارضها . الشكل الذي تتبدى فيه ظاهرة ما ، هو نتاج هذا التناقض الدينامي الذي يكونها داخليا . كذلك هو حال الزمن الذي يتكوّن من وحدات متناقضة ، كل منها يشكل شرط وجود الاخرى ويحدد مظهرها واتجاهها . بالاضافة الى علاقـة التناقض والتحديد المتبـادل بين الجزء والكل ، بين الذاتي والموضوعي ، بين العقلاني والانفعالي ، بين النفسي والمادي ، بين العام والخاص ، هناك تناقض وتحديد متبادل بين العناصر المكونة لكل من هذه الامور . الذهنية المتخلفة لا تستطيع ادراك قوى

الشد والجذب . قوى التقدم والحركة في علاقتها الجدلية مع قوى الصد والجمود . داخل كل ظاهرة وفي علاقة الظواهر فيما بينها .

كذلك تعجز هذه الذهنية عن ادراك العلاقة الجدلية بين الزمان والمكان : بين التاريخي والانبنائي . تبدو الامور اما متطورة تاريخيا ، أو محددة انبنائيا خارج اطار الزمن . ولكن الظواهر ليست منعزلة بهذا الشكل . فالزمان والمكان ، التاريخ والبنيــة أمران متلازمان يتبــادلان التحديد والتأثير . تاريخ ظاهرة ما يحدد بنيتها الراهنة . وهذه البنية تنعكس على صيرورتها فتحــدد تطورها اللاحــق الذي يعود فيغير من بنيتها . وهكذا فلا علاقة أو بنية خارج التاريخ ، ولا تاريخ خارج شبكة العلاقات التي تحكم ظاهرة ما .

ان قصور التفكير الجدلي الذي يميز الذهنيــة المتخلفة يجعلهــا عاجزة عن النفاذ الى مختلف مستويات وأبعاد الظاهرة . فلكل ظــاهرة مستويات متعددة من أقصى الذاتية الى أقصى الموضوعية ، ومن أقصى الخصوصية الى أقصى العمومية ، وهي محصلة هذه المستويات جميعا في تحديدها المتبادل . وتتراتب هذه المستويات جميعا ، ويكتسب كل منها خصوصيته التي يمكن دراستها بشكل مشروع شريطــة ربطها ببقيــة المستويات ، اذ ان كلاً منها يرجعنا الى كل المستويات الاخرى .

يخلق هذا القصور ، الذي أشرنا بسرعة الى جوانب منه ، حالــة من التصلب الذهني ، يجعل الانسان المتخلف يفتقر الى المرونة ، والى القــدر على بحث الامور من جوانب متعــددة ومنظورات ومستويات شمولية . هذا التصلب يحجب رؤية النسبية في الاشياء والظواهــر ، ويميل الى المواقف القطعيــة (اما ، أو) ، بينما هذه الظواهر هي دائما مزيج متفاوت من الاوجه السالبة والموجبة . كما ان انخفاض درجــة

المرونة تعطل القـدرة على التكيف للوضعيات المختلفـة ، وللخصائص النوعيـة لكل وضعية . كما أنها تعطـل القدرة على استخدام وسائل مختلفة في حل تناقضات مختلفة . فتظل أسيرة الجمود في النظر والموقف والحلول المطروحة . من الواضح ان انعدام المرونة الذهنية مرتبط بحالة عامة من انعدام المرونة الوجودية في التصدي للعالم ، مما يشكل عقبات جدية في وجه التطوير والتنمية .

ولا بد في ختـام هذه الملاحظات السريعة حـول قصور التفكير الجدلي ، واضطراب منهجية التفكير من التأكيـد على أن هذا القصور ليس وليد خلل عضوي او انحطاط تطوري ، كما يحلو لبعض المتحيزين من علماء الغرب أن يدعوا . انه نتاج البنية الاجتماعية المتخلفة ، ووليد عوامل القهر والاعتباط التي يخضع لها الانسان المتخلف . قصور منهجية التفكير يتناسب شدة مع درجة القهر المفروض، وجمود البنيةالاجتماعية.

٢ ـ الخصائص الذهنية والانفعالية

الوجود المتخلف معاش وجدانيـا أكثر مما هو مصوغ ومنظـم عقليا . فبينما نرى طغيان العقلانية والحياد الانفعالي على أسلوبمجابهة الواقع والتصدي لمشكلاته في البلاد الصناعية ، نلاحظ أن انسان العالم المتخلف يرزح تحت عبء انفعالاته التي تفيض على العالم ، ملونة أيـاه بصبغة ذاتية واضحة . العالم وقضاياه تعاش من خلال الذات ، من خلال قوالب التفكير المنطقي ، ولذلك فان درجة الموضوعية تنحسر في معظم الاحيان كي تتلاشى كليا في حالات خاصة ، وبالتحديد في أوقات الشدة. وبينما تتطلب وضعيات الحياة الصعبة مزيـداً من الموضوعية والعقلانية كي يمكن مجابهتها بدرجة معقولة من الفعالية ، نجـد الانسان المتخلف يغرق في تلك اللحظات بالذات في تيار جارف من الانفعالات ، يجعلـه

يفقد السيطرة على الواقع . ويدفــع به الى الارتماء في التفكير الخرافي والسحري والغيبي : كوسيلة وحيدة متبقية للخلاص من المأزق .

ان طغيان الانفعالات وما يرافقها من نكوص على مستوى العقلانية، ظاهرة مألوفة في الازمات : ولكنهــا عند الانسان المتخلف تكاد تكون الاسلوب الاساسي في الوجود : لانه بالتحديد يعاني من أزمات مزمنــة تتخذ طابع المأزق المعيشي ، الذي لا يرى لنفسه خلاصاً منه . هذا المأزق يجعله يعيش في حالة دائمة من التوتر الانفعــالي الذي ينبث في حنايــا شخصيته معطلا القدرة على الحكم الموضوعي ، والنظرة العقلانية الى الامور . وهكذا فان التوتر الانفعالي ، بمقدار مايتصعّد يخلق عقبات معرفية متفاقمة أمام الانسان المسحوق . اذ ان أرصان [1] الواقــع ، وما يتطلبه من حياد نفسي (نسبي بالضرورة) ، يستلزم ضبط الانفعالات ضمن حدود لا تتعداها . هذه الحدود تتلخص بمــد الذهن بالقوة الدافعــة للاهتمام بالعالم واتخاذ المواقف تجاهه. اذ أن غياب الانفعالات، وشحاح الوجدان يفقد العالم جاذبيته ، دافعا بالمرء الى حالــة من البرود وعــدم الاكتراث التي قد تصل حد الجمــدة [2] ، مما يجعلــه يدير ظهره لذلك العالم ، ويقع في التبلّد الكلي . أما القمع المفرط للانفعال والوجــدان فيحول الانسان الى آلــة صمّاء ، أو يلقي به في الاسلوب الهجاسي [3] في مجابهــة الامور . ويتلخص هذا الاسلوب الاخير في عقلانية مفرطــة ومتزمتة ، في حالة من هوس التحليل والدقة والتركز حول التفاصيل التي ترهق المرء وتفقد حياته كل حرارتها . هذه الحالة تلاحظ حاليا في العديد من قطاعات الصناعة المتقدمة التي تقــوم على الضبط الرياضي والدقــة

---

(١) ارصان — Elaboration
(٢) جمدة — Catatonie
(٣) هجاس — Obsession

العلمية المفرطين ، محولة الانسان الى مجرد آلة ، أو ترس في آلة الانتاج الضخمة .

هذا التوازن الضروري بين الانفعال والوجدان ، وبين المنطق والعقل ، لا يتيسر لانسان العالم المتخلف لاسباب عديدة ، سنأتي على ذكرها في القسم الثاني من هذا الفصل ، وأهمها القهر وانعدام مشاعر الامن وطغيان مشاعر الدونية . كلها عوامل تصد الذهن نظراً لما تولـده من قلق . فاذا زاد هذا القلق عن حد معين فانه يشلّ القـدرة على الحكم الموضوعي . كما أن حالة القمع المزمن التي يعيشها الانسان المتخلف تؤدي ، كما رأينا في بحثنا لمرحلة الرضوخ ومرحلة الاضطهاد ، الى تراكم مفرط للانفعالات والى تأجيج للعواطف وتفجير للمشاعر الاكثر طفلية وعنفا ، مما يجعلـه يبدو مركزا تماما حول ذاته . هذا التركز الذي يبلغ درجة النكوص الى الانوية [1] في أحيان كثيرة ، يؤدي الى انهيار القدرة على التجريد الذي يشكل أحد أرقى المظاهر الذهنية في التكييف للواقع والسيطرة عليه .

ان طغيان الانفعالات على هذا النسق يضع الانسان المتخلف أمـام الحاجة الملحة للتخلص من ضغطهـا وما تخلقـه من توتر داخلـي صعب الاحتمال . ومن المعروف نفسيا، أن أكثر الوسائل فعالية وبدائية للتخلص من هذا التوتر ، هو الاسقاط [2] الذي يسمح بتصريف الانفعالات من خلال صبّها على الخارج ، على العالم وظواهره وعلى الاشخاص والعلاقات معهـم سواء بسواء . ولذلك فان الانسان المتخلف يرى أعداء حوله في ظواهر الطبيعة وعقباتها ، وفي مواقف الآخرين منه . يتلوّن العالم بصبغة انفعالية بقدر التوتر الداخلي الذي يعـاني منه ، مما يصعّد من حـدة

---

(١) الانويـة — Egocentrisme

(٢) الاسقاط — Projection

انفعالاته من خلال التغذية العكسية (١) كوسيلة لمجابهة العداء الخارجي. وهكذا ينجرف في دوّامة الانفعال النشط (العدوان والاقدام) ، أو الفاتر (المعاناة واجترار الآلام الوجودية) ، مما يجعل العالم يبدو اعتباطيا غير منطقي . ومن الحتمي ساعتئذ أن يعجز هذا الانسان عن ادراك القوانين الموضوعية لظواهر الوجود ، التي تتطلب أعمال العقل وضبط العاطفة .

تنتج عن هذه الحالة عدة ظواهر ، كثيرة الشيوع في العالم النامي : أبرزها سرعة تدهور الحوار العقلاني والتفكير المنطقي ، والتعصب والتحيز وسرعة اطلاق الاحكام القطعية والاحكام المسبقة ، وسيطرة التفكير الخرافي والسحري .

من المظاهر التي تلفت نظر الملاحظ ، السرعة الواضحة في تدهور الاداء العقلي والحوار المنطقي بين الناس في العالم المتخلف . فالنقاش الذي يبدأ موضوعيا واقعيا لا يلبث أن يفجر انفعالات تؤدي الى اضطرابه. ويتحول الامر من الحوار الهادىء ، من المنطق الذي يجابه الحجة بالحجة الى صراخ ومهاترات ، كي ينزلق بسرعة الى حوار الطرشان ، عند أول عقبة مادية أو مقاومة يبديها الشخص الآخر . وحوار الطرشان هو بكل بساطة انهيار علاقة التفاعل وانكفاء على الذاتية ذات الانفعالات المفرطة ، التي تحوّل الآخر الى مجرد عقبة تعوق الوصول الى الهدف الشخصي . ويتحول النقاش الى صراخ وخصام يسير صعدا نحو مزيد من تدهور العلاقة وانهيار المنطق . ومن الصراخ الى الشتائم يسير التدهور نحو اللغة الحركية ، لغة القوة والاخضاع بعد أن فشل الاقناع . ذلك هو

---

(١) التأثير العكسي (التغذية العكسية) Feed-Back

سبب سرعة الصدام العنيف عند انسان العالم المتخلف ، الاحساس بعدم القدرة على السيطرة على الواقع ، من خلال العقل والمنطق لان هذا الواقع يبدو في النهاية لا عقلانيا ولا منطقيا .

ان طغيان الانفعالات على هذه الصورة يعطل التجريد العقلي والتكييف للواقع ، لانه يؤدي الى انحسار المجال الحيوي . تنحسر آفاق المستقبل ويلغي الواقع العريض الذي يعطي الاشياء والظواهر حجمها الحقيقي . هذا الانحسار زمانيا ومكانيا يؤدي بدوره الى التركز حول الحاضر ، حول المشكلة الآنية التي تبدو عندها كمسألة أزلية ، أو كل المسألة الوجودية ، كما أنه يؤدي الى تضخيمها بشكل مفرط فتكتسب أهمية ليست لها في الواقع. وهكذا يتمحور الوجود عند الانسان المتخلف، حول قضايا بسيطة يبدو أنها تكوّن حياته كلها ، مما يجعله يستجيب بشكل مفرط في انفعاليته وحدّته . انه يستجيب ، لا لهذا الامر الطارىء أو البسيط ، بل في الحقيقة لوجوده الذي يعاني من القهر المزمن والذي يتفجر في كل لحظة وعند كل عقبة . كل عقبة ترجعه الى المأزق الحيوي الذي يعيش فيه ، وتجعل استجابته بالتالي من نوع الاستجابات الحيوية، استجابة على مستوى المأزق . وهكذا تنشأ الحلقة المفرغة ، عجز العقل عن السيطرة على الواقع يفجر الانفعالات ، وهذه بدورها تزيد من حدة هذا العجز .

أحكام الانسان المتخلف على الظواهر والاشخاص يشوبها الكثير من التحيز والقطعية . انها أحكام متسرعة ونهائية تصنف الظواهر والناس في فئات جامدة ، سالبة كلها أو ايجابية كلها ، أو هي متأثرة الى حد كبير بالافكار المسبقة والآراء الشائعة التي يطغي عليها التعصب . ذلك ان طغيان الانفعالات ، بالغائها لوظيفة النقد العقلي ، تفتح الباب واسعا أمام

بروز الميول الاختزالية [1] ، التي تحـول الآخر من حالتـه كشخص الى مجرد أسطورة تلعب دور السند المادي للاسقاطات الذاتية على الخارج . يتحول الآخر الى مجرد رمز للسوء ؛ أو الشر أو التعطيل أو الخطر أو الضعف أو العنف ؛ أو الحب والعون الخ .. ومنذ تلك اللحظة يتحـدد التعامل معه والموقف منه انطلاقا من دلالـة الرمز الذي أعطي له ، الذي يستخدم أصلا ، كتبرير مادي للانفعال الذي ارتبط به ، سلبا أم ايجابا .

ازاء مأزق العقلانية ، وتعطل المنطق ، والحاح الحاجة الى الحـل نظرا لتأزم التوتر الداخلي ، ينجرف الانسان المتخلف في التفكير الخرافي الغيبي كوسيلة سحريـة للخـلاص . ومن هنا كثرة انتشار الخرافة في أوساط الجماهير المسحوقة . الخرافة ، تبعاً للدكتور « ابراهيم بدران » والدكتورة « سلوى الخماش » [2] ، هي أفكار وممارسات ، وعادات لا تستند الى تبرير عقلـي ، ولا تخضع لاي مفهـوم علمي سواء من حيث النظرية أو التطبيق . الذهنية الخرافية هي تلك التي تحاول أن تصل الى أهداف الفرد أو المجتمع على أسس لا تستند الى العلم والعقل . الذهنية الخرافيـة هي تلك التي يكون فيها للخرافـة مكان بارز سواء في نقـل المعلومات أو تمثيلها وفي تفسير الاحداث أو تعليلها (صفحة ١٣) .

وتتفشى الخرافة في الطبقات الفقيرة ، كوسيلة لتخفيف الآلام من خلال الاوهام . ويتناسب انتشارها مع مقدار العجز عن التصدي لمشكلات الحياة المختلفة . ولكن رغم شدة انتشارها في الطبقات المسحوقة من السكان ، فان الفئات المتعلمة لا تفلت منها . فأهم من الخرافة الواضحة

---

(١) ميل اختزالي Tension Reductianiste

(٢) د. ابراهيم بدران و د. سلوى خمـاش ، دراسات في العقليـة العربية ، الخرافة ، بيروت دار الحقيقة ، ١٩٧٤

هناك الخرافة المغطاة بقشور من التعليم ، أو بقشور من التقدم والحداثة السطحية . لانها تشكل عقبة فعلية في وجه التغيير والتجديد والابداع ، عقبة في وجه العقلانية والموضوعية • والمشكلة هي في استفحال الخرافة في أوقات الازمات والوضعيات العصيبة التي تتطلب أعلى درجات العقلانية والموضوعية والتخطيط للتصدي لها • فأزمات المجتمع العربي « تكشف أن هناك وحشا خرافيا متربصا بالذهن العربي على استعداد للانطلاق وهدم كل ما أقامته الجامعات الشهيرة في ذهن المتعلم العربي » (نفس المرجع ، ص ٢٠) • هناك خطر الانجراف في عملية نكوصية عند المتعلمين كي ينحدروا الى ممارسات خرافية ، بتأثير الضغوط الحياتية والاجتماعية والقمع السياسي • واذا كان التعلق بالحلول الخرافية عند العامة يأتي في المقدمة ، فانه عند المتعلمين يشكل الحل الاخير ، حين ينكص الواحد من هؤلاء أمام الازمات التي يستعصي عليه حلها •

ان العجز عن التصدي العقلاني الموضوعي للمشكلات والازمات الحياتية يدفع بالمرء الى النكوص الى المستوى الخرافي ، الى الحلول السحرية والغيبية ، وهذه بدورها تعمل ، حين تتأصل في النفسية ، على أضعاف أوالية التحليل العقلي والنظرة النقدية الى الامور ، من خلال مزج الواقع بالخيال ، والتغاضي عن الحقائق المادية بارجاعها الى قوى غيبية (الجن ، الشيطان الحسد ، الكتابة ، السحر ، الخ ••) • وكلما زاد القهر والعجز تفشت الخرافة ، ولهذا فليس من المستغرب أن نجدها تعشش في عالم المرأة ومجابهتها للحياة في العالم المتخلف ، لانها أكثر من غيرها قد حرمت أهم امكانات المجابهة العقلانية الموضوعية للواقع ، وفرض عليها تجسيد الانفعالات والعواطف على مختلف ألوانها • وهي بدورها تعمل على نشر الخرافات وترسيخ التفكير الغيبي من خلال غرسهما في ذهنية الطفل ، الذي يكبر مع بقاء الخرافة متأصلة في أعماقه ،

جاهزة للبروز أمام الصعاب .

نرى من هذا الاستعراض السريع لبعض ملامح العقلية المتخلفة مدى المعوقات التي تعاني منها هذه العقلية . ولا شك ان هذه المعوقات تؤدي الى ترسيخ نمط الوجود المتخلف ، وتشكل بالتالي عقبات فعلية أمام عمليات التطوير ، وخطط التنمية . اذ أنه كما بيّنا ، حتى المعلومات العلمية والتقنية قد يعاد تفسيرها بشكل خرافي ، كي تدخل في القوالب الذهنية المتخلفة ، مما يفقدها كل فعاليتها التغييرية .

ثانيا : عوامل تخلف العقلية

كل ما عرضناه الى الآن من ملامح العقلية المتخلفة ، سواء من ناحية اضطراب منهجية الذهن ، أو قصور التفكير الجدلي ، أو طغيان الذاتية والانفعال والخرافة ، والتي تتلخص جميعا بموقف عاجز عن السيطرة على الطبيعة والمصير ، خصائص تستدعي التفسير والتعليل العلميين . ولقد أعطيت العديد من التفسيرات التي يتفاوت حظها من الصحة ، أو التي تؤكد على عوامل محددة أكثر من غيرها . ولكن لا بد قبل الخوض فيها من ازالة لبس اتخذ شكل الاحكام المجحفة بحق الانسان المتخلف، ونقصد به تلك التفسيرات المتحيّزة التي قدمها بعض علماء الغرب لاسباب تخلف الذهنية ، والنظرة الى الحياة في بلدان العالم الثالث . وهي على كل حال، تفسيرات قديمة العهد نسبياً برزت مع المد الاستعماري ، كتبرير علمي مزعوم لاستغلال شعوب العالم الثالث .

من هذه التفسيرات القول بالقصور التطوري لسكان هذه البلاد . فهم أناس بدائيون لم يتجاوزوا في سلم التطور المرتبة الحيوانية أو الطفلية في أحسن الاحوال . ولذلك نجد العديد من هؤلاء العلماء المزعومين ،

يعقدون مقارنات بين الانسان البدائي ، والحيوان والطفل . كل منـــهم تسيطر عليه الغرائز والنزوات والانفعالات . وكل منهم يفتقر الى العقلانية ونمو الملكات الذهنية العليا ، والتجريد والمنطــق والتفكير النقــدي ، وهو لذلك يغرق في ذاتيته وفي النظرة السحرية الى الكون وظواهره . ومنهم من قال بالقصور العرقي ، جاعلا العقلانيــة والقدرة على العمليات الذهنية العليا حكرا على العرق الاوروبي الابيض . ومنهم من أرجــع انتشار الخرافــة وما يرافقها من قدرية واستكانة واستسلام وعجز عن التصدي الى عوامل ثقافية ودينية (الشرق الخرافي القدري الانفعالي ، مقابل الغرب العقلاني المنطقي التقني) .

والواقع ان كل هذه التفسيرات تفتقر الى أبسط مقومات النظــرة العلمية ، انها مجرد تحيزات وأحكام مسبقة تهدف الى تبرير الاستغــلال وتكريس التسلط . وهي في ذلك تتواطــأ مع التفسيرات التي يشيعهــا وينشرها المتسلط الداخلي لتخلف ذهنية الفئات المسحوقة ولنفس الغرض .

ان الامر كله يجد مفتاح تعليله في دراسة العلاقة بين البنية الاجتماعية والذهنية التي تنتج عنها ، لا أكثر ولا أقل . كل بنية اجتماعية بما تتضمنه من نظام علاقات ومرتبية وانتاج تفرز ذهنية تتصف بنفس خصائص تلك البنية ، تخدم أغراضها وتعززها من خلال ترسيخ نظرة معينة الى الكون ، وأسلوب محدد لمواجهة تحدياته وقضاياه .

هناك من درس ضمن هذا المنظور مسألــة التخلف في العقليــة ، خصوصا على مستوى الممارسة السياسية ، من خلال الطبيعة الزراعيــة للمجتمع العربي . من رأي د. نديم البيطار [1] أن أسباب التخلف ترجع

---

(1) د. نديم البيطار ، الاسباب البعيدة لظاهرة التخلف السياسي ، مجلة « دراسات عربية » ، السنة العاشرة ، العدد ١٠ ، بيروت ١٩٧٤

الى الخصائص الزراعية التي يتصف بها الانسان العربي وأهمها في نظره ما يلي :

- الشعور بالعجز عن السيطرة على الطبيعة والتاريخ . بينما يتمكن الانسان المتقدم من ذلك بفضل قدرته على الكشف عن الاتجاهات، والقوى والقوانين الفاعلة فيهما ، من خلال استخدام التقنيات والعلوم المضبوطة .

- رد التغيرات والظواهر الى قوى فردية، ربط ما يحدث بتغيرات النفوذ والسلطة ، أي رد الامور الى قوى ذاتية لا الى قوانين طبيعية وتاريخية ، مما يرسخ قوالب ذاتية في التفكير والنظرة الى الحياة.

- انعدام التكنولوجيا والاعتماد على وسائل بدائية من حيوانات ويد عاملة ، مما يجعل العلاقة ، علاقة سلطة ذات طابع انفعالي ، أكثر مما هي علاقة علمية موضوعية (كما تفرضه الآلات ، والتقنيات والعمل معها) . عقلنة الانتاج هي عقلنة الانسان نفسه ، عقلنة العلاقات التي تحيط به .

- الاعتماد في المجتمع الزراعي على الظواهر المحسوسة الملموسة في الطبيعة والعلاقات لا على القوانين العلمية . يحكم الانسان الزراعي على الامور انطلاقا من ظواهر الطبيعة وتغيراتها المناخية، أو من سلوك الحيوان .

- تحكّم التقليد في السلوك ، من خلال تجميده من ناحية ، وشده الى الماضي من ناحية ثانية،مما يفتح السبيل أمام الغيبيات والتفكير الخرافي . هذا التقليد يغرس جذوره عميقة وعنيدة في أعماقنا

مؤثرا على الممارسة والنظرة الى الامور«رغم الدروس والشهادات التي تظل سطحية طالما أنها ليست وليدة ثورة داخلية ولم تفرز من داخل ، طالما هي ظاهرة نقلدها وليست تحولات نفرزها نتيجة تحولات داخلية » (نفس المرجع صفحة ٣٤) .

يذهب « نديم البيطار » في تفسيره للتخلف مذهبا قريبامن وجهة نظر «جيرار ماندل»[١] ، الذي يقول ان التكنولوجيا تلعب دوراً هاماً في تشكيل اللاوعي الجماعي ، من خلال المثـل الاعلى الذي تفرضه على المؤسسات الاجتماعية ، وما يحدثه من تغيير في النظرة الى العالم وأسلوب الممارسة. فالآلة والتقنيات المتقدمة تفرض التجرد العاطفي وتنمي العقلانية والمنطق والترتيب والدقة من أجل حسن سيرها . الدماغ الالكتروني مثلا ، يخلق شخصية ذات نمط شرجي [٢] : الدقة على مستوى أصغر التفاصيل العقلانية والمنطق المفرط ، التوقع والتخطيط والضبط وانعدام العاطفة. كما أن المثل الاعلى الانتاجي ، يخلق نماذج بشرية مركزة حول الفعاليـة والانتاج كقيمة أساسية موجهة للذهن والسلـوك . بينما المثـل الاعلى الاستهلاكي يخلق نموذجا بشريا مركزا حول المظاهر والاستعراض وينمي عقدة المشهدية [٣] .

ذلك كله صحيح ، ولكنه لا يغطي كل الظاهرة ولا يقدم تفسيراً كافياً لمسألة التخلف في الذهنية . يجب بادىء ذي بدء التمييز بين المجتمع الزراعي المتخلف ، والمجتمع الزراعي المصنّع . فالامر لا يكمن في الزراعة بحد ذاتها بقدر ما هو نتاج للبنية الاجتماعية . ومجرد نظرة متفحصة الى

---

(1) G. Mendel , La revolte contre le pere , Paris , Payot , 1968 .

(٢) نمط شرجي — Type anal

(٣) عقدة المشهدية — Complexe spectaculaire

النقاط التي أوردها البيطار ، توضح لنا انه يتحدث عن مجتمع زراعي يتصف أساسا بالعجز أمام قوى الطبيعة من ناحية ، وسيادة نموذج التسلط والقهر والتقليد من ناحية ثانية ، وهي نفسها في نظرنا محور مسألة التخلف . ويشير البيطار في معرض حديثه عن انعدام التكنولوجيا في المجتمع الزراعي وشيوع علاقات السلطة ذات الطابع الانفعالي الى ظاهرة حمل العصي والسياط باعتبارها أدوات قيادة الحيوانات . ولكن ألا تشير هذه الظاهرة الى نظام التسلط والقهر أكثر مما هي مجرد أدوات ؟ ليست الدابة وحدها تقاد بالسوط بل الفلاح المسحوق أيضا .. كما أنه يسرد من ضمن أسباب التخلف ربط التغيرات الاجتماعية بتغيرات النفوذ والسلطة ، واضعاً بذلك الاصبع على لبّ مسألة التخلف دون أن يعلن ذلك صراحة .

ان لب تخلف العقلية يكمن في نظرنا في اسباب اجتماعية سياسية ، هي المسؤولة عن نمط الانتاج وادواته وتقنياته وانعكاساتها على الذهنية ، هذه الاسباب تذهب في رأينا ، في الوطن العربي على الاقل ، ، في اتجاهين أساسيين مترابطين هما : سياسة التعليم في المجتمع ، وعلاقات التسلط والقهر السائدة فيه .

١ ــ سياسة التعليم وتخلف الذهنية

لا شك ان مدى تفشي الامية في العالم النامي ، مسؤول بالدرجة الاولى عن استمرار الذهنية غير العلمية التي تسيطر عليها الخرافة . ولا شك ان تطور الذهنية يسير بشكل عام مع ارتقاء المستوى التعليمي في المجتمع ، وما يجره من سيطرة على الواقع والتاريخ . ليست هذه الامور مجالا للشك والمناقشة ، ما يهم هو بحث تلك الظاهرة الملفتة للنظر والتي تلخص باستمرار العقلية المتخلفة ، رغم انتشار التعليم في العديد من

البلدان النامية ، وفي الشرائح التي وصلت درجات متقدمة من الدراسة . فهناك شعور بأن الخرافة والتقليد لا زالا يعششان في أعماق نفسية الانسان العربي الحائز على درجات جامعية ، تؤثر على ممارسته ونظرته الى الامور المصيرية على وجه الخصوص ، يجمع على هذا الامر العديد من الباحثين .

وتكمن العلة ، في الوطن العربي ، كما في العديد من أقطار العالم الثالث ، في نوعية التعليم ومدى تأثيره على تغيير الذهنية . يبدو ان التعليم لم يكامل في الشخصية ، بل ظل في الكثير من الاحوال قشرة خارجية تنهار عند الازمات ، لتعود الشخصية الى نظرتها الخرافية . « ان العلم لا يشكل بالنسبة للعقل المتخلف أكثر من قشرة خارجية رقيقة يمكن ان تتساقط اذا تعرض هذا العقل للاهتزاز . ان العلم ما زال في ممارسة الكثيرين لا يعدو أن يكون قميصا أو معطفا يلبسه حين يقرأ كتابا او يدخل مختبرا أو يلقي محاضرة . ويخلعه في سائر الاوقات » (د . بدران و د . الخماش ، الخرافة ، ص ١٧٤) . هناك اذا نوع من الازدواجية في شخصية الانسان المتخلف ، بين دور التعليم ودور الانسان الممارس حياتيا . لا زال الانفصام او الانشطار [1] هو السائد . ففي الحياة اليومية نرى التقليد وانتشار الخرافات والنظرة المتخلفة الى الوجود (بما فيها من اعتباط وتسلط ولا منهجية) هي السائدة . أما في المناسبات العلمية فنرى الواحد من هؤلاء ، او بعضهم ، يحلق في الاجواء العليا ولكن للحظات .

اسباب هذه الظاهرة متعددة ، من أهمها تعرّض الطفل منذ الصغر لتأثير الام الجاهلة معظم الاحيان ، والتي نظرا لوضعيتها المسحوقة تتأثر الى درجة خطيرة بالتفكير الخرافي والغيبي ، وتتسلط عليها معتقدات لاعلمية

---

(١) انشطار Clivage

(الجن والشياطين ، والشعوذة ، والقدرية الخ ..) . وموطن الخطورة في ذلك هو أنها تنقل هذه الافكار الى طفلها ، مما يجعل نظرته الى العالم منذ البداية خرافية ولا علمية . ليست الام فقط هي التي تغرس هذه الذهنية المتخلفة في أعماق الطفل ، بل أيضا الاطار الحياتي العام الذي يعيش فيه قبل سني الدراسة ، والذي تتفشى فيه الافكار البائدة والممارسات الخرافية والنظرة الغيبية (من غول وعفاريت وجن وأشباح وأرواح) . من النادر ان يجيب هذا المحيط على تساؤلات الطفل ، بعد الثالثة من العمر ، حول أسرار الوجود وقوانين ظواهره المختلفة اجابة علمية رصينة . هناك ما يشبه المؤامرة المستمرة عليه من خلال الكذب والتخويف . يكذبون عليه في اجاباتهم حتى لا يجشموا انفسهم عناء الشرح ، او حتى يغطوا جهلهم ، او يخيفونه (بالاشباح والعفاريت) حتى يقيدوا حركته ويصدوا حيويته التي تزعجهم . يكفي أن نذكر التهويل الذي يمارس على الطفل من خلال بعض الاوهام الدينية (التهديد بالنار والحساب العسير الذي يفجّر أشد المخاوف بدائية عنده) بغية ردعه عن بعض التصرفات .

هذا المعاش الخرافي والخوافي [1] ، وما يستتبعه من ممارسات غير علمية يحمله الطفل معه الى المدرسة . وتتفاقم المشكلة لان المدرسة ببرامجها الحالية لا تستطيع ان تقتلع هذه الافكار والممارسات . هذا اذا لم يقع الطفل على معلم يتابع نهج الاهل ولنفس الاسباب . في أحسن الحالات ، تمتزج المعلومات الملقنة بالافكار الخرافية ، أو انها تأتي لتكون قشرة خارجية تسقط عند أول اختبار أمام الازمات الحياتية ، بينما تظل التجربة الخرافية للوجود متأصلة في الاعماق . بالطبع لا يساعد ذلك مطلقا على اكتساب العقلية العلمية المنهجية .

---

(١) خواف Phobie

لا زال التعليم في مختلف مراحله وبشكل اجمالي ، سطحيا في معظم البلدان النامية في طرقه وفي محتوياته • طرق التعليم ما زالت تلقينية اجمالا ؛ تذهب في اتجاه واحد من المعلم الذي يعرف كل شيء ويقوم بالدور النشط ، الى التلميذ الذي يجهل كل شيء ، ويفرض عليه دور التلقي الفاتر [1] دون أن يشارك او يناقش او يمارس ، دون ان يعمل فكره فيما يلقن • بالطبع لا تساعد هذه الطرق على اكتسابه التفكير النقدي الجدلي ، وبالتالي لا تكسبه الصيغ العلمية في النظر الى الامور • انه في أحسن الاحوال يحفظ العلم دون أن يستوعبه • يحفظ الامتحان دون ان تعدّ شخصيته بشكل علمي •

تمارس عملية التلقين بالضرورة من خلال علاقة تسلطية : سلطة المعلم لا تناقش (حتى اخطاؤه لا يسمح باثارتها ، وليس من الوارد الاعتراف بها) بينما على الطالب أن يطيع ويمتثل • هذه العلاقة اللاعقلانية تعزز النظرة الانفعالية الى الوجود ، لانها تمنع الطالب من التمرس بالسيطرة على شؤونه ومصيره • وهي كما سنرى في فقرة تالية ، مسؤولة الى حد بعيد عن استمرار الذهنية المتخلفة ، لانها تشكل حلقة من حلقات القهر الذي يمارس على مختلف المستويات المرتبية في حياة الانسان المتخلف •أما من حيث المستويات فان المواد الدراسية تظل اجمالا غريبة عن الاطار الحياتي للتلميذ • أنه يتعلم عموما اما محتويات دراسية مستوردة من خارج المجتمع (نظريات وعلوم الغرب مطبقة على ظواهرة) في المراحل العليا من التعليم ، واما مواد لا تمتّ الى واقع التلميذ بين الفئات الشعبية في المراحل الابتدائية والمتوسطة • معظم المناهج تعالج قضايا تمتّ الى حياة الطبقة المسيطرة ، وتغرس في الطفل المثل العليا السائدة لهذه الطبقة ،والتي لا يمكنه عمليا وواقعيا ممارستها في حياته اليومية • يظل العلم اذاً مسألة

---

(١) فاتر Passif

نظرية ، لا يعالج واقع الطالب في العالم المتخلف ، لا يتيح له فرصة الارصان[1] العقلي لهذا الواقع،ولا التصدي له وتفسيره بشكل علمي. هناك تجاهل مستمر لهذا الواقع ، وانفصام عنه في المدرسة التي تفرض على الطالب حالة من الاغتراب عن قضاياه المعاشة . ولذلك فانه يلبس ثوب العلم في المدرسة . يتعامل بشكل لفظي محض مع العلم وقوانينه ؛ بينما هو يتعامل مع واقعه بأسلوب انفعالي ، خرافي تقليدي .

ومن مشكلات التعليم الشائعة في البلدان النامية ، الانفصام بين لغة العلم ولغة الحياة اليومية . ونعني بذلك دراسة العلوم المضبوطة بلغة أجنبية ، يظل غالبية الطلاب ، ما عدا ابناء القلة ذات الحظوة ، عاجزين عن التعامل بها ، ولا يمتلكونها الا بشكل ناقص جدا . العلم كاللغة الاجنبية التي ندرسهم بها ، يظل غريبا عن عالمهم وواقعهم،يشكل في احسن الحالات قشرة خارجية لا تتجاوز السطح . بينما عالمهم المعاش تحكمه اللغة الام المشحونة بالانفعالات والغيبيات والخرافة ، والبعيدة كل البعد عن العلمية .

ان مسألة تعريب العلوم المضبوطة وتدريسها باللغة الأم من مسائل الساعة . وهي تمس قضية ديمقراطية التعليم بالصميم . هل نعلّم العلوم المضبوطة بلغة الشعب ، كي نسهم بذلك في ادخال القوالب العلمية على هذه اللغة ، وبالتالي على الذهنية نفسها ، باعتبار ان اللغة (كما أصبح معروفا في علم اللسان) تشكّل الذهن وتحدد النظرة الى الوجود ، امنستمر في الحفاظ على الانشطار بين العلم والحياة ، وبالتالي نرسخ استمرارية التخلف الذهني عند القطاع الاكبر من المواطنين ؟

لقد طرح الدكتور « نزار الزين » هذا الموضوع بشكل واضح

---

(1) ارصان Elaboration

في بحثه القيّم حول تعريب التعليم العالي في لبنان [1] . ولوضع المسألة في اطارها الصحيح ينطلق من بحث العلاقة بين اللغة والتكوين العقلي والنظرة الى الوجود ، التي أثبتتها الدراسات الحديثة في علم اللسان « فأسلوب الاستجابات والمواقف في مجتمع من المجتمعات يرتبط ارتباطا وثيقا باللغة الأم التي ينشا عليها الناس » . هناك جدلية بين اللغة والواقع وبين اللغة والفكر . « وعلى هذا فان الصيغ اللغوية تؤثر في الذهن وتنظم التفكير بشكل معين » . « فالانبناء اللساني الذي يتلقاه الفرد من محيطه ، مسؤول أساسا عن الطريقة التي ينظم بها نظرته الى العالم » .

فاذا كانت اللغة الام متشعبة بالانفعالات والنظرة اللاعلمية الى الواقع ، باعتبارها تعكس الوجود المتخلف ، فانها ستؤدي حتما الى ترسيخ هذه الانفعالية اللاعلمية وتشجع بالتالي النظرة الخرافية الى الوجود . ومن هنا ضرورة تعريب العلوم الإنسانية والمضبوطة . فهذا التعريب يدخل الصيغ العلمية على اللغة ويطورها ، مما يؤدي بالتالي الى ادخال الصيغ العلمية على الذهنية العربية ، ويرتقي بها الى مستوى المنهجية المضبوطة. وهكذا « كلما استطعنا ان ندخل الصيغ العلمية في لغتنا والى مجتمعنا ، كلما استطعنا أن نؤثر على الذهن في مجتمعنا ونوجهه نحو ادراك علمي للواقع » . واذا كانت الصيغ العلمية في اللغة نتيجة تفاعل الذهن مع ظاهرات الواقع وأسلوب البحث المستخدم ، واذا كان ادخال الصيغ العلمية في لغة مجتمعنا يؤثر على نشاط ذهننا وادراكنا ، فان سلوكنا يتأثر بفعل ادراكنا الجديد ويستجيب للوضعيات المختلفة متأثرا بأسلوب الصيغ العلمية التي تركزت في اللغة . ويتحول السلوك تدريجيا الى استجابات أكثر واقعية وأكثر رصانة » (نفس المرجع ، ص ٥٢–٥٣) .

---

(١) د. نزار الزين ، تعريب التعليم العالي في لبنان ، بحث منشور في مجلة « المقاصد » ، العدد الاول ، بيروت ١٩٧٣

وهكذا فان نقل العلم بلغة الشعب تطوير له ولحياته ولهذه اللغةعلى حد سواء ، والا فان هناك خطرا من تحول العلم الى وسيلة للانفصال عن الشعب والتعالي عليه أو التنكر له . وهناك خطر في ظهور عدد من السحرة الجدد على شكل « بقع لماعة تبهر الانظار على سطح مجتمعنا دون ان تكون لها قابلية النفاذ الى صميمه لانها لا تعبر بلغته ... فاننا نضع بذلك حائلا في وجه ديمقراطية التعليم عامة ونساعد على هجرة الادمغة وهي أثمن ما نملك من ثروات » (نفس المرجع ،ص ٥٤) . ان عدم تعريب العلوم المضبوطة يترك اللغة الام مقتصرة على الصيغ الانفعالية والوجدانية ذات الطابع الخطابي الذي يهيج المشاعر ولكنه يعجز عن التخطيط والسيطرة على الواقع . ومن رأي الدكتور زين « أن التقصير في تعريب التعليم العالي .. يحملنا على أن نظل في ضبابية تجاه واقعنا الاجتماعي والنفسي، لا نستطيع أن نقدره أو نقومه تقويما صحيحا .. ولعلنا بعدم تعريب التعليم العالي نخطط لعدم تنمية مجتمعنا » (ص ٥٥) .

الواقع ان عدم التعريب يهدف الى الحفاظ على امتيازات القلة المسيطرة ، التي هي وحدها تتقن اللغة الاجنبية وتتعامل بها ، لانها لغة حلفائها الاجانب . وبالتالي تتيح لابنائها فقط فرصة اكتساب العقلية العلمية ، من خلال تمثل العلوم المضبوطة وآخر مستحدثاتها . وهي وحدها التي تعمل على ارصان واقعها المعاش بشكل علمي ، يزيد من سيطرتها على المجتمع والتحكم بمقاليده . أما اذا تمكن أحد ابناء الفئة الشعبية من الوصول الى مستوى علمي عال وتمثل العقلية العلمية والعلوم المضبوطة باللغة الاجنبية ، فانه في أغلب الاحيان يتحول الى اداة في يد الفئة ذات الحظوة ، مسخراً علمه لخدمة أغراضها كوسيلة وحيدة لكسب عيشه . وهو بهذا ينفصل عن انتمائه الشعبي ، ويعاني من حالة اغتراب لا تترك أمامه من خيار سوى الهجرة ، أو خدمة أهداف لا تتمشى مع مصالح

الشعب ، لناحية الارتقاء به من المستوى اللاعقلاني الى المستوى العلمي .

يضاف الى ذلك كله ، ويتوجه موقف الفئة ذات الحظوة ، التي تمتلك السلطة ، من العلم عموما . انها لا تشجع مطلقا انتشار العقلية العلمية والممارسة الحياتية العلمية . واذا شجعته جزئيا فلكي تجيره لخدمة أغراضها وزيادة سطوتها (أبرز مثل على ذلك تجيير علم او تخصص احد ابناء عشيرة ما لخدمة سطوتها أو زيادة جاهها) . وهي تقاوم بشدة محاولات التغيير الذي يحاوله هذا المتخصص ، بما يشكله من تهديد لامتيازاتها ونظامها الحياتي .

على العكس من ذلك فان الفئة المسيطرة تمارس صنوفا من الضغط والارهاب المعيشي على المتعلمين الذين يحلمون بالتغيير . كما انها تشجع على انتشار الخرافات واستمرار النظرة التقليدية المتخلفة الى الوجود. وتستخدم هذه النظرة في تكوين رأي عام مستعد لمقاومة دعاة التطوير . وهكذا يعاني المتعلم في العالم المتخلف من استمرار الذهنية اللاعلمية لتضافر عدة أسباب : شدة غرس التفكير والمعاش الخرافي في ذهنه منذ الطفولة ، سطحية التعليم وعدم مكاملته [1] في الشخصية ، لبعده عن تناول القضايا الحياتية والاجتماعية ، الانفصام بين العلم النظري والتجربة المعاشة ، « الخوف من التصدي للتيارات السائدة (الخوف من الاتهام بالالحاد) حفاظاً على لقمة العيش في مجتمع قامع لا يضمن حرية الفكر ولا يؤمّن للانسان غده [2] » . وهكذا تسد السبل على أكثر من صعيد أمام تجاوز تخلف الذهنية والارتقاء بها الى المنهجية العلمية المضبوطة .

---

(١) مكاملة Intégration

(٢) د. بدران ود. الخماش ، دراسات في العقلية العربية ، « دار الحقيقة » ١٩٧٤

٢ ـ علاقات التسلط والقهر وتخلف الذهنية

من استعراضنا لمختلف أسباب تخلف الذهنية ، رأينا انها جميعا تتضمن عنصر قهر حياتي يقع الانسان المتخلف ضحية له • قهر الطبيعة وغوائلها ، قهر المتسلط في المجتمع الزراعي ، قهر التقاليد العشائرية الجامدة التي تشل الفكر ، وتمنع الموقف النقدي من ظواهر المجتمع وأنظمته ، ثم القهر الذي تمارسه السلطة في المدينة على اختلاف وجوهه وأشكاله وتبريراته • كل ذلك يخلق جوا عاما من العنف يمارس على الشخصية : مانعا تفتحها وانطلاقتها وتصديها بشكل أوثق لمختلف قضاياها الوجودية •

التقليد الذي يفرض جموده على المجتمع الزراعي العشائري ، يقيد حرية الحركة السلوكية وحرية الموقف من الحياة ، ويخلق بالتالي ذهنية متصلبة محدودة الافق ، يتحكم فيها القهر من داخل • كل حركة فكرية تصبح إثماً يستحق العقاب الشديد (النبذ ، التصفية ، السخرية ، فقدان المكانة الخ ••) ، كل موقف نقدي من نمط الحياة السائد الذي يصب في مصلحة العناصر المتسلطة على العشيرة ، يصبح اعتداء على المحرّمات والاقداس التي لا يجوز أن تمس • ابن العشيرة ، وابن القرية المتأخرة كلاهما ملك لعشيرته ولقريته (ماليا وجسديا وحياتيا وجنسيا) وبالتالي فذهنهما ليس ملكا لهما • القيود المفروضة عليهما تؤدي الى استلاب امكاناتهما النقدية والتحليلية والجدلية •

المرأة تشكل مثالا صارخا على هذا الاستلاب • انها ملكية اجتماعية (العشيرة أو القرية او الاسرة ، او الزوج وقبله الاب والابن والعم والخال) ، كيانها ليس ملكا لها • ليس لها أن تختار ، وبالتالي ليس لها ان تناقش ، ان تفكر وتحلّل • عليها ان ترضخ للسلطة ، ان تكون موضوعا

وأداة . وهكذا فقدت نتيجة لهذا الاستعباد المزمن القدرة على استخدام طاقاتها الذهنية ودفعت الى مواقع العاطفة والانفعال والمعاناة والخرافة والحلول السحرية تجابه بها وضعها . بعد أن فرض على ذهنها الجمود والشلل ، وبعد أن غرقت في الخرافة ، يأتي الرجل ومن ورائه قوانين القهر التي فرضتها الفئة المتسلطة لمصلحتها الذاتية ، ليبرر تسلطه ووصايته عليها من خلال اتهامها بقصور العقل ، وانعدام الفهم ، تماما كما يبرر المتسلط في الريف ما يفرضه من قهر على الفلاح ، بغباء هذا الاخير وانعدام حيلته وعجزه عن التصدي لقضايا حياته .

وتفرض المرأة على أطفالها هيمنتها العاطفية كوسيلة تعويضية عما لحق بها من غبن باسم الامومة المتفانية . تغرس في نفوسهم التبعية من خلال الحب ، تشل عندهم كل رغبات الاستقلال (يجب أن يظلوا ملكيتها الخاصة) . وتحيطهم بعالم من الخرافات والغيبيات والمخاوف . ينشأ الطفل بالتالي انفعاليا ، خرافيا ، عاجزا عن التصدي للواقع من خلال الحس النقدي والتفكير العقلاني .

يأتي الاب ، بما يفرضه من قهر على الاسرة من خلال قانون التسلط والرضوخ الذي يحكم علاقاتها ، ليكمل عمل الام . يغرس الخوف والطاعة في نفس الطفل ويحرم عليه الموقف النقدي مما يجري في الاسرة ، من الوالدين وما يمثلانه من سلطة (تحت شعار قدسية الابوة وحرمة الامومة). ويتعرض الطفل باستمرار لسيل من الاوامر والنواهي باسم التربية الخلقية ، وباسم معرفة مصلحته وتحت شعار قصوره عن ادراك هذه المصلحة . يفرض عليه أن يتلقى المنع والقمع وأن يطيع دون نقاش . وهذا يشل بالضرورة تفكيره . ويغرس في ذهنه نظاما من القهر والتسلط والاعتباط يصبح فيما بعد القانون الذي يتحكّم بعقله . هذا النظام بما يتضمنه من

انفعالات ومخاوف ، وبما يفرضه من قيود يشلّ الفكر الجدلي والارصان الذهني للتجارب الحياتية ، يعطّل القدرة على التجريد • وهي جميعـا الشروط الحاسمة للارتقاء الفكري والحياتي •

علاقة الطفل في العالم المتخلف مع والديه تخلو من الارصان العقلي للتجارب الحياتية • الاستجابة الاساسية تجاه مختلف وضعيـات الحياة تظل انفعالية أو قهرية • فبعد أن يتعرّض لسيل من تفسيرات الام الخرافية، يندر أن يوازنها بعلاقة حوار مع الاب ، تجعله يتمكن من الصياغة الفكرية لتجارب الحياة • الاب اما أن يكون عاطفيـا ، أو آمرا ، أو غاضبا او معاقبا ، وهنا قد يستخدم اللغة الحركية (الضرب) • وكلها بعيدة بالطبع عن تدريب الطفل على تحكيم العقل في سلوكه ، وتحكيم قوانين المنطـق والعلم في تجاربه الحياتية •

وتتابع المدرسة عملية القهر والشلل الذهني التي بدأت في الاسرة من خلال سلسلة طويلة من الانظمة والعلاقات التسلطية يفرضها نظام تربوي متخلف ، ومعلّمون عاجزون عن الوصول الى قلوب الطلاب وعقولهم الا من خلال القمع • وتتحول الدراسة الى عملية تدجـين ، تفرض الخصـاء الشخصي والفكري على الطفل ، كي يكون مجرد أداة راضخة • يتم ذلك بالطبع تحت شعار غرس القيم الخلقية (قيم الاحترام والطاعـة والنظام وحسن السيرة والسلوك) • لا يسمح للتلميذ أن يعمل فكره ، ان ينتقد، أن يحلل ، أن يتخذ موقفا شخصيا ، أن يختار ، لا يسمح له ببساطة ان يكون كائنا مستقلا ذا ارادة حرة • وبالتالي يقع ضحية عملية خصاء ذهني أصبحت معروفة تماما لدى علماء التربية والاجتماع المحدثين الذين حللوا عملية التدجين المدرسي ، وهي في الواقع في صلب حركات الرفض الطالبية الحديثة •

تتابع سلسلة القمع والقهر المفروض على الذهن والنفس جميعا أثناء التدريب المهني ، وأثناءالعمل ، وفي كل مكان . انها الخاصية الاساسية للعلاقات السائدة في العالم المتخلف . وعندما يعشش الارهاب والقهر في الإنسان على هذا النسق ، عندما لا يكون أمامه نموذج آخر سوى نموذج التسلط والرضوخ ، لا بد للذهن ان يفقد مرونته وحرية حركته والاتجاه التحليلي النقدي . الجبرية والقدرية التي بدأ بغرسها الموقف الخرافي والغيبي من الوجود في الطفولة ، تعزز من خلال الاعتباطوالتصلب اللذين يفرضهما التسلط فيما بعد.يفقد العقل سيادته نظرا لتحكمالتسلط في نفسية الانسان المتخلف . فالجدل والتفكير النقدي لا يتاح لهما النمو في النهاية الا في جو من العلاقة الديمقراطية الحقيقية ، التي وحدها تجعل الحوار ممكنا ، وتفتح الطريق أمام قانون التناقض ، تلاقي آلـ « مع » و الـ « ضد » في علاقة الجدل . الذهن المتخلف يعاني من التفكير وحيد الجانب والاتجاه ، نظرا لتحكم علاقة التسلط والرضوخ : كلمة السيد وأوامره ، قانونه ، يقابلها معاش انفعالي عند التابع الذي يعمم بدورهنفس الموقف الذهني في مختلف وضعيات الحياة . شلل الفكر النقدي تابع من فرض الطاعة دون حق النقاش والفهم .

وراء القصور المنهجي ، وقصور الفكر الجدلي ، وراء طغيانالذاتية، نعتقد أن ما يميّز العقلية المتخلفة هو ذلك النموذج من التسلط والقهر الذي يحكمها ، هو تغلغل الارهاب حتى أعماق النفسية كأسلوب وحيد لتصور العالم . هذه الوضعية المترسخة تخلق مقاومة عنيدة وخطيرة بقدر ما هي خفية لكل تغيير ، ولكل تنمية في اتجاه اعادة الاعتبار الحقيقي لانسانية الانسان .

الفصل الرابع

الجياة اللاواعية

تشكل الحياة اللاواعية[1] الوجه الخفي للتجربة الوجودية للانسان. وتكتسب كل وزنها وتأثيرها من خاصيتها الاساسية ، وهي الافلات التام من سيطرة الوعي والارادة ، من ناحية ، ومن شدة ومدى الضغط الذي تمارسه المكبوتات [2] على جميع أوجه النشاط الحياتي من ناحية ثانية . اللاوعي يتغلغل في كل حركة وسكنة وتوجه ونظرة وقيمة تحيط بحياتنا أو تعطى لها . لم يعد بالامكان حاليا القيام بدراسة نفسية لوجود الانسان دون التوقف على نشاط حياته اللاواعية . فكما انه من الخطأ منهجيا دراسة الواقع الموضوعي دون بحث علاقته الجدلية بالواقع الذاتي ، كذلك فانه من غير الجائز دراسة هذا البعد الذاتي دون الغوص في نواته الاساسية (في الوجود الاثري الطفلي والحيواني) ، كما هو ممتد عرضيا من الذات الى المجتمع العريض ، مرورا بجميع المراحل والدوائر العلائقية .

هذه المسلمات المنهجية النفسانية هي التي أدت الى نشوء فرع جديد من فروع علم النفس وهو علم النفس الاجتماعي العيادي [3] ، أو التحليل النفسي للمعاش الاجتماعي للانسان . وهو فرع آخذ في الانتشار

(١) اللاواعي — Inconscient
(٢) المكبوت — Réfoulé
(٣) علم النفس الاجتماعي العيادي — Psychologie sociale clinique

نظرا لما أدخله من غنى على دراسة الظواهر النفسانية والاجتماعية على حد سواء ، مخرجا الاولى من عزلتها الذاتية بربطها بالمجتمع ، ومعطيا الثانية دفقة ذاتية امدّت بالحياة برود وتجريد المنهج الاجتماعي ، وأعاد الى الانسان وحدته وكليته بعد أن مُزّق أشلاءً خلال زمن طويل بين الاحيائي (١) والنفساني والاجتماعي .

العلاقة جدلية والتحديد متبادل بين الاجتماعي واللاواعي . فالبنية الاجتماعية بمؤسساتها الرئيسية تشكل الشخصية الانسانية في قوالب خاصة . تنقش نظامها السائد في أعمق أعماق الانسان ، من خلال تشكيل حياته اللاواعية (مستودع النزوات وما يرتبط بها من أنماط العلاقات الاثرية (٢) الاولية) ولقد أصبح معروفا من الناحية النفسية ، ان نمط الشخصية وبنيتها هو نتاج نظام العلاقات الاولية الذي يظل فاعلا في اللاواعي . وهكذا فان النظام السائد للبنية الاجتماعية يعود فيتعزز ويترسخ من خلال ثبات النماذج الاولية لحياة العلاقة في اللاوعي ، من خلال ثبات البنية العلائقية اللاواعية ، كما أنه يعكس وينقل الصراعات والازمات اللاواعية الخاصة بالروحية الجماعية لذلك النظام .

ونخلص من ذلك الى نتيجة هامة ، بصدد موضوعنا ، وهي أن شدة وعمق تأثير وطأة وضعية القهر المميزة للمجتمع المتخلف لا تتوقف على بعدها الاجتماعي فقط ، بل تتعزز من خلال الانعكاسات اللاواعية التي تثيرها وتصاحبها . اضطراب العلاقة الاجتماعية يفجّر اضطراب العلاقات الهوامية الطفلية الكامنة في لاوعينا ، والتي تكوّنت انطلاقا من الاولى . ان أكبر حليف للمرض الاجتماعي هو المرض النفسي في بعده اللاواعي .

---

(١) الاحيائي — Biologique

(٢) علاقة اثرية — Relation ardhoique

وان أكبر متواطىء مع الاضطراب الاجتماعي هو الاضطراب النفسي الذي يصاحبه ويشكل وجهه الخفي . أبرز مثل على ذلك الفاشية السياسية ، التي سيكون لنا وقفة عندها . درجة القمع الاجتماعي ومقدار الرغبة فيه، تتناسب مع درجة القمع النفسي الذي يصيب نزوة الحياة [1] ، ودرجة الحقد والتعصب السياسي تتناسب طرديا مع مقدار العدوانية المتراكمة في اللاوعي . التبخيس الذي يلحق بالمرأة في نظام التسلط والقهر الذي يحكم المجتمع المتخلف ، يتلاقى ويتكامل مع التبخيس اللاواعي الموجه الى الانوثة عند من يعاني من عقدة الخصاء [2] ويتنكر لها .

نفس الظاهرة قابلة للتفسير المتماسك منهجيا على كل من المستويين الاجتماعي واللاواعي . التفسير في الحالة الاولى لا يتعارض مع الثانية بل يتكامل معه جدليا . ولكن الدلالة ليست دائما واحدة على المستويين. تأخذ الظاهرة معاني متعددة على مختلف أبعاد الوجود الانساني . ولكن هذه المعاني على تنوعها تتلاقى في تأثيرها الدينامي . مثلا الهزيمةالعسكرية تأخذ معنى المساس بالكبرياء القومي ، والاعتداء على المعتقد السياسي ، كما تأخذ معنى فقدان الكرامة والاعتبار الذاتي على المستوى الذاتي ، وتعني في النهاية جرحا نرجسيا يأخذ طابع الخصاء على المستوىاللاواعي. والمال ، بما له من قوة تأثير اجتماعية ، يتخذ دلالة القوة القضيبية والامتلاء على المستوى اللاواعي . امتلاء الجيب بالنقود ، يثير مشاعر الكبرياء الطفلي النابع من امتلاك الثدي المعطاء ...

الحياة اللاواعية للانسان المتخلف لا زالت ، في بنيتها ودينامياتها ، غياهب مجهولة في غالبيتها العظمى لم تتناولها الدراسات ، وهناك ضرورة لبحث خصائصها النوعية . ما سنقوله هنا لا يتجاوز بالتالي الملاحظات

---

(١) نزوة الحياة — Pulsion devie

(٢) عقد الخصاء — Complex de castration

الاولية التي لا تدعي القطع واليقين ، ولا الشمول .. انه يلمس الملامح الاكثر بروزا وقابلية للنفاذ . فقط التفجرات الانفعالية التي يمر بها المجتمع في المراحل الحرجة من تاريخه ، يجعل البنية اللاواعية المميزة له تطفو على السطح ، مما يسمح بدراستها من خلال الالتماس [١] والتحليل العياديين بشكل حي ، والا فلا بد من القيام بدراسات واسعة تتوسل التقنيــــات الاسقاطية للحصول على معطيات قابلة للتحليل ، واستخلاص استنتاجات لها بعض النصيب من الواقع .

---

(١) الالتمــاس Approche

الدينامية اللاواعية للانسان المقهور

اتضح لنا في الفصل الثاني ان هناك محورين اساسيين تدور حولهما الحياة النفسية للانسان المسحوق،هما علاقة التسلط ــ الرضوخ من ناحية، واعتباط الطبيعة من ناحية ثانية • ويلازمهما معا في تفاعلهما ، الانعــدام الاساسي للشعور بالامن ، وسيطرة حالة من العجز أمام الطبيعة وأمــام المتسلط ، وما يرتبط من عقد نقص وعار •

تشكل هذه الوضعية مدخلنا الى سبر أغوار الحياة اللاواعية ابنائيا وديناميا • من الناحية الابنائية يقابل علاقة التسلط ــ الرضوخ نموذج الوضعية السادو مازوشية في الوجــود والتموضع • أما ديناميا فترتبط هذه الوضعية بتفجر قلق الخصاء • كما أن اعتباط الطبيعة والناس يتقابل ابنائيا مع العلاقات الاولية بالصور الوالدية السيئة (الام السيئة والاب القاسي) • وأما ديناميا فتفجر هذه الوضعية قلق الهجر[1] • وينــدفع الانسان المسحوق ازاء ذلك كله ، للنكوص نحو مواقع طفلية في غايــــة البدائية ، تدور حول الوضعيات السوداوية والعظامية والنفاجية • ونظرا لعدم قدرته على احتمال هذه الوضعيات لما تحمله من خطر الانفجار الداخلي، فانه لا بد أن يتسلح بمواقع دفاعية متعددة ، سنخصص لها القسم الثاني من هذا البحث •

---

(١) قلق الهجر Angoisse d'abandon

١ ــ علاقة التسلط والقهر ، السادومازوشية ، وقلق الخصاء

نظام التسلط والقهر : يأخذ على المستوى اللاواعي طبيعة العلاقة السادومازوشية . هناك من ناحية طرف قاس ، ظالم ، مستبد ، ينزل الاذى والعذاب بضحيته : لا يستطيع أن يحس بالوجود الا من خلال تبخيسها ، وتسبب الآلام لها : لا يحس بالقوة الا من خلال التحقق من ضعف الضحية الذي كان هو سببه . هذا الطرف المتسلط لا يستقر له توازن الا حين يدفع بذلك المسحوق الى موقع الرضوخ العاجز المستسلم ، الى الموقع المازوشي . جوهر السادية ولبّها هما علاقة سطوة . لا يستطيع المتسلط السادي أن يكون الا من خلال التعزيز الدائم لسطوته . وهذه لا تتعزز الا بمقدار اضعاف الطرف الآخر في العلاقة ، تحطيمه والاستحواذ الكلي عليه . وتصل غايتها عندما يعترف هذا الطرف المازوشي بسطوة السادي ، ويقر بعجزه وهوانه ازاءه . الرباط الانساني يأخذ في هذه الحالة منحى العنف والعدوانية عوضا عن الحب ، ويأخذ منحى سيادة الانوية بدل توازن التعاطف والاعتراف المتبادل .

السادية في الاصل عدوان ، قبل أن تكون جنسا . والمازوشية معاناة مادية وجسدية ومعنوية قبل أن تكون تلذذا جنسيا بالالم ، كما كان يشيع من آراء . وأهم من المازوشية المادية ، المازوشية المعنوية ، أي وضعية الرضوخ والاستسلام للمهانة والتسليم بالضعف الذاتي وبسطوة السادي . ويرتبط السادي المازوشي معا في علاقة موقعية ، تحدد لكل منهما مكانته.وتستمد كل من السادية والمازوشية زخمهما الحيويين من نزوة الموت ، بما تتخذه من أشكال العنف والعدوان ، فمصدرهما النزوي واحد دائما . العنف والعدوانية يتوجهان الى الخارج ، منزلين الاذى بالضحية عند السادي ، بينما يرتدان الى الذات التي ترضخ للأذى، اذا لم تستنزله، عند المازوشي . وكل من هاتين الوضعيتين دفاع ضد الاخرى . فالسادي

يعنف ويقسو هربا من مازوشيته الداخلية ، من مشاعر الذنب التي تقض أعماق وجوده . وكلما زادت قسوتــه دلّ ذلك على شدة ذعره من أن ترتد عدوانيته الى ذاته فتدمرها . السادي يحطم مازوشيته من خــلال الحاق كل الاذى بضحيته التي تجسد ما يخشاه من نفسه ، وما يتنكر له من خــلال هذا التجسيد بالتحديــد . أما المازوشي فهو يرضخ ويستنزل الاذى بنفسه دفاعا ضد قلق ساديته التي يخشى توجهها الى الخــارج ، وافلاتهــا من سيطرته بشكل يدمر الآخر وبالتالي يدمــر الذات معــه . المازوشي هو انسان يعجز عن تحمــل نتائج ساديته . ومن هنا تبــدو له الاخطار الخارجية مضخمة ، وتبدو له سطوة التسلط دون حدود ، ولا وهن ، يسكن التصدي لها من خلاله . ويتناسب عجزه ومهانته بمقــدار تضخم هذه الاخطار . والمازوشي يمكن أن ينقلب عدوانيــا ، والراضخ يمكن أن يتحول الى متمرد ، يحطم سطوة المتسلط حين يتجرأ على تحمل تبعات عدوانيته .

ويتضمن هذا الامر ، تحديدا ، قبول الاخطار التي تتضمنها ممارسة العدوانية الموجهة الى الخــارج (الانتقام الممكن الذي يستجيب له المتسلط) ، والتي تبلغ ذروتها في خطر الموت . حين الظفر على الخــوف من الموت ، يتحــول الانسان المسحوق الى ثائر ، كما رأينــا في الفصل الثاني ، ولا يتم ذلك بالطبع الا بعد فترة اختمار يتم خلالها تحول داخلي في دينامية العدوانية واتجاهها . وهكذا فالمازوشية ، رضوخ الانسان المسحوق ، ليست صفة ثابتة ودائمة ، انها حالة قابلة للتحول تاريخيا .

تأخذ الوضعية السادومازوشية في لاوعي الانسان دلالة الخصاء ، وتفجر قلق الخصاء . الخصاء في الاصل هو السمة المميزة لجنسية الطفل، بالمقارنة بجنسية الاب الذي يمتلك الام ، ويفرض قانون التحريم عــلى

العلاقة بينها وبين الطفل ، مما يؤدي الى تحويل جنسيته نحو الخارج ..
نحو امرأة بديلة . هذا يشكل الاساس النفسي العلائقي لنشأة الثقافة .

قانون الاب الذي يفرض الخصاء (المنع) هو الذي يدفع بالطفل الى النمو ، الى أن يصبح مثل أبيه في قوته ، وأن يتمكن من الحصول على امرأته . ولكن الامر لا يسير دائما نحو هذه النهاية الطبيعية التي تمر من خلال التماهي [1] بالاب وبرموزه في المجتمع (المعلم ، والرئيس ، والقائد ، الخ ..) . ينطلق التماهي من الحب والاعجاب بالاب ، ولكنه يتضمن بالضرورة شحنة عدوانية تتمثل في الرغبة بتحديه وتجاوزه ، الرغبة في القضاء عليه . فاذا كانت العدوانية شديدة ، وكان الحب شديدا في آن معاً تجاه الاب ، عجز الطفل عن المرور بعملية التماهي هذه بشكل ايجابي ، وظل مثبتا في مأزقه الموقعي . وبالتالي يستقر في حالة الخصاء ، حالة هيمنة قانون الاب ، دون التمثل به واجتياف [2] هذا القانون . وهنا ترتد العدوانية الى الذات على شكل مشاعر اثم مفرطة من خلال تكوين « أنا أعلى » [3] قاس وصارم . وبمقدار اشتداد مشاعر الذنب تتعزز ميول عقاب الذات وتحطيمها ، وتبرز بالتالي المازوشية المعنوية . الاب الذي لم يستطع الطفل اجتياف صورته ، يستقطب كل العدوانية الذاتية لهذا الطفل ، مما يجعله يبدو قاسيا مهددا ، معاقبا ، لا يقاوم ولا يجابه . ومن هنا بروز عقدة النقص والعجز والعار التي تعكس وضعية الخصاء ، وتستقي منها شحنتها الانفعالية . في الخصاء تسيطر اذاً صورة الاب القاسي العنيف المعاقب . وهي الصورة ذاتها التي تسقط على السلطة القامعة .

---

(١) التماهي — Identification
(٢) اجتياف — Introjection
(٣) أنا أعلى — Surmoi

وضعية الانسان المسحوق تفجّر اذاً قلق الخصاء ، الذي يتضمن الشعور بالتهديد الدائم ، قد يأتيه في أي لحظة من الخارج (من المتسلط ، وكل أدوات السلطة) من ناحية ، ويتضمن مشاعر العجز وعدم الاكتمال ، تميّز وجوده الذي يعاش تحت شعار المهانة . فهو لا يمكن أن يقارن ذاته بالمتسلط ، لا يمكن أن يساويه أو يوازيه أو يجابهه . كما أنه يشعر بالدونية وانعدام الكفاءة الاجتماعية : لا يمكن أن يرتقي ، لن يستطيع أن يتعلم ، انه ليس في مستوى التكنولوجيا الخ ...

قلق الخصاء يزعزع كيان الانسان المسحوق ويخل بتوازنه ، فهو يولد الآلام المعنوية التي لا تحتمل والتي تمس صورة الذات وقيمتها ، وتصيب الاعتبار الذاتي في الصميم . ولذلك فانه يميل الى فقدان الالتزام تجاه هذه الذات التي لا تحظى بالاعتبار من خلال الفرق في الرضوخ والتبعية والاستسلام ، التي تأخذ جميعا معنى عقاب هذه الذات المبخسة وتحطيمها . ولكن الحل السلبي هذا لا يحقق التوازن الداخلي ، ولا يمكن أن يستمر . فلا بد اذاً من حلول ايجابية تحمل قيمة تعويضية .

الحلول التعويضية كثيرة ومتنوعة وتصب جميعا في قناة الشعور بشيء من الاعتبار الذاتي . وسيكون لنا وقفة طويلة عند أهمها ، في القسم الثاني من هذا البحث .

الاحتماء بالزعيم المنقذ ، التعلق بالابطال ، كاللجوء الى الاولياء ، تحمل جميعا الدلالة ذاتها من الناحية اللاواعية . انها عملية ايجاد نوع من التوازن مع صورة الاب القاسي المسيطر المهدد ، من خلال خلق صورة الاب العطوف الحامي والمنقذ الذي يتعلق به . صورة الاب الايجابية هذه تحدّ من قلق الخصاء ، وحالة التهديد الدائم التي تصاحبه . انها تجعل الوجود متوازنا بعض الشيء في المرحلة التي تسبق الثورة ، والتي تعني

النهوض بأعباء الرجولة وتحمل مسؤولياتها ، وتعني بالتالي توكيد الذات المستقلة والمماثلة للآخر ، أي ديمقراطية العلاقة من خلال المساواة • ومن هنا نفهم مدى تعلق الانسان المسحوق بأبطال التاريخ الشعبي ، ومدى اهتمامه بسيرهم ، التي تدور دائما حول انقاذ الضعيف وحمايته وانصاف المظلوم • ومن هنا نفهم مدى الاتكالية التي تظهرها الجماهير المسحوقة في تعلقها الانقيادي بالزعيم المنقذ •

أما الافراط في الذكورة فانها تأخذ غالب الاحيانأشكالا استعراضية متعددة • وبمقدار توكيد هذه الذكورة في مظاهرها الخارجية ، من خلال كل أنواع المبالغة بالقوة الجنسية القضيبية والاهمية القصوى التي تعطى لهذه القوة ، بمقدار ما يكمن في اللاوعي مشاعر نقص وعجز • يعبّر مصطفى صفوان عن ذلك تعبيراً رائعاً بقوله « القوة التي يؤكد بها الشخص ذكورته ، أو أنوثته ، متناسبة مع توكيد ضدها في اللاوعي (انعدام الذكورة ، أو انعدام الانوثة) » [1] • وأبرز أشكال توكيد الذكورة هو القيمة المفرطة التي تعطى للرجل ، والرجولة والتي يقابلها تبخيس مواز في شدته للانوثة : التحقير من خلال اتهام الرجل بأنه امرأة• والحاجة الى تضخيم رجولته بشكل وهمي في معظم الاحيان حفاظا على المظاهر •

والواقع ان الاحتماء بالاولياء ، والتعلق بالابطال والاتكال على الزعيم المنقذ ، تتلاقى مع الميل الى الافراط في توكيد الذكورة • فالبطل والزعيم هما دوما المثال الكامل للرجولة جنسيا وعضليا وشجاعة• والتعلق بهما والافراط في قيمة رجولتهما بشكل خرافي كما يشيع في السير الشعبية ، والنظرة الى الزعيم ، هي من النوع التعويضي المحض • من

---

(1)N: Sofouan, Etudes sur l'œdipe, Paris, 1974, P. 118 .

خلال التماهي بالبطل والزعيم يعوض الانسان المسحوق بعض نقصه ويعالج خصاءه ويخفف من قلقه .

٢ ـ اغتباط الطبيعة ، صورة الام السيئة ، وقلق الهجر

الطبيعة ، الارض ، الوطن ، هي جميعا الام . فهناك علاقة وثيقة على المستوى اللاواعي بين الطبيعة ، النمط الحسي من الوجود ، اللاعقلانية ، والصور الامومية (٢) (٣) . الغذاء ، الدفء ، الانسجام مع الطبيعة ، الارض الخيرة ، كلها تعبير عن صورة الام الطيبة التي تعطي الحب والدفء مع الحليب منذ فجر الحياة . عندما تعطي الطبيعة فانها تدخل السرور على الانسان ليس فقط من الناحية المادية أو الاقتصادية فحسب ، بل أيضا من خلال اثارة تجربة الحب الاولى في العلاقة مع الام ، تجربة الوفاق مع الحياة التي تمد بمشاعر الأمن ، بمشاعر السكينة الداخلية . وما رومانسية بعض الادباء والشعراء . وتغنيهم بالطبيعة سوى أحلام عودة الى تجربة الاندماج الطفلي مع الام الحنون المعطاء .

على العكس ، تمثل الطبيعة القاسية ، التي تحمل خطر الهلاك ، وخطر الكوارث المختلفة (حريق ، فيضان ، جفاف ، أوبئة ، عواصف ..) صورة الام القاسية ، الغاضبة والنابذة التي تمنع حبها وتحرم حنانها ، وترفض اعطاء الحليب الذي يملأ الجوف ويدخل الى الطفل السكينة في آن معاً . عدم القدرة في السيطرة على الطبيعة يجعلها تبدو اغتباطية في نظر الانسان المتخلف ، وهو يثير في لا وعيه أكثر المخاوف طفلية وبدائية ،

---

(١) قلق الهجر — Angoisse d'abandon

(٢) الصور الامومية — Images maternelles

(3) G.Mendel, La revolte contre le père,Paris,Payot,1968,P.378.

الخوف من هجر الام له ، الخوف من الوحدة والخـواء [1] الداخلي .
قلق الهجر يثير أقصى درجات العدوانية الاثريـة التي تتوجـه الى الام النابذة في حركة انتقامية تدميرية . ولكن هذه العدوانية غير محتملة وهي لذلك تتحول الى الخارج ، فتسقط على صورة الام التي تأخذ عندهـا طابعا قاسيا مفرطا في عنفه . ان أقصى تهديـد يمكن أن يعيشه الانسان على المستوى اللاواعي ، هو خطر مجابهة هذه الام القاسية المنتقمـة . ولأن العدوانية البدائية للطفل لا تعرف الحدود نظراً لانعـدام ضوابط العقل والمنطق والواقع ، فان صورة الام في قسوتها في هذه الحالـة لا تعرف الحدود . انها تثير قلق الفنـاء ليس الا ، وهكذا يتفجر الذعـر الوجودي .

الحياة القاسية ، كالطبيعة الغاضبة ، ليست مصدر معاناة لاسباب اقتصادية معيشية محضة ، بل كذلك لما تفجره من عدوانية طفلية كامنة في أعماق اللاوعي ، ترتد على الـذات على شكل تهديد خـارجي . الانسان المسحوق الذي يرضخ لاعتبـاط الطبيعـة معرض بالتـالي لتحرك هذه الانفعالات الاثرية في نفسه . وهو تحرك يفقده كل شعور بالأمن ويضعه أمـام خطر الفناء . وينعكس هذا القلـق خصوصا في موضوع الهجـر والفراق الشائع في الاغاني الشعبية ، في قسوة الحبيب وتجاهله للانسان المحب الذي يجتر آلامه، ويعاني من خوائه الداخلي. ان هذه السوداوية الشائعة في أغاني الجماهير المسحوقـة ، لا تعبّر عن الحرمـان الجنسي الفعلي فقط ، بل هي وسيلة للتعبير عن الحرمان الوجودي. قسوة الحبيب وتجاهله ليسا سوى الرمز لقسوة الحياة ووطأتها . وهذه بدورها تعود فتتصل بموضوع الحب من خلال اثارة قلق الهجر الطفلي . وحدة المحبّ وعذابه تعكسان عجز الانسان المسحوق ازاء الطبيعة والحياة واعتباطها ،

---

(1) خـواء Vide

وتثير أشد حالات انعدام الشعور بالأمن ، الخوف من الهلاك الذي تتضمنه صورة الأم القـاسية . وهكذا يتصل العـاطفي بالاقتصادي ، ويتصـل الاقتصادي بالطفلي اللاواعي ، في وحدة جدلية .

ويتأزم الامر نظراً لتحالف قسوة الطبيعـة مع استبـداد المتسلط واقعياً . هذا التحالف يثير تحالفاً مقابـلاً له في اللاوعي : تحـالف الام النابذة مع الاب القاسي ضد الطفل العاجز . فقلق الخصاء الذي تحدثنا عنه في الفقرة السابقة ، يستمد جذوره وأصوله من قلق الهجر ، كلاهمـا يعزز الآخر ويغذيه . هذا التعزيز يزيد من وطأة عجز الانسان المسحوق عن المجابهة (مجابهة المتسلط ، والسيطرة على الطبيعـة) ويفجّر أقصى حالات العدوانية الاثرية التي لا يمكن احتمالها لانها تحمل خطر تفجير الذات . ولكن اسقاطها على الخارج كوسيلة للخلاص مـن وطأتها ، لا يحل المشكلة لانه يؤدي الى اصطباغه بصبغة اضطهادية مهددة ، يعيش الانسان المسحوق عندها في عـالم عدائي يحمل له خطر الهـلاك في كل لحظـة .

وهو في البداية لا يجد من وسيلة سوى الرضوخ أزاء هذا الوجود . وهو في رضوخه يجتاف العدوانية الخارجية كقدر محتوم مع نكوص الى المرحلة الفمية [1] ، مرحلة التعامل مع الوجود من خلال الفـم . ولذلك يصطبغ الوجود بصبغة فمّية سيئة ، نجـد تعبيراً عنها في النعـوت ذات الطابع الفمي (مر الحياة وحلوها ، مر العـذاب ، غصة الحيـاة ، أمر لا يبتلع ، أكل الضربة أو الخسارة الخ ..) كلها تعبير عن اجتياف (الادخال في الجوف) السوء الحياتي ، على غرار اجتياف الحرمان وخشونة المعاملة اثناء الطفولة ، من أم قاسية نابذة .

ولكن الرضوخ واجتيـاف السوء لا يشكلان حلا مقبولا يحمـل

(١) المرحلة الفمية Stade oral

التوازن الضروري الى الوجود • لا بد من حلول أخرى أهمها العلاقة الدمجية (١) مع الام : وخلق صورة الاب الحامي • وكلاهما يؤمّنان مقداراً مقبولا من الحماية ومشاعر الامن •

العلاقة الدمجية مع الأم ، تأخذ شكل الذوبان في الاسرة والعشيرة، كما تأخذ شكل اعلاء شأن الامومة : طيبتها وحنانها ، وترحيبها ، وعطائها وتضحيتها ، الام كملاذ أخير لا يخيب رجاء الانسان المعذب • أما صورة الأب الحامي ، فلقد أتينا على ذكرها في الفقرة السابقة • انه الاب الذي يشكل النقيض التعويضي لصورة الاب المهدد القاسي (رمز السلطة القامعة) ، كما أنه الاب الرحوم ذو الجبروت الذي يسيطر على الطبيعة ، ويحمي من غوائلها وتهديدها • تلك هي صورة البطل في القصص الشعبي، وهي نفسها صورة الزعيم المنقذ •

وهكذا فمأساة الانسان المسحوق لا تقتصر على بعدها الاجتماعي الاقتصادي السياسي فقط • انها تفجر مأساة ثانية أكثر بدائية ، هي القلق الطفلي اللاواعي : انعدام مشاعر القدرة والاحساس بالامن ، قلق الخصاء وقلق الهجر • كل من المأساتين تعزز الأخرى مما يؤدي الى تضخم معاناته• ويتفاقم هذا التضخم نظراً لافلات الامر من سيطرته في الحالتين • ليس المصير المادي هو الذي يفلت من يده فحسب ، بل تفجير القلق النابع من اللاوعي خصوصا ، باعتبار ان الخاصية الاساسية لما هو لا واع ، الافلات من سيطرة الوعي والارادة• ذلك ما يخلق اختلالاً في التوازن الوجودي، يجعل الحياة صعبة الاحتمال ، ويدفع به الى توسل العديد من وسائل الحماية التي تذهب في كل اتجاه • هذه الوسائل تشكل القسم الثاني من بحثنا •

---

(١) علاقة دمجية Relation fusionnelle

القسم الثاني

الاساليب الدفاعية

وضعية الانسان المتخلف بما تتصف به من قهر ورضوخ مأزقيـة ، تخل بالتوازن الوجودي ، وتجعل الحيـاة غير ممكنة دون حلول ٠ انها تولد توترا نفسيا كبيرا يتجاوز طاقته على الاحتمال ٠ وهي بالتـالي لا توفر الحد الادنى من الانسجام والتوازن اللذين لا بد منهما كي يستمر في مسيرة الحياة ٠

كما أن هذه الوضعية بما تتضمنه من اعتبـاط وقهر تمس القيمـة الحميمة للانسان المتخلف ، قيمته في نظر نفسه وفي نظر الآخرين ٠ ولا يمكن للمرء أن يعيش دون اعتبار ذاتي ، دون شيء من الاعتداد بالذات ، هويتها وانتماءاتها والتزماتها ٠ انها تسد السبيـل أمام ذلك الشعـور بالارتياح الاساسي الذي يرافق تحقيق الذات وتوكيدها ، لأنها لا تتيح المجال أمام ذلك التحقيق وهذا التوكيد ٠

ينتج عن اختلال التوازن الوجودي وانعدام تحقيق الذات ، حالـة مفرطة من التوتر والقلق وانعدام الاعتبار الذاتي ٠ وتبرز الحاجة ماسة الى حلول لمجابهة هذه الوضعية المأزقية ، حلـول تعيد بعض التـوازن وتؤمن بعض الكبرياء وتجعل الوجود محتملا ومبررا ٠

يمكن أن نقسم هذه الحلـول الى فئتين أساسيتين : الفئـة الاولى والاكثر فعالية هي محاولات تغيير الوضعية المأزقية من خلال قلب المعادلة

المفروضة على الانسان المسحوق • أي محاولات تغيير الاوضاع الخارجية بشكل يتلاءم مع الحاجات الحيوية والاهداف الوجودية وتحقيق الذات• ان هذه الحلول هي الأضمن على المدى البعيد ، وهي وحدها التي تكفل اعادة الاعتبار الى انسانية الانسان المسحوق •

ولكنها ليست ممكنة دوماً ، منذ بداية علاقة القهر والرضوخ • ولذلك تسبقها من حيث التسلسل التاريخي فئة الحلول الدفاعية • وهي على عكس السابقة ، لا تحاول التغيير ولا تقوى عليه ، بل تهدف الى التأقلم والتلاؤم مع الوضعية الراهنة بشكل يخفف من وطأتها ، ويكفل شيئا من الانسجام الوجودي ، كما يكفل نوعا من تحقيق الذات الظاهري• ولكن هذه الحلول الدفاعية ، بما تتصف به من سلبية وفتور أساسا ، لا تلبي الحاجات الحيوية على المدى الطويل • ولهذا فهي ملغومة من الداخل ، من خلال قصورها عن التغيير • ولا بد أن يعود التوتر الى الارتفاع ، والتوازن الى الاختلال بعد فترة تطول أو تقصر • مما يدفع الانسان المسحوق في النهاية الى الحلول التغييرية •

انما العلاقة بين هاتين الفئتين من الحلول ليست قطعية (من نوع اما أو) ولا هي متتالية تاريخيا • يغلب على وضعية الانسان المسحوق تواجد الحلول من الفئتين ، وتداخلها باستمرار في كل مرحلة من مراحل التاريخ • الحلول الدفاعية تتضمن دوما بذور المقاومة والتغيير • ولكن هذه البذور قد يطول بها العهد قبل أن تنبت ، ويطول بها العهد أكثر فأكثر قبل أن تعطي ثمارها ، مما يبقي الانسان المسحوق في حالة تقاوم التغيير • كما أن الحلول التغييرية ليست صافية مطلقا ، انها تتفاوت من حيث فعاليتها بدرجات كبيرة،نظرا لاستمرار تأثير الحلول الدفاعية بشكل يعوق مسيرة التغيير • ولا بد من لجم فعالية هذه الحلول الدفاعية والوعي

بها وبتغلغلها في الممارسة والنظرة الى الوجـود ، حتى يصل التغيير حدّ الفعالية المعقولة .

ان العديد من ممارسات وتوجهـات الانسان المتخلف ونظرته الى ذاته والى وجوده ، والتي قد تبدو ظاهريا عناصر لا رابط بينها ، هي في الحقيقة نماذج من الدفاعات والحلول التي يجابه بها وضعيته المأزقية . هي تلتصق بكيانه الى درجة تأخذ معها طابـع أسلوب الوجـود المتميز باستقـرار نسبي . وبمقـدار استقراره يشكل عقبـة في وجـه التغيير الاجتماعي .

ولا يمكن لبحث تمهيدي كهذا أن يحيط بها جميعا ، نظرا لتعددها وتنوّع مظاهرها . لا بد له أن يقتصر على الخوض في أبرز أشكالهـا ، ولذلك نكتفي بالحديث عن أربعـة أساليب أساسية تنتظـم في أزواج متناقضة في اتجاهها متكاملة جدليا في تضادها . وهي تأخذ بالتالي شكل تحرّك يتصف بالتجاذب في اتجاهه . هذا التجاذب يميز سلوك الانسان المسحوق ونمط وجوده على الدوام .

التحرك الاول يسير على محور التقرّب من المتسلط والتماهي به من ناحية ، والابتعاد عنه والذوبان في الجماعة من ناحية ثانية . وبمقدار ما يتقرب الانسان المسحوق من المتسلط، يتنكر لجماعته الاصلية . وعلى العكس، بمقدار ما يتنكر للمتسلط ويبتعد عنه، يندمج في جماعته الاصلية، التي تشاركه قدره ووضعيته لدرجة الذوبان في الانتماء اليها .

التحرك الثاني يسير على محور القتال والعنف ومجابهة المتسلط من ناحية ، والهروب المستسلم في الحلول الفاترة السحريـة والاتكاليـة والخرافية من ناحية ثانية . وهنا أيضا يسود التذبذب في التوجه نحو أحد المتناقضين . بمقدار ما تنشط عمليـات التصدي ، تخف حدة الحلـول

الاستسلامية . وبمقدار ما يسد السبيل أمام المجابهة (مجابهة المتسلط) تطغى حلول الاستسلام للخرافة والاتكال والتمني السحري . الا أن كلا الامرين يتداخلان ويتلازمان فترة طويلة من الزمن .

في كلا التحركين يبدو الانسان المسحوق متجاذبا دوما بين الاقدام والاستسلام ، بين التماهي بالمتسلط والانكفاء على الذات . ذلك هو الطابع المميز لوجوده عموما . وما عدا حالات الاستسلام الرضوخي أو التمرد الثائر الذي يحطم كل شيء ، تظل الحركة جزئية والحلول نسبية. هذه الجزئية وتلك النسبية هما اللتان تعطيان الانطباع بسكونية وضعية الانسان المتخلف ؛ وجمودها . الا أن التماهي بالمتسلط والحلول الاستسلامية هي التي تشيع عادة في مرحلة الرضوخ . بينما يشيع في مرحلة المقاومة والتمرد حلول العنف والقتال من ناحية ، والانكفاء على الجماعة والاعتزاز المفرط بها من ناحية ثانية .

هذه الحلول الاربعة بما تتصف به من تذبذب وتجاذب في الحركة ، لا تغطي تماما الاساليب الدفاعية الهامة التي يتوسلها الانسان المسحوق. انها على تناقضها تجد توليفها في الموقف من المرأة . المرأة هي محط كل تناقضات وتجاذبات الانسان المسحوق في العالم المتخلف . وتحليل وضعيتها ومكانتها يكشف أكثر من أي شيء آخر خصائص الوجود المتخلف ومأزقيته . فعليها تصب كل التبخيسات وكل المبالغات في القيمة. وتجاهها تبرز كل التجاذبات بأفصح صورها . وضعية المرأة في مجتمع ما تلخص الصراعات الاساسية والمآزق الاساسية لهذا المجتمع . ولذلك فسنتوج هذا القسم بفصل عن المرأة في العالم المتخلف ، بعد الفصول الاربعة التي سيخصص كل منها لواحد من الحلول الاربعة التي أتينا على ذكرها .

الفصل الخامس

الانكفاء على الذات

الحركة الاولى التي يحاول الانسان المسحوق من خلالها تجنب ما تفرضه عليه الطبيعة من بلاء اعتباطي ، ويفرضه عليه المتسلط من قهر متعنّت ، تأخذ اتجاه الانكفاء على الذات . وهي كأوالية دفاعية تسير في اتجاه التقوقع والانسحاب بدل مجابهة التحديات الراهنة والمستقبلية . وتشيع هذه الاوالية كثيرا في ردود فعل الانسان تجاه مختلف حالات الفشل ، الذي يصحبه احساس داخلي بالعجز وقلة الحيلة . وتلاحظ عند الاطفال والكبار على حد سواء (الفشل في منافسة أخ أصغر أو أكبر ، الفشل في الحصول على مكانة مرموقة في الصف، الفشل في انتزاع اعجاب الوالدين أو المعلم ، الفشل في العلاقات العاطفية أو في المشاريع المهنية عند الكبار الخ ..) . في كل هذه الحالات يدير الانسان ظهره للعالم ، يتعلم أن يقمع رغبته حتى لا يشعر بآلام الاحباط، يقطع الصلة بموضوعات هذه الرغبة كي لا تثير في نفسه قلق الخواء ، وما يجره من احساس بانعدام القيمة . الطفل الذي عجز عن منافسة أخيه ، يدير ظهره للعلاقة معه وينسحب من المعركة منطويا على نفسه ، التلميذ الذي عجز عن اثبات ذاته في الصف ينزوي متبلداً في ركنه ، العاشق الفاشل يقمع جذوة الحب في نفسه ، ويبخّس المحبوب الذي يشكّل مرآة لفشله ، كي يصل الى تبخيس قيمة الحب ذاته ، والفاشل في الحصول على الجاه أو الثروة يتبنى فلسفة في الوجود عدمية أو زاهدة . يتعلم الواحد من هؤلاء أن يحد طموحاته ، بأن يضع لنفسه أهدافا قريبة المنال، أو هو في الحالات القصوى يجعل من انعدام الاهداف معيارا حياتياً .

يحدّ الانسان المسحوق من طموحاته اذاً ، وذلك بأن يتقبل مصيره، أويحاول ايهام ذاته بتقبل هذا المصير • ويغرق في بؤسه الذي يتخذ عندها طابع القدر والنصيب ، (كتب عليه الشقاء) اللذين ليس الى تغييرهما من سبيل • وهو بالتالي يحد من مجالات نشاطه الى أبعد مدى ممكن • أو يترك نفسه للظروف تسير حياته في كل اتجاه ، ودون اتجاه ، لا يدري كيف سيكون غده ، ولا أين ستستقر به الامور ، واقفا مما يلم به موقف المتفرج •

الا أن هذه الحالة تمثل رد الفعل الاقصى ، انها تشكل آخر مراحل الفشل والانسحاق ، ولا يصل اليها الا القلة القليلة من الناس • أما غالبيتهم فتدافع عن نفسها ازاء تحديات الطبيعة والمتسلط التي لا قبل لها بمجابهتها ، من خلال الانكفاء على الذات • وهو يضم حركتين متممتين لبعضهما البعض •

في الحركة الاولى يدير الانسان المسحوق ظهره للمتسلط • يتبعد عنه،ويقطع الصلة به • يغذي مشاعر عداء باطنية تجاهه تعزز ميله الى تجنبه وتجنب رموزه وأدواته • وتتضخم عنده مشاعر الفرقة والاختلاف اللذين يغذيهما الخوف بالاضافة الى العدوانية الباطنية • علاقة الخوف والعدوان ، لا تبعده عن المتسلط فحسب ، بل عن كل ما يمثله من نمط حياة وقيم وأدوات (الشرطة ، المحاكم ، والقضاء ، الادارة الخ ••) • العلاقة هي من نوع الشك والحذر والحيطة من الاذى الذي قد يلحقه به المتسلط وأدواته • انه يتقي الشر بابتعاده عن الاحتكاك به ، لانه يعيش العلاقة معه كتهديد دائم له ولذويه • والواقع ان هذه العلاقة تحمل قدراً متفاوتاً من التهديد والارغام والاعتداء المادي والمعنوي • وهكذا يتجنب الانسان المسحوق كل ما يمكن أن يعرضّه للخطر • ومن هنا

الابتهال في أن لا يتعرض للتجارب ، أن لا يقع في يد الحاكم والحكومة وأدواتهما . وهو كي لا يتعرض للأذى ، لا يتجنّب العلاقة المباشرة فحسب ، بل يتهرب من المشاركة في كل ما هو عام . انه يقف موقف المتفرج العاجز أو الشامت ، لا يستجيب لنداء ولا ينخرط في نشاط ولا يساعد فيما قد يرتد على المجموع بشيء من الخير . قد يكون في ذلك تفسير للسلبية والفتور اللذين يميزان جماهير العالم الثالث المسحوقة ، حتى حين يأتي من يحاول تحريكها والعمل لمصلحتها . فلقد تأصل الشك والحذر والخوف من التعرض للأذى عندها نتيجة لتجاربها المؤلمة مع المتسلط . كما تأصلت عندها روح الهزيمة ازاء قوى لا قبل لها بها .

ولا يقتصر الامر على التجنب والحذر ، بل يتعداهما كي يأخذ شكل الرفض النشط لقيمه ورموزه وأدواته وأسلوب حياته . رفض يقوم على احساس من الاختلاف الجذري بين عالمين متعارضين ومتناقضين ، ويشكل الحركة الثانية التي تتمم الاولى . ويصل هذا الرفض حتى تتعزز قدرته الدفاعية الى حد التمسك الشديد بالجماعة وتراثها خصوصا في مجابهة المتسلط الخارجي (المستعمر) . وبذلك تتدعم التقاليد وتقوى شوكة دعوة العودة الى الماضي العريق .

يضاف الى هذه الدعوة ميل للذوبان في الجماعة المرجعية ، لدرجة تزول معها الفردية بشكل شبه كامل . ويجد الانسان المسحوق في هذا الذوبان حماية له ، وتأمينا ضد أخطار الطبيعة وأذى المتسلط . كما يجد فيه ضمانة للغد وللذرية من خلال نظام خاص من المشاركة والتعاضد .

أما وسيلة الحماية الثالثة التي تشيع في موقف الانكفاء على الذات، فهي السلوك الاتكالي تجاه الولي (الملاذ) أو الزعيم المنقذ ، في حالة من التبعية الطفلية لرموز قوة حامية تذود عنه الغوائل من كل نوع . من خلال

هذه الوسائل (التمسك بالتقليد والماضي المجيد ، الذوبان في الجماعة ، وعلاقة الاتكال) يتمكن الانسان المسحوق ، خلال مرحلة الرضوخ ، من ادخال شيءمن التوازن الى وجوده،بابعادشبح القلق الذي بلغه والاحتماء من التهديدات المتنوعة التي تزرع مسيرة حياته . ولا بد لنا ، بالتالي من وقفة عند كل منها .

اولا : التمسك بالتقليد والرجوع الى الماضي المجيد (السلفية)

الانسان المتخلف كالمجتمع المتخلف سلفي أساساء يتوجه نحو الماضي ويتمسك بالتقاليد والاعراف بدل التصدي للحاضر والتطلع الى المستقبل. وتزداد السلفية شدة وبروزا بمقدار تخلف المجتمع ، وبشكل يتناسب طرديا مع درجة القهر التي تمارس على الانسان فيه . وتترسخ السلفية من الناحية الذاتية بمقدار الشعور بالعجز عن مجابهة تحديات الطبيعة والمتسلطين ، على اختلاف فئاتهم ومراتبهم . وهكذا فاذا كان بعض علماء الاجتماع ، يعتبرونها من الخصائص الاساسية للتخلف الاجتماعي ، واذا ذهب بعضهم الآخر الى حد القول بأن التخلف هو أساسا تحكّم السلفية في حركة المجتمع ، فانها تجد لها تعزيزا وتوكيدا لدى الانسان المقهور الذي يتمسك بها . فهي من هذه الناحية ليست فقط خاصة ابنائية اجتماعية ، بل في نفس الوقت أوالية دفاعية نفسية . ففي حين تشكل اجتماعيا ، موجها للسلوك ، وقانونا يضبطه ، نرى الانسان المسحوق ، من الناحية النفسية ، يتخذها معياراً لحياته ونظرته الى الوجود . وهكذا يتلاقى ويتضافر الاجتماعي والذاتي على الدوام .

تشيع السلفية بشقيها (الرضوخ للتقاليد والاعراف ، والاحتماء بالماضي وأمجاده) ، من الناحية النفسية ، بمقدار درجة القهر التي تمارس على انسان العالم المتخلف ، وبمقدار احساسه بالعجز والضعف والغلبة

على أمره ازاء غوائل الطبيعة وعنت المتسلطين • وهي لذلك تشكل أوالية دفاعية ازاء تحديات لا قبل له بها ، تشل مبادراته في الحاضر وتسد أمامه آفاق الخلاص المستقبلي • هذه الوظيفة الدفاعية قد لا تبدو على السطح بشكل واضح في فترات السكون الاجتماعي ، وبالتـالي قد يبـدو من المستغرب لاول وهلة القول بوظيفة كهذه • ولكن عندما يتعرض انسان العـالم الثالث لغزو متسلط خارجي يرمي بكل ثقله للسيطرة عليه ، وعندما يعيش هذا الغزو كقوة جارفة لا قبـل له بمجابهتها وايقـاف اجتياحها لأرضه وكيانه وتراثه ورزقه ، تبرز السلفية بوضوح كوسيلة حماية من خلال الانكفاء على الذات ، والرجـوع الى الماضي التليـد • الامثلة على ذلك كثيرة وفصيحة ، بعضها قديم العهد والآخر حديثـه ، في المجتمع العربي ، أحدثهـا عهدا مقاومة موجة الاستعمار الحديث الانجليزي والفرنسي في مختلف الاقطار العربية ، خصوصا المغرب العربي الذي تعرّض لمحاولات استلاب حضاري ضاريـة ومنظمة • فالمغـربي والجزائري ، كالمصري والسوري ، جميعا استعانوا واحتموا بالتـراث والعودة الى الماضي ، والتمسك بالتقاليد لدرء تهديد الغزو الخـارجي للهوية القومية •

وتدل التجربة على أن ما يبدو واضحا فيأوقات الازمات أو الفترات العصيبة من تاريخ مجتمع ما ، يعمل بشكل خفي في فترات الهدوء ، وله وظائف متقاربة في الحالتين ، على أن الاحتماء بأمجاد الماضي يظل أوضح في تفصحاته ووظيفته الدفاعية من التمسك بالتقاليـد • ولكن النظـرة المتفحصة تبين العناصر المشتركة بينهما كليهما •

ويشجع المتسلط الداخليالسلفية بشقيها، تشجيعا مستمرا لانتشارها وتعزيزا لمكانتها • لأنها تكرّس امتيازاته وتعطيها صبغة الامر الطبيعي ، والقانون الطبيعي الذي يحكم الحياة وبالتالي لا يجـوز المساس به من

ناحية (التمسك بالتقاليد) ؛ وهي تصرف الانسان المقهور عن النهوض بواجب التغيير وتقديم التضحيات التي يستلزمها من ناحية ثانية (الاحتماء بأمجاد الماضي) • وهكذا فالسلفية كدفاع وجودي ، اذا كانت تخدم غرض الاحتفاظ ببعض التوازن النفسي الضروري لاستمرار الحياة ، تتعارض في النهاية مع مصالح الانسان المقهور على المدى الطويل ، بمقدار حؤولها دون التغيير • تماما كما تتعارض الدفاعات النفسية في المرض النفسي مع مصالح الشخصية لانها تحول دون نموها وانطلاقها ، من خلال ما تفرضه عليها من جمود وتصلب •

أ ـ التمسك بالتقليد

المجتمع المتخلف ، مجتمع تقليدي جامد ، متوجه نحو الماضي ، يضع العرف كقاعدة للسلوك وكمعيار للنظرة الى الامور • والانسان المتخلف كائن تتحكم به التقاليد وتقيّد كل حركة أو انطلاقة نحو المستقبل لديه• فعنصر القهر واضح تماما في المجتمع التقليدي الذي يمتلك أبناءه ويلغي مبادراتهم • انه يقولبهم في صيغ جامدة وثابتة •

درجة التساهل تجاه السلوك الذي يخرج عن الخطوط المرسومة لكل إنسان ، تبعا للدور الذي أعطي له ، ولدلالة هذا الدور ووظيفته الاجتماعية ومكانته ، ضئيلة تكاد تتلاشى • ولذلك فان حالة التوتر الداخلي ، شائعة عند الفئات المغبونة في البنية الاجتماعية التي يتحكم فيها التقليد • هذه الفئة لا تملك الا الرضوخ خارجيا ، رغم ما يعتمل في ذاتيتها من صراع ورغبة في التمرد وكسر القيود • الخوف شديد من هذا التمرد الذي تقابله بتشدد مطلق ، الجماعة التي تشكل تهديدا دائما لافرادها بالنبذ أو التشهير أو التصفية اذا حاولوا المساس بالعرف السائد •

ويتوسل المجتمع ، وخصوصا الفئة ذات الامتياز فيه ، وسائل عديدة لتعزيز التقاليد وفرض الجمود على حركة الفرد وبنية الجماعة . معظم هذه الوسائل ذات طابع قمعي أساسا . يضاف اليها تفسير للكون من خلال التقاليد والبنى العلائقية والمرتبية الاجتماعية السائدة ، حتى ليبدو الامر وكأنه الطبيعة الوحيدة للحياة ، وأن كل مساس به هو مساس بقوانين الحياة التي لا يجوز أن تمس . فرضوخ المرأة واستعبادها ليسا استغلالا لكائن مسحوق ، بل هما طبيعة المرأة ذاتها ، أو هكذا يصور ، وبالتالي فهو أمر طبيعي عليها أن تتقبله كخاصية أساسية من خصائص كيانها البيولوجي . واستغلال الابناء كأدوات (للقوة ، أو الجاه ، أو الثروة ، أو توكيد ذكورة الاب وأمومة الام ، أو اقامة التحالفات من خلال المصاهرة) هو جزء من العلاقة الطبيعية البيولوجية بين الآباء والابناء . استغلال الآباء لابنائهم والتحكم بمصائر بناتهم والاتجار بهن حق مقدس لا يجوز أن يمس .

غنى المتسلط وفقر الكادح ، عبارة عن قسمة طبيعية للارزاق والمقامات ، لا يجوز المساس بها وليس من سبيل سوى تقبلها والدفاع عنها .

ويتوسل المتسلطون الدين ، من أجل ترسيخ العرف الشائع الذي يخدم مصالحهم قبل كل شيء . ويعززون سطوة التقاليد من خلال آيات وأحاديث لا مجال للشك فيها ، والا تعرض ايمان الانسان المغبون للخطر وأمله الوحيد في عزاء دنيا الآخرة للتلاشي . ولكن الملفت للنظر هو أن المجتمع التقليدي ، والذين يمسكون السلطة فيه ويتمتعون بكل الامتيازات ، لا يبرزون من الدين سوى الجوانب التي تؤكد سلطتهم ، وتعزز العرف الشائع والنظام المرتبي . فقط تلك الجوانب التي تؤكد على القناعة بالامر الواقع وتقبله تبرز وتتكرر على مسامع المغبونين . أما

الجوانب الثورية في الديـن ، أما جوانب التحرر والابـداع والتغيير ، والعدل والعدالة والتصدي والشجاعة والجهاد في سبيل الحق وفي سبيل كرامة الانسان ، فيسدل عليها ستـار كثيف من التعتيم . وهكذا يصبح كل ما هو عصري يساعد الانسان على تحرير ذاته وامتلاك زمـام مصيره بدعة ، وكل توكيد على الحق والعدالة والكرامة وممارستها زندقـة . ويتحـول الدين الى سلاح مسلّط على المغبونين . وهذا أفعـل سلاح لدفعهم الى الاستسلام والاذعان لأنه يهدد أملهم الاخير في الخـلاص والعزاء في ثواب الآخرة . خلاص وثواب يجعلان وحدهما حيـاة القهر ممكنـة .

المجتمع التقليدي ، بما يشيع فيه من عرف وما تتحكم في أفراده من عادات ، وما يفرضه على عملية التفاعل الاجتماعي والتحرك السلوكي من جمود ، يخدم اذاً مصالح فئة ضئيلة هي التي تحظى بمعظم الامتيازات ، وتستفيد من الحفاظ على الوضع القائم ، ذلك أمر لا يحتاج الى جهـد كبير للتدليل عليه والبرهنة على صوابيته . فالشواهد اليومية في العـالم المتخلف أكثر من أن تحصى، أبرزها ما يشيع في المجتمع القبلي والعشائري. فهنا تجد تلازما بين أقصى انتشار للتقاليد وأشد سطوة لها وأكبر درجات القهر الاجتماعي ، وأوضح مظاهر الرضوخ عند الغالبية المغبونة ، يقابلها جميعاً أبرز حالات التسلط عند القلـة التي تتحكم بالقبيلـة أو العشيرة وأكثرها حصولا على الامتيازات .

كيف يمكن اذاً والحالة هذه ان يشكل التمسك أوالية دفاعية ضد القهر الذي يفرضه المجتمع التقليدي ؟ قد يبدو في هذه المقولة شيء من التناقض المنطقي . الا ان هذا التناقض يظل سطحيا فقط . فمن الناحية العلمية لا بد من توازن في أي قانون يفرض على جماعة بين عنصر الضغط والقهر من ناحية ، وعنصر تحقيق الحاجات بشكل ما ، من ناحية ثانية .

ان التقاليد والاعراف لو كانت قهرية محضة لما استقرت واستمرت ، لانها لا تتضمن في هذه الحالة التوازن الضروري بين عنصر الضبط ، وعنصر تحقيق الحاجات ، الذي لا امكانية للاستمرار دونـه . ما يشكل عنصر قهر لا بد أن يتضمـن نقيضه المتمم له ، وهو الدفاع ضد هذا القهر . دفاع ليس بالضرورة معافى (ينمي الشخصية) بل قد يكون مرضيا لانه يؤمن توازنا جامدا .

الأوجه الدفاعية للتمسك بالتقاليد عديدة ومتنوعة. أبرزها التحصن بتلك التقاليد لمجابهة غزو متسلط خارجي . هذا المتسلط يشكل تهديـداً كيانياً لمن يغزوهم في هويتهم القومية وتراثهم وانتماءاتهم ونظرتهـم الى الوجود ، انه يحمل خطر الاندثار وفقدان الاعتبار الـذاتي . فاذا عزّت المقاومة المسلحة وانتفت امكانية المجابهة المباشرة ، لا يظل أمـام الشعب المقهور سوى الاحتماء بالتراث والتمسك بالتقاليد ، ضد الغزو الفكري والنفسي ، ضد الغزو الحضاري . ويشتد التمسك بهذه التقاليد بمقدار وطأة الاستعمار الحضاري ، ويستمر طالما عزت المقاومة المسلحة ، وطالت فترة الاستعداد للتحرير . وتخف حدة التمسك بالتقاليد ، ويزداد الانفتاح على عوامل التغيير والتحديث بمقدار الاطمئنان الى القـوة الذاتيـة ، وبمقدار الشعور بالحماية وانخفاض حدة التهديد الخارجي . وقد يكون في تمسك التجمعات السكانية الريفية بالتقاليد ، والتشدد فيها دفاعا عن كيانها ضد تسلط السلطة المركزية التي يسيطر عليها المستعمر ، أو تسيطر عليها ، على الاقل ، عناصر غريبة وبعيدة في انتماءاتها وتوجهاتها عن تلك التجمعات الريفية . فهذه التجمعات تنكفيء على ذاتها وتغلق حدودها مع السلطة المركزية الى أبعد الحدود الممكنة ، مؤكدة على الافتراق الكلي الذي يؤمن لها شيئا من الحماية ضد خطر الذوبـان . العلاقة عدائيـة وحذرة بين القرية المغلقة على ذاتها ، والسلطة التي لا يصدر عنها سوى

التهديد أو الاستغلال . القريـة هنا تلعب دور الانسان المقهور ازاء المتسلط .

أما على المستوى الفردي ، فالوظائف الدفاعية للتمسك بالتقاليـد متعددة . فهي أولا تؤمّن نوعـا من الاستقرار الحيـاتي ، وباعتبارهـا كذلك ، تعطي الانسان شيئا من الطمأنينة للوضع الراهن ذي الابعـاد المعروفة والتحديات المألوفة التي يمكن التكيف بحسبها ، كما أنها تؤمّن الحماية الذاتية . وهي تبعد عن الانسان المسحوق خطـر مجابهة قلـق المجهول ، وقلق التغيير . فمن تمسك بالتقاليد لا ضير عليـه ولا خطـر يتهدده في الظروف العادية ، هكذا يبدو الامر على المستوى المعـاش . كما أن المتسلط الذي يعزز وطأة التقاليد يؤمّن للانسان المسحوق الحد الادنى من الحماية عادة نظرا لحاجته اليه كأداة لخدمة أغراضه ، وكعنصر لاستغلاله ، ويبدو الامر وكأنه جزء من طبيعة الحيـاة (الحماية مقـابل الرضوخ والتمسك بالتقاليد والاعتراف بسلطة المتسلط وامتيازاته) .

والتمسك بالتقاليد يشكل أوالية دفاعية ضد قلق مجابهة المسؤولية الذاتية . فهي (التقاليد) بما يسبغ عليها من صفات القـانون الطبيعي ، تتضمن تبريرا للعجز الذاتي عند الانسان المقهور . فاذا كان راضخا أو فاشلا أو بائسا ، واذا كان عاجـزا عن تحمـل تبعة مصيره والنهـوض للتحديات التي تطرحها عليه علاقـة القهر وضرورة التحرر منها ، فليس الذنب ذنبه ، بل هو نظام الحياة الذي قسم له دوره وحدد له مكانته . التمسك بالتقاليد ، يحمي الانسان المقهـور من مشاعر الخزي الذاتي ، المرتبط بالمهانة التي تتصف بها مكانته الاجتماعية . التمسك بالتقاليـد يحمي الانسان المقهور من مجابهة ذاته ، تلك المجابهة التي تقلقه كثيرا ، من خلال أوالية الهروب نحو الخارج ، الذوبان في التقليدي والشائـع ، والانضواء تحت قانون العرف .

وتصل الوظيفة الدفاعية للتمسك بالتقاليد أوج فعاليتها بما تتضمنه من استلاب عقائدي يتعرض له الانسان المقهور • فالتمسك بالتقاليد واحترام الاعراف ومراعاة العادات ، يعاش كمصدر للاعتبار الذاتي ، نظرا لما يتضمنه من قبول اجتماعي • ان الانسان المقهور الذي لا شرف له يتخذ من تمثل التقاليد والاعراف مصدراً للشرف والاعتبار ، يتخذ من قدرته على مراعاة المعايير السائدة مصدرا للكبرياء والرضا عن الذات • ويتناسب هذا الامر عادة مع مقدار العجز الداخلي عن التصدي والمجابهة، ومقدار الخوف من التمرد والتغيير • ولذلك فليس من المستغرب أن تكون المرأة ، وهي أكثر العناصر غبنا وقهرا في المجتمع المتخلف ، أفصح معبر عن التقليد ، وأشد العناصر تمسكا بالاعراف ، وأكثرها اصرارا على ربط الشرف الذاتي بمعايير الشرف التقليدي ، وتحقيق الذات من خلال التقيد المتشدد والمتزمت بالنماذج التي تفرضها الاعراف لدورها وهويتها ووظيفتها • وأكثر ما تتشدد فيه المرأة الام هو فرض هذه المعايير وتلك النماذج على ابنتها ، من خلال الحرب المزمنة والمنظمة التي تشنها على أي مظهر من مظاهر التمرد عند ابنتها • والمرأة الام هي بذلك الناطقة الأكثر أمانة بصوت سيدها ، والأداة الأكثر فعالية للحفاظ على امتيازاته• وهكذا يطمئن الانسان المقهور الى ذاته والى وضعه بالقدر الذي يتماهى به بالتقاليد ويتمكن من النجاح في تجسيد ما يخطه له من نماذج حياتية في سلوكه اليومي •

ويشكل التمسك بالتقاليد أوالية دفاعية ، بالقدر الذي يتيح تصريف العدوانية المتراكمة نتيجة للقهر المفروض على الانسان المسحوق• ان أكثر العناصر استلابا وقهرا في المجتمع المتخلف ، هي أشدها عدوانية وعنفا على من حاول التمرد على التقاليد ، وتحدّي المعايير وخرقها • فهناك في المجتمع المتخلف تعبئة نفسية ضد كل من يخرج على التقليد ، انها الفضيحة

تلاحقه ، وهو يستباح في سمعته ورزقه وحياته • ويأخذ العدوان عليه طابع التشفي والبطش والتشهير : يتحالف الكل للنيل منه • وفي كل ذلك تصريف واضح لما تراكم عند كل فرد من أفراد الجماعة ، خصوصا المسحوقين منهم ، من حقد وعدوانية ، نابعين من الاحباط والمهانة اللذين يتضمنها الغبن المفروض عليهم • في هذا الحقد المتشفي الذي يصب على العنصر الخارج على العرف (خصوصا اذا كان امرأة) احساس بشيء من الاعتبار الذاتي من خلال توكيد الانتماء للجماعة والتمسك بمعاييرها • وفيه بالاضافة الى ذلك نوع من الشعور بالكبرياء والتعالي ، من خلال صب العار على الضحية التي لحقت بها فضيحة المساس بشرف التمسك بالمعايير والأعراف • وفيه أيضا اسقاط لمشاعر الذنب الذاتية التي لا بد أن تصاحب الاحساس بالفشل والمهانة عند الانسان المقهور ، والتي تظل مكبوتة عادة ، على العنصر المتمرد : هو المذنب وهو الذي يستحق العقاب • وعند هذه النقطة لا يعرف التشفي حدودا ، وهو متناسب عادة مع درجة القهر التي يرزح تحتها الانسان • والحقيقة ان هذا التشفي يتضمن في بعض أوجهه دفاعا ضد الاغراء بالتمرد على غرار العنصر المارق، الذي تجرأ على خرق مقدسات الجماعة • فهذا التمرد الكامن موجود دائما عند الانسان المقهور • ولكنه يقمع في الحالات العادية خوفا من الاخطار التي يتضمنها على شكل ردة فعل اجتماعية قمعية • وبمقدار ما يزداد الاغراء بالتمرد ويشتد الخوف من الاقدام عليه ، تستشري عند الانسان المقهور ردود فعل التشفي ، في حالة من الهروب من مجابهة الذات من خلال الذوبان في الجماعة ، والتعصب لمعاييرها وتقاليدها •

كل ذلك يجعل الانسان المقهور يتمسك بالتقاليد بشكل متزمت ، يتخذ أحيانا طابعا قهريا مرضيا • وهو في ذلك يقف ضد الحقيقة في تغيير علاقة القهر وتطوير بنى المجتمع وما يعتورها من جمود • وهو بالتالي

يتحوّل ، من خلال تمسكه الدفاعي هذا بالتقاليد ، الى أداة تخدم مصلحة المتسلط • وبذلك يكون في تزمته وردود فعله العدوانية قد اقترب من حافة الفاشية ، عدوة المقهورين خصوصا انها تستخدمهم كأدوات أساسية لتفشيها ، ووقوداً لتأجج نارها •

ب ـ الرجوع الى الماضي المجيد

النكوص الى الماضي والاحتماء بأمجاده وأيامه السعيدة ، أوالية شائعة في حالات الفشل • فالطفل الذي يعاني من آلام الحاضر نتيجة أحداث غيّرت مكانته وقيمته في نظر نفسه ، يعود الى الماضي الطفلي ، أيام كان صغيرا يحظى بالحب والحنان والرعاية والرضى • وهو يعود الى ذلك من خلال النكوص السلوكي الى عادات سابقة (مص الاصابع ، البول ، لعب دور الطفل المحتاج الى العناية) • والشيخ الهرم الذي لم يعد له حاضر ولم يبق له أمل في الغد ، يهرب من واقعه المؤلم في الماضي ، حيث يستعيد ذكريات الشباب وأمجاده • والفشل على كل صعيد حياتي بشكل يمس القيمة الذاتية والاعتبار الذاتي يدفع بصاحبه أحيانا ، اذا أوصدت أمامه أبواب المستقبل ، الى الاحتماء بماضيه ، وخصوصا تلك الفترة الاكثر اشراقا منه • وكلهم يجد في تلك العودة تعزية وملاذاً • وكلهم يبعد عن نفسه تهديد انعدام القيمة بالاحتماء بالقيمة التي كان يتمتع بها ماضيا • وكلهم يستبدل الصورة البائسة من الوجود الراهن ، بأكثر الصور مجدا واشراقا في الماضي • ذلك من الهروب الخيالي الذي لا يغيّر من الواقع المادي شيئا ، ولكنه على الاقل يغيّر الدلالة الذاتية ، ويغيّر الواقع النفسي • ويزداد التمسك بالماضي عادة والنكوص اليه بمقدار شدة الآلام المعنوية الحاضرة من ناحية ، واغراءات الماضي السعيد من ناحية ثانية •

في هذا النكوص تحدث عملية تزيين للماضي ، من خلال طمس

عثراته من جانب ، والمبالغة في تضخيم حسناته من جـانب آخر • وهكذا يتحوّل الماضي الى عالم من السعادة والهناء ، أو المجد والاعتبار • يلغى الزمن من خلال اختزال الديمومة الى بعدها الماضي فقط ، الحيـاة هي الماضي وحده ولا شيء غيره • أما الحاضر فهو القدر الخائن الذي يجب ألاّ يقف الانسان عنده ، وأما المستقبل فلا يدخـل في الحسبان • ولكن اختزال قيمة الانسان والزمـان الى ما كان ، اذا لم تكن عملية مرضيـة صريحة (الثبات على الماضي بمثابـة ادارة الظهر للوجـود) ، لا بد أن تتضمن في ثناياها أملا ما في القفز عن آلام الحـاضر ، ووصل المستقبل بأمجاد الماضي ، أو استعادة هذه الامجاد في مستقبل قريب أو بعيـد • بذلك وحده يحتفظ الانسان بقدرته على مجابهة الحـاضر الذي يشكل تحديات لا قبل له بها ، يستمر في العيش بحـد أدنى من التـوازن • في الحالات الناجحة ، تكون العودة الى الماضي وسيلة لاستنهاض الهمـة ، واستعادة شيء من الثقة بالنفس من خلال احتذاء مثال أمجاد الاسلاف ، أو رفع الروح المعنوية بتذكر الانجازات الذاتية • في هذه الحالة الاخيرة، يتمكن الانسان من تحمل مرارة الفشل وفقدان الاعتبـار الذاتي ، من خلال تحجيم أزمات الحاضر ، فهي مجرد كبـوة وليست معيـارا تقاس من خلاله الحياة جيمعها • وبالتالي فالحاضر عـابر ، وكل ما هو عابر محتمل نفسيا مهما كانت شدته •

تلك هي حال الانسان المقهور • فازاء عظم قوى القهر والتسلط من ناحية واعتباط الطبيعة من ناحية ثانية ، وازاء العجز عن المجابهة وانعدام القدرة على التغيير ، يتعرض توازنه النفسي لهزات شديدة ، واعتبـاره الذاتي للانهيار • ويبدو الحاضر مؤلماً يحمـل المرارة ، والبؤس يجـد صداه واضحا في الاغاني ذات الطابع السوداوي التي تشيع فيمجتمعات القهر عن غدر الزمان ، ومرارة الليالي والايام • ويتنكر الانسان المسحوق

لهذا الحاضر الذي يشكل مرآة تعكس له مأساته ، أو هو يجتر هذا البؤس . ولكن الغالب هو التذبذب ما بين التنكر والاجترار . وهو يدافع عن نفسه ازاء كل ذلك بالهروب في الماضي المجيد ذاتيا وقوميا ، فالماضي حصن من لا حاضر له ، ولا مستقبل له .

يهرب الانسان المسحوق في أمجاد الماضي : ويتيه نشوان في مظاهر عظمة تاريخه وتراثه . وهو يختار من هذا الماضي الذي يشكل الخير كله، على عكس الحاضر الذي يشكل الشر كله ، مقياسا للحياة : تلك كانت أيام ، تلك كانت الحياة . وفي هذه الرجعة الى الماضي يتماهى الانسان المسحوق خصوصا بالبطولات العسكرية ، بخوارق الفروسية ، وبكل مظاهر الابهة في قصور الخلفاء والامراء . ويحدث تضخيم مبالغ فيه ، أو هو دون حدود ، لتلك البطولات والامجاد ، بقدر بؤس الحاضر . ولذلك فالغالب أن تسبغ على أمجاد الماضي صبغة تخريفية (١) نفاجية (٢)، تلاحظ تحديدا في تصوير الفرسان الابطال . فهؤلاء في القصص الشعبي أناس متفوقون ذوو جبروت لا يحد ، وقدرات خارقة لا يصمد أمامها شيء ، ولا تقف دون تحقيق مآربها عقبة . والواقع أن كل الرغبات الدفينة في القوة المطلقة ، التي تشكل الضد الكامل للعجز الواقعي ، تسقط على هؤلاء الابطال . ويحدث نوع مما يسمى بالتماهي الاسقاطي (٣) (تمثل صورة البطل ليس كما هو حقيقة ، بل كما نرغبه أن يكون كاملا فائقا ذا جبروت) في علاقة الانسان المقهور بأبطال القصص الشعبي .

البطل في القصص الشعبي أسطوري . فهو من الناحية الجسدية

---

(١) تخريف — Fabulation
(٢) نفاج — Mégalomanie
(٣) التماهي الاسقاطي — Identification projective

القوة المطلقة التي تأتي بالخوارق وتجابه كل التحديات • وهو في السلاح قمة الخبرة والفروسية • يصوّر على درجة كبيرة من الضخامة ، فرسه نادرة وسلاحه لا يتمكن سواه من حمله والقتال به • شجاعته تضمد أمامه كل امتحان . وهو يخرج دائما منتصرا من أقسى امتحان • ويتحلى بطل القصص الشعبي بكل الفضائل النفسية والخلقية ، ويتمتع بكل قيم الرجولة والشهامة والكرم • وهو الى ذلك البطل القوي العادل الذي يتصدّى لكل معقد ، وكل ظالم ، وكل عدو داخلي أو أجنبي ، مدافعا عن جماعته وأهله المعرضين ، دونه لأشد الاخطار الحياتية • انه البطل المنقذ ، مبعوث العناية الالهية كي يرفع التهديد عن الانسان الضعيف ، انه رمز العدل والامن الوجودي •

استعراض حياة هذا البطل الاسطوري ، كما يرويها رواة القصص الشعبي ، هي دائما سلسلة من الازمات ، وحلقات متصلة من الخطوب • لا يخرج من أزمة حتى يقع في التي تليها . ولا ينتصر على خطب حتى يقع في مأساة جديدة • حياته ملحمة دائمة من الثبات أمام أقسى اختبارات الحياة، والخروج منتصرا منها • وهي الى ذلك حلقة متصلة من التفاني من أجل الآخرين •

بطل القصص الشعبي بكل أسطوريته ، هو مجرد اسقاط لأمل الانسان المسحوق في الخلاص ، لرغبته الدفينة في امتلاك القدرة على مجابهة قدره • حياته مجرد مرآة للاختبارات المتلاحقة التي يتعرض لها الانسان المقهور ويعجز عن اجتيازها ، بينما ينجح البطل في ذلك • من هنا ندرك سبب اقبال الجماهير على حلقات رواية هذه القصص ، وندرك سبب الاندماج في الاستماع الى الراوي• انها لحظة اغراء وسلوى عن آلام الواقع الراهن • انها لحظة عزّ وكبرياء وأمل ، وشعور بالاعتبار الذاتي من خلال التماهي ببطولات الفارس صانع الخوارق • ويزداد انتشار

حلقات القصص الشعبي بمقدار المفروض على الانسان ، ومقـدار خلو الحاضر من الامجاد • قصص البطولات الشعبية من الناحية النفسيـة ، عرض لمأساة الجماهير ، من ناحية ، وأملها في الخلاص ، في تغيير المصير من ضعف الى قوة ، ومن مهانة الى عز ، من ناحية ثانية •

بالطبع يشجع المتسلط كثيرا انتشار هذه الحلقات ، ففيها هروب من الواقع وعيش في الخيال يبعد الانسان المقهور عن الوعي بما يلحق به من غبن ، وما يجب عليه من النهوض الى المجابهة من أجـل التغيير • وذلك يحفظ للمتسلط امتيازاته ، ويبقي الانسان المقهور على غبنه • والمتسلط يشجع هذه الحلقات، لما تساعد عليه من تصريف للتوتر الوجودي وتصريف للعدوانية التي تهدد بالانفجار ضده ، من خلال الغرق في عالم خرافي يحمل ارضاءات وهمية للانسان المقهور •

بالاضافة الى التماهي بأبطـال القصص الشعبي ، يلـوذ الانسان المقهور بتراثه وأمجاد هذا التراث • ويتمسك به بشكل جامـد ، حتى لا يعود يرى من مجال لخلاص من مأساة الحاضر ، الا بالعـودة الى التراث والسير الجامد على غراره دون مراعاة لحركة التاريخ • ويزداد التعنت في هذا المجال بمقدار نفور الانسان المقهور من واقعه الراهن ، لدرجة يتعرض معها لخطر خسارة الحاضر دون ربح المـاضي • بينما يفترض ان تكـون الرجعة الى التراث مصدر الهام لمجابهة تحديات العصر ، ومصدر استنهاض للهمم للخروج من خدرها • وهنا ايضا يلعب المتسلط وحلفاؤه دور المشجع على التمسك الجامد بأمجاد الماضي ، بشكل لا يتيح مطلقا التكيف المرن مع مهمات وتحديات الحاضر ، ومتطلبات المستقبل ، دافعين الفئات المغبونة الى الجمود في مواقعها •

ثانيا : الذوبان في الجماعة والعلاقات الدمجيـة

التعاطف والتعاضد بين أعضاء الجماعة ، مـن الاواليات الـدفاعية الفعّالة ضد الاخطـار الخارجية وأخطـار الطبيعة . يستعيض الانسان المقهور عن عجزه الفردي بالاحتماء بالجماعة.وبقدر تفاقم الخطر الخارجي، وبقدر تعاظم الاحساس بالتهديد للذات والمصير،يميل الانسان الى الذوبان في الجماعة . ذلك أحد قوانين الطبيعة ، كلما ازداد الشعور بالقوة عنـد الكائن الحي ، نراه يميل الى الفردية والاستقلال . وعلى العكس نجـد الكائنات المهددة بيولوجيا تميل الى التجمع بمقدار التهديد الذي تتعرض له من آفات الطبيعة ، أو من الكائنات العدوة . تعوض كثرة العـدد عن ضعف الفرد . الامثلة على هذه الظاهرة في العالم الحيواني اكثر مـن أن تحصى ، وأوضح من أن تحتاج الى برهان .

على المستوى الانساني نجد نماذج مختلفة لهذه الظاهرة ، أشهرها الجماعات المغلقة والاسر الكبيرة التملكية . ومن الامثلة الرمزية في هـذا الصدد ، التفـاعل والتواصل الفمي . وقفة قصيرة عند كل منها توضح بيسر هذه الاواليات الدفاعية . ولا بد قبل هذا من التذكير بأننا نعـالج ونحلل ظواهر اجتماعية أساسا ، لها وظيفة نفسية دون أن تكون وليـدة الحاجة الى تلبية هذه الوظيفة . فالعلاقات الدمجية على مستوى الجماعة (الجماعات المغلقة) ، والاسر العريضة التملكية،وكذلك التفاعل والتواصل الفمي ، هي جميعا نتاج البنية الاجتماعية ، بما تتصف به مـن خصائص تاريخية تطورية ، ونظم انتاج وتوزيع وخدمات وعلاقات . انـه لا يخطر ببالنا مطلقا ان نردّ الظواهر والانظمة والمؤسسات الاجتماعية في نشأتها وديناميتها ، الى مجرد تعبيرات نفسية ، فهذه لا تشكل سوى جوانب منها، ولا يمكن بحال من الاحوال أن تستوعبها . وهي تخضع في الاساس الى منهجية التفسير الاجتماعي . ولكنها ليست مطلقا اجتماعية محضة ، لانه

ليس هناك ، في رأينا ، ظاهرة اجتماعية محضة ، كما لا يوجد بالمقابل ظاهرة نفسية صافية . الامبريالية الاجتماعية ، كمثيلتها النفسية ، في منهجية البحث الانساني ، قد ولّى عهدها ، وأفل نجمها . ما ننظر فيه هنا اذاً ليس تفسير هذه الظواهر ، وهو اجتماعي أساسا ، بل الوظائف النفسية لها . وهي هامة بدورها نظراً لما تلبّيه من حاجات تنبع من الشرط الوجودي للانسان الذي تحدده بنية المجتمع . هذه البنية بما لها من مؤسسات ونظم وما تتصف به من شبكة علاقات ، تولّد حاجات نفسية معينة من ناحية ، وتؤمن لها بعض سبل الاشباع بما تتضمنه من حلول ، من ناحية ثانية .

أ ـ الذوبان في الجماعة

الجماعات المغلقة من الظواهر التي حللها جيدا علم النفس الاجتماعي . انها وليدة الاحساس بالتهديد الخارجي ، أكان مصدره بشريا أم طبيعيا. ينقسم العالم في هذه الحالة الى عالمين متناقضين تماما : الخارج والداخل. أما الخارج فهو العدو ومصدر الخطر والشر ، العلاقة معه عدائية اضطهادية ، والموقف منه اما انسحابي تجنبي أو تهجمي تدميري . اما الداخل فهو الخير كله ، وهو مصدر الامن والشعور بالانتماء ، مصدر الهوية الذاتية ، وهو بالتالي المرجع والملاذ . ويحدث في هذه الحالة نوع من الانشطار العاطفي ، بشكل يجعل المواقف قطعية . كل الشر والخطر والسوء ، كل العقبات والموانع الذاتية والموضوعية ، كل العدوانية الذاتية المقموعة والمتراكمة ، تسقط على الخارج ، مما يؤدي الى تبخيسه تماما . وهكذا يتحول الخارج الى مجرد اسطورة مخيفة يجب الحذر منها . وليس من موقف تجاهها الا العنف والتدمير . وأما العواطف الايجابية فتتوجه الى الداخل ، الى النموذج الذي يجب أن يحتذى . كل واحد منهم يتحول الى مرآة تعكس للاخرين ذواتهم الايجابية . ويحدث هنا افراط في اعطاء القيمة للجماعة الداخلية على حساب الافراط

في تبخيس الجماعات الخارجية . وتشتد الاواصر ضمن الجماعة المغلقة بقدر حاجتها لتجنّب قلق الانفصال . انها تشتد بقدر الحاجة لانكار الصراعات والتناقضات الداخلية ، وما يرافقها بالضرورة من مشاعر عدوانية . ويذهب الدفاع ضد هذه التناقضات حد الذوبان الكلي في الجماعة . لدرجة يفقد معها الفرد استقلاليته وهويته الذاتية ، ولا يعود له من هوية سوى الهوية الجماعية . وتغلق الحدود النفسية بين الجماعة وغيرها من الجماعات ، يقتصر التفاعل والتواصل على الحد الادنى الضروري ، أو يتوقف عند حدود الاضطهاد المتبادل . وبالطبع ، بمقدار انغلاق الجماعة ، ترتفع درجة النرجسية ضمنها وبين افرادها، نظرا لان كلا منهم يكون مرآة ذات الاخر . وبارتفاع النرجسية تتضخم قيمة الجماعة، حتى تصبح القيمة المطلقة او الوحيدة ، وتتضخم معها وبنفس الدرجة قيمة الفرد . ويأخذ الامر على هذا المستوى نوعا من الشعور بالامتلاء والاعتزاز بالانتماء ، وحالة من الاحساس بالمنعة . وترتفع درجة الذوبان في الجماعة عادة على المستوى الفردي ، بما يتناسب مع مستوى الاحساس بالضعف والعجز وانعدام القيمة . أكثر الافراد ذوبانا في الجماعة وتعصبا لها ، هم في معظم الاحوال ، أشدهم عجزا عن الاستقلال والوصول الى مكانة فردية ، والى قيمة ذاتية تنبع من شخصيتهم . العلاقة الدمجية ،او الذوبانية داخل الجماعة المغلقة تتصف بالاتكال الشديد على رموز القوة في هذه الجماعة ، وعلى عناصر السلطة المادية والنفسية فيها . هذه العناصر تضخم بدورها بشكل لا واقعي بمقدار الحاجة الى الاحساس بالامن والمحبة . كما أن هذه العلاقة نكوصية أساسا ، بمعنى ان الفرد من هؤلاء يبحث ، بشكل لا واع عن العودة الى العلاقات الدمجية بالأم ، مصدر الحب والدفء والحنان والغذاء، ومصدر السلوى، وعامل ابعاد المنغّصات الحياتية . الجماعة المغلقة ، ذات الدلالة الايجابية ومرجع تعريف الذات وتوكيدها ، هي الأم بعينها ، الام المعطاء التي يجب أن تستقطب كل الولاء.

ومن هنا التعصب المفرط لتقاليد الجماعة ومعاييرها ، وردود الفعل العنيفة ضد كل من يحاول خرقها من الداخل ، او الاعتداء عليها من الخارج ، كما أوضحنا في الفقرات السابقة .

هذه الظاهرة تشيع كثيرا في المجتمعات المتخلفة ، حيث نجد أينما حللنا جماعات متفاوتة في كبرها مغلقة على ذاتها ، تشد أفرادها اليها بقوة لا تقاوم ، وتقوم بينها وبين الجماعات المجاورة علاقات صراع وعداء وحذر واضطهاد . كل التناقضات الداخلية توجه الى الجماعات الاخرى التي تستباح عادة اذا سنحت الفرصة في أملاكها وأموالها وأرواحها . ومن الواضح ان هذه العلاقات العدائية الاضطهادية بين الجماعات تشتد وتقوى بقدر تعرضها جميعا لقوى متسلطة تبسط سلطانها على الجميع، ولا قبل لأي منها بمقاومتها . كما ان التعاضد والتعاطف بين أعضاء الجماعة الواحدة يزداد بمقدار رضوخها لمتسلط خارجي لا قبل لها به . وهنا أيضا تبرز ظاهرة الانشطار العاطفي : المتسلط هو رمز الخطر والبطش والسوء ، والموقف منه هو التجنّب والحذر والابتعاد عنه ما أمكن . أما الجماعة الداخلية فهي رمز الحب والحماية والامن ، والشعور بالهوية الذاتية ، والموقف منها هو الاندماج فيها ما أمكن . على أن هذا الانشطار العاطفي ليس دائما . اذ يكفي ان تتاح الفرصة لعضو ما في الجماعة كي يتقرب فعليا ، او مظهريا من المتسلط ، حتى يدير ظهره لجماعته ويتنكر لها . تلك هي ظاهرة التماهي بالمتسلط التي تؤكد وجود تناقضات داخلية كامنة ضمن الجماعة الذوبانية التي تنشأ كردّ فعل على الاخطار الخارجية . والواقع ان الامر في مساره التاريخي يتذبذب ما بين خشية المتسلط وتجنبه ، مما يقود الى الاحتماء الدمجي في الجماعة ، وبين الحرب عليه ومقاومته في مرحلة متقدمة من تطور المجتمع نحو التحرر الاجتماعي . وبين هاتين المرحلتين تتوجه العدوانية الى الجماعات المجاورة .

ب ـ الاسرة العشائرية

الجماعة المغلقة هي في الاصل عشيرة ، أو ذات طابع عشائري •وهذه تتكون من أسرة عريضة ، تتماسك فروعها بشكل وثيق • بينما تضعف الروابط بين تلك الفروع في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، كي تختزل الاسرة في خلية صغيرة هي الوالدان والابناء ذوو العدد المحدود •

الاسرة العريضة ، أصل العشيرة المعروفة جيدا في علم الاجتماع ،هي مؤسسة اجتماعية في المقام الاول : تنشأ وتستمر نتيجة لعوامل اقتصادية اجتماعية ، ولنظام الملكية والسلطة •

ما يهمنا في هذا المقام هو الحديث عن الوظيفة النفسية التي تملأها الاسرة العريضة ، او الاسرة العشيرة تحديدا ، معتبرين البعد الاجتماعي أمرا مسلما به • تحتل هذه الاسرة في العالم المتخلف مكانة مرموقة ،وتعتبر من المقدسات التي لا يجوز أن تمس ، وتحاط لذلك بمجموعة من القيم والمثل العليا التي تحصنها ، لدرجة تكاد تصور على أنها طبيعة الامور ، ومظهر من مظاهر قوانين الحياة • ولا شك أن كبر الاسرة يساعد على ازدياد نفوذها الاقتصادي والسلطوي ، كما أنه يحفظ لها امتيازاتها • ولذلك يحرص القائمون على أمرها ، الممسكون بزمام السلطة فيها ، على عدم افلات أي فرد منها • صبيانها أدوات لمزيد من القوة الاقتصادية ، ومزيد من بسط النفوذ • وبناتها أدوات للمصاهرة واقامة التحالفات مع الخارج ، مما يزيد الثروة أو الجاه او السلطة ، أو أدوات الانجاب ، مما يزيد العدد وبالتالي يساعد على انتشار سطوتها من ناحية ثانية •

من الناحية العلائقية النفسية ، الاسرة العريضة تملكية أساسا • وأهم العلاقات ضمنها من نوع الحب التملكي • الأب يمتلك الأم والاولاد، يحميهم ويؤمن حاجاتهم ، ولكنه يقرر مصيرهم وتوجههم الحياتي (في

الاعداد للمستقبل والزواج وغيره) : تبعا لمصلحته ومصلحة الاسرة. والأم تحب أبناءها وترعاهم بشكل تملكي . فهي تتفانى في خدمتهم والسهر عليهم ، تقدم نفسها وعطاءها لهم دون تحفظ ، شريطة أن تحتفظ بسيطرة خفية عليهم ، سيطرة الحب . انها تقيدهم بواجب الوفاء وعرفان الجميل لذلك الكائن الذي نذر نفسه وبذلها من أجلهم . ومن خصائص الحب التملكي التساهل بكل شيء ما عدا الرغبة في الاستقلال والتوجه نحو التفرد . تلك هي الخطيئة التي لا تساهل فيها ، لا من قبل الأم ، ولا من قبل الاسرة عموما ، انها العقوق والخيانة . وتستجيب الاسرة عادة بردود فعل مفرطة في تطرفها لمحاولات الاستقلال هذه ، تتخذ مظاهر متنوعة وأساليب متعددة ، وتدور كلها حول الترغيب والتهديد والابتزاز:الترغيب بمحاسن البقاء الذوباني في الاسرة وما في ذلك من امتيازات وضمانات (مادية ومعنوية) ، والتهديد بالنبذ والحرمان والعقاب والتنكر ، وحتى التصفية الجسدية (في حالات البنات اللواتي يتجرأن على تحدي رغبة الاسرة) ، وأما الابتزاز فهو ما تمارسه الأم عادة من اثارة لمشاعر الذنب عند الابناء الذين أنكروا الجميل وتنكروا للتضحيات وخرقوا حقوق الامومة . سطوة الاسرة العريضة وتملكها لابنائها كبيران فهم لا ينشأون لانفسهم ، بل لاسرهم . كل انجاز حققه أحدهم ، كل تقدم مهني أو علمي أو مالي لا يعود أثره عليه فقط ، بل هو في المقام الاول وسيلة لزيادة جاه الاسرة وبسط نفوذها . وتشكل الاسرة العريضة بذلك أكبر العقبات ازاء التطوير الاجتماعي . فهي تنازع المجتمع على ملكية أبنائها . وتحدد هويتهم أسريا ، بدل أن تحدد هويتهم مواطنيا . بل ان المواطنية ذاتها تتحدد في هذه الحالة اسريا . الانتماء الى الاسرة بهذا الشكل الذوباني يمنع الانتماء الى المؤسسات الاجتماعية العامة ، ويمنع بروز المصلحة العامة وغلبتها لصالح سيادة مصلحة الاسرة العشيرة . وهذه تسير مع المصلحة العامة طالما خدمت نفوذها وقوتها ، وتقوم ضدها عندما تتهدد

مصلحتها الخاصة أو امتيازاتهـا • ان التغيير الاجتماعي لا يمكن ان يتم من خلال الاسرة العشيرة ، انه يتم تحديدا على حسابها ، من خلال تغليب الهوية المواطنية على ما عداها • الاسرة الكبيرة لا تعترف بقيـم المساواة والمشاركة والعدالة الاجتماعيةوالتحرير الذي لا بد منه ، كي يكون فعليا، أن يكون شاملا لجميع المواطنين على مختلف فئاتهم وانتماءاتهم ؛ وهـي لذلك عقبة فعلية أمام التنمية • الاسرة الكبيرة تقود رأسا الـى بـروز الاقطاعية في المجتمعالزراعي والقبلي ، والرأسمالية البورجوازيـة فـي المجتمع الحضري ، والطائفية في الحالتين ، نظرا لحاجتهـا الى العصبيـة الدينية ، اذا استحالت العصبية القبلية ، كوسيلة لتماسكهـا من خـلال مناصبة الخارج العداء والحذر ، وهي لذلك عقبة أمام التغيير في اتجاه تحرير الانسان •

ولا تقاوم الاسرة الكبيرة الميول الاستقلالية فقط ، بل هي تقـاوم الفردية ضمنها • ليس هناك قطاع خاص في الاسرة ــ العشيرة • كل شيء عام ومشاع • الانسان نفسه ملكية عامة ضمن هذه المؤسسة • كل ميـل الى الفردية ، الى الذاتية والعالم الحميم ، يفسر كتهديد لتماسك الاسرة وكخروج عن سطوتهـا • فهي تبسط نفوذهـا على الاجساد والعقـول والعواطف ، وهي تتحكم بالعلاقات • وفي ذلك كله استلاب للشخصية ، وصد لأصالتها • وتشتط الاسرة ــ العشيرة في فرض العمومية والمشاع في كل كبيرة وصغيرة ، لا شيء يجب أن يفلت منها ، أو يمارس بمعزل عنها• تلك هي مأساة العلاقة التملكية كعلاقة استلابية • وهي تضم في أحشائها نواة نقيضها الذي لا بد أن يبرز يوما ، من خلال تفجر ما تتضمنـه من احباطات لتوكيد الذات ، وتراكم للعدوانية المقموعة ، وتـوق الى الحرية المستلبة •

هذه الاسرة رغم ما تشكله من عقبات أمام التغيير ، ورغم ما تضمه

أحشاؤها من تناقضات قابلة للانفجار ، تلعب على المستوى الفردي وظائف نفسية هامة . فهي تساعد العناصر الضعيفة ، والاكثر عجزاً عن التصدي للاخطار الخارجية (الطبيعية والانسانية) ، والاكثر فشلا في تحقيق أصالة ذاتية من خلال الانجازات ، على مجابهة واقعها ، والتعويض عن مشاعر انعدام الامن من ناحية ، والهوان الذاتي من ناحية ثانية .

فهي أولا تقدم هوية أسرية لمن لا هوية مهنية أو علمية أو فردية له . من ليس لديه سبب ومصدر للاعتزاز الذاتي : يعتز باسم أسرته . ومن عجز عن الحصول على مكانة مرموقة من خلال الانتماء الى المؤسسات الاجتماعية يفخر بمكانة ما في أسرته وضمن عشيرته . من لم يتمكن من النجاح الحياتي كمصدر اعتزاز شخصي ، يعتز بحسبه ونسبه ، ولو كانت الاسباب الواقعية لهذا الاعتزاز وهمية . فغالبا ما يحدث نوع من التباهي بأمجاد الحسب والنسب عند المغبونين من خلال التماهي بالمتسلطين واعتزازهم بانتماءاتهم . أكثر الناس تعلقا باسم الاسرة هو اما فرد متسلط يحظى بأكبر الامتيازات من خلالها ، أو فرد مغبون مسحوق ليس لديه سوى وهم الاسم .

والاسرة ثانيا هي الملجأ والملاذ ، وهي الضمانة ضد الاخطار الخارجية . انها تأمين للانسان المهدد في صحته وسمعته ورزقه وغده ، من خلال نظام التعاضد والتعاون الداخلي الذي يشيع فيها . فالانسان المعدم يمكنه اذا حلت به طارئة ما ، أن يلجأ الى اسرته ويحصل على المساعدات ممن يملكون تقديمها ، بدل أن يحظى بالتأمينات والضمانات الاجتماعية التي يستحقها كل مواطن في المجتمعات المتقدمة . كل فرد من أفراد الاسرة العشيرة يستطيع أن يستعين بقوتها عندما يتهدده خطر خارجي . فالاسرة العشيرة لا بد أن تهب لنجدته وتنتصر له اذا أرادت ان تحتفظ بسيطرتها عليه . وهو لا يستطيع في غياب الحماية الاجتماعية ، الاستغناء عن أسرته والا تعرض للهلاك .

والاسرة ضمانة من كوارث الطبيعة وحماية من أخطـار العـدوان الخارجي من خلال كثرة العدد . ولذلك يحتل التكاثر والتناسـل أهمية مفرطة في العالم المتخلف . انه نوع من الدفاع البيولوجي (كثرة الاولاد) ضد غوائل الطبيعة ، وما قد يخبئة المستقبل . الاولاد حماية من الاعداء (سياج الاسرة في كثرة عدد شبابها) والاولاد ضمانة ضـد الشيخوخـة والعوز . والاولاد عزة ومنعة من خلال تعزيز مشاعر الخلود النفسي من خلال الذرية . وفي ذلك كله تعويض عن مشاعر الضعف ، وعن عقدةالخصاء التي تستحكم بـلاوعي الانسان المسحوق . كثـرة الاولاد ، خصوصـا الذكور ، تلعب وظائف نفسية تعويضية في العالم المتخلف ،يصعبالاستغناء عنها ، اذا لم يؤمن انسان ذلك العالم على مصيره وكرامته ، على صحتـه ورزقه . ولذلك فان خطط تحديد النسل تجابه بمقاومة صريحة وضمنية شديدة تبطل مفعولها الى حد كبير . فهذه الـوظائف نفس الاجتماعيـة لكثرة الصبيان ، تتحول الى قيمة وجودية فاعلة بحد ذاتها ، وتصبح غاية حياتية ومظهرا من مظاهر الشعور بالاعتزاز . ثم ان كثرة الولد تحتل على المستوى اللاواعي دلالة القوة القضيبية (قوة الذكورة) عند الرجـال ، وقوة الخلق والامتلاء الداخلي عند النساء . وهـذه الدلالات من أكبر عوامل التعويض عن المهانة الوجودية ، التي يرزح تحتها الانسان المقهور: الاعتزاز بالقدرة على الانجاب عوضا عن القدرة على الانجاز .

والانتماء الاسري الذوبـاني وسيلة فعّالـة من وسائـل تصريف العدوانية المتراكمة والنابعة من الاحباطات الوجودية ، من خـلال ذلـك المدد العاطفي الدافق الذي يوازن العدوانية التي تهدد بالارتـداد الـى الذات وتدميرها ، كما تهـدد بتفجير مشاعر الذنب المرتبطـة بالعجز عن تحقيق الذات من ناحية ، ومن خلال تحويل هذه العدوانية باسقاطها على الأسر ــ العشائر العدوة ، والحرب ضدها من ناحية ثانية .

أن الوظائف النفسية للاسرة ــ العشيرة ، مضافة الى ضغوطها التملكية على أفرادها ، تشكل عقبات جدية في وجه التغيير الاجتماعي . ولا بد من أخذها بعين الاعتبار حين وضع خطط التنمية . والا تعرضت هذه الاخيرة لعملية استيعاب من خلال تحويلها الى أدوات لخدمة مصالح الاسرة النافذة . وما أكثر عمليات الاستيعاب هذه في بلدان العالم الثالث.

ج ـ النشاط الفمي

الدلالات الاجتماعية والنفسية للطعام معروفة ، حددها علماء الدراسات الانسانية . فالطعام والدعوة اليه والمشاركة فيه ، كالهدايا وتبادلها ، وسيلة للتواصل والتفاعل بين الناس . المشاركة فيه الغاء للعدوانية وابعاد لخطر التهديد الذي قد يأتينا من الاخر ، كذلك حال الدعوة اليه . وهو يشكل لغة لفظية غنية جدا في قدرتها على اثارة التفاعل بين الناس . أما من الناحية النفسية فالطعام من أكثر النشاطات ارتباطا بالحب ، نظرا لارتباط النشاط الفمي أثناء الرضاعة بالعلاقة الوثيقة مع الأم . الحب والحليب يمتزجان ويتبادلان الدلالة .

الا ان الطعام يأخذ في البلدان النامية قيمة مبالغا فيها ، بالنسبة لبقية اشكال النشاط الانساني . ويحتل الكرم مكانة مرموقة لا نجد لها نظيرا في البلدان الصناعية . ويعود هذا التضخم الى اسباب عدة تدخل في اطارها العام ضمن نطاق العلاقات الدمجية . ولكن يجب ألا ننسى قبل ذلك الاشارة الى ظاهرة الجوع وسوء التغذية المزمنين في البلدان النامية ، مما يجعل المواد الغذائية نادرة والحصول عليها ، خصوصا الطعام الدسم ، صعب المنال . هذه الظاهرة وحدها كفيلة بتفسير المبالغة في أهمية الطعام. ولكننا نجد هذه الاهمية بالتساوي لدى المعوزين والمحظوظين الذين لا يشكون جوعا ولا نقصا في التغذية . يحتل الطعام عند هؤلاء قيمة الدلالة

على الوجاهة الاجتماعية والبحبوحة اللتين فيهما ينعمون . انهم بحاجة الى استعراض خيرات موائدهم الغنية بصنوف الطعام ، ليدللوا على افلاتهم من العوز والخواء وقلق الجوع . ان اثرياء العالم المتخلف بمقدار ما يسرفون في الطعم واستعراض الموائد : يدفعون عن انفسهم قلق العوز ، قلق القلة الذي يشتركون في المعاناة منه مع الفقراء ، ولكنه عند المترفين قلق كامن بينما هو ظاهر صريح عند المعوزين . يظهر الخوف واضحا من الجوع خلال الازمات حين يقبل الناس ، على اختلاف مستوياتهم ، على التخزين بشكل مفرط لا تبرره الظروف الموضوعية مطلقا . وكأن كلا منهم في اسرافه في استهلاك المواد الغذائية وفي تخزينها يود ان يدفع عن نفسه شبح الفقر .

اما على المستوى اللاواعي ، فتأخذ هذه الظروف طابع الدفاع ضد قلق بدائي جدا يعاني منه انسان العالم الثالث عموما، وهو قلق الهجروقلق الخواء . فشبح العوز المادي يفجر عقدة الهجر التي تحدثنا عنها في فصل سابق . كذلك فان تراكم العدوانية الناتجة عن الاحباطات المزمنة تفجر نفس العقدة ، وتدفع بالمرء الى الافراط في الطعام الذي يأخذ دلالة امتلاء الجوف بالحب . هذا الامتلاء هو وحده الكفيل بمقاومة العدوانية المتراكمة والمقموعة وادخال شيء من التوازن الى الحياة النفسية . فالشره ، كما هو معروف عند الاطفال ، هو دفاع باجتياف الطعام ــ الحب ، ضد قلق الخواء وما يصحبه من تأزم العدوانية التي تهدد بالارتداد على الذات وتدميرها ، أو بالتوجه الى الخارج وتدميره . وهنا تتلاقى الدلالة النفسية اللاواعية مع الدلالة الاجتماعية للطعام ، كوسيلة لاقامة الصلات واطلاق التفاعل المتعاطف وابعاد العدوان والاضطهاد .

والطعام وسيلة ممتازة لتدعيم العلاقات التملكية داخل الاسرة . فالأم ، اداة الحب التملكي ، وافصح معبر عنه ، تمتلك الزوج والابناء من

خلال امتلاك قنواتهم الهضمية ، من خلال حشو معدهم • فالطعام،تقديمه كتناوله ، هو على قدر المحبة • والانخراط المستسلم في العملية هو استسلام للعلاقة الدمجية في الاسرة • ولذلك نجد المرأة الأم في العــالم الثالث تتخذ من الطعام (طهوه وتقديمه) وسيلة فضلى لتوكيد ذاتها وبسط سيطرتها العاطفية على الابناء • انها تغزوهم من خلال اجوافهم•وليس هذا بمستغرب اذا عرفنا ان الأم هي اداة الدمج الاولى في المجتمع المتخلف • انه يكاد لا يترك لها دورا آخر على مثل اهمية دور حشو الاجواف والسيطرة عليها• ولهذا فرفض تناول ما أعدته من طعام ، رفض تقبل مظاهر كرمها ، الفمي ، هو مصدر احباط لا يحد بالنسبة اليها ، انه رفض للقيمة المطلقة (الحب) في نظرها • وليس أدل عليه من ثورة هذه الفئة من الامهات على النظام الغذائي (الرجيم) تلك البدعة التي يأتي ليقتبسها الابناء من الاجانب ، فهي تحاول جهدها لتبطل هذا النظام وتفسده ، اذ انه في نظرها القيمة المضادة لقيمة الحب الفمي الاساسية ، التي تملك القدرة على منحها والتصرف بها •

والطعام تعويض رئيسي ، ويكاد يكون مع الشراب ، بين الفئات التي تتعاطاه ، التعويض الوحيد عن الاحباطات المتنوعة التي يعاني منها انسان المجتمع المتخلف • أولها الاحباط العاطفي والجنسي ، والعلاقة التعويضية هنا ليست بحاجة الى تدليل • ويتلوها احباط التعبير عن الذات نظرا لتفشي نظام القهر والتسلط الذي يكبح الحريات ويخنق التعبير اللفظي والحركي والسلوكي • ثم هناك الاحباط الوجودي العام الذي يعاني منه انسان العالم النامي (انعدام الامتداد الوجودي ، انحسار الاهتمامات ، انحسار امكانات تنمية الشخصية واثراء الحياة •) هذه الاحباطات جميعا تؤدي به الى النكوص الى نشاط فمي ذي طابع طفلي أساسا • والنكوص الى المستوى الفمي يرتبط مباشرة ويقود رأسا الى استمرار الوضعيــة

الاتكالية على الاسرة ، ثم الرؤساء وكل من يملكون زمام السلطة المادية والمعنوية . وهكذا يحاصر انسان العالم النامي من كل جانب (بالترغيب والحب التملكي ، كما بالتهديد والقهر) كي يظل اداة في يد المتسلط وممثليه الذين ينتشرون في كل المؤسسات الاجتماعية ، عوضا عن أن يرتقي الى الاستقلالية والاصالة الذاتية ، التي وحدها تضمن المشاركة الجماعية الفعالة .

ثالثا : الوضعية الاتكالية

الانسان المقهور الذي لم يتمكن من التصدي لمقدرة ومجابهة تحدياته ، يلوذ بقوى تحميه ويجد نفسه في وضعية تبعية على مختلف الاصعدة . تكلمنا الى الان عن بعض أوجهها ، خاصة التمسك بالتقاليد والرجوع الى الماضي والتماهي بأبطال القصص الشعبي ، الذوبان في الجماعة . وفي الاسرة العشيرة . كل هذه الانتماءات ترسخ نمطه النكوصي الطفلي في مجابهة واقعه ؛ من خلال الاتكال المتزايد على القوى الخارجية التي تعوض له ، واقعيا أو خياليا ، بعض ضعفه . هذه القوى تأخذ من الناحية النفسية باستمرار صورة ودلالة الاب الرحوم الحامي الذي يتمتع بالقوة والجبروت والقدرة على كل شيء . وتمتزج هذه الصورة ايضا بصورة الأم الحنون المعطاء عاطفيا. تتكون من كلتا الصورتين صورة مزيج، هي صورة البطل أو الولي الملاذ . علاقة الانسان المقهور بها هي تكرار لعلاقة الطفل في سنواته الاولى بوالديه مجتمعين في صفاتهما الايجابية . وموقفه منها هو تكرار لموقف الطفل الايجابي (الاعجاب والتماهي والاحتماء) من والديه مع ما يتضمنه هذا الموقف من ميول سلبية بالضرورة (الرغبة في سرقة قوة الوالدين واحتلال محلهما ، العدوانية الكامنة من مقارنة ضعف الطفل بقوة الوالدين ، مع ما تثيره هذه العدوانية من مشاعر ذنب) هذه الميول السلبية تظل كامنة عادة عند الطفل ، وهي كذلك عند الانسان

المقهور . كلاهما يدفع خطرها عنه حين تهدده بالبروز الى حيز الوعي ، بمزيد من الشعور الضمني بالذنب، ومزيد من التبعيةوالاتكالية النكوصية المستسلمة .

أبطال الانسان المقهور عديدون ، يشكلون سلسلة متصلة الحلقات تذهب من الاسطورة الى الواقع . وكلهم يتصفون علـى الدوام بنفس الخصائص : الجبروت والقدرة على تغيير الواقع المؤلم أو المأزقي بخير منه يكون لصالح الانسان المقهور ، الرحمة والحدب ، العطاء دون حدود، امكان التقرب منه والتودد اليه ، الشعور بروابط عاطفية وثيقـة تربط الانسان به ، احلاله في دور الحامي والمدافع عن المقهورين ، اعلاء شأنه وتنزيهه عن كل أوجه القصور والعجز التي يشكو منها الانسان المقهور ، احلاله في مرتبة المثل الاعلى له ، وخصوصا الوضعية الطفلية الاتكالية تجاهه وتسليمه مقاليد أمره ومهمة تدبير مصيره .

أول هؤلاء الابطال هو بطل القصص الشعبي ، يليه الاولياء وذوو الكرامات ، ويتخذ تعبيره المحسوس الواقعي في صورة الزعيم المنقذ . علاقة الانسان المقهور بالزعيم المنقذ سحرية وهوامية [1] على حد سواء .

فهي سحرية لانه يمثل الامل في الخلاص السحري من وضعية مأزقية يشعر أن لا خلاص منها بجهده الشخصي . انه يأمل أن يستيقظ يوما ما فاذا بالامور قد انقلبت بصورة مفاجئة، واذا ببطل الخلاص قد برز الـى الوجود ، واذا بالواقع قد تحول . ذلك هو الامل الذي تعلقه شعوب العالم الثالث على الانقلابات العسكرية . الزعيم المنقذ يظهر كأمل أخير حين تسد جميع أبواب الامل ، وتتضخم مشاعر العجز . بالطبع ان خطورة هذه الوضعية لا تحتاج الى تدليل . فمن المستحيل عمليا على أي كائن ان

---

(1) هوامي Fantasmatique

يحقق هذه الامال السحرية في الخلاص الآني ، وفي تحول المصير من النقيض الى النقيض . لابد بعد فورة النشوة بقرب الخلاص ، من بروز خيبة الامل حين يتحقق الانسان المقهور انه كان يتعلق بسراب . وهو عندها معرض لليأس يتسرب الى نفسه ، للكفر بكل شيء ، وللانكفاء على الذات أو الهروب : مشكلة هذه الوضعية هي أن الانسان المقهور يراهن على خلاصه على يد الزعيم المنقذ دون أن يعطي لنفسه دوراً في السعي لهذا الخلاص ، سوى دور التابع المعجب المؤيد دون تحفظ ، والمنتظر للمعجزة. وهو يشتط في ذلك حتى يصل به الامر الى ازدراء امكانات العطاء عند الجماهير ، تلك هي المشكلة الحقيقية . يزول الاعجاب بعد فترة تطول أو تقصر ، حاملة له خلالها خيبة الامل ، كي يحل محله الكفر بهذا الزعيم . ويسبق الشك الكفر بطبيعة الحال : ويحل العدوان محل التعلق والتبعية . ولا يرى الانسان المسحوق بديلا للخلاص السحري ، لانه فقد الثقة بامكاناته وامكانات أمثاله منذ زمن بعيد . فهو بحاجة ابدا الى من يدبر له أموره نيابة عنه . وحتى حين تتاح لهذه الامكانات أن تتفجر فانها تأخذ في البداية طابع القدرة السحرية على التغيير ، كما يلاحظ في المراحل الاولية للكفاح المسلح ، حين يعتقد الانسان المقهور ان السلاح كفيل بحل مشكلاته ، وانه وحده دون سواه الطريق الى الخلاص . ولكن يأتي يوم يتضح فيه ان السلاح لا يكفي وحده .

والعلاقة مع الزعيم المنقذ هوامية ، لانها ليست علاقة مع انسان فعلي له قدراته وطاقاته وحدوده وعيوبه . انها من نوع التماهي الاسقاطي ، بمعنى ان الانسان المقهور يسبغ على شخص الزعيم كل تصوراته الطفلية بالقوة والقدرة وكل مثله العليا ، ويجعل منه باختصار الصورة النقيض تماما لصورته عن نفسه والتي يجهد في الهروب منها لانها نموذج النقص والمهانة . ان الانسان المقهور لا يعيش في علاقته بالزعيم ، علاقة فعلية بين

انسان وآخر (على اختلاف المقامات) بل بين انسان وتصور خرافي يسقط على الزعيم . وهذا ما يحمل الزعيم اعباء لا قبل لاحد من بني البشر بها. يتصور الانسان المقهور علاقته مع الزعيم المنقذ بشكل تملكي ، فهو تابع ولكنه يحس في قرارة نفسه ان هذا الزعيم مجرد أداة لتحقيق آماله . ويحس أن علاقته معه لا يمكن ان يعتريها الوهن ، وان ما وضعه فيها من رجاء لا يمكن ان يخيب . ويحس أن عليه ان يقعد كالطفل منتظرا الهناء والامن والخير الوفير يأتيه هينا على يدي الزعيم المنقذ ، كما كان يأتيه طفلا من أمه ، فالزعيم المنقذ هو الأب الحامي والأم المرضعة على السواء ؛ وهو بالتالي رمز الكمال الذي يحاول التماهي به كأسلوب لحل مأزقه بشكل سحري .

صورة الزعيم المنقذ الذي يشكل المثل الاعلى ، ضرورة حيوية للجماعة ، أي جماعة . فهو عنصر تماسك بين أفرادها . فمن خلال التماهي بالزعيم ، يتم التماهي بين أعضاء الجماعة ، وبالتالي تتوثق العرى بينهم وينشأ الشعور بالانتماء قويا . وصورة الزعيم القدوة ضرورة حيوية للجماعة ، كي يفجر طاقاتها ويحرك امكاناتها على الفعل والخلق ، ويقود مسيرتها معطيا اياها المثل وموضحا الطريق . هذا الزعيم هو عنصر حاسم لدفع الجماعة الى النهوض بأعباء التغيير ، شريطة ان يلعب دور القائد المحرك والموجه ، وشريطة ان يكيف دوره باستمرار تبعا لمسيرة الجماعة ، والمراحل التطورية التي قطعتها وما تطرحه هذه المراحل من مهمات جديدة وتحديات جديدة ، وما تتطلبه من أدوار قيادية جديدة .

الخطر الذي يقع فيه العالم المتخلف ، والذي نجد عليه أمثلة عديدة مليئة بالمآسي ، هو تحول الزعيم المنقذ من قائد يحرك الجماهير ، الى بطل اسطوري ينخرط في وهم التغيير الفردي ، ويدفع اتباعه الى مواقع الاعجاب والتفرج والتأييد الطفلي الامعي . الخطر هو في انتشار صورة البطل

الاسطوري ، الذي يكرر صور ابطال القصص الشعبي (فارس يحارب جيشا ، والقبيلة تتفرج منتظرة عودة فارسها مظفرا) . هذه الوضعية، أزقية بالضرورة لكل من الزعيم والجماعة على حد سواء . فالزعيم لا بد ان يفشل ، ويتكرر فشله ويتراكم عجزه مفجراً التناقضات بينه وبين جمهوره. فاذا اصر على بقائه في سدة الزعامة وأصر على نهجه رغم فشله ، فانه سيتحول الى متسلط ، ولا بد له من اتخاذ القمع وسيلة للاحتفاظ بمركزه. ويكون بذلك قد عاد بالامور الى حالتها الاولى : مجتمع التخلف الذي يحكمه القهر والتسلط .

أما الجماعة فبعد الشك ستكفر وتستقر في خيبة أملها . وقد تكرر خطأها في أمل سحري بخلاص جديد. الا اذا قيض لها ان تعي دورها كعامل التغيير الاساسي : الخلاص من خلال الجهد الذاتي .

الفصل السادس

التماهي بالمتسلط

التماهي بالمتسلط يشكل احد المظاهر البارزة في سعي الانسان المسحوق لحل مأزقه الوجودي والتخفف من انعدام الشعور بالامن ، والتبخيس الذاتي الذي يلحق به من جراء وضعية الرضوخ . انه كحل عبارة عن هروب من الذات وتنكر لها ، وهروب من الجماعة وتنكر للانتماء اليها ، من خلال التشبه بالمتسلط وتمثل عدوانيته وطغيانه ونمط حياته وقيمه المعيشية . انه استلاب الانسان المسحوق الذي يهرب من عالمه كي يذوب في عالم المتسلط ونظامه أملا في الخلاص .

تشيع هذه الظاهرة بكثرة في البلدان النامية ، متخذة العديد من الاوجه والاشكال، وشاملة قطاعات واسعة من الظواهر المعيشية والتوجيهات الوجودية ، كي تصل في بعض الاحيان حد الاستلاب الكلي ، حد التنكر التام للوضعية الذاتية والذوبان في عالم المتسلط . والتماهي بالمعتدي هو من أقوى عوامل مقاومة التغيير ، وعرقلة التحرر الوطني والاجتماعي ، خصوصاً عندما يتخذ شكل التماهي بقيم المتسلط وتبني مثله العليا . وهو كذلك لانه ينمي عند الانسان المسحوق وهم التحرر من خلال التنكر للمشكلة الذاتية والجماعية ، ومن خلال التمسك بمظاهر خادعة يعتقد فيها اقترابا من نماذج الوجاهة السائدة .

تطغى ظاهرة التماهي بالمعتدي خصوصا في مرحلة الرضوخ للمتسلط المحلي والاجنبي ، حين يحس الانسان المسحوق بوطأة وضعه وعجزه عن تغيير علاقة القهر . ولكنها تتغلغل في مختلف مظاهر الحياة والسلوك بشكل

لا واع ؛ مما يجعلها تفلت من محاولات التغيير . وهي تشكل على ذلك الوجه المضاد لعملية مقاومة المتسلط من خلال الانكفاء على الذات . والاحتماء بالجماعة ، بمعاييرها وتراثها . ومن الضروري قبل الخوض في تفاصيل هذه العملية التوقف لحظة لتحديد امرين اثنين هما في أساس التسمية التي أطلقناها : التماهي ، والتماهي بالمعتدي .

التماهي ، ويسمى ايضا التوحد والتعيين ، هو أكثر من مجرد التشبه بالاخر أو محاكاته . فهاتان العمليتان تظلان واعيتين ؛ من يتشبه بالغير أو يحاكه يحاول الاقتراب من نمط سلوكه أو مظهره دون أن يفقد احساسه بالاختلاف عنه ، احساسه بالغيرية . أما التماهي ، أو التعيين ، فهو عملية لا واعية تتم خارج اطار الانتباه والارادة في معظم الاحيان ، وتتلخص بتمثل وجود الاخر حتى يصبح الشخص هو الاخر أو يعيش ذاته كذلك . انه هو عينه ، أو هو هو ، ومن هنا يتخذ لنفسه نفس ماهية الشخص الاخر وهويته . والتماهي قد يكون كليا أو جزئيا . أما الكلي فهو نادر الحدوث لانه يقود الى فقدان الذاتية تماما ، والاستلاب في ذاتية الاخر ، ونكون ساعتئذ أمام حالة مرضية صريحة . أما الشائع فهو التماهي الجزئي ، بناء الذات على نسق وجه من أوجه وجود الاخر الذي تماهي به . فقد تتماهى بأسلوب شخص آخر تتمنى ان نكون مثله أو نحل محله ، أو بمثله العليا ، أو بايماءاته وتعابيره ، او بأدواته . والتماهي هو في أصل المشاركة الوجدانية بين الناس ، ومن أهم أسس الانتماء الى الجماعة والتشابه بين أعضائها . ومن ابرز الامثلة على التماهي كمشاركة وجدانية ، التشابه الكبير الذي يصل حدا مذهلا بعض الاحيان ، بين زوجين تقدمت بهما السن ، وعاشا علاقة تفاهم وانسجام عاطفي . فمن يرهما لاول وهلة يخيل اليه ان كلا منهما نسخة طبق الاصل عن الاخر . المظهر العام والتعابير والاتجاهات الجسدية والحركات موحدة . وما ذلك الا نتيجة عملية تماه متبادل وطويل الامد ، حدث خلالها تمثل متبادل لخصائص كل منهما . ومن أكثر أشكال التماهي

شيوعا عند الطلاب تمثل تعابير وايماءات الاستاذ حين يستقطب اعجابهم ويشكل مثلا أعلى لهم •

التماهي من العمليات النفسية الاساسية في بناء الهوية الذاتية •فكل انسان يجد اصالته في النهاية ، من ضمن سلسلة كبيرة من التماهيات بأشخاص يكونون مثلا أعلى له ، في كل ميدان ، وقطاع من قطاعات الحياة ، وما الاصالة الذاتية الا انتظام هذه التماهيات في نسق فريد تبعا لدينامية الشخصية وتاريخها وامكاناتها •

من الناحية النفسية اللاواعية لا يحدث التماهي بشكل فاتر ، من خلال تمثل خصائص الاخر كما هي موضوعيا ، بل هو عملية نشطة جدا تمر بسلسلة من تفاعل اواليتي الاجتياف والاسقاط اللتين تتبادلان التأثير • فما يتمثل من خصائص الاخر يمر بمصفاة الذاتية ويصطبغ بلونها، تبعا للدينامية اللاواعية للشخصية • أكثر من ذلك ، نحن نجتاف في النهاية الصورة (أو التصور) أو الدلالة التي أسقطناها على الاخر • التلميذ الذي يعجب بهذه أو تلك من خصائص أو توجيهات استاذه ، لا يتمثلها (يجتافها) كما هي ، بل يتمثلها انطلاقا من اسقاط التقدير المفرط على شخص هذا الاستاذ انطلاقا من رفعه الى مرتبة المثل الاعلى الذاتي الذي يحاول التقرب منه• ما تتمثله من الاخر هو اذن نتاج عملية تفاعل دائم بين ما هو واقعيا وما نسقطه على واقعه الموضوعي من تصور ذاتي ، ولذلك يمكننا القول ان كل تماه هو في النهاية تماه اسقاطي • وما يسقط اساسا ، هو عنصر المبالغة التي نسبغها على خصائصه سواء منها الحسنة أو السيئة، الايجابية أو السلبية وسنرى الاهمية الكبرى لهذه المسألة حين التحدث عن التماهي بالمتسلط حيث تحدث في أغلب الاحيان مبالغة في تقدير صفاته التي نعجب بها أو نخشاها ، مما يجعل الانسان المسحوق يبالغ في اعجابه كما يبالغ في خشيته•

أما التماهي بالمعتدي [١] ، فهو أوالية [٢] استخلصتها آنا فرويد (ابنة فرويد) من خلال عملها العلاجي مع الاطفال الذين يعانون من اضطرابات نفسية • ولقد عرضتها بالتفصيل في مؤلفها المشهور عن الانا وأواليات الدفاع [٣] (١٩٣٦) • ويشكل التماهي بالمعتدي في رأيهااحدى اقوى وسائل النضال ضد الموضوعات الخارجية المولدة للقلق (المرجع المذكور ، صفحة ٩٧) • فالشخص الذي يواجه بخطر خارجي (متمثل نموذجيا بنقد أو تهديد صادر عن سلطة) يتماهى بالمعتدي ، بمن يمثل أو يجسد هذه السلطة مصدر الخطر ، اما بأن يأخذ لحسابه العدوان كما هو، أو بالمحاكاة الفيزيقية أو المعنوية لشخص المعتدي ، أو بتبني بعض رموز القوة التي تدل عليه • الا ان هذه الاوالية تشيع كثيرا عند الاطفال كوسيلة للتغلب على خوفهم من الاخطار الخارجية • فالطفل الذي يخاف الاشباح في الظلام ، قد يتغلب على خوفه من خلال لعب دور الشبح الذي يخيف طفلاً آخر يسقط عليه دور الضحية التي تخاف • كذلك الطفل الذي يخشى اللص ، أو الذئب فانه يتغلب على خوفه بتمثيل خطر اللص القاتل أو عدوان الذئب المفترس ، الذي يبرز مخالبه ويكشر عن انيابه •

من خلال لعب دور المعتدي ، أو تمثيل عدوانه أو استعارة صفاته يتحول الطفل من كائن مهدد الى كائن مخيف ومهدد (نفس المرجع ،صفحة ١٠٠) وفي ذلك مرور من الدور الفاتر العاجز الى الدور الفعال ، بغية الوصول الى استيعاب أحداث مؤلمة أو صدمية • في كل حالات التماهي بالمعتدي يحدث قلب في الادوار ، تتحول الضحية الى معتد من خلال نقل دور الضحية أو وضعيتها الى شخص آخر يفرض عليه الدور المزعج، ويصبح

---

(١) التماهي بالمعتدى — Identification a l'agresseur

(٢) اواليــة — Mécanisme

(3) Anna Freud. Le moi et les mécanismes de defense ,P.U.F. 4eme.ed. Paris, 1967 .

موضوعا للتشفي من ناحية ، وللتنكر من المخاوف الذاتية من ناحية ثانية. أنا لا أخاف ، أنا أخيف ، هو يخاف ، أنا أخيفه . هذه الوضعية الذاتية ، أو كل مشاعر الذنب الذاتية . فليس أكثر من المعلم الظالم الا التلميذ الذي يوكل اليه هذا المعلم حفظ النظام في الصف . وليس أكثر شططا من الأم المتشددة الا الطفل الذي يعاني مشاعر الذنب ويصبها على أخ أصغر ، بينما يلعب هو دور الأم التي تحاسب وتعاقب . وسنرى كيف ان أزلام المتسلط وأدواته : هم في أغلب الاحيان أشد قسوة وتطرفا في تعاملهم مع الانسان الضحية الذي فرض عليه دور المقهور .

يتخذ التماهي بالمعتدي ، تبعا لآنا فرويد ، أشكالا ثلاثة أساسية : التماهي بحركات المعتدي (تمثيل دور الغول أو الذئب من تكشير ومخالب ومظاهر تبث الرعب في نفس الضحية) التماهي بعدوان المعتدي (الافراط في تبني القسوة والارهاب لحسابه الذاتي وفرضهما بكثير من الشطط على العناصر الاضعف) ، والتماهي بأدوات المعتدي (سكين اللص ، أو سلاحه الناري ، مخالب وأنياب الذئب) وقد تجتمع هذه الاوجه الثلاثة في أوالية التماهي بالمعتدي ، أو هي تظل جزئية ، ولكن الاغلب ان يضع المتماهي ذاته في جلد من تماهى بشكل اجمالي من ناحية التجربة النفسية .

. التماهي بالمتسلط

تساعدنا أوالية التماهي بالمعتدي ، كما أوجزناها ، مساعدة جلى من الناحية المنهجية ، في القاء الضوء على الكثير من الظواهر الحياتية التي تلاحظ في البلدان النامية ، وتحديدا عند الفئات المسحوقة ، والتي قد تثير العجب أحيانا ، نظرا لتعارضها مع علاقة الصراع التي تميز منطقيا علاقة الانسان المسحوق بالمتسلط . التماهي هو كما قدمنا من أكثر الظواهر شيوعا في البلدان النامية . وهو يكاد لا يترك أي فئة سكانية ، أو أي وجه من أوجه الحياة الا وتغلغل فيها . وهناك سلسلة متصلة الحلقات من

التماهي بالمتسلط في هذه البلدان ، تبدأ من أعلى الهرم ، بتماهي المتسلط المحلي بسيده وحليفه الاجنبي الذي يتقدم عليه تكنولوجيا وحياتيا،وتنتهي بتماهي أكثر الناس ضعفا وهوانا بمن يفوقهم في المرتبة مباشرة . الا ان النموذج السائد هو التماهي بأعلى المتسلطين مقاما ونفوذا محليا وخارجيا. فهؤلاء هم الذين يحددون القيم والتوجيهات الحياتية الاساسية لكل من يأتي بعدهم في سلم المرتبية (١) .

يتخذ التماهي بالمتسلط مظاهر مغايرة نسبيا عن التماهي بالمعتدي ، كما عرضته آنا فرويد ، ولو أن الدينامية النفسية واحدة في الحالتين.هذه الدينامية تقوم على خلفية من الاعجاب الصريح أو الضمني بالمتسلط ، كذلك بالمعتدي ، سواء في تبني بطشه وتهديده ، أو في تمثل اسلوبه الحياتي وقيمه . هناك رغبة دفينة في احتلال مقام مماثل لمقامه ان لم تكن الرغبة في الحلول محله بشكل جذري ، باعتبار مقامه يشكل الحالة الحياتيةالمثلى.

ويمكن ان نستعرض ظاهرة التماهي بالمتسلط من خلال أشكال ثلاثة رئيسية : التماهي بأحكام المتسلط ، التماهي بعدوانه ، والتماهي بأسلوبه الحياتي ومثله العليا وقيمه . من الواضح أن الشكلين الاولين يقومان على خشية المتسلط ورهبة جانبه ، وبالتالي يهدفان الى درء خطره أو التنكر لما يثيره هذا الخطر من قلق ذاتي . اما الشكل الاخير فيقوم على الاعجاب والرغبة في التقرب من نمطه الوجودي ، مع ما يتضمنه ذلك من تنكر للجماعة الاصلية ، قيمها ومعاييرها .

١ ـ التماهي بأحكام المتسلط

يقوم الانسان المقهور ، في علمية التماهي بأحكام المتسلط ، باجتياف عدوانيته وتوجيهها الى الذات على شكل مشاعر ذنب ودونية وتبخيس للقيمة

---

(١) المرتبيـــة Hierarchie

الذاتية . انه ينخرط في عملية حط من قيمته ، وقيمة الجماعة الاصلية التي ينتمي اليها . وبقدر ما يذهب بعيدا في هذا الاتجاه ، فانه يعلي من شأن المتسلط ويبالغ في اعتباره وفي تثمين كل ما يمت اليه بصلة .

تشيع أوالية التماهي بأحكام المتسلط خلال مرحلة الرضوخ وتجعل التسلط ممكنا بل يكاد يبدو طبيعيا . تبدو الهوة ساحقة بين المتسلط والانسان المسحوق ، وبالتالي فمن حق الاول ان يسود نظرا لتفوقه . يعاني الانسان في هذه الحالة من مأزم وجودي حاد يتخذ شكل رفض الذات وعدم الاعتراف بها ، بل ادانتها على فشلها . وينطلق المرء في مجموعة أحكام سلبية ، تجعله لا يرى خيرا أو عزة في ذاته . انها مصدر التقصير ، ومجمع العيب وموضع الهوان . وصب الحقد على الذات لعجزها وفشلها في التصدي للمتسلط أو مجابهة قانون الطبيعة يتغذى ، من مشاعر ذنب شديدة ترافقها بالضرورة ميول لتدمير الذات ، ويسير الامر تدريجيا في اتجاه الانفصام بين الذات الحقيقية وبين السلطة الداخلية (الانا الاعلى) التي تتشدد في الحساب . يتماهى المرء كليا مع هذه السلطة الداخلية ضد ذاته حتى يصل حد التنكر والرفض الكلي لها . هذه الازدواجية الداخلية تجعله يشتط في أحكامه وفي تبخيسه لذاته . وبالطبع لا بد لهذا التنكر وتلك الازدواجية من أن يعمما على الموقف من الجماعة . انه لا يحترم امثاله ولا يعتز بالروابط بينه وبينهم ، ويكاد يخجل من الاعتراف بالانتماء اليهم . وانطلاقا من هذه الوضعية ، ينخرط في حرب عشواء على الجماعة مكدسا الادلة من ظواهر الحياة اليومية على ضعفها وعجزها وسوئها . انها الجماعة المستكينة التي لا يرجى منها خير ، والتي ستظل أبدا غارقة في المهانة والجهل والانحطاط . وبذلك يكون قد ابتدأ تدريجيا في السير على طريق التماهي بعدوان المتسلط ، وتهيأ للعب دوره تجاه الاشخاص الاضعف حين تسنح الفرصة .

تبلغ العلاقة مع المتسلط في هذه الحالة أشد درجات السادو مازوشية : قبول التسلط والرضوخ له ، في جو من الافراط في رهبة جانب المتسلط والاعجاب به في آن معا • وينتج الافراط هذا عن ظاهرة انشطار القيمة الانسانية • توجه كل القيم الايجابية (القوة والمتعة والتفوق) الى المتسلط، وكل القيم السلبية الى الانسان المسحوق • ويبدو ان لا امل في الخلاص من هذا المأزق الوجودي الا بالاقتراب ما امكن من المتسلط ، والتنكر الشامل للذات ولانتماءاتها التاريخية والاجتماعية • حتى هذا الامل يبدو صعب المنال في البداية ، مما يولد حالة من الرضوخ السوداوي لقدر مكتوب ، وحظ مقسوم ، ومصير محتوم •

يستغل المتسلط هذه الظاهرة ويعمل على تغذيتها وترسيخها بكل السبل الممكنة • فهو يؤكد على ضعف وجهل وتأخر ومهانة الانسان المسحوق ، ويغرس هذه الصورة في نفسه غرسا من خلال عملية تبخيس دائبة تحاصر ذلك الانسان من كل الجوانب • تحط من قدره وتسفل كل ما يمت اليه بصلة تراثه ، عاداته ، قيمة ، امكاناته ، سادة امامه كل افاق التغيير والارتقاء بوجوده • وقد يصل الامر حد التدمير المنظم لذات الانسان المسحوق ولتراثه ، لحشره في الطريق المسدود الذي لا خروج منه الا بالرضوخ ، او الاستلاب من خلال الذوبان في عالم المتسلط • وبقدر ما يحط من قدر الانسان المسحوق ، يحاول المتسلط تضخيم اهميته الذاتية وتفخيم عالمه وانتماءاته وادواته • انه ينخرط في عملية استعراض لقدراته على كل صعيد (قوته ، امكاناته ، بطشه ، تقنياته) ، بشكل يبهر الانسان المسحوق ،ويدخل اليأس في نفسه من اماكن التصدي والتساوي •

وعندما تترسخ هذه العملية وتتسع الهوة بين المتسلط والمسحوق ، يتحول هذا الاخير الى حليف غير مباشر للاول ، في حرب التبخيس هذه التي يقع ضحية لها • وعند هذا الحد ينقاد الانسان المسحوق الى عملية

استلابه : يتنكر لذاته ويحارب مصالحه . وبقدر تزايد تلك الحرب ، يربط نفسه بقيود تأسره في فلك المتسلط .

تشكل هذه الوضعية نوعا من الجمود والتخدر الذاتي يشل كل امكانية للمبادرة والتصدي ، الآلام المعنوية التي ترافق انعدام القيمةتصل حدا لا يطاق . الاستكانة لا تشكل حلا ملائما لانها لا تؤمن الحد الادنى من التوازن الوجودي الذي لا يمكن للحياة ان تستمر دونه . ولهذا فستظهر عاجلا ام آجلا محاولات هروب الى الامام ، انكار للمأزق من خلال نفي الذات وقلب الادوار . ويتحول الانسان المسحوق من ضحية الى معتد على امثاله الاضعف قدرة ، والاقل حظوة لدى المتسلط، يتحول بالتالي الى اداة بطش في يده ، في حالة من وهمالقيمةوالاعتبار الذاتيين من خلال التقرب (الاستزلام) منه . ذلك هو التماهي بعدوان المتسلط .

٢ ـ التماهي بعدوان المتسلط

يتخلص الانسان المسحوق من مأزقه من خلال قلب الادوار . يلعب دور القوى المعتدي ويسقط كل ضعفه وعجزه على الضحايا الاضعف منه . الاخر الشبيه به هو المذنب ، وهو المقصر ، وهو بالتالي يستحق الادانة والتحطيم . من خلال التماهي بالمعتدي يستعيد الانسان المسحوق بعض اعتباره الذاتي، او على وجه الدقة يصلالى شيء منوهمالاعتبارالذاتي. كما انه يتمكن من خلال هذه الاوالية من تصريف عدوانيته المتراكمة والتي كانتتتوجهالى ذاته ، فتنخركيانه وتحطم وجوده.هذا التصريفللعدوانية بصبها على الخارج من خلال مختلف التبريرات التي تجعل العنف ممكنا تجاه الضحية ، يفتح السبيل امام عودة مشاعر الوفاق مع الذات ، شرط التوازن الوجودي . وتشتد الحاجة للضحايا بمقدار ازدياد العدوانية وتوجهها نحو الخارج ، ومقدار النقص في الوفاق مع الذات .

والتماهي بعدوان المتسلط يحمل في ثناياه وهم الخلاص الذاتي ،

من خلال فض الالتزام بالجماعة والتنكر للانتماءات السابقة • فهو يدفن الصورة المحقرة عن الذات من خلال دفن الماضي من ناحية ، وسحب الاعتراف بارتباطاتها الانسانية من ناحية ثانية • ومن خصائص هذه العملية الميل الى التطرف والشطط ، فبمقدار ما يبرز الماضي الى الوجود يندفع الانسان المسحوق في حركة هروب من الذات وارتماء في أحضان المتسلط •

مظاهر التماهي بعدوان المتسلط متعددة ومجالاته متنوعة ، نجدها لدى من سنحت له الظروف كي يمارس سلطة على أناس دونه أو اضعف منه • كما نجدها عند من يلتمس حظوة من خلال التقرب من المتسلط • وهي في أبسط مظاهرها تبدأ بذلك التعالي الذي يظهره الفقير تجاه الافقر منه ، والبائس تجاه من هو اشد بؤسا منه • في ذلك التعالي يحاول أن ينكر مهانته الذاتية بصبها على الآخر • ومن مظاهرها أيضا كل التصرفات الاستعراضية للقوة ؛ أو لرموز القوة أو حتى لوهم القوة ، سواء من خلال حمل السلاح واستعراضه دونما حاجة فعلية اليه ، أو من خلال استعراض العضلات • وقد لا تتجاوز حد المباهاة والتعالي من خلال التخريف والادعاءات المتفاوتة بقوة أو متعة • في كل هذه الحالات ينخرط الانسان المسحوق في حرب ضد خطر الاحساس بضعفه الذاتي والموقعي ، وفي محاولات دائبة لطمس هذا الضعف • الا ان هذه الحالات ليست خطيرة عموما في نتائجها وآثارها • هناك حالات يبرز فيها التماهي بعدوان المتسلط صارخا مكونا نوعا من الآفة الاجتماعية والمأساة العلائقية ، سنتحدث عن ثلاث منها •

الحالة الاولى ذات الانتشار المحدود نراها في ظاهرة تسلط بعض (القبضايات) على الافراد والمؤسسات لفرض الخوّة من خلال الابتزاز والتهديد • الواحد من هؤلاء يغطي ضعفه وهوانه الاجتماعي من خلال لبس جلد التمساح والاحتماء وراءا مظاهر القوة العضلية والمسلحة ،

يتخذها لنفسه ويهدد بها من حوله . انه يتنكر للتعاطف مع أفراد طبقته ، يجمد عواطفه ، يعطل احساسه بمعاناة الكادح وتعب الفقير فارضا عليهم ضريبة متفاوتة في قدرهـا ، بينما كان يجب أن يوظف قوته للـذود عنهم ودرء قسوة المتسلط عليهم . انه في الحقيقة يتبنى قسوة المتسلط لحسابه فارضا اياها على الاضعف منه . كما انه يتبنى أسلوب حيـاة المتسلط في العيش الطفيلي على حساب الناس الكادحين . يزدري العمل ، ويزدري العناء الحياتي الذي يضعه أمام مهانته الوجودية وانسحاقه العلائقي . ويتخذ من التسلط المتطفل مجالا للشعور بالعزة وباختلاف المصير . كـل خوّة تفرض ، وكل ابتزاز متطفل يجد باستمرار نموذجا له في تصرفـات المتسلط الذي يعيش من جهد الآخرين ، انه تماه بعدوان المتسلط ومحاكاة لاسلوبه في الحياة . وقد يعمم هذا النموذج متخذا درجات متفاوتة من التسلط التطفلي على جهد الاضعف ، كل من أنس في نفسه شيئا من قوة يتسلط على من هو أضعف منـه ، وهكذا . كل يتسلط ويستغل تبعـا لحجمه . وكل يزدري الاضعف منه ويرهب جانب من يفوقه قوة . ويمتزج الاعجاب الدفين بالرهبة الظاهرة . وتمتزج الرغبة في الارتفاع الى مستوى أعلى من القوة والتسلط بمحاولة تجنب الوقوع موقع الضحية .

وقد تمارس الخوّة وأسلوب العيش التطفلي ضد رموز السلطة السائدة أو بعض أفرادها . ذلك لايغير من واقع الحـال شيئـا من حيث تفسير الظاهرة وديناميتها ، الاختلاف هو في الشكل الخـارجي فقط . هناك دوما نموذج يحاكيه الواحد من هؤلاء ، ونجده خفيا أو صريحا في ممارسة ما للفئة التي تمتلك النفوذ الفعلي وتمسك بالسلطة في المجتمع .

وقد يرى البعض في هؤلاء مجرد جانحين أو مجرمين يشكلون آفـة اجتماعية يجب أن تجتث ، ذلك صحيح من الناحية الظاهرية . ولكن يبقى ان الاجرام في أوقات السلم ، كذلك خلال الازمات التي تعصف بمجتمع

ما ، هو دائما تعبير مباشر أو غير مباشر عما يعتمل في بنية ذلك المجتمع من تسلط وارهاب يستتبعان العلاقة الانسانية : عنفا وبطشا . الاجرام تعبير عن الاضطراب في العلاقة الانسانية الذي تعاني منه بنية المجتمع .

أما الحالة الثانية للتماهي بعدوان المتسلط فهي أكثر انتشارا وشيوعا، نجدها خصوصا في الاجهزة التي تشكل أدوات السلطة ، سواء في الادارة، أو في أجهزة الشرطة والامن . ان العلاقة بين المواطن وبين من يعملون في هذه الاجهزة على اختلاف رتبهم ومكاتبهم تشكو في البلـد المتخلف من ظاهرة التماهي بعدوان المتسلط .

فعلى مستوى الادارة ، نجـد الموظف يتعـالى على من هم دونـه ويشتط في معاملتهم، كما يتعالى على الجمهور ويقابله بالصد أحيانا والنبذ الصريح أحيانا أخرى . وهو ان قام بما يفترض أن يقدمه من خدمات يعتبر ذلك منّة من جانبه تجاه صاحب الحاجة ، وليس واجبا تمليه عليه وظيفته انه يكاد لا يعترف ، الا في حالات نادرة ، بحق صاحب الحاجة من المواطنين في أن تلبى حاجته . وهو في ذلك يكرر موقف رئيسه منه ، وهذا الاخير يكرر موقف المسؤولين الاعلى منه . ويتخذ الامر في النهاية طابع سلسلة علاقات استعلائية استعبادية ، وليس شكل العلاقة المرتبية الرسمية التي تفرض واجبات وتضمن حقوقا لكل طرف وعلى كل مستوى . ان التماهي بعدوان المتسلط بالنموذج الذي يفرضه في التعامل مع الآخرين لا يعترف لا بواجبات ولا بحقوق ، سوى حـق المتسلط ، وواجب اذعان التـابعين والمرؤوسين له .

أما على مستوى ممارسة السلطة (الشرطة والامن وخلافهما) فيتخذ التماهي بالمعتدي أفصح صوره . هناك سلسلة متصلة الحلقات من تراتب الرضوخ والتسلط ، ومن مظاهر البطش تمارس على العناصر الاضعف . أزلام الاقطاعي أشد قسوة وأكثر بطشا منه تجاه الفئة التي ينتمون اليها في الاصل والتي تنكروا لها كل التنكر بعد أن حظـوا بالتقرب منـه ،

وسنحت لهم الفرصة كي يلعبوا دور أدواته القـامعة • الخفير يتعـالى ويشتط على الفلاح البائس بينما يرضخ للعمدة أو المختار ، وهذا الاخير يشتط في معاملة الخفير بينما يستكين تجاه المأمـور وهكذا • ليس أشد قسوة وبطشا في التعامل مع المواطن المستضعف ، الذي لا يجد له حماية في انتماء الى زعيم أو ذي نفـوذ ، من الشرطي الـذي كان مستضعفـا ومسحوقا قبل دخوله سلك الشرطة • انه يتحـول من انسان مهدد الى مستبد يتشفى ممن لا زالوا مستضعفين • يصب عليهم كل عنته وحقـده المتراكم ، في حالة من التنكر التام لانتمائه الاصلي وشرطه الانساني السابق • وهو يشتط في استعراض بعض مظاهر ورموز القوة والسلطـة في وضعه الجديد •

ان العنف والقسوة اللذين تمارسهما أدوات السلطة حين ملاحقة بعض المخالفين في أمور صغيرة أو كبيرة ، ناهيك عن اهانة كرامة المواطن والنيل منه ، وناهيك عن التلذذ في عمليـات التعذيب والايذاء الجسدي اثنـاء التحقيق ، أمور لا تمت بصلة الى ما تفترضه القوانين من علاقات وأساليب تعامل • ان في ذلك تشفيا واضحا ، وان فيه تفريغا للعدوانية المتراكمة ، نتيجة القهر المزمـن الذي تعرّض له هؤلاء قبـل أن يحتلوا مناصبهـم كأدوات للسلطة • ان التلذذ في مهانة الانسان المستضعف والبطش به تحت ستار ممارسة وظيفة الحفاظ على الامن ، يشير الى المرض العلائقي الذي ينخر بنية العالم المتخلف • انه التماهي بعدوان المتسلط كأسلوب وحيـد في الخلاص السحري من المهانة الذاتية ، التي تنخر حياته الحميمة لطـول ما تعرّض له من قهر • انه يفرض القهر ويمـارس المهـانة على الآخرين بنفس القدر الذي عانى منهما سابقا ، ولا زال يعاني منهما حاليا في علاقته برؤسائه • وهو عوضا عن توسل وظيفته أو ما أنيط اليه من سلطة لاحقاق الحق وازالة الحيف الذي لحق به ويلحق بأمثاله من المقهورين ، نجـده يسعى الى الخلاص الفردي ، من خلال وهم التغيير المصيري ومن خـلال

التنكر لماضيه والتنكر لامثاله ، وذلك باسقاط كل مهانتـه عليهم • وهو يشتط بقدر فشل هذا الحل الوهمي كي يصل الى شيء من اليقين باستعادة اعتباره • ان أداة السلطة في المجتمع المتخلف تمارس البطش ، من خلال التماهي بالمتسلط ، بقدر ما تعرضت وتتعرض له من قهر • وهي في هذه الممارسة تعبير فصيح عما يعتمل في بنية ذلك المجتمع من قهر وعسف •

هناك حالة ثالثـة من التمـاهي بالمتسلط ، نجدهـا في الممارسات السياسية والمسلحة التي تفتقر الى هدى تنظيم وتأطير ثوريين حقيقيين•

ما حدث على الساحة اللبنانية يعطينـا نمـاذج واضحـة عن تلك الممارسات • المقاتل الذي يحمل السلاح نجده في بعض تصرفاته لا يقف موقفا نضاليا ، بل هو يتصرف تبعـا لنموذج المتسلط الذي عـانى منه سابقا • بدل أن يعامل الجماهير برقة وروح أخوية ، نراه يتعالى عليهـا معطيا لنفسه مكانة مفضلة ومقدما ذاته على الآخرين • لقد تحول من خلال حمل السلاح من انسان مسحـوق الى آخر متفوق ، يلعب دور المتسلط الصغير أو الكبير • كما أن الكثير من العلاقات المرتبية بينه وبين رؤسائه ومرؤوسيه تأخذ شكل العلاقة بين المتسلط والتـابع ، تعـال من ناحيـة ورضوخ من ناحية ثانية • وأما التصرفـات الاستعراضيـة فهي في هذا المجال أكثر من أن تعد • نجد الواحد من هؤلاء يتباهى مختالا باستعراض قوته المستجدة متمسكا بالمظاهر بشكل يتنافى مع الروح النضالية الحقة التي تتصف بالكثير من التواضع تجاه الجماهير •

ان المسلح غير المؤطر بشكل كاف ، لا يجد أمامه من نموذج سلوكي سوى نموذج المتسلط وتجاوزاته العديـدة • وعوضا عن حـل مأزقـه الوجودي واستعادة اعتباره من خلال روح الاخاء مع المواطنين ، نجـده يكرر نفس علاقات التبعية والتزلف والاستزلام تجاه الرؤسـاء ، وروح

التعالي والشطط والعنف من جانبه • في ذلك نـوع من القلب السحري للادوار والتغيير السحري للمصير • فيه حاجة مزمنة للخلاص الفجائي من خلال القوة وممارستها عوضا عن الضعف السابق ومهانته • ان شيـوع التماهي بالمتسلط سلوكيا ونفسيا عند المقـاتلين والمسلحين ، يحمـل أشد الاخطار على عملية التغيير والتحرير • فبدلا من تقويض العلاقات السابقة (علاقة السيد والتابع ، علاقة المتسلط والراضخ) واحلال الاخاء محلها ، نلاحظ بروزا لسادة جدد ، ومتسلطين جـدد ، يشتطون بقدر حاجتهـم للتعويض عن دونيتهم المزمنة • وتستمر بذلك نفس البنية العلائقية مـع تغير في الابطال دون تغير الادوار• واذا بالممارسة المسلحة تتعرض للتزييف والتحوير والوقوع فيما قامت أصلا لتغييره • تلكم ، في نظرنا ، من أكبر الاخطار التي يتعرض لها النضال وتبعده عن أهدافه • فالتماهي بعدوان المتسلط يقوم به من يملكون القـوة والسلاح لن يؤدي الى تغيير بنيـة العلاقات الاجتماعية ، بل قد يرسخها من خلال حلـول سادة جدد مكان السادة القدماء •

٣ ـ التماهي بقيم المتسلط واسلوبه الحياتي

يصل الاستلاب في هذه الحالة أخطر درجاته ، لانه يتم بدون عنف ظاهر ، بل على العكس من خلال رغبة الانسان المسحوق في الذوبـان في عالم المتسلط ، بالتقرب من أسلوبه الحياتي وتبني قيمه ومثله العليا • وهو يرى في ذلك التقرب وهذا التبني حلا لمأزقه الوجودي وارتقاء لكيانه الى مرتبة ترضيه وتبث في نفسه الكبرياء • وهو يبذل طواعية كل جهـد ممكن في هذا السبيل متنكرا لمصالحـه الحقيقية ، التي تكمن في التغيير الجذري للعلاقة والبنية الاجتماعية التي تستند اليهـا • وتخلـق هذه العملية حالة عنيدة من مقاومة التغيير ، اذ لا يعود الانسان المسحوق يرى أمامه من مثال حياتي ومن معيار لتحقيق الذات سوى أسلوب حياة الانسان

المتسلط وقيمه ومثله العليا • حتى انه لا يكاد يقتنع في دخيلة نفسه بشعارات المساواة والمشاركة والعدالة والديمقراطية والاخاء التي ينادي بها ويقاتل من أجلها • نرى دليلا على ذلك في رغبة الانسان المسحوق الذي تحول الى مقاتل في أن يحيا حياة الانسان المتسلط من حيث الترف ومظاهر الوجاهة ووسائل الرفاه والظهور • انه منجذب نحو تلك القيم والمظاهر بقوة يصعب على الانسان العادي مقاومتها •

والواقع ان الانسان المسحوق ، في هذا النوع من التماهي ، هو ضحية عملية غسل دماغ مزمنة يقوم بها المتسلط • فهذا الاخير سواء كان محليا أم أجنبيا يشن حربا نفسيةمنظمة لتحطيم القيمالاجتماعيةوالحضارية للفئة المسحوقة ، تؤدي الى تبخيس وازدراء كل ما يمت الى عالمها بصلة• كما تزين لها قيم المتسلط ، أسلوب حياته ، أدواته ، تقنياته كطريقةوحيدة ذات اعتبار في الحياة ، وفي تحقيق الذات • هذه الحملة المنظمة تحاصر الانسان المسحوق من كل جانب في وسائل الاعلام ، في الدعاية (كل الدعاية الحديثة تقوم على الاغراء بتقليد وجاهة الاجنبي أو ذوي الحظوة والنفوذ) وفي التعليم المدرسي • في هذه الحالة الاخيرة يفرض على التلميذ من أبناء الفئة المسحوقة سلسلة من القيم الحياتية في المدرسة ، تنسف وتبخس قيمه الاصلية وتستلبه من خلال الذوبان في نظام الفئة المتسلطة • صورة التلميذ المثالي هي صورة الطفل البرجوازي • محتويات المناهج مأخوذة أصلا من عالم وحياة الطبقة ذات النفوذ • اللغة التي تدرس بها المواد ليست لغته الام ، بل ان الوجاهة الاساسية للمدرسة هي بمقدار ما تعلم اللغة الاجنبية • اتقان اللغة الاجنبية على حساب الحفاظ على الهوية الحضارية هي وسيلة للعيش بالطبع ، ولكنها فوق ذلك دليل على الوجاهة ، وبرهان على الخلاص من وضعية القهر •

نتيجة لهذه الحملة المنظمة والمستمرة ، التي تأخذ بعقل وفؤاد

الانسان المسحوق كل مأخذ . وتحاصره من كل اتجاه ، يتحول تدريجيا تاركا أصالته وغافلا عن نوعية التغيير الفعلي الذي يحفظ له مصالحه ومستقبله . وهكذا يصبح انسانا مزيفا ، أسير المظاهر ، باحثا عن أقنعة الوجاهة من كل نوع يجدها في تقليد الاسلوب الحياتي للمتسلط ومثله العليا . وهكذا تصبح الضحية الحليف الاكثر قربا وتعلقا بالجزار .

يبين (فانون) هذه الظاهرة وأسبابها بوضوح ما بعده وضوح ، في كتابه « جلد أسود وأقنعة بيضاء » حين يتحدث عن الاسباب التي تدفع الزنوج الى كراهية ذواتهم السوداء ، وبالتالي محاولاتهم المحمومة لتغيير الذات الزنجية أو رفضها كلية من خلال سعيهم الدائب كي يصبحوا بيضا أو قريبين من البيض . فلقد نجح الاوروبي الابيض ، في رأي (فانون) ، في أن يغسل مخ هؤلاء الزنوج . ولقد عمّق فيهم الاحساس بأن السواد شر كله وقبح كله ، وأن السواد نقص وغباء ، وأن السواد علامة تأخر في التطور البيولوجي لبني الانسان . لكل هذه الاسباب ، يقول (فانون) ، يكره الزنجي سواده ويحس بالخجل والعار تجاهه . انه يحاول الهروب من واقعه الاسود بأساليب متنوعة واتجاهات متعددة : التقرب من الرجل الابيض ، تقليده في ملبسه ومأكله وعادات حياته ، محاولة الزواج من بيضاء أو سمراء ، أو امرأة قليلة السواد ، الاستعلاء على الآخرين الاكثر سوادا منه ، صبغ الشعر وكيه للقضاء على تجعده ، وكل ما من شأنه أن يدعه يهرب من واقعه المرفوض . ولكن ، يقول (فانون) ، كل ذلك ليس سوى أقنعة لا تخدع أحدا سوى لابسها .

الانسان المسحوق ، من هذه الناحية ، كائن مزيف فقد هويته وأضاع أصالته ووجد نفسه عاريا أمام غربته عن نفسه . وهو يحاول بشتى الاساليب ، ومن خلال مختلف الاقنعة أن يجد هوية بديلة ، وأن يحصل على وهم الوجاهة . التزييف الوجودي وما يقابله من أقنعة يمس

كل شيء في حياته ، والنماذج عليه لا حصر لها • وسنكتفي هنا بالاشارة الى بعضها •

نمط حياة المتسلط ، ثقافته ، موسيقاه ، لغته ، وسائل لهوه وترفه ، أدواته وآلاته ؛ زيه وملابسه ، كلها مجال للمحاكاة ، وكلها تشكل المثل الاعلى في الوجاهة يحاول الانسان المسحوق أن يصل اليها ، من خلال الاقتراب من هذا المثل الاعلى • وهو في ذلك يدعي ويبالغ ويزين المظاهر التي يتمسك بها ويضلل الآخرين عن حقيقته ، انه يتمتع بوجاهة وعز وحظوة وامكانات لا يتمتع بها المسحوقون الاقل حظاء كل قيم الاستهلاك والاستعراض تدخل في هذا النطاق • كل حالات الاعجاب بما هو أجنبي، وخارجي تدخل في نفس الاطار • وهكذا يقع الانسان المتخلف ضحية عقدة الاستعراض • وهو ان لم يحصل على كل الوجاهة نراه يجهد للوصول الى بعض رموزها على الاقل ، مما يشكل جزر وجاهة في حياة من البؤس • وهو بالطبع لا يؤخذ بقيم الخلق والابتكار والجهد طويل النفس فيما يحاكيه ، بل في النتائج والآثار والمظاهر • وهو في عجلة من أمره ، يود أن يصل من خلال القفز الى الجانب الآخر من الحاجز كي يصنّف مع الوجهاء •

ذلك ، ما أطلق عليه علماء الاجتماع الذين درسوا البلدان المتخلفة اسم اثر الاستعراض • فهذا العالم أو الفئة المحظية فيه ، تبدد الثروة القومية في شراء سلع الوجاهة وتكديسها : السيارات الفخمة ، الفاخر من الرياش والاثاث واللباس ، تكديس المتاع الذي لا يتلاءم مع نمط الحياة الاصلي ، والذي قد لا يتلاءم حتى مع الظروف المناخية • تبديد الاموال بشكل استعراضي في الولائم والحفلات والسهرات • ان العالم المتخلف مصاب بعقدة الوجاهة والمظهر • يتحول كل كائن فيه الى مخلوق يخفي ذاته من أجل التستر على خوائها الداخلي بكل ما يمكن أن يبهر

الآخرين ويثير غيرتهم . وتلعب المرأة في ذلك العالم ، وفي الفئة الميسورة منه على الاقل ، دور عارضة الوجاهة (على غرار عارضة الازياء) ، من خلال اقبالها على ابتياع كل رموزها ووسائلها تتحـول الى مجـرد أداة توكيد المظاهر الخادعة التي تخفي هزالا وجوديا مخيفا . هذا الهـزال يقض مضجع الانسان المتخلف ويدفع به دفعا الى مزيد من الاقبـال على المظاهر التي تتستر عليه وتخفيه . وهكذا يتحول الانسان المسحوق الذي تماهى بأسلوب حياة المتسلط الى هارب دائم من ذاته ، يحل مشكلته من خلال التنكر لها ، بدل أن يتصدى للعلة ويقلب المعـادلة ويغير معـايير الحياة . وعندما تصبح وجاهة المظهر هي المقياس ، تنتفي الكوابح الخلقية وتصبح كل وسيلة تعجل بالوصول مشروعـة ومبررة . ومن هنا يقـع الانسان المتخلف في الزيف الخلقي ، وينخرط في عملية الاحتيال والكذب والتضليل ، وكلها على النقيض الكامل للتحرير من خلال التعبير الوجودي والاثراء الحياتي الداخلي ، واعادة الاعتبار الى الانسان الفعلي . تلكم هي حقيقة مظاهر التطـور السطحي التي تلاحـظ في عواصم البلـدان المتخلفة ، تلك العواصم التي تنمو بسرعة كبرى من الناحية الاستهلاكية الاستعراضية ، على حساب الناحية الانتاجية التطويرية . عواصم العالم المتخلف ليست بدورها سوى جزر وجاهة في محيط من البؤس .

يقود التماهي بأسلوب المتسلط الحياتي ، وكذلك السعي اللاهث وراء رموز الوجاهة المرتبطة بهذا الاسلوب ، الى ترسيخ تمثل واعتنـاق قيم المتسلط الحياتية ونظرتـه الى الوجود ومثله العليـا . وهنا يكون الاستلاب قد بلغ ذروته ، فالانسان المتخلف لا يعود يرى تصورا آخـر للوجود وغايته ، والحياة وأهدافها، مما يعزز الى حد بعيد سطوة المتسلط وهيمنته على شؤون المجتمع . فهو القدوة والمثال ، وهو المالك لامكانات الوصول ، وهو من يتيـح الفرص للآخرين ، مما يربطهم فيه بشكل لا انفكاك لهم منه .

وهكذا نجد الانسان المتخلف المسحوق يؤمن أشد الايمان بما يتناقض مع مصلحته وحاجته الى الانطلاق ، يؤمن بالمرتبية والحظوظ الدنيوية وتفاوتها . فالناس درجات ومقامات وليس لمغبون أن يعترض على ما يلحق به من حيف ، أو يتطاول كي يأمل في مساواة مع الفئة المحظوظة . عليه أن يتقبل وضعية الاستغلال الذي يلحق به ، وأن يعترف بسيادة المتسلط . ليس له أن يطالب بمساواة ، بل كل ما يمكن أن يطمح اليه هو الامل في فضل يتفضل به عليه ذوو الحظوة . كل ذلك يعطي المتسلط مشروعية تصل حد التقديس ، يحرص عليها هذا الاخير ويعززها بجميع الوسائل .

كما أن الانسان المسحوق لا يرى أمامه من قيم توجه جهده وحياته والغاية منهما ، ولا يتصور نموذجا لتحقيق ذاته ، الا بالتحول من خلال الحظ من وضعية المستغل الى وضعية المحظوظ . فالفلاح ليس أمامه من نموذج ولا يدغدغ أحلامه من أمل ، سوى أن يصبح يوما مالكا صغيرا أو كبيرا ، اقطاعيا محدود النفوذ أو عريضه . الخلاص بالنسبة اليه هو في التحول من وضعية الراضخ الى وضعية المتسلط . أما الخلاص الجماعي من خلال تغيير البنية وقلب موازين العلاقات ضمنها فهو لا يقتنع بهمطلقا في قرارة نفسه ، وان صرح به ، وادعاه بلسانه .

أما في المدينة فان تطلعات الفئات الشعبية هي في أن يتعلم ابناؤها ويحصلوا على وظائف على غرار الطبقة ذات الحظوة ، هي في أن يتخلص ابن الكادح من شقاء الكدح وظروف العمل السيئة . هي في الوصول الى النجاح الفردي ، أي الخلاص الفردي . يدفع الواحد من هؤلاء بأبنائه أو بعضهم الى العلم كي يصبحوا موظفين أو من ذوي المهن الحرة ذات الوجاهة العالية : ولكن الشروط المعيشية والشروط المدرسية لا تتيح لأبناء الفئات الشعبية الوصول الى غايتهم . انهم يوضعون فيظروف

يغبنون فيها قطعا من حيث عدم تلاؤم المناهج المدرسية مع نمط وجودهم، وكذلك من خلال مجازر التصفية المتلاحقة التي يتعرضون لها . وهكذا تقطع السبل بينهم وبين الوصول الى غايتهم (النجاح الفردي ووجاهة العلم والوظيفة) في منتصف الطريق . ويتحولون الى كائنات هامشية لم تعد تستطيع التكيف مع الحياة الكادحة ، ولا هي وصلت الى الوظيفة المبتغاة . وتكون النتيجة مزيدا من الرضوخ لشروط المتسلط الذي يرمي اليهم بالفتات ، ويرتهنهم من خلال التهديد الدائم بالاستغناء عنهم ، مما يحوّلهم الى أدوات مطيعة تنفذ أغراضه وغاياته وتعزز مواقعه . ذلك هو حال صغار الموظفين ومعلمي المدارس الابتدائية الرسمية في العالم المتخلف . أما القلة القليلة التي تفلت من التصفية فانها لا بد ستقع في القيود المتنوعة التي يفرضها المتسلط على ممارسة المهنة الحرة . وهي ان قبلت هذه القيود أو تمكنت من تجاوزها ، تتمسك بوضعها الجديد الذي يحمل دلالة الخلاص من البؤس ، وتحرص عليه أيّما حرص بعد كل ما عانت من مشقة كي تصل اليه . وهي تزهو فرحة بما حققت من نجاح فردي وما حظيت به من وجاهة تسدل ستار النسيان على انتماءات الماضي. ولذلك فليس من غير الشائع أن نجد معظمها يشتط ويتهافت على الثروة ولا يتورع عن الاستغلال تماما كالمتسلط ، ثم يزهو مختالا بما حقق من وجاهة مادية ، وما امتلك من متاع ، يتخذها دليلا على افلاته من وضعية انعدام الاعتبار .

أقصى حالات التماهي بالمتسلط تأخذ شكل الاستلاب العقائدي . ونقصد بذلك تمثل واعتناق قيم النظام والانضباط . والامثال، والقانون، وطاعة الرؤساء والكبار . وهي قيم تخدم بما لا شك فيه مصلحة ذلك المتسلط لانها تعزز مواقعه وتصون مكتسباته . ولذلك فهو لا يدّخر وسعا في تدعيم هذه القيم وغرسها بالترغيب والترهيب على حد سواء .

انه يوحّد بينها وبين الاخلاق ويباهيها بحسن السيرة والسلوك . وتلعب المدرسة هنا دورا حاسما في غرس تلك القيم . ويلعب المعلم المسحوق دور قناة البث التي توصلها الى نفوس الطلاب وترسخها في ضمائرهم . فنموذج التلميذ المثالي هو ذاك الراضخ الممثل المجتهد المستمع المطيع المتلقي . هو باختصار الانسان المنقاد طفلا كي يعدّ ليكون أداة في المستقبل ، لقاء شيء من النجاح الفردي ، وبعض مظاهر الوجاهة المادية .

أما قيم الشجاعة والجرأة الادبية والمجابهة والثقة بالنفس والتعاون الجماعي ، والخلاص الجماعي ، وأما قيم التمرد والتصدي والثورة ، فهي آفات يجب أن تحارب . ومن خلال عملية تشريط مستمرة ، يتماهى الانسان المسحوق بالقيم الاولى ، ويتجنب الثانية ، مع أن مصلحته هي ، على العكس تماما ، تكمن في الخلاص الجماعي من خلال المجابهة . ان التماهي بقيم الامتثال يشكل عقبة كأداء في وجه التغيير الاجتماعي الحقيقي ، وبالتالي في وجه الخلاص من التخلف .

التماهي بالمتسلط بمختلف أشكاله التي استعرضناها وعلى مختلف درجات شدته ورسوخه ، يحمل بعض الحل لمأزق الانسان المسحوق ، ويزين له الخلاص من خلال بعض الاعتبار المبني على مظاهر خارجية ، وبالتالي فهو وهم خلاص يتمسك به ويحرص عليه بقدر خوفه من ضياعه وفقدانه .

يخلق التماهي بالمعتدي ايديولوجية مضادة للتغيير الاجتماعي الجذري . تلكم هي احدى أبرز مشكلات البلدان النامية وأكثرها خطورة . فالعديد منها تمكن من اجتياز مرحلة التحرر الوطني ، ولكن معظمها يتخبط أمام مهمات التغيير الاجتماعي الفعلي ويعاني من الفشل الذريع فيه ، مما يجعلنا نتابع الآن مشهدا بائسا على امتداد العالم

الثالث • فقد اتضح ان القدرة على التحرر الوطني : لا تتضمن بالضرورة ولا تقود حتما الى عملية التغيير الاجتمـاعي المبتغاة • وليس هناك من مجال للدهشة بهذا الخصوص : فالسبب ، أو أحد الاسباب الاساسية في نظرنا . واذا ما وضعنا مصالح الفئة الحاكمة الجديدة جانبا ، يكمـن في تغلغل التماهي بالمتسلط بمختلف صوره ودرجاته، في نفوس معظم القادة، وغالبية المسؤولين ، والقطاع الاوسع من الجمهور •

الفصل السابع

السيطرة الخرافية على المصير

لا يستطيع الانسان أن يتحمل وضعية القهر والعجز ببساطة ، أو أن يتقبلها بواقعيتها المادية الخام . لا بد له في كل الحالات من الوصول الى حل ما يستوعب مأساته ، ويقيض له شيئا من السيطرة عليها، والا أصبحت الحياة مستحيلة . فاذا لم تتيسر له الحلول الناجعة التي تمكنه من التحكم الفعلي بالواقع على مستوى ما ، لجأ الى الحلول الخرافية والسحرية . اذا عزّت السيطرة المادية على المصير ، حاول المرء توسل الاوهام يعلل بها النفس ويجمل بها الواقع ، ويستعين بتصوراتها على تحمل أعبائه . بذلك يصل الى شيء من التوازن الوجودي الضروري لاستمراره . لا يتقبل الانسان الكارثة أو الهزيمة ، أو الخطوب أو الفشل كأمر واقع ، ولا يستطيع الاعتراف بمسؤوليته المباشرة في ما حل به . انه اما أن يهرب من الواقع أو يلقي اللوم على الآخرين ، أو يستجيب بالعدوان ، أو يوهم نفسه بأن الامر عابر .

السيطرة الخرافية على الواقع، والتحكم السحري بالمصير ، هما آخر ما يتوسلهما عندما يعجز عن التصدي والمجابهة ، قبل أن ينهار ويستكين . وتشكل هذه السيطرة بالتالي احد خطوط الدفاع الاخيرة له . ويتناسب انتشار الخرافة والتفكير السحري في وسط ما مع شدة القهر والحرمان، وتضخم الاحساس بالعجز ، وقلة الحيلة ، وانعدام الوسيلة . كلما طال عهده بالاعتباط ، ينصب عليه من الطبيعة والناس ، وضاقت أمامه فرص الخلاص ، اندفع الى التماس النتائج من غير أسبابها ، واستبدال السببية

المادية بالسببية الغيبية . ذلك هو كنه السيطرة الخرافية على المصير .
تزدهر هذه السيطرة الخرافية بمختلف أشكالها ، التي سنعرض لها في هذا الفصل ، في عصور الانحطاط وما يصاحبها من تفشي الجهل والعوز وطمس ارادة القتال من أجل الحياة ، وصد الفكر النقدي والتحليل العلمي للظواهر ؛ واستفحال التسلط . وهكذا تنتشر ممارسات سحرية خرافية ، وشعوذات تتلاعب بأمل الانسان في الخلاص أو تحرك خوفه من الحاضر وقلقه على المستقبل . وبقدر ما تدخل الاطمئنان الوهمي الى نفس الانسان المقهور ، فانها تستخدم كأداة للارتزاق من قبل المشعوذين الذين يدعون العلم بها ؛ والقدرة على تغيير أحوال الانسان ، ومساعدته على التحكم بمصيره ، من خلالها .

تتحول هذه الممارسات الى تجارة رائجة تنتشر في أوساط البسطاء من الناس ، تسلبهم القليل الذي يمكن أن يملكوه ، على أمل الخلاص مما يحل بهم من أرزاء الحياة . ويحيط المشعوذون أنفسهم عادة ببعض المظاهر الغريبة في الملبس والمسلك والحديث ، ويضعون ضحيتهم أثناء ممارسة هذه الوسائل في جو غريب فيه الاعجاب الكثير والرهبة الكبيرة، يحرك الامل ويثير الخوف . يتوسلون مواد وأدوات وطقوسا وأدعية وظيفتها الاساسية ان تبهر صاحب الحاجة ، وتشل مقاومته ، وتعطل تفكيره ، وتدفع به الى الاستسلام لممارساتهم وطلباتهم الكثيرة والمعجزة. انها تخلق لديه حالة من التبعية النكوصية عليهم وعلى قدراتهم ، التي تضخم من خلال ما أحيطت به من غريب اللفظ والطقس .

.. يتحالف المشعوذون مع التجار وأصحاب السلطان على الانسان المقهور ، لتحقيق مآربهم المشتركة لقاء ما يعللون به نفسه من أوهام الخلاص ودرء الشر أو الخطر وتغير المصير . ويشجع الحكام في المجتمعات المتخلفة هذه الممارسات بوسائل مختلفة ، أبرزها رعاية المقامات وذوي

الكرامات ، ورعاية الطرق التي تتلبس لباسا دينيا ، حتى يعم الجهل ، وتتأصل الاستكانة ، وتشيع الخرافة بشكل يطمس الواقع كليا ويصرف الناس عن التصدي الفعال والموضوعي له • وهو ما يحفظ لهؤلاء الحكام مكانتهم ويحوّل الانظار عنهم كمسؤولين أساسيين عما يصيب المجتمع من تخلف وانحطاط ، أو ما يلم به من كوارث وأزمات •

من خلال هذا التحالف وذاك التشجيع ، تتأصل السيطرة الخرافية على المصير في نفسية الانسان المتخلف ، كي تبلغ مرتبة الايمان الذي لا يتزعزع ، والعقيدة التي لاتمس • ويساعد على هذا الامر ما تحاط به هذه الممارسات على اختلافها من طابع ديني يجعلها تدخل في فئة المقدس الذي يجب الايمان به دون مناقشته ، والذي يتحوّل التساؤل حوله الى تشكيك بالايمان ومساس بالمقدسات • هناك دائما ، كما سنرى طوال هذا الفصل ، محاولة لالباس الممارسات السحرية والمعتقدات الخرافية لباسا دينيا يجعلها تصل مباشرة الى قلب الانسان المسحوق ، ويربطها بايمانه الديني ، مما يزيد من سطوتها عليه ، ويدفعه الى التمسك بها • وتصل الخرافة الى مرتبة تعطيل الفكر النقدي والتحليل الموضوعي للواقع ، واصطناع السببية المادية في التصدي له ، مشكلة عقبة فعلية أمام التغيير وعاملا قويا في استفحال التخلف •

تقوم أساليب السيطرة الخرافية على المصير على أسس نفسية نكوصية • يتقهقر الانسان المتخلف الذي يؤمن بها من العقلانية التي يجب أن تميز حياة الراشدين ، الى مرحلة التفكير الطفلي الذي يخلط الواقع بالخيال ، والحقائق بالرغبات ، والصعاب المادية بالمخاوف الذاتية • تطغى عليه الذاتية الطفلية ويقع في شرك التفكير الجبروتي • أنه يسقط على ممارسي الشعوذة ، وعلى وسائل التصدّي السحري للواقع ، القدرة المطلقة التي كان يعتقد انها تميز والديه اللذين يبدوان له ، قادرين

على كل شيء ، مالكين لزمام كل أمر • ويقيم مع عوامل السيطرة الخرافية ورموزها نفس علاقة الاتكال الطفلي التي كانت له مع والديه ، والتي تستبدل فيما بعد بعلاقة الاتكال الديني • في كل هذه الحالات ، هناك احتماء برموز القوة التي تسيطر على القدرة وتسيره••من الاخطار العديدة التي تتهدد الوجود (وجود الطفل ، كوجود الانسان المتخلف) يشكل هذا الاحتماء الضمانة الوحيدة له نظرا لعجزه وقلة حيلته ، مما يعطل الاعتماد على القوى الذاتية ، وينفي المسؤولية الشخصية في تحمل اعباء المصير • وبمقدار هذا الانتفاء وذاك التعطيل ، لا بد لاتكاليته من التفاقم مما يدفع به الى مزيد من توسل الممارسات الخرافية •

الجبروت المسقط على رموز القوة ، يقابله جبروت آخر هو الذي يميز الرغبات والافكار والهوامات عند الطفل • فهو يعيش رغباته كواقع ، ويعتقد أن لها ولافكاره قوة الفعل المنجز • ذلك هو السند النفسي الطفلي لسيطرة الخرافة على الانسان المتخلف ، الذي يجعله يعتقد بقوة وفعالية ادعيته لاسترضاء الاولياء ، ولعناته يصبها على الاعداء ، وتضحياته لاشباع طلبات الوسطاء • وهو نفسه السند الذي يجعل للسحر عليه تأثيرا ، وللتطير اليه سبيلا ، ولقراءة الطالع (على اختلاف اساليبه) ، طريقة لاستشفاف المستقبل والاحتياط له • والجبروت الطفلي سواء منه الذي يسقط على الخارج ، أو يميز الافكار والرغبات الذاتية ، لا يعرف حدود المنطق والزمان والمكان • وهذا ما يعطي الممارسات الخرافية طابع القوة المطلقة ، ويعزز من سطوتها طالما تستمد طاقتها النفسية من تلك المنابع الطفلية •

تأخذ السيطرة الخرافية على المصير ، على اختلاف اساليبها ، طابعا ثنائيا في محتواها • فهي تتلخص على الدوام بأزواج من الاضداد : استجلاب الحظ ، وتجنب النحس ، الحصول على الخير وابعاد الشر ،

الأمل المتفائل بالمستقبل والخوف المتشائم منه ؛ اثارة الحب لدى الآخر والحرب ضد عدوانيته ، وهكذا . كل ممارسة خرافية تهدف الى تحقيق الامرين معا بشكل ما . وهي في جميع الحالات تـدور حـول القضايا الوجدانية الاساسية التي تميز وجود الانسان المتخلف . هناك رابطـة وظيفية دينامية تجمع مختلف هذه الممارسات في بنية متماسكة مكونة من أقطاب تتمم بعضها بعضا . ونستطيع أن نميز من بينها ثلاث فئات رئيسية : فئة اولى تهدف الى السيطرة على الحاضر ؛ وفئة ثانية تهدف الى السيطرة على المستقبل ، وثالثة مشتركة بينهما . وكل فئة تضم ممارسات متعددة تأتلف في ثنائيات متضادة ومتكاملة جدليا ؛ ولها رموزها وطقوسها .

اولا : السيطرة على الحاضر

يتوسل الانسان المقهور أساليب عدة للسيطرة الخرافية على حاضره ، وادخال شيء من الطمأنينة الى نفسه ، والتوازن الى حياته . انه يتعلق ببعض رموز الخير ، ويتقرب منها بطرق محددة ، ويخشى بعض رموز الشر والتهديد الوجودي ، ويلتمس سبيله الى تجنب أذاها بممارسات محددة أيضا . أما رموز الخير فهي الاولياء وكراماتهم وأضرحتهم ، وأما رموز الشر فهي الجن والعفاريت والشيطان . وأما التقرب من الاولى فيتم من خلال الادعية والنذور والقرابين . وأما تجنب الثانية فيتحقق من خلال السحر والكتابة والتعاويذ والرقى .

نحن هنا أمام ظاهرة انشطار نفسي للوجـود الى نقيضين مطلقين هنا الخير والشر.فيركز الخير كله والرجاء كله والبحث عن الملاذ في الاولياء. يسقط عليهم الصور المثالية الطيبة التي تكمن في لاوعيه.فالولي ، بمقامه وكراماته ، ليس سوى اسقاط للصور المثالية للأم الحنون المعطاء ، والأب الحامي الرحيم ، الصور التي تغرس جذورها في أعماق لاوعي طفولتنا ، وتشكل نموذج كل خير ومحبة وأمل ورجاء وملجأ وملاذ ، فيما بعد ، كي

تمكننا من مجابهة صروف الدهر وخطوب الحياة . كما أنه يركز الشر كله والسوء كله والتهديد الاساسي لوجوده ، في الجن والعفاريت والشيطان . يسقط عليهم بدورهم كل العدوانية المتراكمة في نفسه ، نتيجة الاحباط والعجز ، والتي تتخذ طابعا اضطهاديا (مهددا لكيانه ونموذجا لمصدر الشر على حياته) . كل أحاسيس السوء والاذى تسقط على هذه الكائنات الخفية التي تتربص به شراً ولا تنفك تنال منه ان غفل عنها . هذه الكائنات تمثل الصور السيئة التي تكونت لدينا عن الوالدين في الطفولة ايضا ، والتي تستقطب كل احباطات الطفولة ومخاوفها ومشاعر الحقد والاسى والاضطهاد واليأس وخوف الفناء ، وهي تمثل فيما بعد النموذج الاولي للسوء والاذى والتهديد . ومن خصائص هذه الصور أن تقمع حتى تكتب في اللاوعي ، كي تمارس هناك تأثيرها المدمر على التوازن النفسي . وهي لذلك لا بد حين تتفاقم شدتها من أن تصرف نحو الخارج شأنها شأن النزوة العدوانية التي تستمد طاقتها منها . بهذا التصريف الذي يتوسل معظم الاحيان الاسقاط على الطبيعة القاسية وظواهرها ، أو الدهر ونوائبه ، أو الناس وكيدهم ، يتخفف الانسان من تأثيرها الداخلي المدمر ، ويحتفظ لنفسه ببعض التوازن .

وهكذا يضع الانسان المسحوق أمله في الصور الخيرة ورموزها الخرافية ، كما يسقط مخاوفه وعجزه ومشاعر ذنبه الناتجة عن فشله الوجودي على أعداء خرافيين بدورهم . ومن خلال تجنب هؤلاء ، والتقرب من أولئك تتم له السيطرة الخرافية على حاضره ، ويشعر بشيء من التحكم بالقوى التي تحرك مصيره .

يضاف الى رموز الشر الماورائية (جن وعفاريت) تفشي ظاهرة الحسد والعلاقات الاضطهادية بين الانسان المسحوق والاخرين . هناك خوف دائم من الاذى يلحق به اذا أصابه غنم ، أو رزق قسطا من نعمة أو

خير . انه يخفيه ويتستر عليه خشية عيون الحاسدين التي تهدد ما كسب ويتوسل لدرء هذا الحسد وسائل متنوعة تبطل مفعول النظرة الحسود (الحقود في الحقيقة) . هنا أيضا يسقط ما يلم به من شرور تذهب بنعمته ، على النوايا العدوانية للعين الحاسدة ، وسائل دفاعية تتخذ طابعا خوافيا اضطهاديا معظم الاحيان .

نقف الان قليلا عند كل من هذه الظواهر والرموز كي تتناولهـــا بالعرض والتحليل .

١ ـ الاولياء ومقاماتهم وكراماتهم

تنتشر ظاهرة التعلق بالاولياء ، واللجوء اليهم لاستجلاب الخير ودرء الشر ، بكثرة في القطاعات المسحوقة من السكان . وتتفشى خصوصا حيث يعم الجهل والعجز وقلة الحيلة ، وحيث يتعرض الانسان لاقصى درجات الاعتباط من الطبيعة يأتيه كتهديد لقوته وصحته وولده ، ومن الانسان يصيبه كقمع وتسلط واستغلال . الانسان المسحوق بحاجة الى ولي لشدة شعوره بعجزه وقصور امكاناته على التصدي والمجابهة والتأثير . ويحتاج الى حمايته نظرا لشدة احساسه بالعزلة والوحدة في مجابهة مصيره المحفوف بالمخاطر حين تلم به النوائب أو يصاب في نفسه أو ذويه أو أمنه أو قوته . فالولي ملاذ ومحام يتقرب اليه ويتخذه حليفا ونصيرا ، كي يتوسط لــه لدى العناية الالهية . الولي هو ولي الله ، ومن خلال التقرب منه تتحقق الحاجات وتعم الرحمة الالهية . وتسقط على الولي قدرات خارقة لها علامات ، هي الكرامات التي تميزه عن سائر البشر .

تعترف الجماهير اجمالا بحدوث ظواهر خارقة على أيـــدي هؤلاء الاولياء ، تدل على ما يتمتعون به من امتياز عن سائر الناس ، ومن قوة فائقة نظرا لقربهم من الاله . فالانبياء تقــع على أيديهم المعجزات ، أمــا

الأولياء فتظهر على أيديهم كرامات وخوارق هي في المرتبة الثانية بعد المعجزات . والكرامات قد تكون اجابة دعوة (تحقيق أمنية أو رجاء) أو اظهارا للطعام في أوان فاقة ، وتفجر ماء في زمن عطش ، أو تخليصا من عدو . وكلها بالطبع تدل على قوة ، هي على النقيض تماما من عجز الانسان المقهور وقصوره ، وكلها تدل على ارتفاع مكانة وحظوة ، هي أيضا على النقيض تماما من ضعة الانسان المقهور ومهانته .

ينقل الدكتوران بدران والخماش[1] عن التاج السبكي في طبقاته الكبرى أن أهم الكرامات أربع وعشرون :

« احياء الموتى ، كلام الموتى ، انفلاق البحر والمشي على الماء ، انزواء الارض ، كلام الجمادات والحيوانات ، ابراء العلل ، طاعة الحيوانات ، طي الزمان ونشر الزمان ، استجابة الدعاء ، امساك اللسان ، جذب بعض القلوب ، الاخبار ببعض المغيبات والكشف ، الصبر على عدم الطعام والشراب ، القدرة على تناول الكثير من الغذاء ، الحفظ عن أكل الحرام ، رؤية المكان البعيد من وراء الحجب ، الهيبة (بحيث يموت المشاهد من الرؤية) ، كفاية الله لهم الشر ، التصور بأطوار مختلفة ، اطلاع الله اياهم على ذخائر الارض ، عدم تأثير المسمومات » .

من الواضح أن هذه الكرامات تشكل النقيض تماما لوضعية الانسان المقهور . فهي ترسم صورة الانسان الفائق الذي يعوض صورة الانسان المهان واقعيا . وهي تجسد أماني الجماهير المغلوبة على أمرها في أمل الخلاص من خلال وجود نموذج الجبروت الطفلي هذا ، ومن خلال امكانية التقرب من الولي صاحب الكرامات الخوارق ، الذي يفلت من قيود الواقع والزمان والمكان ، بواسطة الادعية ، والنذور والقرابين . تلك اوالية ضرورية للتوازن النفسي لهذه الجماهير العطشى الى ارضاء حاجاتها

(1) د. ابراهيم بدران ود. سلوى الخماش ، دراسات في العقلية العربية بيروت ، دار الحقيقة ، ١٩٧٤ ، صفحة ١٣٥ .

لمصير مغاير لمصيرها ، العطشى لمظاهـر الجبروت (القـدرة على تحقيق الاماني) . فقط من خلال أمل كهذا تظل حياة القهر ذات الافاق المسدودة والتهديد الدائم ممكنة .

تحدث الكرامات اجمالا لاناس اصطفتهم العناية الالهية دون أن يكون لهم في ذلك فضل أو ارادة (دون جهد أو تدريب واعداد وارادة كفاح) . فقد يكون صاحب الكرامة ذكيـا أو غبيا عالمـا أو جاهـلا . وتلمح في ذلك الاعتباط الذي يميز وجود الانسان المقهور ، الخاضع لقدرية ليس له فيها أية مسؤولية . ذلك ما يدفع به الى القبول بقدره من ناحية ، ويجنبه مشاعر الذنب النابعة من فشله من ناحية ثانية ، ويدغدغ في نفسه أمله الطفلي بتغير ما ورائي يصيب مصيره ، فيحوله من حال الى حال من ناحية ثالثة ، اذ قد يجد نفسه يوما صاحب كرامة دون ان يدري أو يقصد ، ويكون له الخلاص والرفعة بعد بؤس وضعة . حينما يستفحل عجـز الانسان وقصوره ، وحده الخلاص الخرافي يظل ممكنا كأمل يبقي له على رمق من الحياة .

تنتشر أضرحة الاولياء ومقاماتهم في كل أرجاء المجتمع المتخلف . ولا تكاد تخلو منه قرية ، أو حي في المدن الكبرى . وتشكل هذه الاضرحة نواة التجمعات السكانية ، تقوم حولها اماكن العبادة ثم تحيط بها المساكن والمنازل والفنادق ، وتنتشر الاسواق التجارية . فهي اذاً محج وملجأ وأماكن للتبرك واستجلاب الخير ، كما أنها أماكن للحماية مـن غوائـل الطبيعة والناس . من جاور ضريح الولي فهو في مأمن ، ولا بدّ ان يناله قسط من بركته . تتجمع الجماهير المسحوقة سكانيا حـول أضرحـة الاولياء ومقاماتهم ، كما يتجمع أعضاء حزب معين حول شخص الزعيم طلبا للهداية والحماية ، وتقربا من مصدر الخير .

وهناك ، كما يقول الدكتوران بدران وخماش[1] ، اسطورة تخصص

---

(١) نفس المصدر

الاولياء في قضاء الحاجات • فهناك من يشفي من الصداع ؛ وآخر من العقم ، وثالث من الحسد ، ورابع يرد الكيد ، وخامس يمد بأسباب القوة على الحبيب الهاجر ، وسادس ينصر على الغريم ، وغيره يرد الغائب وهكذا ••• ويبرز في التجمعات السكانية المتخلفة عدد من مقامات هؤلاء الاولياء يغطي كل الحاجات التي تعجز الجماهير عن تحقيقها بجهدها ، والتي قصر الحاكم في القيام بواجب تلبيتها •

ويقوم على هذه المقامات خدام ، وعلماء (يدعون انفسهم علماء) يسهرون عليها ، ويلعبون دور الوساطة بين صاحب الحاجة وبين الولي ؛ ويقودون خطاه في التقرب منه والدخول عليه ، من خلال مجموعة من الطقوس والادعية والابتهالات • وهم ينسجون الاساطير حول الخوارق والكرامات التي يأتيها هذا الولي ، ويروجون لزيارته وتقديم النذور الى مقامه ، مستفيدين من ذلك أكبر فائدة مادية ممكنة ، ومستغلين صاحب الحاجة المتشبث بآمال الخلاص بعد أن حلت به كارثة لا يستطيع لها دفعا ولم يجد له فيها عونا ، أبشع استغلال • وأبرز تدليل على ذلك ، وجود مقامات اولياء يدعي خدامها تخصصها بحل مشكلات النساء على اختلافها (زواج ، انجاب ، مساعدة على ضرة ، رد الحبيب أو الزوج الى المنزل ، ابعاد خطر الطلاق الخ ••) • بالطبع تشكل المرأة ضحية مختارة لاستغلال هؤلاء الخدام نظرا لتفاقم حاجاتها ، وقصر حيلتها ، ووطأة القيود التي ترزح تحتها في المجتمع المتخلف ، نظرا لجهلها وسيطرة الخرافة على عقلها بعد أن وقعت ضحية نظام اجتماعي فرض عليها أقصى درجات الغبن • وهكذا الحال عموما ، فيأس الانسان المقهور من انصاف الحاكم وعون القوي هو الذي يلجئه الى مقامات الاولياء ، يتلمس بركتها وعونها • « والبركة تعني بالضرورة الشعور بالعجز • والشعور بأهمية البركة يعني التقليل من دور الانسان في الخلق والابداع والتغلب والتفوق » (نفس المصدر ، صفحة ١٦٠) •

بالاضافة الى النذور والقرابين ، تحتل الادعية والابتهالات مكانة خاصة في التقرب من الاولياء ، والتماس قضاء الحاجات على أيديهم وبركتهم . وتتنوع الادعية لتشمل مختلف الاغراض وتصلح لقضاء الحاجات المتنوعة للفئات المغبونة . « فهناك أدعيات للشفاء من المرض ، وأخرى لتفريج الغم ، وثالثة لازالة الكرب ، ورابعة لتوسيع الرزق ، وخامسة لتوكيد المحبة ، وسادسة للخلافات الزوجية وهكذا .. » (نفس المصدر ، صفحة ٢٠١) . بالطبع يعمل شيوخ الطرق وخدام المقامات على تعقيد الأدعية وادخال التكلف والتحذلق اللغوي عليها ، واسباغ طابع الغرابة التي توهم الانسان المغبون الجاهل بعلم وفير يقوم وراءها ، وسر دفين يكمن فيها ، ويجعلها مفتاحا للوصول الى بركة الولي . من خلال ترك هذا الاثر الباهر في نفوس الجماهير واشعارها بالعجز أمام قوة علم شيوخ الطرق ، يرسخ هؤلاء مكانتهم كوسطاء لدى الاولياء واسترضائهم ، ويدفعون الجماهير الى الاستسلام لهم والرضوخ لاستغلالهم .

والادعية في أساسها ، تقوم على أمل سحري في الخلاص من خلال الاعتقاد بجبروت الافكار والكلمات وما تتضمنه من رغبات . وبمقدار انتشارها ينتشر العجز عن التصدي للواقع بالموضوعية والعقلانية المطلوبين . ويمكن اعتبارها كمرآة تعكس اعماق المجتمع من حيث شعور أفراده المسحوقين بالضياع ، والوحدة ، وبحثهم عن معجزة للخلاص . ولذلك فانها تحتل مكانة هامة جدا في سلوك المرأة في العالم المتخلف ، في تعاملها مع مأساتها ، لانها الاكثر غبنا وعجزا وانسحاقا في المجتمع . ولانه من ناحية ثانية لم يترك لها من مجال للتأثير في الواقع ، سوى مجال التعلق الخرافي بجبروت الافكار ، من خلال ادعية الرجاء والتمني ، وأدعية اللعنة والسخط سواء بسواء .

ان الادعية تشيع نفسيا نوعا من الاطمئنان الى القدر والمصير وتبث هدوءا في وجود الانسان المتأزم ، من خلال القناعة بأن هناك دائما جهة ما

ستتولى حل الازمة وتخليصه منها • ثم هي تمتص ، اذا كانت مطولة ، جزءا من القلق والتوتر النفسي • وقد تتحول الى طقس هجاسي[1] مكتسبة كل خصائصه ووظائفه (التكرار والاعادة ، واتباع نمط محدد وتسلسل دقيق ، واحتواؤها على موضوعات ضد خوافية [2] ، واخرى تجنبية) •

من خلال هذه الصور الخيرة للاولياء وكراماتهم وبركتهم والادعية وغيرها من وسائل التقرب منهم ، يملأ الانسان المقهور خواء عالمه العاجز المحدد ، بأمل القدرة على التصدي لواقعه والتحكم بمصيره ، بمقدار ما يتخذ من هذه الرموز حلفاء له • جبروت الرجاء يحل محل قوة الفعل التغييري • روحية الاستجداء والاحتماء ، تحل محل المطالبة بالحق والتصدي لانتزاعه •

ب ـ الجن والعفاريت والشيطان

كلها كائنات خفية ، لعبت دورا بارزا في السيطرة على خيال الجماهير المسحوقة ، وتعليلها للاحداث التي تفلت من سيطرتها والتي يستعصي عليها تفسيرها • كما أنها قد استخدمت ، وما زالت ، بكثرة لتبرير ما يود الانسان التستر عليه من فضيحة ، أو عيب ، أو تقصير بزعم الوقوع تحت تأثير الجن ، مما يساعده على الحفاظ على سمعته •

هذه الكائنات الخفية تسقط عليها صور انسانية • وتقوم مجموعة من الخرافات حول علاقاتها ببني الانسان • فهي تسكن الارض السفلى نهارا لتخرج منها ليلا ، فتعيث فسادا وغواية • وقد تصاحب بعض الناس أو تقوم بينه وبينها علاقات عاطفية ، وعلاقات حب تصل احيانا حد الزواج أو الارغام عليه : زواج انسي من جنية أغرمت به ، وأرغمته على اللحاق بها

---

(١) طقس هجاسي — Rite Obsessionel

(٢) ضد خوافي — Controphobique

الى الارض السفلى ، أو هي تأتي لتزوره ليلا منافسة بذلك زوجته ، وموقعة بينه وبينها الخلاف الذي يصل حدّ الطلاق . وكذلك زواج انسية من أحد رجال الجان . ويتم الامر في الحالتين على شكل غواية وارغام . ويثير دوما مصاعب ومصائب حياتية لمن ابتلي به من بني الانسان ؛ ولذلك فهي تثير الخوف دوما ، كما تثير الشك والحذر .

كما قد تقوم بينها وبين بعض بني الانسان علاقات تحالف ضد أعداء معينين . وهي الى ذلك تقيم في مناطق لا يجوز الاقتراب منها أو المساس بها ، لانها تظهر على صاحب المحاولة ليلا فتثير الذعر في نفسه أو تؤذيه اذا حاول الاعتداء على مقرها . ويشيع الكثير من حالات الهلوسة الهذيانية (البصرية السمعية) حول رؤية الجان واللقاء بهم وسماعهم في أفراحهم وأحزانهم . وما كل ذاك سوى اسقاط لمكنونات النفس اللاواعية وتجسيد لها على شكل كائنات خفية . انها اسقاط لرغباته الدفينة ، والتي تعرضت لقمع اجتماعي شديد (رغبة في الطلاق مثلا والزواج من قرين يتمشى من الشخص المرغوب فيه جنسيا تسقط على الجنية مصدر الغواية التي لا تقاوم) . أو هي اسقاط لمخاوف تعتمل في لا وعي المرء ، ويخشى بروزها الى حيز الوعي ايما خشية ، نظرا لما تتضمنه من تهديد لمكانته أو سمعته أو توازنه ؛ فلا يجد أفضل من تجسيدها من خلال كائن خفي تعترف به الجماعة . ومن الخصائص الهامة لهذا التجسيد تبرئة النفس من كل لوم اجتماعي أو ذاتي على ما رغبت فيه أو خشيته ، فالمرء في هذه الحالة مجرد ضحية ، ولا يملك من أمره شيئا . تلكم هي خاصية من خصائص اسقاط الازمات والصراعات النفسية في العالم المتخلف الذي يمارس اقصى درجات القهر ويفرض اقصى حالات الجهل على بنيه . فكل رغبة أو خوف يقمعان بشدة لما يتضمنانه من ادانة ، فلا يبقى أمام المرء سوى مجال التعبير من خلال التجسيد الخرافي .

وأبرز مثل على حالة التجسيد الذي ينفي المسؤولية الذاتية ، كما يحفظ السمعة ، حالة التلبّس أو الخبطة التي تفسر من خلالها بعض الاضطرابات النفسية ذات الطابع الهستيري أو الصرعي . انها أكثر التفسيرات شيوعا في البيئات المتخلفة . فهي تعلل وتوضح ما تعجز عنه هذه البيئات من تأويل نفساني اجتماعي علمي للاضطرابات النفسية والسلوكية ، وهي تبرر التحلل السلوكي الذي يبديه المريض . تحلل هو في حقيقته انفجار لنزوات مكبوتة وافلاتها من سيطرة الارادة ، وتحكمها في السلوك لتحقيق رغبات مورست عليها أشد درجات القمع . وهي أخيرا تغطي مسؤولية الاسرة والجماعة في مرض الفرد وتتستر عليه . فما أسهل القول ان فلانا مخبوط أو ممسوس ، أو متلبس ، كوسيلة للتستر على مسؤولية الجماعة . يحدثنا « طه حسين » في كتابه « شجرة البؤس » بوضوح عن هذه الحالة . الزوجة القبيحة التي أرغم زوجها على الاقتران بها ، نتيجة لرغبة الوالدين وبأمر من شيخ القرية ، وبشكل اعتباطي لم يراع رغبة الزوج ولا رأيه . فكان أن دبت الكراهية في نفسه تجاه زوجته المفرطة في قبحها ، بعد أن كبتت سنين طوالا ارضاء للوالدين وللشيخ . وكان أن هجرها بصراحة وأخذ يسيء اليها في كبريائها الذاتية في أمر لا تستطيع له تغييرا . ولم تلبث هذه الزوجة الضحية أن أصيبت بأعراض هستيرية اهتياجية سوداوية نتيجة لما تعرضت له من مهانة وهجر ، وما صب عليها من حقد دون أن تملك القدرة على الرد أو الحق في الدفاع عن نفسها (المرأة الاداة المسيرة) . وسرعان ما وجد الزوج والاسرة التي تآمرت عليه وعلى زوجته ، حين فرضت عليهما هذا القران ، تفسيرا ولا أسهل لهذه النوبة من خلال التلبس بالجن . وصورت انها ضحية احدى النساء اللواتي يقمن صلات مع الجن ، حين روت هذه الاخيرة حكايات مرعبة عن التلبس . هذا التفسير يفضحه المؤلف في الصفحات التالية حين يبين انه ليس سوى تستر على مسؤولية الاسرة تجاه المريضة . وأن مرض هذه الاخيرة ليس

سوى نتيجة لما تعرضت له من استغلال وتحكم بمصيرها ، دون أن تملك حق الاختيار في البداية ، ثم ما تعرضت له على يد الاسرة من نبذ وتحقير فيما بعد ، دون أن تتمكن من رد الاذى عنها ، لان المطلوب منها هو أن تذعن مستسلمة لارادة تلك الأسرة •

كم من حالات مرضية ، وكم من صراعات زوجية ، وكم من أزمات بين الابناء والآباء في العالم المتخلف ، الذي يقمع كل حريـة تعبير وكـل ارادة اختيار عند افراده ، تفسر من خـلال هـذا التبرير السهل ، وتلقي مسؤوليته على الجن والعفاريت ، بشكل يحفظ النظام القائم ويمنع كـل تساؤل حوله وكل تشكيك فيه •• وبـدل أن ينظر القائمون على أمـر المريض ، الذي هو في الحقيقة ضحية اضطراباتهم ومآزقهـم العلائقية ، والمعبر عن رغباتهم المريضة ، في الاسباب الحقيقية للمرض ، والتي لا بد أن تضعهم أمام مسؤولياتهم الفعلية ، نراهم يذهبون للبحث عن العلة في جان أو عفريت قد تلبسه ، اثر حادثة يخلقونها أو يتخيلونها •

ثم هناك مشكلة تحكم الجن والعفاريت في مسائل الزواج والخطبة والعلاقات الجنسية • كل الازمات الزوجية والجنسية تلصق بهذه الكائنات الخفية ، بدل أن توضع في اطارها الحقيقي ، وتـرد الى سببهـا الفعلي الاجتماعي الاسري النفسي • فالعزلـة ، والفصل بـين الجنسين وسوء الاختيار الزوجي نتيجة للعلاقات التي يفرضها الاهل ، وروابط المصاهرة التي تقام لخدمة مصالحهم ويستخدم فيها الابناء كمجرد أدوات لخدمة هذه المصالح ، والامراض الجنسية النفسية الناتجة عن القمع الجنسي والاحباط العاطفي المزمن ، والتربية المتسلطة ، هي وحدها المسؤولة عن الازمـات الزوجية • ولكن طرح المسألة بهذا الشكـل ، يهـدد امتيازات الاسرة المتسلطة والقائمين على رأسها ، ويهدد النظام السائد في الجماعة ، الذي لا يخدم في النهاية سوى هذه الامتيازات • ليس هناك اذاً أكثر تضليلا

وخداعا من القاء المسؤولية على الكائنات الخفية ، ثم البحث عن ذلك الحل من خلال مختلف ضروب الشعوذة .

ومن الطبيعي أن يستفحل الاعتقاد بالخرافات حول الجن والعفاريت بين النساء نظرا لوضعية القهر المفرط التي تفرض عليهن في المجتمع النامي. ومن الطبيعي أن تلجأ النساء الى مختلف إساليب الشعوذة لحل أزماتهن الزوجية والعاطفية والجنسية ، طالما سدت أمامهن كل سبل التأثير الفعلي في الواقع المفروض عليهن ، وطالما استلبت منهن ارادة التحكم بالمصير .

وهكذا تسقط على هذه الكائنات الخفية ، قدرات كبيرة على تحقيق ما يعجز المرء عن تحقيقه بجهده ، كما تسقط عليها كل المصائب والشرور والاخطار . ويتخذ الانسان المسحوق في الحالتين ، وسائل معينة لدرء شرورها من ناحية ، واسترضائها وجلبها الى صفه ، حليفة له في معركته مع أعدائه ، وخادمة لمصالحه من ناحية ثانية. ويبرز المشعوذون الذين يتاجرون بمآسي الانسان المقهور ، كوسطاء بينه وبين هذه القوى . ويحيط هؤلاء انفسهم بجو غريب ، ويتلون أحاديث وادعية مبهمة يزعمون انها لغة التخاطب مع الجان . ويمزجون هذه اللغة ببعض التسابيح الدينية زيادة في التضليل وادخال الاقتناع في نفس ضحيتهم ، بأنهم يمارسون طقوسا دينية ، مما يلعب على وتر ايمانه ، ويدفع به الى التسليم لهم ولمطالبهم الابتزازية التي لا تنتهي ، وترهقه من أمره عسرا ، بزعم ارضاء هذا أو ذاك من ملوك الجن أو ملكاته ، وهو كائن كثير الطلبات عادة ، لا يرضى قبل استنزاف الضحية ..

بالاضافة الى الوسائل المكلفة جدا في التقرب من هذه الكائنات الخفية بواسطة المشعوذين بغية تسخيرها لخدمة بعض المآرب ، هناك طقوس وممارسات لدرء شرها . يتوسلون الى ذلك : الرقى والتعاويذ والاحجبة ذات الزعم الديني لانها تطرد وتبعد الارواح الشريرة وتكف أذاها .ولكن

يبقى ان أشهر هذه الممارسات هو الزار •

الزار هو حفل استخراج العفاريت والارواح الشريرة واستئصالها مـن الجسد الذي حلت فيه ، كي يشفى من المرض النـاتج عن حلولها هذا • وكما يشفي الطبيب أمراض الجسد ، فان المشعوذ هو طبيب النفوس المريضة التي أصابها مس من عفريت أو جان • وكما يستدعي طب الجسد مهارة في معرفة المرض ، أسبابه وعلاجه ، كذلك يستدعي المس والتلبس مهارة المشعوذ في التعامل مع الارواح الشريرة وطرق طردها •

وتأخذ حفلة الزار شكل طقوس لها أصولها ومستلزماتها وشيوخها أو شيخاتها • ويدعي هؤلاء القدرة على التواصل مع هذه الارواح ، من خلال تحالف مزعوم مع امرائها وملوكها ، التي تستطيع أن تأمر أتباعها ، كي تكف شرها عن المريض أو تغادر جسده • ولكن الثمن مرتفع طبعا تحت ستار طلبات كثيرة غريبة •

من الناحية النفسية العلمية ، جوهر حفلة الزار هو عملية تفريج [1] هستيري للكبت الجنسي والعدواني المتراكم ، والذي ينخر جسد المريض• ويصبح هذا التفريج ممكنا من خلال جو الحفلة الاخاذ ، الذي يعطـل الضوابط الخلقية ويصد مشاعر الاثم المسؤولة عن كبت الرغبات والنزوات (يعطل الانا الاعلى) • ويحل شيخ الزار بسلطته محل الانا الاعلى للمريض من خلال عملية سيطرة نفسية عليه ، يتوسل اليها الطبول والبخور والايحاء بالرقص الهستيري • هذا الجو الغريب يؤدي الى نوع من التحلل المؤقت من التزمت النفسي ، تطفو خلاله المكبوتات على السطح وتثار الهوامات اللاواعية ، من خلال البخور والطبول وبعض الادوات ذات الرمزية القضيبية والذوبان الغلمي في شخصية شيخ الزار ، أو شيختة • وعندما تنصرف

---

(1) تفريج Catharsis

المكبوتات على هذا الشكل ، وتشبع الرغبات الجنسية بشكل خيالي من خلال الرضوخ لسلطة شيخ الزار ، يخف ضغط اللاواعي ويشعر المريض بالارتياح لما يلازمه من حل للتأزم الكامن في أعماق النفس . على أن حفلة الزار تتضمن الى ذلك تمردا خياليا ومؤقتا على السلطة الاجتماعية والاسرية القامعة ، والتي كانت في أصل العلة . فتحل سلطة شيخ الزار محل سلطة المجتمع ، من خلال التحالف مع الصور الاولية الطفلية للوالدين في حالة رضوخ غلمي له.على أن الامر في كل الحالات وليد القمع الجنسي والحيوي يسوقه النظام الاجتماعي . وهو من خلال التصريف المحدد خلال حفلة الزار ، يحتفظ لهذا النظام بسطوته على الافراد ، ويبعد عنه الشبهات وضروب الشك ، التي تؤلف مدخلا الى التغيير الاجتماعي . وهكذا فالسيطرة الخرافية على المعاناة ، تحتفظ في النهاية للنظام الاجتماعي الذي ولدها كل هيمنته وتبقي على رضوخ الافراد المقهورين لهذه الهيمنة .

أما الشيطان فهو أفصح مثال على اسقاط المعاناة الذاتية ، والتنصل من المسؤولية المصيرية ، خصوصا بما يكتسبه هذا الرمز من تعزيز ديني يجعله بمنأى عن الشك . ولهذا فهو كرمز يصلح تماما لاسقاط المساوىء الذاتية وأوجه القصور الشخصية ، وتبرير انعدام تحمل المسؤولية . والواقع ان الدارس النفسي لا يستطيع أن يتمالك نفسه من التشابه الكبير، بين خصائص الشيطان كرمز للشر ، وبين خصائص اللاوعي الانساني وما يقبع فيه من رغبات ونزوات ذات طبيعة عدوانية أو جنسية وهي لا اخلاقية في الحالتين .

ان الشيطان هو رمز الشر والغواية والتمرد على الاوامر الالهية . وهو لذلك مغضوب عليه محكوم بالطرد من الجنة . ولكنه لقاء هذا الطرد سيظل ابديا وسيشكل مصدر اغراء وغواية دائمين للانسان . وهو الى ذلك مصدر اغراء بالتمرد والثورة على القيود الدينية والخلقية . لكل من هذه

الخصائص ما يقابلها في اللاوعي الانساني • المكبوت (النزوات المرفوضة لتعارضها مع المعايير) هو باستمرار مصدر الشر والتهديد بالغواية •تحرك المكبوت يثير الانا الاعلى (الضمير الخلقي) الذي ينزل اشد العقاب بالانسان اذا استسلم للغواية (لاغراء اشباع النزوات المكبوتة) • ولذلك يطرد المكبوت من الوعي ، من الرغبة غير المقبولة الى حيز الكبت ولكنه لا يقضي عليها ، بل تظل أبدا متحركة دينامية ، تتربص ساعة غفلة من المرء ورقابته الخلقية كي تبرز ، تماما كالشيطان الذي ينسل الى الانسان في ساعة غفلة فيجعله يستسلم لما لا يرضاه من انجراف في ممارسات السوء • وكما أن ابليس لا ينام ، ومكره وحيلته لا حد لهما ، وتلبيسه (الصور التي يظهر بها ذو أشكال لا حصر لها وطريقة استخفائه وتنكره تسمح له ان يفلت دوما من التنبه له ، وبالتالي فلا يأمن شره الا الصفوة من ذوي الحظوة بالرعاية الالهية ، كذلك هو اللاوعي تماما • الدوافع المكبوتة تأخذ ألف وجه وشكل ، انها تكمن للمرء في الامور التي هي آخر مايخطر بباله أن يتوقعها ، وهي تظهر في الحلم او اليقظة ، او الاضطراب السلوكي أو العرض المرضي ، أو الصراع العلائقي محققة مآربها • والمكبوت هو من حيث تعريفه عدو الانسان من الناحية الخلقية الواعية • ووطأته شديدةعلى النفس تتطلب كفاحا دائما ومضنيا بعض الاحيان • ولذلك فان اسقاطها على الشيطان ، من أنجع الحيل للتخفف من وطأتها وضغطها من ناحية ، والتخلص من وزرها (وما تثيره من شعور بالاثم) من ناحية ثانية •

وليس الشيطان مجرد رمز للغواية اللاواعية ، بل يلعب نفس الدور بالنسبة للوضعية الاجتماعية للانسان•كل اغراء بالتمرد على المعايير القمعية يلصق بغواية الشيطان وتغريره بالانسان • كل تقصير في النهوض لواجبات المصير الذاتي يلصق بتزيين شيطاني • كل عدوان على الاخرين أو نيل منهم يحمل وزره للشيطان وافساده الامر بين الناس • وبهذه الصورة ، تتحول الحياة بما فيها من أحداث الى سلسلة مأساوية يقوم الشيطان

باخراجها ، ويكون الانسان مجرد ممثل فيها ، دون أن يعرف ، تحديدا ، طبيعة الدور الذي يقوم به • وهكذا فان « الشيطان لم يقتصر دوره في الواقـع على الغواية في المسائل الدينية ، بل انه يتغلغل في أعماق نسيج الذات العربية ، بحيث يعزى اليه كل ما لا يرضى عنه الانسان أو المجتمع وبهذا أصبح الشيطان ستارا تختفي وراءه كل العلل والاسباب ، ومشجبا تعلق عليه التبريرات والمعاذير ، وأصبح مستودعا للاخطاء والهفوات ، كبيرها وصغيرها ، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الامة • وهذا ما ساعد على اضعاف آلية التحليـل في العقلية العربية ، وتنمية التعليل الغيبي الساذج ، وسهولة مغالطة الواقع بالتغاضي عن حقائقه الماديـة وارجاع كل شيء الى الشيطان » (د• بدران وخماش ، نفس المرجـع صفحة ٧٧ـ٧٨) يلاحظ هذان المؤلفان ، بصدد الشيطان ، كيف أن السلطة في البلاد النامية تشجع اجمالا التفسيرات الخرافية لظواهر الحياة، وتساعد على انتشار الافكار والمعتقدات حول الشيطان ، لتمنع بذلك كل تحليل نقدي للامور ، مما يساعدها على تجنب الانتقاد والمآخذ واستمرار نفوذها واستغلالها • كم هي كبيرة الخدمات التي يقدمها رمز الشيطان لكل من السلطة المستغلة ، والانسان المقهور والمغبون ، في العالم النامي •

ج ـ العلاقات العدائية ، الحسد والسحر

نلمس هنا شكلا آخر من أشكال التأويل الخرافي لاحداث الحيـاة ونوائبها ، يعتمد على تفجر العلاقـات الاضطهادية ، التي تتغـذى من العدوانية الكامنة عند الانسان المقهور • تلك العدوانية عندما تتراكـم تصرف الى الخارج باسقاطها على الغير ، الذي تتهمه بأنه سبب المصيبة • وعندما يحدد مصدر العلة ووسيلتها ، يمكن السيطرة على الشر والاحتياط من الاذى الآتي من الخارج بوسائل دفاعية ملائمة تبطل تأثيره ، وتكف فعاليته • تلك هي علاقة الحسد والسلاح الذي تحـارب به من تعاويـذ وكتابات وسحر •

يجد المحسود في الحسد تفسيرا لظواهر فجائية من نوع النكبات تلم به أو بذويه او ممتلكاته • وتصيب بالضرر ، او تذهب بما يكون قد حظي به من خير أو جاه أو امتياز على الآخرين • وهو تفسير ينال الرضى عند المحسود اذ يسمح لعدوانيته أن تتفجر بدون رادع ، متخذة طابع الدفاع عن النفس من شر الحاسد الذي حسد • والتفسير بالحسد يرضي المحسود لانه يشعره بالامتياز عن الآخرين (اذا كان محسودا فلا بد أن يكون ذلك لتفوق أو فضل من جاه أو ولد) وبالتالي تشعره وهميا بارتفاع مكانته ، بينما تسقط المهانة الذاتية على الحاسد • وقد نكاد نقول ان المحسود بحاجة الى حاسد حتى يشعر بالامتياز من جانب ، ويتهرب من عدوانيته الداخلية بصبها عليه (هو صاحب النوايا العدوانية لا أنا) ، ويمارسها بعد أن اتخذت شكلا مشروعا • في الحسد اذاً ، اسقاط للشر الذاتي والنوايا العدوانية على الحاسد • انه اسقاط لرغبة الانسان المحروم في امتلاك دور المحظوظ • الحسد هو اسقاط الرغبة الذاتية الدفينة في سلب الآخر مما يتمتع به من حظ • وبالطبع المحظوظ الاكبر هو المتسلط المستغل • ولكن الانسان المقهور يخشى الوعي برغباته هذه ، فيتماهى بالمتسلط عندما يصيب حظا ما ويسقط ميوله الدفينة على الحاسد الذي لم يحالفه الحظ • ويقوم الحسد أساسا على عقدة النقص والخواء الداخلي ومشاعر المهانة المرتبطة بها ومحاولات التنكر لها •

والعين هي الأداة الاساسية للحسد (ضربة العين ، الاصابة بالعين) وما يقابلها من استباق شرها وعدوانيتها في كلمة (يخزي العين) أمام كل حظ أو جاه أو وفرة في الرزق والصحة والجمال • العين الشريرة تدمر ما تحسده كي تمتلكه ، في حالة من النظار التملكي [1] (الامتلاك من خلال النظرة الراغبة للحاسد) • ومن هنا الاعتقاد بخطورة نظرة الحاسد

---

(١) نظار تملكي Voyeurisme possessif

وقوتها التدميرية الرهيبة ، اذ تكفي نظرة واحدة ملؤها الرغبة في الامتلاك كي تحل المصيبة بالموضوع المحسود . ولذلك يخفي هذا الاخير ما يخشى عليه من العين (اخفاء الصبي المولود حديثا موفور الصحة والجمال ، اخفاء المتاع والاثاث ، التكتم على الثروة ، افساد جمال وميزة الاشياء حتى لا يتمناها الحساد) .

وقد يكون من الضروري الاشارة الى الدور الاساسي للعين في مجتمع القهر والحاجة ، فالانسان المحروم والمقهور ، والذي لا يستطيع التمرد على حرمانه ولا التعبير عن حقده ورغبته ، يدفع الى موقع الاكتفاء بالمشاركة الحاسدة المشتهية والمتمنية من خلال النظر . ويتحول التفرج الى عملية نشطة ، الى امتلاك هوامي لما لا يمكن امتلاكه ، أو الى حرمان الآخر من حظه بالقضاء عليه : العين الحاسدة الحاقدة التي تتمنى ابادة ما يشعرها بغبنها وحرمانها وتدميره . قد يكون في ذلك بعض التفسير لظاهرة الحشرية عند الجماهير المسحوقة التي تراقب كل شيء ، لدرجة قد يتحول معها الواحد من هؤلاء ، الى مجرد عيون تلاحظ وتراقب وتتابع ، وآذان تتقصى ولسان ينال بالنميمة والشتيمة . تلكم هي وضعية الانسان الذي قيده القهر ، وحال بينه وبين السعي لنيل قسطه من الخيرات وبقية مظاهر الرخاء والرفاه .

اتخاذ الحسد كتفسير لما قد يحل بالمرء من غرم أو خسارة أو نكبة ، في ماله وعياله أو مكانته ، يجعل امكانية الدفاع ضده ميسورة ووسائلها متوفرة ومعروفة . انها الرقى والتعاويذ والسحر .

أما التعاويذ فشائعة الانتشار منها : حدوة الفرس ، حذاء طفل صغير ، فرسة النبي ، خمسة وخميسة (رسم أصابع اليد مفتوحة) ، حلى ذات نقوش دينية (ما شاء الله) الشبة والخرزة الزرقاء ، رسم العين مصابة بسهم . وقد تتخذ شكل كتابات تدرأ شر الحسد مثل : عين

الحساد تبلى بالعمى ، الحسود لا يسود ، من راقب الناس مات همـاً ، عاشق النبي يصلي عليه (استباق الحسد وتحويله الى غبطة وتمني دوام الحظ للآخر) .

أما الرقى فمتعددة بدورها ، وتختلف نصوصها وطقوسها باختـلاف البيئات . مثلا يشيع في مصر بين الاوساط الشعبية رد مرض الطفل الى تأثير الحسد . ولذلك تقام طقوس سحرية لابطاله تتلى خلالها التعويذة التالية : « امباس امباس ، لحطك يا عـين في قمقم نحاس . رقيتـك واسترقيتك من عيون الناس . قابلها سيدنا سليمان في وسع الجبـال قال لها (رايحة فين يا عين ؟) قالت له : رايحة للي حبا ودبا ، الي عرف الام من الاب ، أديه بريشة بين كتافيه ، أخلي أمـه وأبوه يبكو عليه) قال لها : « (خزيتي لحطك يا عين في قمقم نحاس واسبك عليك بالزئبـق والرصاص) » (ذكرها نجيب يوسف بدوي، مجلة علم النفس، مجلد ٦ ، عدد ١ ، يونيو ـ سبتمبر ١٩٥٠ ، صفحة ١٠٤) . اثناء تلاوة هذه التعويذة يحرق البخور ، وتلقى قطعة من الشبة في النار ، وتقص قطعة صغيرة من الورق على شكل دمية ، تغرز في مكان العيـون بدبوس (اخـزاء العين واقتلاعها) ويكرر من يتلو التعويذة القول : « رقيتك من عين فلان .. رقيتك من عين فلانة » ويسرد اسم كل من يتطرق اليه الشك في أن يكون من ذوي العيون الصفراء . ثم تحرق الدميـة الورقية في النار (ابـادة الحاسد سحريا) ثم تخرج من النار قطعة الشبة المنتفخـة (التي تمثـل الحاسد بدورها) فيطأها الطفل المريض بقدمـه اليسرى (التغلب على الحاسد وسحقه) . ثم توضع قطعة الشبة مع مليم (تحقير) في قطعة من القماش ويلقى بها في مفترق الطـرق (طقس سحري يهدف الى ابعـاد الحاسد وتعمية سبيله الى الطفل ، اذ أنه لا بد أن يتيه على مفترق الطرق مما ينقذ الطفل) . (نفس المرجع ، نفس الصفحة) .

أما السحر فمكانته خاصة بين وسائل الحرب ضد الشرور التي تأتي

الانسان من الخارج تاريخيا وعالميا • ويستخدم السحر لرد الاذى ، أو انزال الأذى بالآخر ، وكذلك لأغراض المساعدة على نيل المراد ، اذا غسر بالوسائل العادية المتوفرة للانسان المقهور المعروف أصلا بقلة حيلته وقصر باعه • فهو يشكل قوة مساعدة تعوض النقص في القوة الذاتية (كتابة السحر مثلا لفتاة أو فتى بغية ترويضهما وايقاعهما تحت سيطرة الحبيب المهجور العاجز) • فالسحر يقوم اذاً على مبدأ الجبروت الذي يحطم قيود القهر والعجز • وهو في جوهره تجاوز الحدود البشرية ، وحتى تجاوز قوانين الطبيعة ، اذ أن من خصائصه عدم التقيد بحدود الزمان والمكان ، وامكانية التأثير عن بعد • ولذلك فقد قيل في تعريفه انه : (التماس الانسان للنتائج من غير أسبابها) •

ولقد أوضح مالينوفسكي [1] وظيفة الجبروت (وتعويض النقص) في السحر بجلاء حين يقال : انه (السحر) لا يوجد اينما كان العمل مأمونا ومضمونا ، ويمكن التحكم فيه والحصول على النتائج المرجوة منه بالخبرة والمعرفة والمهارة •• بينما يتم الالتجاء الى السحر عن غرض ، ويفصح عن حاجة •• انه رد فعل لشعور الانسان بقصوره وقلة حيلته في عالم لا يستطيع التحكم بظواهره • فالسحر يوجد في احدى حالتين : في حالة الجهل بالنتائج ، وفي حالة الجهل بالاسباب •

للسحر اذاً وظيفة نفسية هي استجلاب الحظ والنجاح ، أو ابعاد الخطر والشر • وله وظيفة معرفية ، وهي سد الثغرات في المعرفة السببية لظواهر الطبيعة وما غمض منها ، والعلاقات بين الناس وما يعتورها من اشكال • السحر هو تحقيق للرغبات عزيزة المنال ، ودرء للمخاوف مصدر التهديد لأمن الانسان ، أو تسلح بالقوة المطلقة لسد الثغرات في قصور الحيلة •

---

(1) Malinowski, Myth in primitive psychology, London, Kegan Paul, 1926, P. 110 .

يميز (فريزر) عالم الاجناس الكبير ، في كتابه المشهور « الغصن الذهبي » (ذكره نجيب يوسف بدوي ، نفس المرجع ، صفحة ١٠١) بين نوعين من السحر يرجعهما كليهما الى تطبيق خاطىء لمبدأ ترابط الافكار : هناك السحر بالاقتران ، والسحر بالتقليد . أما السحر بالاقتران فيتلخص بالحصول على أثر من الشخص المطلوب سحـره (قطعـة من ملابسه أو خصلة من شعره ، أو أظافره الخ ..) والتصرف به أو اتلافه انطلاقا من مبدأ ترابط الجزء بالكل ، ما يحيق بالجزء لا بد أن يحل بالكل . احراق خصلة الشعر ستؤدي الى موت صاحبها وهكذا . وأما السحر بالتقليد فيعتمد مبدأ ترابط الافكار بالتشابه : الحصول على نتيجة ما من خلال تمثيلها أو تقليدها . مثلا صنع دمية من شمع أو غيره ترمز الى الشخص المسحور ، ما يصيب الدمية (قطـع الرأس ، أو فقء العين الـخ ..) سيحل بالشخص الحقيقي الذي تمثله . وفي الحياة العادية، يجمع النوعان معاً ويضاف اليهما الكتابة (جبروت الافكار) ، والتعاويذ كما رأينا في الفقرة السابقة .

نزوة السيطرة هي اذاً المصدر النفسي لقـوة السحر . ولذلك فان عنصر القوة والبراعة هام جدا فيه . فهناك قوة الساحر المضخمة بشكل مفرط ، التي تبهر طالب السحر وتحوز اعجابه ، وتمكنهما من السيطـرة على الشخص المسحور الضعيف الذي لا قبل له بمقاومة تأثير السحـر والساحر . فالعلاقة بين الساحر والمسحور وطالب السحر هي دائما علاقة قوة خارقة ، يقابلها رضوخ قلق عند المسحور ، واعجاب مفرط وأمل كبير عند طالب السحر . ولذلك فحفلة السحر هي دائما ذات طابع استعراضي تستند الى الخوارق . وهذه القوة ضرورية لتعويض الضعف والمهانـة وقلة الحيلة عند طالب السحر ، اذ من خلال طلب السحر يتماهى بالقـوة الاستثنائية ويتخذها حليفة له ، مما يعطيه الوهم بالسيطرة الخرافية على مصيره . ولكن ، هنا أيضا ، يهرب الانسان المقهور من مسؤولية النهوض

لمجابهة واقعه والعمل على تغييره • فبمقدار ما ينشد الحل في الممارسة الخرافية ، يعزز استمرار النظام القائم الذي هو في أساس مأساته الحياتية •

ثانيا ــ السيطرة على المستقبل

لا يفوق معاناة الحاضر عند الانسان المقهور سوى قلق المستقبل • فبمقدار عجزه عن مجابهة حاضره ، يفلت منه مصيره • الاعتباط الذي يتحكم بواقعه لا يسد آفاق المستقبل فحسب ، بل انه يضرب حولها طوقاً من الغموض والابهام • وهذا ما يجعل أمله مجرد تمنٍ لا ثقة له بتحقيقه ، ولا قدرة له على تنفيذه • وضعية من هذا النوع تفجر القلق المصيري بالطبع • ويتضخم هذا القلق حتى ليكاد يقترب من القلق المرضي • يعيش الانسان المقهور في حالة انعدام للطمأنينة على صحته ورزقه وذويه ومكانته • وضعية من هذا النوع غير ممكنة الاحتمال على المدى الطويل لما تحدثه من اختلال في التوازن الوجودي •

لا بد اذاً من وسائل للسيطرة على المصير والاحتياط للمستقبل • وهي وسائل خرافية بالضرورة ، طالما أن الضمانات مفقودة والتخطيط منعدم والتوقعات المبنية على الجهد العام والذاتي لا أثر لها في العالم المتخلف • وبمقدار ما يفلت مصيره من يده ، فانه يتلمس طريقه الى المستقبل واستشفافه من خلال اسقاط المخاوف والرغبات جميعا على العالم الخارجي • يبحث عن دلالات ومؤشرات تنبئه عما يخفي له القدر ، دون أن يحس بارادة ذاتية في تحديد ما سيكون •

فنتيجة لطول عهود القهر الذي رزح تحته ، وما يصاحبه من حرمان واحباط ، تعلم انسان العالم المتخلف ان لا حول له ولا قوة فيما سيؤول اليه وضعه • فهو جبري مستسلم كما سنرى في فقرات تالية • واذا لم يكن التدخل الفعّال من أجل التغيير والامساك بزمام الامور متوفرا ، أو حتى متصورا ، فهو لا يقف وقفة المتفرج الفاتر كليا • انه يحاول أن

يستشف ما سيحدث له وأن يحتاط قدر ما يمكن الاحتياط لما سيلمّ به .

وسائله الى هذه الحيطة وذلك الاستشفاف متنوعة . يلاحظ بعض المؤشرات ويرقب بعض العلاقات التي تنبيء بخير ممكن أو شر محتمل سيأتيه ، ذلك هو التطير . تلح عليه بعض أحلامه فيحاول فك ألغازها ، ويجد فيها رموزا لما قد يخبئه له المستقبل . يتمكن من ذلك بمفرده ، من خلال الدلالات الرمزية الشائعة كحاله في تفسير علامات التطير ، أو يبحث عن يفسر له ما استعصى عليه استجلاؤه من هذه الاحلام.وهنا يكون قد انتقل الى موقف نشط ، وتوسل تقنيات محددة للاستشفاف والتوقع . أو هو لا ينتظر العلامات تحمل اليه نذائر وبشائر عما سيكون ، بل يبحث جادا لالقاء الاضواء على المستقبل من خلال تقنيات قراءة الطالع والعرافة. ولكن الاكيد في كل الحالات ، في انتظار المؤشرات ، كالحال في استخدام التقنيات ، ان المصير يبدو مخططا ومرسوما مسبقا ، ولا رد له . الموقف الوحيد هو الاستعداد لتلقيه ، والاحتياط لما يحمله بقدر الامكان .

جميع تقنيات استشفاف المستقبل ، كسابقتها من وسائل السيطرة على الحاضر ، تسبغ من أجل زيادة المصداقية بصبغة دينية ، باعتبار ان الدين هو اليقين الاساسي في عالمه . فمن خلال هذه الصبغة يرفع من درجة يقينه بتلك التقنيات ، مما يزيد من طمأنينته ، ويدخل السكينة الى نفسه الحائرة القلقة الموزعة بين آمال غير أكيدة ، ومخاوف عديدة .

أ ــ التطير :

« اينما وجدت عناصر المصادفة والحظ كان احتمال القابلية للتطير كبيرا . ولذلك يأتي في مقدمة المتطيرين : المقامرون ، والصيادون والمحاربون » (١) . ونضيف اليهم المقهورين الذين على مقدراتهم لا

---

(١) نجيب يوسف بدوي ، سيكولوجية التطير ، « مجلة علم النفس » ، مجلد ٥ ، عدد ١ يونيو ــ سبتمبر ١٩٤٩ ، القاهرة ، صفحة ٥

يسيطرون • في هذه الحالات يحس الانسان بأنه معرض لاحتمالات متناقضة ، الحظ والخير ، أو النحس والشر ، الامن والمنعة ، أو الخطر والنائبة • يأمل في الحصول على الاولى ويخشى وقوع الثانية ، ويعيش في كلا الحالتين بين خفقة الرجاء وقلق الخطر • وحتى لا يستمر هكذا منتظرا الخطب كي يقع أو السعد كي يطلع ، فانه يحاول استباق الامور والاحتياط لها ما أمكن •

ويتلمس طريقه الى ذلك الاستباق في علامات ومؤشرات خارجية • هذه المؤشرات رموز تأخذ شكل النذائر (في حالة توقع الخطر) أو البشائر (في حالة توقع السعد) • والانسان المتطير هو اذاً ذاك الذي يتخذ من الاحداث الخارجية علامات يضفي عليها معنى ومغزى • وواضح هنا أن أوالية الاسقاط نشطة جدا ، وتؤدي الى اسباغ طابع ذاتي أساساً (مخاوف وآمال) على علامات تعطى دلالة الرموز الاكيدة ، لأمور ستحدث في مستقبل قريب أو بعيد • فالانسان لا يستطيع احتمال الغموض ، ولهذا فهو يسقط جبروته الفكري على ظواهر الواقع الموضوعي ، في نفس الوقت الذي ينفي فيه مسؤوليته عما سيحدث •

هذه البشائر والنذائر ، والثانية أشهر من الاولى ، لدرجة انها أسبغت طابعها على ظاهرة التطير ، إما انها خارجية ، أو ذاتية حسية •

من علامات الفأل الحسن الخارجية مثلا : حدوة الحصان ، فرسة النبي ، حذاء طفل صغير ، خمسة وخمسية (رسم أصابع اليد مفتوحة) السلحفاة ، الحمام ، السنونو • أما علامات الفأل الرديء : البومة ، الرقم ١٣ المرآة المكسورة ، الغراب • ومن العلامات الحسية : رف العين (وهنا يعتبر رف العين اليسرى دليل شؤم والعين اليمنى دليل خير) طنين الأذن ، أكال باطن الكف • واضح هنا ان العلاقة بين العلامة وما تدل عليه عينية محسوسة : توقع مشاهدة أمر سيىء (بالعين اليسرى) أو

أمر طيب بالعين اليمين ، ورف العين هو للتأكد مما نشاهد (على غرار لم أصدق عيني ، هل أنا في حلم أم يقظة) ، طنين الاذن تعبير حسي عن توقع سماع أخبار ما ، أو على العكس اسقاط هذه الرغبة على الآخرين حين الاعتقاد بأن هناك من يتحدث عن الشخص (أي انه مهم بالنسبة للآخرين الذين يسألون عنه في غيابه) . أما آكال باطن الكف، فيشير الى الاحساس المادي عندما يقع في أيدينا شيء أو نضع فيها شيئا (آكال باطن الكف يشير عند العامة الى توقع قبض النقود) . أما العلامات السلوكية فمنها مثلا : كنس المنزل ليلا ، صب الماء الساخن على الارض ، فتح مظلة داخل المنزل ، تحريك المقص مفتوحا في الهواء دون أن يقطع شيئا ، المرور من أسفل السلم الخشبي الموسد الى الحائط ، وكذلك زجر الطائر .

والرمزية هي نواة الدلالة في هذه العلامات . بعضها واضح وحسي، والآخر يحتاج الى تفسير . وكما ان البشائر والنذائر قد تختلف في تعددها حضاريا ، كذلك فانها قد تختلف في دلالتها .

ويشترك التطير مع السحر في أسقاط النوازع الذاتية على الظواهر الخارجية ، كما يشتركان في القوة المطلقة للفكر ، وما وراءه من مخاوف ورغبات (مبدأ الجبروت) . وهما يشتركان في المقام الثالث في الوظيفة الدفاعية . وهنا يشكل التطير الوجه السلبي للسحر . فبينما هذا الاخير اقدام على ممارسات للحصول على نتائج مستحبة أو درء أخطار معينة ، نجد الاولى تلمس علامات معينة ، أو الامتناع عن أعمال محددة درءاً لأخطارها .

واذا كانت نزوة السيطرة تشكل القوة المحركة للسحر فان تجنب الأذى ، أو الاطمئنان الى المصير يشكل أقوى دوافع التطير ، وكلاهما وسائل خرافية للسيطرة على المصير . والتطير كالخواف ، هو في النهاية اسقاط للقلق الداخلي على الخارج ، واستقصاء علامات خارجية أو

جسية ، او تجنب ممارسات محددة للدفاع ضد تفصحات هذا القلق .

ب ـ تأويل الاحلام

يحتل تأويل الاحلام مكانة فريدة بين أساليب السيطرة الخرافية على المصير في العالم المتخلف . فالاحلام تتصف ، من وجهة النظر الشعبية ، بأنها نابعة من الذات من ناحية ، ولكنها تعبر عن الواقع الخارجي وما قد يخبئه لهذه الذات من ناحية ثانية . فهي تقيم الصلة الوثيقة بين الذاتي والخارجي ، وتشير الى مقدار تلون الواقع بالذاتية ومقدار رضوخ الذاتية للقوى الخارجية في آن معاً . ومن خصائص الاحلام أيضا انها تجمع بين العلامات النذر أو البشائر وبين النوايا الداخلية . كما أن تأويلها يحتل مكانة مرموقة بين وسائل استشفاف المستقبل ، فينظر اليها عادة بجدية أكبر من الموقف من تقنيات العرّافة وقراءة الطالع التي يشوبها الكثير من الشعوذة . فلقد كان تأويل الاحلام دوما من عمل حكماء القوم (الذين يجمعون الدين وحكمة المعرفة) الملحقين بقصور الامراء أو المراكز الدينية . والواقع أن تأويل الاحلام يسبغ عليه الكثير من الاحترام ، وتعتبر القدرة عليه نوعا من الكشف الذي لا يتيسر الا للخاصة . مثلاً نجد في مقدمة كتاب ابن سيرين الشهير لتفسير الاحلام ما يأتي حول شروط المعبّر وصفاته (الذي يتولى تأويل الاحلام) « اعلم وفقني الله واياك الى طاعته ، ان الرؤيا لما كانت جزءا من ستة واربعين جزءاً من النبوة ، لزم أن يكون المعبّر : عالما بكتاب الله ، حافظا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خبيراً بلسان العرب واشتقاق الالفاظ ، عارفا بهيئات الناس ، ضابطا لأصول التمييز ، عفيف النفس ، طاهر الاخلاق ، صادق اللسان ، ليوفقه الله لما فيه الصواب ويهديه لمعرفة أولي الالباب » (1) .

---

(1) كتاب تفسير الاحلام ، لابن سيرين « منشورات مكتبة الطلاب » بيروت صفحة ٥

المعبر اذاً عالم دين ، وعالم نفسي وفيلسوف وعالم بتراث الشعوب وفقيه لغوي وعالم اخلاق ، وعلى درجة عالية من سمو النفس . ذلك ما يعطي تأويل الاحلام طابعا رصينا ، ويزيد بالتالي من مصداقيته . وقد يكون من الطريف ان نذكر بالمقابل ان تفسير الاحلام من وجهة نظر التحليل النفسي الحديث : يحتاج بدوره الى تخصص عال في علوم النفس وتمرس كبير في فهم الشخصية الانسانية ، لا يتيسر الا بعد سنوات طـوال من الدراسة الجامعية العليا ، وبعد تدريب عيادي شاق وطويل النفس . قد يشير ذلك الى ما تمتعت به الاحلام على الـدوام من مكانة خـاصة في الكشف عن أحوال الانسان . ولذلك فليس من الغريب أن يقرر فرويد ان الحلم هو الطريق الملكية الى اللاوعي .

فاذا قرأنا قواعا التأويل تبعا لابن سيرين نجد انها لا بد أن تزيـد من رصانة هذا العمل في نظر الجمهور. « فان الرؤيا تعبّر باختلاف الازمنة والاوقات ، فتارة تعبّر من كتاب الله تعالى،وتارة تعبّر من حديث الرسول عليه السلام . وتارة تعبّر عن المثل السائر . وربما صرفت عن الرائي الى نظيره أو سميه . وقد تؤول الرؤيا من لفظ الاسم مرة ، ومرة من ضده ، ومرة من اشتقاقه ، ومرة بالزيادة ، ومرة بالنقصـان » (نفس المرجع ، صفحة ٦) . ولذلك فان قناعة الجمهور بدلالة الرؤيا وقدرتها التنبؤيـة لا يكاد يخالطها شك . وقد يكون من الطريف أن نذكر مرة ثانية ، أن التحليل النفسي الحديث الذي يعطي التفسير العلمي للحلم ، لا يعترض مطلقا على قواعد التفسير كما أوردها لنا ابن سيرين ، بل هو يتفق منهجيا مع معظمها ، خصوصا ما اتخذ منها طابعا لغويا .

الاختلاف بين التأويل الشعبي والتفسير النفسي الحديث جوهري رغم ذلك . فاذا كانت الاحلام تنبىء عما سيصيب الانسان من الخارج ، في التأويل الشعبي ، فانها في التحليل النفسي تشير قطعا الى ما يعتمـل

في النفس من رغبات ومخاوف ، فالتفسير داخلي ، ذاتي تماما ، انه ينبىء عما يعتمل في أعماق اللاوعي وما يحاول أن يشق طريقه الى الوعي والسلوك • التأويل الشعبي يميل الى اعتبار الحلم دلالة تنبىء عما يخبئه المستقبل • فاذا حلم بأمر ما ، فان هذا الامر سيقع مستقبلا • ولذلك تحمل الاحلام طابع البشير بفرج مقبل أو النذير بخطب وشر آتيين • أما في التأويل النفسي فانه لا يحدث للمرء أمر ما لأنه رآه في الحلم ، بل العكس هو الصحيح ، يراه في الحلم لأنه يتوقعه أو يخشى حدوثه • فالحلم من حيث تعريفه العلمي هو دوما تحقيق رغبة ، أو ممهد لتحقيق رغبة مهما كان مضمونه ، سارا أو مؤلما ، مخيفا أو محايدا ، سواء كان واضحا جليا ، أو مختلطا مشوشا • الحلم هو لغة اللاوعي الذي يعبّر عن مكنوناته بواسطتها خلال النوم •

واذا صادف أن تحقق ما يراه الانسان في الحلم ، وهو ما يعتبر دعامة التأويل الشعبي ، فقد يكون ذلك راجعا لأحد سببين • أولهما وأهمهما أن الحلم ينذر عن قرب بروز دافع أو ميل مكبوت الى حيز الوعي وسيطرته على السلوك • وهكذا يندفع الانسان ، ودون أن يدري ، الى تحقيق الامنية الدفينة في نفسه والتي ظهرت بوادرها الاولى في الحلم • وقد يكون الحلم استباق تحقيق رغبة أو استعجال حصول أمر آت • وأما السبب الثاني والاقل أهمية فهو الترابط الشرطي بين الحلم والواقع • فالانسان يميل الى ربط ما يحدث له في الواقع بما يكون قد رآه من أحلام تحمل نفس الدلالة برابطة السببية ، معتبراً أن الحلم هو سبب الحدث الواقعي • والحقيقة ان الامر لا يعدو كونه مجرد ترابط شرطي •

على كل حال ، فالحلم يحتل مكانة مرموقة بين أساليب السيطرة الخرافية على المصير ، ويعتبر من الناحية الشعبية بشير فأل حسن أو نذير شؤم ونوائب • استعراض تأويل مختلف أنواع الاحلام ، يظهر انه يدور

دوما حول مجموعة من الازواج المتناقضة التي تمس كلها المصير المهدد للانسان المقهور ، تنذره بكارثة، أو تبشره بفرج قريب. نجد مثلا الازواج الآتية : فأل حسن يقابله هم وغم ، رضى وتوفيق يقابله اثم وندامة ، ارتفاع في المكانة الدينية أو الدنيوية يقابله غضب وسخط وتسفيل أو انخفاض في المكانة ، حظ مادي في زواج أو ولد أو مال ، يقابله نحس أو خسارة أو موت أو هجر أو طلاق . الظفر على الاعداء بمختلف صورهم ورموزهم يقابله الغلبة على أمر وتسلط الاعداء عليه ، عجز مفرط يقابله اشتداد اليأس وزيادة القوة . فالتأويل الشعبي يدور حول النوايا الداخلية ذات الطبيعة الخلقية وما يقابلها من جزاء (ثواب أو عقاب) أو حول تقلبات الظروف وما يخبئه القدر من مكانة (عالية أو مهيضة) أو علاقات الحالم والآخرين (تعاطف أو صراع وعداء) .

يبقى أن التطير والتفاؤل هما العاملان المشتركان بين أغلب التفسيرات الشعبية للاحلام . أحلام ميمونة وأخرى مشؤومة ، أحلام تحمل البشرى بالسعد ، وأخرى تحمل الهم وتدفع الى توجس الشر . ويشيع كثيرا على المستوى الشعبي ، أن تدور الاحلام وتؤول حول الضيق والفرج . يستخرج لنا «نجيب يوسف بدوي»[1]، بهذا الصدد ، الجدول التالي، من كتاب تفسير الاحلام الذي أتينا على ذكره ، وهو يضم مجموعة من الامثلة على أحلام الفرج وأخرى على أمثلة الضيق .

أمثلة على أحلام الفرج : البكاء في الحلم (فرج) ، الغم (دال على السرور) ، الطيران (حظ سعيد ورفعة) ، صعود الجبل (نيل رئاسة وشرف عظيم) ، فتح القفل (فرج) ، الثياب الجدد (صلاح الحال وتغير المصير) ، السمك المشوي (رزق واسع) ، الشهد والعسل (رزق كثير)

---

(1) نجيب يوسف بدوي ، الفرج والضيق في احلام المصريين « مجلة علم النفس» مجلد ٨ ، عدد ٣ فبراير (شباط) ١٩٥٣ القاهرة، ص٣٤١ .

الملح (يدل على المال) ، البساط الواسع (سعة الرزق) .

أمثلة على أحلام الضيق : الضحك في الحلم (بكاء وحزن) ، الفرج في الحلم (غم) ، الحلم بالكعك (ضيق) ، السقوط في الحلم (تغير الامر وتعذر المراد) ، النار المشتعلة (مصيبة أو قحط أو حرب) ، الحفاء (عوز وفاقة) ، أكل التين (ندامة وهم وغم) ، سقوط السن (وفاة قريب) ، صغر البساط ورقته (رقة الحال وضيق المعاش) .

هذه التفسيرات لا تمكن الانسان من السيطرة على مصيره أو القدرة على تغييره . انها تنطلق من منطلق جبري ، حيث تتحكم القدرية بالمصير . ولذلك فوظيفتها الاولية لا تتعدى الاستعداد لحظ أو خير يأتيه ، أو الاحتياط لشر أو مصيبة تحل به ، دون أن يملك ردهما . ولكن التأويل قد يكتسب قوة دافعة في نهاية الامر . فالحلم الذي يحمل الفأل الحسن يستثير الهمة ، ويرفع المعنويات مما قد يؤدي الى بذل الجهد للوصول الى تلك النتيجة الحسنة . أما الحلم الذي يحمل نذيرا بشؤم فقد يثبط العزيمة ويحط من المعنويات ، ويثير مشاعر الاثم اللاواعية ، ولهذا يندفع الانسان دون أن يدري الى الوقوع فيما يخشاه . كل هذا بتأثير الايحاء الذي اذا وصل درجة الفعالية ، يعزز بدوره التأويل ، ويدعم القناعة بالحلم كوسيلة للتنبؤ بالمستقبل . وهذا ما قد يلتقي في النهاية مع التفسير العلمي ، فأحلام الضيق دوافعها المخاوف التي تصاحب الميول اللاواعية لعقاب الذات وانزال الاذى بها أو الحط من مكانتها ، أما أحلام الفرج فدوافعها الرغبات الايجابية لتوكيد الذات والسعي لاثبات مكانتها .

ج - قراءة الطالع والعرافة

قراءة الطالع وكشف البخت والتنجيم ، وسائل يتوسلها الانسان المقهور لتلافي عجزه وادخال الطمأنينة الى نفسه . وهي تنطلق اذاً في

تأثيرها من الحاجة الى مجابهة قلق المجهول وما يتضمنه من تهديد مصيري • ويتلازم هذا الامر مع استفحال القصور عن التحكم بالمصير •

تقنيات قراءة الطالع متعددة ، وهي أقرب الى الشعوذة ، أهمهـا ضرب الودع ، الكتابة بالرمل ، فتح المندل ، قراءة الكف ، قراءة الابراج والافلاك والنجوم ، قراءة فنجان القهوة ، قراءة ورق اللعب • ومن الواضح انها تتراوح بين تقنيات يمارسها محترفون متخصصون وأخرى يقوم بها بعض العامة من الناس في وضعية هي بين الجد والتسليـة في المجـالس الاجتماعية •

أما المحترفون من هؤلاء فهم يخلطون بـين العلم ، والروحانيـات والشعوذة • يصحبون ممارساتهم بتلاوات هي مزيج من الالفاظ المبهمة ، التي لا معنى لغويا لها ، والتي تدل في زعمهم على لغة التخاطب مع الجن والارواح ، ومن التسابيح الدينية والصلوات النبوية • والقصد من ذلك بالطبع اللعب على الايمان الديني لطالب الحاجة ، واثارة دهشته لتمكنهم من التلفظ بمستغلق الالفاظ الغيبية في مخاطبتهم للارواح • وهم الى ذلك يحيطون أنفسهم بهالة هي مزيج من العلم الروحاني (المزعوم) والديـن لتغطية شعوذتهم ، في ملبسهم ومسلكهم والطقوس التي يقومـون بهـا والادوات التي تستخدم خلالها • وفي الفترة الاخيرة ، تطورت أساليب هؤلاء وبدأوا يعلنون عن أنفسهم في الصحف • فنقرأ مثلا : « العالـم الروحاني الكبير ، الشيخ أبو خليل • عالم في ضرب المندل وفك السحر والربطة وكشف الاسرار ، وجلب الغائب ، والطب الروحاني وغيره ••• العنوان ••• » ، أو « عطاء من الله : (مفهوم الكرامات) عالمة في ضرب الرمل وفك السحر والربطة ، تجلب لك الغائب ، وتنبأ لك عن الحـاضر والمستقبل • العنوان ••• ، تلفون ••• أم عصام » •• يتضح من اعلانات كهذه مفهوم الكرامات ، وربط الشعوذة بالعلم والدين تحـت ستـار

الروحانيات . كما يتضح تعدد التخصصات في تقنيات قراءة الطالع في الوقت نفسه . ولكن كل هذه الاساليب تدور حول أمر واحد ، هو ادخال الوهم عند صاحب الحاجة ، القلق على ذاته وذويه أو حاضره ومستقبله أو الذي ألمت به المصائب والنوائب ، بالقدرة على تخليصه من قلقه وهمومه وتوضيح المستقبل له ، ومساعدته في السيطرة على قدره ، وبالتالي ادخال الطمأنينة الى نفسه .

وتدل ملاحظة سلوك الواحد من هؤلاء اثناء ممارسته لهذه الاساليب الخرافية ، انه يلعب دوما على مسألة القلق والطمأنة . فهو يثير مخاوف صاحب الحاجة ويؤكد على قلقه ويضخم الاخطار التي مر بها أو التي تنتظره ، كي يعود فيطمئنه على امكانية الخلاص ، واقتراب الفرج بعد الشدة ، وتحسن الحال بعد عسر ، والظفر على الظروف وعلى الاعداء بعد طول قهر[1] .

ثالثا : القدرية

يأخذ الغربيون على الانسان العربي خصوصا ، والشرقي عموما ، قدريته واستسلامه للظروف ، دون أن يحاول التأثير فيها . كما يلومونه على تخاذله وسلبيته اللذين يعتبرونهما عيبا خلقيا حضاريا . ولم يتنبه هؤلاء الى أن هذا الانسان لم يتراجع الى هذه المواقع القدرية الاستسلامية ، الا بعد عصور طويلة من القهر الداخلي والخارجي ، وبعد استفحال الحرمان واتصال المآسي . فالقدرية هنا هي محاولة الدفاع

(١) القارىء الذي يود الاطلاع على نماذج من هذه الدراسات التي تختلط فيها التلاوات الدينية ، بالالفاظ المبهمة ، وتأخذ الشعوذة طابع الاستعراض المسرحي ذات المقدمات والمستلزمات والخاتمة السعيدة دوما ، يستطيع مراجعة كتاب « تفسير الاحلام » لابن سيرين فهو يضم في آخره فصولا عن ضرب المندل ، يبدو فيها بوضوح كل ما أشرنا اليه .

الاخيرة التي توسلها هذا الانسان كي يتمكن من الاستمرار في الحياة .

عندما يستفحل القهر ، ويستشري الحرمان والجهل ، ويفلت المصير كليا من السيطرة الذاتية ، كي يرتهن بقوى خارجية ، يستجيب الانسان بالقدرية . القدرية هي قانون الاعتباط ، اعتباط الطبيعة التي تقسو أو تعطي دون أن يدري الانسان متى وكيف ولماذا ، واعتباط المتسلط الذي يبطش ويستغل دون أن يكون هناك من سبيل الى مجابهته . القدرية تنظم الاعتباط الذي يحيط بوجود الانسان المقهور . تبرر هذا الاعتباط ، تعطيه تفسيرا ما ، يدفع المرء الى قبوله كأمر واقع ، كمظهر من مظاهر قانون الكون والاشياء . والقدرية كدفاع تبرز حين يصل عجز الانسان مداه ، وتنعدم قدرته على توجيه الاحداث والتأثير في الظروف . وهي تتضمن محاولة ذاتية للسيطرة على المصير من خلال القول ان هـذه هي طبيعة الامور . والقدرية قانون ينظم الاعتباط ، من خلال ربطه بحكمة خفية تريد للانسان أن يشقى ، وأن يعاني أو أن يرزأ بمالـه وذويه وصحته ومكانته . هذه الحكمة تتجاوز فهمه وتفوق استيعابه ، ولا بد لـه من تقبلها كجزء من طبيعته كانسان . وهنا تربط القدرية بالايمان ، مما يدخل بعض العزاء الى النفس ، والطمأنينة الى أن القدر ان قسا مرة ، فلا بد أن يأتي بعد ذلك فرج ، فالقوى التي تبتلي الانسان ، لا بد انها تهدف الى غاية ما هي في مصلحته في النهاية ، وذلك كي تمتحنه في ايمانـه . هـذه القناعة ترد عنه قلق المجهول وقلق الاندثار ، وما يستتبعهما من ذعر وجودي .

ثم ان القدرية بهذا المعنى تحمل العزاء الى الانسان لان الامتحـان الحياتي كتكفير عن آثام ارتكبها ، لا بد ان يتبعه الغفران على شكل فرج . وعندما تصبح النوائب مستحقة وعادلة لما ارتكبه الانسان من أخطـاء ، يزول الاعتباط من الوجود الذي ينتظم في نظام مفهوم يسير تبعا لقوانين تسيرها ارادة عليا . وهي ارادة يمكن في النهايـة التقرب منها والتودد

اليها ، وبالتالي يمكن السيطرة على المصير من خلالها.ويسير الامرخطوات أبعد من ذلك حين تتحول القدرية الى نوع من الواجب ، ضرورة قبول الارزاء كامتحان للايمان ، وبالتالي لا يجوز التمرد عليه أو رفضه ، كل ما يسمح للانسان به هو الدعاء بأن يلطف القضاء « اللهـم لا نسألـك رد القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه » دعاء يتكرر في قصة شجرة البؤس لطه حسين ، على لسان ابطالها الذين ينظرون الى ما يحل بهم من نوائب من زاوية الابتلاء الحياتي الذي يحتم عليهم ايمانهم قبولـه عن رضى . الطمأنينة التي تصاحب هذا القبول تنبع في الحقيقة ، بالاضافة الى سلاح الايمان ، من التحلل من المسؤولية الذاتية ، وبالتالي تجنب مشاعر الذنب المتفاقم التي تصاحب بالضرورة الفشل الحياتي . فعلى المستوى اللاواعي، كل مصيبة تحل بالمرء تعاش كعقاب على ذنب اقترف ، أو خطيئة ارتكبت . اللاوعي يضع الانسان أمام مسؤوليته باستمرار ، وهو يثقل كاهله بهذه المسؤولية دون رحمة أو مهادنة . وتلـك وضعية يصعب على الانسان احتمالها لانها تخل بتوازنه النفسي اخلالا عنيفا . فما يكون منه الا أن يتهرب من مجابهته ذاته ومسؤوليتها باسقاط الامر على ارادة عليا ، أو قوة خفية ، أو وضعه على حساب قوانين الحياة .

القدرية اذاً ، تجنب المرء الصراع العنيف الذي لا بـد ان يعصف بنفسه ، اذا ما وضع أمام مصيره ، دون أن يتمكن من السيطرة عليه بطريقة ما . ومن ذلك تجمل المغبونين بالصبر عن عقيدة فيها تحبيذ للقناعة والرضى بالمكتوب والمقدّر ، والقسمة والنصيب ، عقيدة تدعو الى القبول بالامر الواقع على أنه طبيعة الامور .

ويستعين الانسان المقهور على كل ذلك بالامثال الشعبية ، التي تأخذ معنى الحكمة الحياتية ، أو معنى القانون الذي ينظم الوجود والذي يقرر لكل امرىء فيه مكانته ودوره . معظم الامثال الشعبية تلعب في الحقيقة

دور فلسفة الحياة ، تنظيرها وتفسير ظواهرها وتبرير مجريات الامور فيها • ومن هنا كثرة شيوع هذه الامثال وتكرارها في خطاب الانسان الشعبي • هناك دائما عدة أمثال تتخلله وتلعب دور المنظم للظواهر والاحداث ، وبالتالي تبث في نفسه الطمأنينة وتمده بشعور ذاتي بالسيطرة على المصير • الامثال والحكم التي يمكن اعتبارها نصوص قوانين القدرية ، تلعب دورا هاما آخر هو تصريف التوتر النفسي النابع من تفاقم العدوانية المصاحبة للفشل لدرجة تهدد تكامل المرء ، أو تهدد بالانفجار في ثورة هوجاء على الواقع لا تؤمن عواقبها • مثلها في ذلك مثل الاغاني الشعبية التي تقوم بدور فلسفة الحياة وتصريف التوتر من خلال ما تمثله من ملاحم وجودية • الاغنية الشعبية لها نفس الدور التفريجي للمسرح التراجيدي •

تلك كلها وسائل للسيطرة على المصير حين يتفاقم القهر ، ويستفحل عجز الانسان ، وتنعدم قدرته على التأثير في الاحداث • انها دفاعات تساعد المرء على تحمل مصيره بالحد الادنى من الصراع النفسي • ولكنها تشكل بالطبع عقبة جدية في وجه النهوض لتغيير المصير كحل وحيد فعال في نهاية الامر • انها تدفع بالمرء الى الاستسلام ، والاستكانة للامر الواقع ،وبالتالي تعزز هذا الواقع وتحافظ على استمراريته • ومن هنا تشجيع الحكام والمستفيدين منه على انتشار القدرية ، فليس أفضل منها للحفاظ على امتيازاتهم •

الفصل الثامن

العنف

كل الاواليات الدفاعية السابقة ، لا تمكن الانسان المقهور من حل مأزقه الوجودي بشكل ملائم يرد اليه توازنه النفسي . فهي في معظمها لا تتصدى للواقع ، بل تتراوح ما بين الهروب منه (الانكفاء على الذات) ، والهروب فيه (التماهي بالمتسلط) ، والعيش فـي وهم السيطرة عليه (السيطرة الخرافية على المصير) . فاذا كانت تحمل حلولا جزئية لذلـك المأزق ، فانها لا تجنب المرء تراكم التوتر النفسي ، وتفاقم الحقد الداخلي الذي يهدد بالانفجار أو الاندثار . لا بد اذاً من أوالية اضافية تفرغ هذا التوتر وتقضي على خطر الغليان الداخلي بتصريف الحقد . ذلك هو العنف والقتال . يتخذ كلاهما معنى التغيير الفعال ، وان كـان سحريـا معظم الاحيان ، لمعطيات الواقع طالما أنه يتصدى له بأشكال مختلفـة . العنف يبقى الوسيلة الاخيرة في يد الانسان للافلات من مأزقه ومن خطر الاندثار الداخلي الذي يتضمنه هذا المأزق . والعنف هو السلاح الاخير لاعـادة شيء من الاعتبار المفقود الى الذات من خلال التصدي مباشرة ، أو مداورة للعوامل التي يعتبرها مسؤولة عن ذلك التبخيس الوجودي الذي جـل به . العنف هو لغة التخاطب الاخيرة الممكنة مع الواقع ومـع الاخرين ، حين يحس المرء بالعجز عن ايصال صوته بوسائل الحوار العادي ، وحين تترسخ القناعة لديه بالفشل في اقناعهم بالاعتراف بكيانه وقيمته . والعنف هو الوسيلة الاكثر شيوعا لتجنب العدوانية التي تدين الـذات الفاشلة بشدة ، من خلال توجيه هذه العدوانية الى الخارج بشكل مستمر ، أو دوري ، وكلما تجاوزت حدود الاحتمال الشخصي . وهكذا فالعنف قد

يكون عشوائيا مدمرا يذهب في كل اتجاه ، أو يكون بناء يوظف في أغراض تغيير الواقع ، ولكنه موجود أبدا ، ولو اتخذ ألف وجه ولون واتجاه ، ما دام هناك مأزق وجودي يمس القيمة الذاتية ، ووضعية مولدة للتوتر الداخلي ، وبدت امكانات الخلاص محدودة وآفاقه مسدودة ٠

العدوانية هي آفة البشرية الكبرى ، تحايلت للتستر عليها أو تبريرها أو تقنيتها باستمرار ٠ الشرائع والقوانين ، فلسفات الحياة ، مفاهيم الخير والشر هي بشكل أو بآخر في خدمة التعامل مع هذه القوة الفاعلة ابدا في الوجود الانساني ، القوة التي يخشى شرها على الذات دائما وعلى الاخرين احيانا ٠ ولم تجد البشرية بعد سبيلها الى وضع القواعد التي تسمح بمكاملتها نفسيا واجتماعيا لأغراض التقدم والخير المشترك ٠ فاذا كان الحال كذلك ، فما هو مبرر الحديث عن العنف في المجتمع المتخلف ، وكأنه وقف عليه ؟ ذلك ان ملاحظة الواقع تبين انه اذا كانت العدوانية ظاهرة عامة في مختلف المجتمعات ، فانها تجد في المجتمعات المتخلفة تعبيرها الاوضح والاكثر انتشارا والاشد عنفا ٠ ولابد أن يكون هذا كله على صلة ببنية تلك المجتمعات وما تتصف به من خصائص ٠ وسنرى خلال هذا الفصل أن العنف والتخلف صنوان ٠ العنف هو الوجه الاخر للارهاب والقهر اللذين يفرضان على الانسان في المجتمع المتخلف ٠ ولا شك أن بعض العلماء الغربيين الذين انزلقوا عن قصد أو غير قصد لخدمة اغراض استعمارية استغلالية ، قد أبرزوا بشدة، الصفة الدموية للعدوانيةفي بعض المجتمعات المتخلفة التي احتكوا بها ولاحظوها ٠ ولا شك انهم مالوا ، انطلاقا من تمييزات وأحكام مسبقة ، الى تعميم هذه الصفة على كل سكان تلك المجتمعات ، حتى وصلوا حد الزعم باعتبارها خاصية أناسية[1] ، عند الاقل شططا بينهم ، وخاصية احيائية تطورية ، عند الاشد شططا في

---

(١) أناسة ، اناسي Anthropologique

تحيزهم • وهم قد اكتفوا بهذا الشكل الصارخ للعدوانية مجسداً في بعض الافعال تصدر عن بعض الافراد ، وغفلوا عن كل أشكالها الخفية وغير المباشرة ، كما غفلوا عن ربطها ببنية المجتمع والشرط الوجودي للانسان فيه • يبقى ان المجتمع المتخلف يضج بالعنف ، يمارس على انسانه ويصدر عنه في آن معا حتى في أكثر المظاهر سكونا ، ودعة ، واستسلاما •

الموضوع عريض متشعب الجوانب يتجاوز مجرد كونه وسيلة دفاعية ، وإن كان العنف يتضمن دوما وظيفة من هذا النوع • لا بد أولا من استعراض أبرز مظاهر العدوانية في المجتمع المتخلف ، وتبيان الاشكال النشطة والفاترة ، الصريحة والضمنية التي تأخذها ، مما يكوّن القسم الاول من هذا الفصل • نظريات العدوانية النفسية والنفس اجتماعية عديدة ، والاضواء التي تلقيها على الظاهرة كثيرة ومختلفة ألوانها ، ولكل منها اسهامها وقيمتها ، كما أن لها حدودها • استعراض أهم هذه النظريات بشكل نقدي يساعد على استخلاص عناصر منهجية ، تفيدنا في فهمنا لظاهرة العنف في المجتمع المتخلف ، ذلك هو القسم الثاني • الا انها جميعا ، مأخوذة بشكل فردي ، قاصر عن الاحاطة بهذه الظاهرة بشكل مرضٍ • ولذلك فلا بد لنا ، في خطوة ثالثة ، من محاولة رسم خطوط أولية لتفسير نوعي ، للعنف ، خاص بالمجتمع المتخلف ومنطلق من حالته الفريدة • وسيبدو لنا أن حالة المجتمع المتخلف من هذه الزاوية تشكل نموذجا خاصا وفجاً للعنف ، وما وراءه من قهر وارهاب يمارسان بطرق مقنعة ، مبطنة ومجملة في المجتمعات المدعوة متقدمة •

اولا : مظاهر العنف

العدوانية تنخر وجود الانسان المقهور عموما • وتنخره أكثر فأكثر في العالم المتخلف • وهي عبء وتهديد للتوازن النفسي ، ودافع للاقدام على العديد من تصرفات تدمير الذات • كما أنها ، في الوقت نفسه ، دفاع

واتتفاضة ضد التهديدات التي تأتيه من الخارج . وتتعدد أشكال العدوانية ، ودرجات شدتها ووجهتها . الكثير منها مشترك بينه وبين الانسان في وضعية مأزقية ، بصرف النظر عن بنية المجتمع ، وبعضها خاص ومميز للانسان المقهور تحديدا .

تأخذ عدوانية الانسان المتخلف مظهراً فاترا ، أو نشطا (وتسمى عندها عنفا) وذلك تبعا للظروف التاريخية للمجتمع من ناحية ، ولحالة كل فرد في لحظة ما من ناحية ثانية . في الحالة الاولى ، تفعل العدوانية فعلها بشكل خفي ، مقنع بمظهر من السكون والسكينة والاستكانة الخادعة . أما في الحالة الثانية فهي تنفجر صريحة مذهلة في شدتها واجتياحها لكل القيود والحدود ، مفاجئة حتى لأكثر الناس توقعا لها . وقد تنفجر تحديدا عند العناصر التي لم تكن تلفت الانتباه ، ولم يتوقع منها سوى الاستكانة والتخاذل . وبين هذين النقيضين هناك العديد من الحالات التي تتفاوت شدة ووضوحا . فهي قد تأخذ طابعا رمزيا على شكل سلوك جانح ، أو قد تتخذ طابع التوتر الوجودي العام ، وتفشي العلاقات الاضطهادية . كل هذه الحالات مظاهر لحقيقة واحدة ، كما أنها درجات متتابعة على سلم العنف ، الذي يبدأ مقنعا فاترا (وهو العنف المقموع) وينتهي صريحا ، مارا بالعنف الرمزي والاضطهادي . وتتداخل هذه الحالات بالطبع ، فالحدود بينها ليست فاصلة ، والمراحل ليست مستقلة وقائمة بذاتها . ويغلب معظم الاحيان ، أن نلاحظ تواتر وتواجد عدة مظاهر في آن معا ، تتجسد في سلوك جماعات أو أفراد يبدو انهم طبعوا على نمط محدد منها ، بينما الحقيقة اذا نظرنا اليها من المنظور الجماعي ، ان هذه الاختلافات ليست سوى انعكاس لتيارات عامة فاعلة ومتممة لبعضها بعضا في تعارضها وتناقضها . فالذي يوجه عنفه الى ذاته على شكل استكانة وتبخيس ، ليس سوى تعبير عن تيار خفي في الجماعة ، يتممه ذاك الذي يتمرد صراحة

على كل حد أو قيد أو سلطة • كما ان العنف الرمزي (السلوك الجانح) ، ليس الا تعبيراً انتحارياً عن ميول التمرد في الجماعة : التمرد على القوانين والاعتداء عليها (رمزيا اعتداء على السلطة التي وضعتها) وتعريض الذات لاخطار الملاحقة والعقاب • والعلاقات الاضطهادية ليست سوى تعبير عن انتشار العدوانية المتراكمة وبروزها بشكل نشط ولكن غير مباشر ، قبل أن تأخذ طابعها النشط المتوجه الى عوامل القمع في المجتمع •

١ ـ العنف المقنع

عندما لا يتمكن الانسان من تحمل مسؤولية عدوانيته المتراكمة ، يحل المأزق الناتج عنها ، الذي يتهدد توازنه بالمداورة . تحت وطأة القمع المفروض عليه ، والذي يخشى ردود فعله • يشيع العنف المقنع اذاً مع ازدياد حدة القمع المفروض من الخارج من ناحية ، وازدياد احساس الانسان بالعجز عن التصدي له من ناحية ثانية •

والعنف المقنع قد يرتد على الذات متخذا شكل السلوك الرضوخي ، والميول التدميرية الذاتية ، أو هو يتوجه الى الخارج على شكل مقاومة سلبية •

أ ـ العدوانية المرتدة الى الذات

أما العدوانية المرتدة الى الذات . فلقد عرضنا لها في عدة مواضع من هذا البحث وخصوصا في فصل الخصائص النفسية • هذه العدوانية لا تجد طريقها الى الخارج الا بشكل باهت وهزيل لا يساعد على تصريفها والتحرر من وطأتها داخليا • ولذلك فهي ترتد الى الذات ، وتعنف بها وتقسو عليها وتنزل بها مختلف أشكال العنت وتسومها سوء العذاب • انها وضعية الرضوخ في سيكولوجية الانسان المقهور الذي يلوم نفسه ، ويشتط في تبخيسها والحط من شأنها • انه يحملها مسؤولية الفشل المصاحب لوضعية القهر ، ويصل في ذلك حد التماهي بعدوان المتسلط الذي يغرس في ذهن الانسان المقهور الدونية والتخلف والعجز والجهل •

ويوهمه بأنه كائن منحط خلق هكذا وسيظل كذلك • ذلكم هو الكفر بالذات الذي يشيع في فترات الهزيمة والنكسات في المجتمع المتخلف : اننا لسنا جديرين بالحياة ولن يصدر عنا أي خير،لا نصلح لاي رفعة ، ولا يحق لنا أن نحيط أنفسنا بأي اعتبار أو تقدير•وتصل الادانة (النابعة من توجيه العدوانية الى الذات المذنبة لتقصيرها وقصورها) حد النكاية بالنفس ، وبالآخرين المشابهين لنا ، من خلال اعلاء شأن المتسلط ، أو القوة التي فشلنا في مجابهتها : هنيئا له على وضعه ، على انتصاره علينا ، هو وحده يستحق التقدير والاعجاب ، هو وحده الذي يستحق الحياة ، أما نحن فعلينا أن نعترف برداءتنا وسوئنا وانحطاطنا ، ولنتجرع كأس المذلة بصمت وحتى الثمالة •

تتضمن هذه الادانة للذات دفاعا عنها بشكل خفي • فالادانة الذاتية تظل أخف وطأة من ادانة الاخرين • وفي ادانة الذات والحط من شأنها نوع من التكفير عن الخطيئة الوجودية تجاه المصير ، تتضمن ولا شك ، بشكل كامن ، الامل في الغفران • فمن يدين ذاته يأمل في الحفاظ عليها من ادانة أشد وطأة كما يأمل، في الوقت نفسه ، في اثارة مشاعر صفح ضميره الخلقي،وصفح الآخرين على حد سواء•وادانة الذات بهذا الشكل وسيلة كارثية للسيطرة على الميول التدميرية المتصاعدة ، التي تصاحب العدوانية المتراكمة والموجهة نحو الذات • اذ من خلال هذه الادانة (الجزئية والمرحلية دوما) يفرغ العدوانية المتراكمة من التهديد بالاندثار الذي تتضمنه • فمن يجسد خطيئته في عقاب محدد ومحسوس ، يأمن شر العقاب الجذري الغامض الذي يثير في لا وعيه عقدة الهجر والفناء • اذ أن الانسان يخشى سوء العاقبة ما دامت لم تحدث بعد • اما وقد حدثت فانه يطمئن الى أنه لن يتعرض لما هو أسوأ منها • وادانة الذات تشكل في النهاية أسلوبا دفاعيا من خلال تجميد الأمور وانعدام الاحساس بها ، وبالتالي السيطرة على القلق المحض المصاحب لها • ذلك هو لب السوداوية كوسيلة دفاعية ،

تجميد الكارثة وما يصاحبها من مشاعر الاثم من خلال اجترارها المستمر والغوص فيها كليا . ولهذا السبب ، تنتشر الميول السوداوية في العالم المتخلف خلال مرحلة الرضوخ . يجتر الانسان المقهور مأساته في أغانيه ، وقصصه الشعبية ، ومناسباته الاجتماعية . وهو في هذا الاجترار يجابه هذه المأساة ويتحملها ، ولكنه يتهرب منها ويتجرد عنها في آن معا . قلب الموقف في حالة العدوانية المرتدة الى الذات ، هو بروز نوع من الازدواجية أو الانشطار النفسي . هناك ذات مداناة محقرة ومعنفة دون هوادة ، وذات اخرى تدينها ، تحقرها وتشتط في سومها سوء العذاب . هـذه الذات الاخرى ضمنية ، بها يتماهى الانسان المقهور ،في حربه ضد ذاته المهانةالتي يحاربها . انه نوع من الاحتيال على واقع لا قبل للمرء بمجابهته ، حتى يحتفظ بقيمة ضمنية لذاته الحميمة والحقيقية (في نظره) . ليس هناك من مذنب ، الا وينبذ جزءا من ذاته معتبرا اياه خارجا عن أصالتها ومسقطا عليه كل اللوم ، وكل التبخيس ، بغية الاحتفاظ بذاته الحقيقية (الخفية) دون مساس . بذلك فحسب يستطيع أن يعيش ، والا فليس امـامه سوى الانتحار ، اذا لم يحتم بالازدواجية . حتى الانتحار ، يتضمن في النهايـة نوعا من الازدواجية : تدمير الذات السيئة ، أو بالاحرى تدمير الصورة السيئة عن الذات بعد تحميلها كل الاثم ، أملا في خلاص وهمي ، في تطهير ذاته الحقيقية مما ألم بها من سوء ومهانة . ولكن مأساة المنتحر تكمـن بالتحديد في أن تدمير الذات المدانة وصورتها السيئة يتم من خلال الجسد (وعاء الذات الوحيد) وبالتالي القضاء الفعلي على الوجود . أما في وهم المنتحر ، فالامر لا يعدو القدرة على الاقدام على فعل خطير وجذري من أجل الخلاص .

ومن أشكال ارتداد العدوانية نحو الذات ، كميل تدميري ، المرض الجسمي . الانسان المقهور والمقموع الذي لا يستطيع الاحتجاج والتمرد، أو حتى لا يستطيع الجهر بالشكوى ، يعيش مأساته من خلال جسده :

الجسد حامل الآثام والالام والمآسي جميعا . الكثير من مظاهر الشكوى الجسدية في مجتمع القهر تبدو ، كما أثبتت الاستقصاءات العيادية الطبية ، مجرد أقنعة تخفي الشكوى الوجودية التي لا يتاح لها التعبير المباشر . الانسان المقهور يعبر بلغة الجسد ، ومن خلال المرض ، عن معاناته التي لا يسمح له بالتعبير عنها ، أو التي لا يستطيع مجابهتها والاعتراف بها كواقع نفسي . انه يهرب من الفشل والعجز والتقصير في المرض . تلك ظاهرة كثيرة التكرار ، اذ يلاحظ ازدياد القابلية للمرض بعد الفشل ، وفي فترات الهزيمة . واقعيا كل عقاب يلحق بالذات ، أو بصورة أكثر دقة ، يلحقه الانسان بذاته ، يتخذ من الجسد مطية منتقاة له ، من خلال ما ينزله به من سوء . من خلال تجسيد المأساة وتحميل وزرها للجسم ، يجنب الانسان ذاته الجيمة الادانة . انه يسقط المشكلة على الخارج ويتنكر لها عندما يقدم مأساته تحت قناع الجسد المريض يعرضه أو يستعرضه . ولا تتحدث هنا عن مرض جسمي محدد الاسباب ، بل عن تلك الحالات التي يلم فيها المرض بالجسم بشكل عائم وغامض . تعالج شكوى جسدية كي تبرز غيرها ، وينتقل المريض من طبيب الى آخر ومن تشخيص للعلة الى تشخيص مضاد ، وهكذا ... المرض هنا وجودي ، أو بلغة الطب نفسي جسمي[1] .

تلك أوالية ناجحة تماما من زاوية الاقتصاد النفسي . اذ يلاحظ ان المريض يقدم مرضه بشكل موضوعي صرف ، ويتحدث عما أصاب جسده من علة أو علل ، وكأن هذا الجسد كيان قائم بذاته خارج نفسيته ، كأنه شيء موضوعي . ذلك ما يسمى باتخاذ المسافة ذاتيا عن المشكلة . ويقاوم الواحد من هؤلاء ، مقاومة عنيفة ، كل محاولة لتبيان العوامل والدوافع النفسية الفاعلة في مرضه ، لان هذا الطرح يورطه ويضعه أمام ذاته التي يهرب من مجابهتها . انه يهرب باستمرار في العلة الجسمية من علل النفس

---

(1) نفسدي . Psychomatique

وأزمات الوجود .

على أن نجاح هذه الاوالية يجد تعزيزا له ، فوق ذلك وقبله من خلال التهرب من المسؤولية ، من ضرورة التصدي للمصير وأعبائه وتحدياته : انا لست فاشلا ، بل مريض . الحق ليس علي ، وانما هو على مرضي الذي يقعدني . ويتوج الامر كله بالميول النكوصية الاتكالية التي تصاحب هذه الحالة . يلقي الانسان تبعات مصيره على سواه ، متحللا من واجباته ومتهربا من صوت ضميره الذي يحاسبه على فشله حسابا عسيرا . فبدل أن يستحق الادانة لتقصيره وقعوده عن المجابهة ، يضع المريض نفسه موضع من يستحق العطف والتعاطف والرعاية .

لا شك أن صب العدوانية الداخلية على الجسد ، على شكل مرض جسمي ، يتناسب مع شدة القهر والقمع اللذين يتعرض لهما الانسان. ولذلك نجد أن المرأة ميالة الى صب عدوانيتها على جسدها ، والاحتماء منها بالمرض ، نظرا لما تتعرض له من قهر وغبن ، وما يمنع عنها من امكانات التعبير عن الذات والتمرد على ما يفرض عليها من حيف في المجتمع المتخلف . ولا شك أنها من خلال مرضها ، تتهم الاخرين وتبتزهم في الكثير من الاحيان ، فارضة عليهم تعويضا عما لحق بها من حيف ، من خلال ما تستوجبه من عناية ورعاية خلال المرض .

ب ـ العدوانية الموجهة الى الخارج

مرحلة الرضوخ للمتسلط لا تخلو من مظاهر عنف موجهة اليه ، والى رموزه خصوصا ، تأخذ شكل الحرب على نظامه وقيمه ، وتحاول النيل منه بشكل خفي . أبرز هذه المظاهر الكسل . فالمتسلط المستغل يغرس في الانسان المقهور قيم الجهد والانتاج ، يحاول قولبته حتى يصبح أداة منتجة تخدم أغراضه . ويصل في ذلك حدا يفلسف له معنى العمل المضني كشقاء فرضه عليه القدر ، عليه أن يتقبله .

هذه المحاولة يجابهها الانسان المسحوق من خــلال الكسل ، فهو يبذل الحد الادنى من الجهد المنتج . يضيع الكثير من طاقته دون مردود . لا يلبث في عمل ما أياما معدودات يجمع خلالها شيئا مــن النقود ، حتى يترك عمله ويعود الى بطالته المتقطعة . ويظل هكذا مبدداً حياته بين بعض العمل والكثير من البطالة والكسل . كما أنه يغرق في حالــة من الخمول والجمود ، يفتقد المبادرة ، ويفتقر الى الابداع .

هذه الظاهرة ، لطالما أثارت حفيظــة أربــاب العمل في المجتمعات المتخلفة . فهؤلاء يشكون من سوء تقدير وتدبير الناس المسحوقــين . ويتهمونهم بالكسل والتقصير عن السعي والنهوض بأعباء مصيرهــم . يأسفون بشيء من المرارة لتفنن هؤلاء العمال بتضييع فــرص الكسب والارتقاء الاجتماعي التي يؤمنها لهم أرباب العمل .. وقــد يتهمونهم بميول وراثية للكسل والخمول ، ويحيطونهم بمجموعة من الاساطــير التبخيسية (أبرز مثل على ذلك ما يشاهد من تفشي الكسل والبطالة بين الزنوج ، واتهام صاحب رأس المال الابيض اياهم بالخمول العرقي الوراثي، بشكل يبرر له موقفه الاستغلالي) على كل حال ، يشعر رب العمل بدرجات متفاوتة من الاحباط تجاه عدم استمرار العامل في عمله . فهو يعرقل لــه مصالحه وينزل الخسارة به . وهو يثير لديه جرحا نرجسيا ، من خلال عدم تقدير قيمه في الجهد والانتاج والكسب . يعيش رب العمل هذه الوضعية في دخيلة نفسه على حقيقتها ، كعدوان عليه وانتقام منه ومن نظامه ، ولو تنكر لذلك ظاهريا من خلال سوق الاتهامات وصب الملامة على بــذرة السوء والجهل عند العامل .

لا شك أن للكسل في المجتمعات المتخلفة أسبابا اخرى هامة . منها سوء التغذية واعتلال الصحة الناتج عنها وانخفاض القدرة على الجهــد الدائم . ولكن يفوقها أهمية ، اليأس الذي يستحكم في الانسان المقهور

من انعدام امكانية الارتقاء بوضعه ، وتحسين مصيره من خلال جهده الخاص . فالواقع ان الفرص أمام هذا الارتقاء وذاك التحسين تكاد تكون معدومة بالنسبة للغالبية الساحقة من السكان . ويعادل هذا اليأس في الاهمية تبخيس قيمة العمل والجهد بشكل مريع في المجتمع المتخلف الذي تنتشر فيه الرشاوى وتشيع الاساليب الملتوية في الاثراء، وتستحكم الحظوة التي تعطي الحظوظ جميعا لقلة قليلة من الناس . وينتج عن هذه الظواهر جميعا الاقتناع بأن طريق الثروة والارتقاء لا يمر بالجهد الفردي والكدح هزيل المردود ، انه يمر بالاستزلام والتقرب من ذوي الحظوة ، وبالحظ الذي يأتي أو لا يأتي ، دون أن يكون للانسان دور حاسم فيه .

أمام اليأس من امكانية الارتقاء من خلال الجهد المستمر ، يتهرب الانسان المسحوق من مصيره القاتم ، من خلال التماهي بوجاهة الطبقة ذات الامتياز التي تعيش عالة على تعب الفئات الكادحة . وبذلك يصبح الكسل ، وازدراء العمل دليل وجاهة : أنا لا أعمل ، فأنا لست بائسا كغيري من الكادحين . أنا أكسل ، فأنا شبيه بذي الحظوة الذي يعيش حياة لهو واستهلاك وعبث . ان الميل الى الكسل والخمول الذي يشيع في أوساط الفئات الاكثر بؤسا وفقرا وتأخرا في المجتمع المتخلف ، يشكل عقبة كأداء أمام مشاريع التنمية والتطوير الذاتي . فالقناعة راسخة عند هذه الفئات ، بأن لا جدوى من الجهد الذي لا يمكن أن يعود خيره عليها ، كما علمتها تجاربها خلال تاريخها الطويل من الاستغلال .

بالاضافة الى الكسل هناك عدوانية اكثر صراحة من حيث توجهها ضد المتسلط ، وهي ظاهرة تخريب الممتلكات العامة التي تلاحظ في ظروف الفوران في المجتمع . يقبل المواطنون (خصوصا الشبان منهم) على تخريب واتلاف التجهيزات العامة في الطرق (كسر اشارات الضوء ، اقتلاع شجيرات الزينة ، اقتلاع الحواجز على الارصفة الخ ..) مع أن الفائدة

المباشرة منها تعود عليهم قبل غيرهم . انهم في عملهم هذا يهاجمون رموز التسلط ، لاحساسهم بأن ما هو عام ليس ملكهم . والواقع ان الانسان المقهور في المجتمع المتخلف يحس بالغربة في بلده ، يحس بأنه لا يملك شيئا ، حتى المرافق العامة يحس أنها ملك للسلطة ، وليست مسألة تسهيلات حياتية له هو . ذلك ان الهوة كبيرة جدا بينه وبينها وأن ما يستحقه من خدمات وتقديمات ، تقدم له (اذا قدمت) كمنة أو فضل ، لا كواجب مستحق له . عندما يخرب المرافق العامة فهو ، اولا وقبل كل شيء ، يعبر عن عدوانيته تجاه المتسلط . يبدو هذا الامر جليا حين يرزح المجتمع تحت وطأة تسلط أجنبي استعماري . ويقرب من ذلك الميل الى اتلاف الملكية الخاصة بشكل خفي ، كتعبير عن الحقد الذي يصاحب الاحباط . في هذا السلوك انتقام من ذوي الحظوة المقربين من المتسلط عموما .

من أشكال العدوانية التي تشيع ضد المتسلط ، وتتخذ شكل التعبير المقنع ، العدوان اللفظي بالنكات والتشنيعات على اختلافها . انها ظاهرة يكاد لا يخلو منها مجتمع يعيش أهله في حالة رضوخ . التشنيع والنكتة تعبيران رمزيان عن العدوانية التي تعتمل في نفس الانسان المقهور ، حين يستحيل التعبير المباشر . فيها نيل من المتسلط ، حط من قيمته وتعال عليه . انها نوع من قلب الادوار الوهمي ، حين ينعت هذا الاخير بمختلف الاوصاف التي تحط من قدره ، بينما يضحك المواطن المقهور ضحكة النصر . ولهذه الاساليب وظيفة تفريجية واضحة ، فهي تصرف الحقد والعدوانية المتراكمة وتمنع انفجارها نحو الخارج ، وهي تخفف من امكانية توجهها نحو الداخل على شكل ادانة للذات على فشلها . والمتسلط المتفهم لهذه الوظيفة يتساهل بشأنها لانها ترد عنه في النهاية خطر انفجار العدوانية المباشرة . فكلما زاد التصريف اللفظي للعدوانية انحسر خطر تصريفها في سلوك حركي عنيف .

يدخل في نفس الفئة ، مختلف تصرفات الخداع والتضليل والاحتيال في التعامل مع المتسلط . انها تصرفات تحظى بقيمة كبيرة في أوساط الفئات

المقهورة ، وتعطي دلالة البراعة والحذق (الحداقة، الشطارة، الفهلوة الخ) كل اساليب النيل من المتسلط أو ذي الحظوة ، كل وسائل خداع السلطات والاحتيال عليها تعاش كانتصار ضد القهر.وفيها ايضا يحدث قلب الادوار، فالمتسلط القوي يتحول الى ساذج (مغفل) ، بينما المقهور يتحول الى مسيطر بشكل خفي. الخداع والاحتيال يعاشان ذاتيا كنيل من مكانة المتسلط ومن قيمته الانسانية ، وفيه بالتالي نوع من رد الاعتبار الى انسانية الانسان المقهور .

على أن الانسان المغبون يتعامل من خلال هذه الاساليب مع المتسلط باللغة نفسها التي يستخدمها هذا الاخير معه : الوعود الزائفة ، والخداع وغيرها . العلاقة بينهما تخلو من الاعتبار الانساني ، من الاعتراف بكيان الاخر . الانسان المقهور الذي تحول الى أداة ، أو شيء ، الانسان الذي مسخت انسانيته ، يستجيب بسلوك مضاد ومن النوع نفسه، ينفي الاعتراف بانسانية المتسلط . العلاقة بينهما مأزقية حتما تتضمن بالضرورة صراعا ، لا بد أن يبرز في لحظة أو أخرى ، على شكل تمرد وتحد يقابله قمع وارهاب.

٢ ــ العنف الرمزي ــ السلوك الجانح

السلوك الجانح هو الذي يعتدي على القوانين في مجتمع ما ، بصرف النظر عن محتوى الموانع التي تتضمنها هذه القوانين وموضوعاتها . ليست لب الانحراف اذن ، الاقدام على هذا التصرف أو ذاك ، بل خرق القوانين التي تمنع التصرف تجاه الاشخاص ، أو الملكيات الا بحدود وضمن قواعد معينة . بالطبع الاعتداء على القانون قد يكون عابرا ، أو مصادفة ، أو لا ارادیا ، أو ظرفيا . الفاعل في هذه الحالة لا يسمى جانحا بالمعنى الدقيق للكلمة ، وطبقا للمنظور العيادي. اما اذا أصبح خرق القانون هو الاسلوب الرئيسي للتوجه السلوكي في الحياة ، أو كسب العيش ، فاننا نكون عندها

أمام حالة انحراف فعلي ، وذلك بصرف النظر عن الخطورة المادية لذلك السلوك ومدى ضخامة نتائجه .

السلوك الجانح مادي دوما ، يتجسد في فعل محدد ، ونتائج معينة . لذلك قد يبدو ضربا من التناقض القول ان الانحراف هو عنف رمزي . ما نقصده بهذه التسمية ، ليس مادية الفعل التي لا شك فيها ، ولكن دلالته التعبيرية . فالسلوك الجانح في مجتمع ما هو دوما مؤشر ، يتجسد في تصرف بعض الاشخاص الخارجين على القانون ، للدلالة على ما يعتمل باطنيا في بنية ذلك المجتمع من اضطراب ، ومـا يتراكم فيها من عدوانية كامنة ، قابلة للانفجار في ظروف معينة . كلما زاد حجم التصرفات الجانحة كان احتمال انفجار العنف أكبر ، لان الازمة الكامنة في بنية المجتمع أكثر مأزقية . ذلك هو ما يهمنا تحديدا في هذا المقام ، دلالة السلوك الجانح الرمزية كمؤشر على مقدار العدوانية الكامنة في شبكة العلاقات الاجتماعية.

ليس فقط حجم الانحراف هو الذي يدل على مدى أزمة المجتمع ، بل نوعه وشدته : جرائم ضد الملكية ، أو جرائم ضد الاشخاص ، وهذه الاخيرة قد تكون متفاوتة في عنفها ودمويتها . ومن الشائع الاعتقاد بعنف السلوك الجانح ودمويته وبدائيته في البلاد النامية . بينما يشيع في البلاد الصناعية جرائم الاحتيال والجرائم الموجهة ضد الملكية والمنفذة بشكل ذكي وخفي[1]. ولكن هذا الاعتقاد هو في نظرنا وليد الملاحظات السطحية، والتعميمات المتسرعة المبنية على أحكام مسبقة ، تقول ببدائية السـلوك الجانح عند ابناء المجتمعات المتخلفة . فاذا كان العنف واضحا صريحا في المجتمع المتخلف ، واذا كانت الافعال الدموية أكثر تكرارا، فان ذلك لا يمنع استفحال الانحراف غير العنيف . لن نتحدث هنا عن السلوك الدموي ،

---

(١) انظر بهذا الصدد .

J. Pimatel et P. Bouzat, Traité de droit pénal et de crimonologie, Tome III, Paris, Dalloz, 1963 .

بل نتركه للعنوان القادم في هذا الفصل . نركز الحديث حول الانحرافات الانتفاعية الموجهة ضد الملكية اساسا .

السرقة هي السلوك الجانح الاكثر شيوعا في العالم المتخلف . وقد تأخذ شكلا بدائيا مباشرا ، كسرقة الاموال والمتاع والنشل ، أو تأخذ شكل الاحتيال . ويلاحظ هنا تفشي العاب الغش والخداع الممنوعة قانونا والمنتشرة رغم ذلك بكثرة . ترمز هذه الافعال جميعا الى نمط الوجود السائد بين قطاع عريض من الجماهير المغبونة في العالم المتخلف . فمن الناحية المعيشية يطغى نموذج تدبير الحال . وهو ، تحديدا ، نشاط يتذبذب مابين أوجه الكسب المشروعة وبين الافعال التي تقع على حافة الانحراف ، وتلك التي تخرق القانون بشكل مداور خفي ، أو صريح ومباشر . الحدود بين هذه النشاطات ليست واضحة ولا هي قاطعة . ينتقل انسان العالم المتخلف من احدهما الى الآخر دون تغير في وضعيته أو نظرته الى نفسه أو نظرة الآخرين اليه . ويحدث هذا نظرا لتفشي البطالة وانعدام الكفاءة المهنية ، وانعدام الانغراس الاجتماعي في المدن الكبرى ، ونظرا لتفشي الوسائل الطفيلية في العيش وهي مزيج من النشاط المشروع والمخالف للقانون . **مفهوم الاعتداء على القانون في مجتمع القهر غير واضح تماما . الضوابط الخلقية الداخلية غير فعالة دائما . ليس هناك أخلاق بين الفئات المقهورة ، بمعنى الالتزام العلائقي تجاه الاخر من خلال الاحترام المتبادل والمراعاة المتبادلة . هناك فقط خوف من السلطة وبطشها .**

ولذلك تشيع تصرفات الاحتيال والغش والخداع والاستغلال بقدر ما تسمح به امكانات التهرب من الملاحقة . ليس هناك مصلحة عامة ، وتآزر اجتماعي ، فكل يتدبر أمره كما يستطيع في غياب الانتماء ، والالتزام . احساس الانسان في المجتمع المتخلف بأنه متروك ليواجه مصيره ، دون حماية فعلية أو ضمانة أكيدة للحاضر والمستقبل ، يجعله يجابه قلق الوحدة والتعرض للخطر بشكل عنيف ، يؤدي الى انهيار الانتماء الاجتماعي ،

وما يستتبعه من غياب ما هو عام ومشترك ، ما هو لخير وخدمة الجميع . والواقع ان الامر معكوس تماما ، فغياب المشترك الذي يخدم مصلحة الجميع ويؤمن حاجاتهم هو الذي يدفع الى انهيار الالتزام ، ومجابهةقلق الوحدة ، والتعرض لخطر المجهول . ولهذا فلا بد لكل امرىء من تدبر أمره ، كما يستطيع ومتى وأنى يستطيع . يبدو هذا الامر جليا حين تغيب السلطة أو يهزل وجودها . يتحول المجتمع عندها الى ساحة قتال وصراع على النهب ، ما أمكن وبأكبر كمية متاحة . الحقيقة ان بنية المجتمع المتخلف نفسها تقوم على النهب والاستغلال.ففي الحالات العادية نجد القلة المتسلطة هي التي تمارسه بشكل خفي ، تبرز منه فقاعات تطفو على السطح من آن لآخر على شكل فضائح مالية . والحقيقة الثانية هي ان مفهوم القانون ، الذي يضع الحدود للسلوك ويفرض مراعاة مصالح الآخرين ، مبخس ومشوه في العالم المتخلف . القانون لا يفرض الا على من لا يمتلك القوة للاعتداء عليه ، أو السبل لذلك الاعتداء . ليس هناك احترام للقانون وتقبل له ، بل رضوخ وارغام ، القاعدة هي أن تخرق القانون اذا استطعت . وفي ذلك كله انهيار لاحترام العلاقات الانسانية ، لان خرق القانون هو في النهاية اعتداء على الآخرين،وعلى علاقات المواطنية والانتماء الجماعي .

يأخذ هذا الواقع ، شكلا ضمنيا ومستترا في حالات السكون والاستقرار الاجتماعي ، تعبر عنها فقط تلك الفئة المدعوة جانحة ، والتي لم تتمكن من الافلات من الملاحقة . وقد يحدث في تاريخ المجتمع أن تهزل السلطة لسبب أو لآخر ، وبالتالي تزول الملاحقة . في هذه الحالة نلاحظ تفجرا مذهلا للعدوانية الكامنة ، ولعمومية الاعتداء على القانون. ويأخذ الامر شكل الاستباحة التي لا تعرف الحدود لممتلكات الاخرين وحياتهم على حد سواء ، دون أدنى مراعاة لحقوق المواطنية ، او الجيرة ، أو المشاركة في الانتماء . فانسان العالم المتخلف ، الذي عانى من استباحة

مزمنة لحقوقة وكيانه ، لا يجد أمامه من نموذج في مثل تلك الظروف ، الا الاقدام على استباحة حقــوق الاخرين بقدر ما يستطيع . لا يجد عنفــه وحقده لهما وازعين من الداخل، وهو في ذلك لا يفعل سوى الاقدام بشكل صريح . على المسلكية نفسها التي كانت تمارسها القلة بشكل خفي .ويعتقد الانسان المقهور الذي اتيحت له فرصة التزود ببعض اسباب القوة ، وفي غياب السلطة ، أن له الحق في التعويض عما أصابه من حيف مزمن . فهو يحقق ذاته من خلال الملكية المادية كمثل أعلى للقيمة الذاتية ، وهو يتشفى من خلال استباحة من يمثلون الحظوة في نظره . وهو يتبع في كل ذلــك نموذج من قاموا على أمره في اغتنام الفرص التــي يتيحهــا المنصب ، او الظرف . من هنا نلمس الى أي مدى تتهــدد قيمة الانسان في المجتمــع المتخلف .

٣ ـ التوتر الوجودي والعلاقات الاضطهادية

يعيش الانسان المقهور في حالة من التوتر الوجودي العام . تراكم العدوانية المزمن يلوّن الحياة جميعها بصبغة متوترة . تميل العلاقات نتيجة لذلك ، الى أن تتخذ طابعا اضطهاديا يجعل امكانية تفجر العنف المتعصب كبيرا . ويقود هذا العنف الى صراعات دموية جماعية تنفجر في لحظــة ما من تاريخ المجتمع . هذا التوتر العام وما يصاحبه من علاقات اضطهادية، يشكل حالة العنف الصريح الذي يتفشى في المجتمع المتخلف ، على عكس الحالات السابقة التي يتخذ فيها العنف طابعا مقنعا أو رمزيا .

أ ـ التوتر الوجودي العــام

الانسان المقهور في حالة تعبئة نفسية دائمــة استعــدادا للصراع . نلاحظ ذلك من حالة التوتر العام الذي يبدو جليا على محياه وفي حركاته. فلأقل الاسباب نجد العدوانية اللفظية تنفجر في سيل من الشتائم والسباب. كما أن الخطاب اللفظي سرعان ما يتدهور الى المهاترة والتحدي والوعيد.

فالانفعالية العاطفية تطغى على الحوار والعلاقة . والعقلانية سرعان ما تطمس ، مما يقود الى انهيار التفكير المنطقي ويحجب وضوح الرؤية ويشل القدرة على تفهم الاخرين ، او على تقدير الواقع بالموضوعية الضرورية . تطغى الانفعالات دون حدود تقيدها ، طامسة ملكة النقد . وهكذا لا يتمكن الانسان المقهور من الاستمرار في جدل هادىء . زمن المنطق والعقلانية قصير جدا في تفاعله مع الاخرين . سرعان ما يحس بانعدام امكانية التفاهم فتغشى بصيرته موجة من الانفعال . من الكلام يتدهور الحوار الى السباب ، ثم الى التهديد،ثم يسر بسرعة الى الاشتباك، أو يصل حافة الاشتباك الذي يلغي كل تمييز . وتأخذ الامور شكلا قطعيا (اما شر كلها ، او خير كلها) . وأحيانا ينفذ التهديد ، باستخدام العضلات أو السلاح ، بسهولة مذهلة (في فورة غضب) . ذلك ان هناك احساسا دفينا بانعدام فعالية اللغة اللفظية وأسلوب الاقناع ، فيتحول الامر بسرعة الى الحسم السحري (العضلي أو الناري) من خلال الاخضاع .

ومما يزيد من تصعيد التوتر العام ، ان كلا الطرفين معبأ تماما . وهكذا يكفي أقل اصطدام أو صدام حتى ينفجر الموقف ، بشكل يصعب ضبطه وتهدئته . ان الاثارة المتبادلة تؤدي الى تفاقم مذهل في سرعته للعدوانية ، والى تدهور مفاجىء للتفاعل . ليس هناك ما يلطف العلاقة الثنائية الا تدخل طرف ثالث أو أطراف عدة يلعب كل منها دور الترضية لأحد الاطراف ، واضعا اللوم ضمنيا على الطرف الاخر . وبقدر سرعة تفجر العدوانية ، يطول زمن تهدئتها ، اذ انها تستمر فترة طويلة بعد زوال الوضعية التي أطلقتها . كما انها تميل الى الانتشار ، وينطلق المرء عندها في سيل من الاحكام التعميمية والقاطعة لا تقتصر على طرف الصراع الاخر، بل تشمل انتماءاته جميعا في عملية ادانة وتبخيس شاملين . وهنا تدخل اطار العلاقات الاضطهادية .

يبدو أن هذه العدوانية المتفجرة ، تتلمس الفرص كي تطغى على الوجود والعلاقة ، فهي غير متناسبة معظم الاحيان مع حجم وأبعاد الوضعية التي أثارتها ، وكأن هذه ليست سوى الفتيل الذي أشعل برميل البارود ، ويبدو هذا الامر بوضوح في أصغر الصراعات (تسمى عاميا خناقات) • كلمة (خناقة) مثيرة في دلالتها الرمزية ، فكأن الصراع لا يمكن أن يكون أقل من عملية خنق متبادل • والواقع أن العدوانية تتفجر لدرجة تبلغ حد الرغبة الهوامية في ابادة الخصم • يبدو أن هذه الابادة وحدها تطفىء جذوة العدوان • واذا كان القضاء على الخصم يتخذ طابعا رمزيا (لانه يكتفي معظم الاحيان بحركة سحرية لها دلالة هزيمته وابادته) لحسن الحظ ، فانه لا يندر أن يتجسد واقعيا في فعل دموي كارثي ، لا يقدّر الفاعل قطعا أبعاده حق قدرها في لحظة الاقدام عليه • جنايات القتل الفجائي اثر خصام آني ليست نادرة في المجتمع المتخلف ، خصوصا عندما يصبح على عتبة انفجار عام للعنف الكامن في بنيته • هذه الجنايات التي تبدو مجانية وتثير صدمة بين المواطنين ، تتراوح بين الذهول والذعر ، هي في الحقيقة نذائر على ارتفاع درجة التوتر العام الى حد خطير في المجتمع ، ارتفاعا بدأ يهدد باجتياح كل الحدود ويتجاوز كل المحرمات • ذلك ما شهده لبنان بالتحديد في العامين الاخيرين اللذين سبقا انفجار العنف الذي زلزل أركانه ، وهدد بنيته بشكل جذري • فلقد كثرت خلال تلك الفترة حوادث القتل لأتفه الاسباب (أفضلية مرور ، نزاع على الدور في انتظار الحصول على خدمة ما ، تحرش مقصود أو غير مقصود ، حوادث اصطدام سيارات الخ ••) حين تتكرر حوادث من هذا القبيل ، فان انفجار العنف لا بد آت في وقت قريب • يخلق جوّاً من انعدام الطمأنينة ، والاحساس بالخطر يأتي من الخارج • ولا تندر في هذه الحالة التساؤلات : الى أين نحن سائرون ، يطلقها بعض من يحسّون بالعاصفة آتية ، وغيومها تتلبد في السماء •• والواقع أن درجة الاحساس بالامن قد انخفضت كثيرا في العاصمة بيروت

قبل انفجار العنف العام ، إذ بدأ الناس يحتاطون في خروجهم ليلا ، مفضلين البقاء بعيدا عن مواضع الصدام ، وما قد يجرّه من ردود فعل كارثية . هذا القلق زاد كثيرا من درجة الاحساس بالجو العدائي الاضطهادي الذي أخذ يميز العلاقات . ومع تصعيد هذا الاحساس بالخطر زادت اجراءات الحماية ، التي اتخذت في أحد مظاهرها (اقتناء السلاح وحمله بشكل دائم) طابع زيادة خطورة الوضعية بدل الحد منها .

ان التوتر الوجودي العام ، وما يصاحبه من تفجر للعنف الدموي وغير الدموي ، ليس وليد بدائية نفسية كما أعتقد بعض علماء الغرب الذين قالوا بعاطفية وانفعالية انسان العالم المتخلف . انه وليد وضعية مأزقية تشكل احدى خصائص بنية القهر التي يتميز بها هذا العالم . الانسان في المجتمع المتخلف عدواني ، متوتر ، يفتقر الى العقلانية ويعجز عن الحوار المنطقي ، لانه يعيش في حالة مزمنة من الاحباط الاعتباطي ، ومن الاهمال . انه متروك لنفسه كي يتدبر أمره كما يستطيع . ليس هناك ما يضمن له حقه أسوة بغيره . عليه هو أن يحفظ هذا الحق كما تمكنه ظروفه (الاحتيال ، التقرب من السلطان وذوي النفوذ ، التودد ، أو العنف والصراع من أجل الغلبة) . عالم الانسان المقهور هو أشبه ما يكون بغابة ذئاب ، عليه أن يعبىء نفسه ويظل يقظا طوال الوقت لمجابهة أخطارها . وعندما يحس كل واحد من المواطنين احساسا من هذا القبيل ، فان علاقات التعاطف والتفاهم تنهار لا محالة ، لتحل محلها علاقات اضطهادية . الآخر هو الخصم الذي يتهدد المصير الذاتي ويهدد بالاستيلاء على الحقوق الذاتية . انه بالتالي العقبة الوجودية في وجه تأمين المصلحة الذاتية . ولذلك فلا بد من اعلان الحرب عليه ، او الاحتياط للحرب التي قد يعلنها علينا . يتحول الآخر الى مصدر تهديد وخطر على الذات أو مصدر عرقلة لمصالحها ، ومنذ تلك اللحظة يصبح كل عدوان عليه ، كل تغليب مطلق للمصلحة الذاتية ، دون مراعاة للآخر ، النمط المشروع من الدفاع عن النفس .

الاحتمال البديل هو الرضوخ والاستسلام ، أو التجنب والانسحاب ، وبالتالي فقدان فرصة الحصول على الحق الذاتي . من هنا تأخذ كل مظاهر القوة الجسدية والنارية أهميتها المفرطة . ومن هنا أيضا تتضخم قيمة الذكورة والرجولة بعد اختزالها الى بعدها العضلي الحركي، وتوكيد قدرتها على مجابهة الخطر المادي . وتحدث مبالغات كثيرة على هذا الصعيد ، تأخذ طابعا استعراضيا . استعراض القوة ضرورة دفاعية ووقائية في آن معا ، ولو لم تستند هذه القوة الى أسس فعلية . المهم ايهام الآخر بها بغية ردعه .

ب ـ العلاقات الاضطهادية ـ التعصب والفاشية

ان الوضعية التي تتميز بالتوتر الوجودي العام ، وتتضمن أخطاراً تتهدد أمن المواطن ، كما بيّنا في الفقرات السابقة ، غير محتملة . فهي تهدد وحدة الجماعة بالتفكك ، وتهدد امكانية الاستمرار في الانتماء اليها، مما يفجّر قلق الوحدة والهجرة في مجابهة الخطر . وبالتالي فان دينامية المجتمع لا بد من أن تتحرك كي تجد حلا لهذه العدوانية المتراكمة بشكل يحفظ حداً أدنى من التماسك لبنيته .

الوسيلة الاكثر شيوعا في العالم المتخلف ، كما في غيره ، هي توجيه العدوانية الى جماعات خارجية ، من خلال التعصب العرقي أو الطائفي وما يرافقه من ميول فاشية . الاحتمال الآخر ، وهو الحل الاكثر فعالية وايجابية ، هو توظيف هذه الطاقات في عمل تغييري على مستوى المجتمع ككل بشكل يغير موازين القوى ، ويقضي على أسباب العنف . الا ان هذا الحل لا يتيسر دائما في تاريخ الشعوب . أو هو يحتاج الى فترة تحضير واختمار ، والى نضوج ظروف موضوعية وذاتية محددة . وحتى تحين ساعة التغيير البناء ، تتعزز الميول التعصبية والفاشية بمقدار تراكم

العدوانية ، وتراكم الغبن والاحباط ، وانعـدام مشاعر الامن ، وتفشي القلق .

نظرة الى مختلف المجتمعات المتخلفة تبيّن بجلاء وجود انقسامـات داخلية ، شبه أكيدة في كل منها . ينقسم السكان الى جماعات وطوائف مختلفة الانتماءات العرقية أو القومية أو الدينية ، متصارعة فيما بينها . وقد يكون هذا الصراع صريحا متفجرا ، أو يظل كامنا يعتمل في الخفـاء وينخر بنية المجتمع مهدداً وحدته ، ولكنه موجود أبداً . بالطبع يستغل المتسلط الخارجي الذي يريد احكام سيطرته على المجتمع هذهالتناقضات مفجراً اياها ، أو مهدداً بهذا التفجير من أجل فرض رغبـاته التي تذهب عادة في اتجاه الاستغلال . وهو يغذي هذه النعرات ويذكي جذوتهـا ، مما يجعل بلدان العـالم المتخلف مهددة دوما بانفجـار العنف على شكل حرب أهلية (عرقية أو طائفية)، تطغى عليها اجمالا المجازر الدموية التي لا تقف ، في بعض الحـالات ، عند حد . وبالطبع أيضا يتواطأ الزعمـاء المحليون مع المتسلط الخارجي لاحكـام سيطرتهم على الجماعة وربطهـا بهم ، مما يمكنهم من الاحتفاظ بنفوذهم وامتيازاتهم ، تحت وهم الدفـاع عن وجود الجماعة ومصالحها الحيوية ضد التهديد الخارجي . ذلك ان بذور التعصب والفـاشية ، منبثّة باستمرار في مجتمعـات القهر ، وهي تتغذى من الطاقة الهائلة التي تعتمل في أعماق الانسان المقهور ، متعطشة الى القوة والسيطرة والانتقام .

فالجماهير المغبونة والمسحوقة متعطشة بشكل مزمن للقوة فيمختلف رموزها وعبر شكليها الاساسيين : البطش والغلبة من ناحية ، والعظمـة والتعالي من ناحية ثانية . وهي مستعدة للانقيـاد وراء زعيم عظامي [١] يقودهـا في هذا الاتجاه ، يفجّر ميولها للتشفي والعظمة ، ويعبّر عنها .

---

(١) عظام (عظامي) paranoia (paranoipue)

ذلك هو الزعيم الفاشي • انها تنساق وراءه وتستسلم له بشكل رضوخي طفلي ، تتعطل فيه ارادتها وقدرتها على الاختيار والنقد والتقدير ، ولا يبقى سوى طاقة انفعالية متفجرة تفيض على كل شيء، وتكتسح أي صوت للعقل ، وأي نداء لليقظة • الجماعة المقهور عاطفية انفعالية تعشق العنف والسطوة ، وتعشق الرضوخ لرموزها وأبطالها ، وتحترق عطشا للاثارة الانفعالية والتهييج الذي يلهب حماسها • في ذلك كله تغيير سحري للمصير من بؤس وركود وموات ومهانة ، الى نشوة وامتلاء وتضخم ذاتي واحساس بالاعتبار الوجودي • من خلال التهييج والاثارة تحس الجماعة ان كل فرد فيها يعيش •

تتشبث الجماهير ، المقهورة بقيادة من هذا النوع تشعرها بالحياة ، وتعوض لها نقصها ، وتستبدل مشاعر العجز ، بأحاسيس الجبروت والسيادة • وتتضخم أهمية هذه الجماعة على حساب الخارج تضخما مفرطا يجعلها تنغلق على ذاتها في حالة من النرجسية (لا ترى الا نفسها ، ولا تحس بقيمة خارج قيمتها ، ولا تعترف بوجود سوى وجودها) الكلية • وبمقدار ما تغرق في انغلاقها ، تسير نحو العزلة وتقطع علاقات التفاعل والمشاركة مع بقية الجماعات ، كي تحل محلها علاقات عداء وحقد ، واضطهاد متبادل •

من خلال انهيار علاقات التفاعل والمشاركة ، والانغلاق على الذات تجد الجماهير المقهورة حلا سحريا لمأزقها من خلال آوالية الانشطار العاطفي والوجداني • العواطف المتجاذبة التي يمتزج فيها الحب والحقد، التقرب والنفور ، التعاون والصراع ، تنشطر بشكل جذري الى عواطف متناقضة (الحب القاطع ، العدوانية الخالصة) • أما الحب فيتوجه كله الى الجماعة من خلال الالتفاف حول الزعيم والتعلق العاطفي به • هذا التعلق يؤدي الى حالة ذوبان كلي في الجماعة وفقدان تام للفرديةوالاصالة

الشخصية لافرادها • كما يخلق حالة اعتماد مطلق على الجماعة ، مصدر كل اعتبار وقيمة ، ومصدر الاعتراف بالـذات وتحقيقها • ينشأ نوع من اللحمة العاطفية والوجودية بين أعضاء الجماعة من خلال التعلـق بالزعيم الذي يشكل مثلهـا الاعلى : مصدر ونموذج القوة ، والقـدرة ، روح الجماعة والمعبّر عن آمالها وشخصيتها ومخاوفها • وكذلك حامي الجماعة والمدافع عنها الحافظ لمصالحها •

هذا الانشطار في الجماعـة يلغي كل تناقضاتها الداخلية ويجعلهـا مرجع كل فرد فيها ، ومصدر كل توجه • وينشأ ، محل الخوف والتهديد المتبادل ، تعاطف وتعاضد واحتماء متبادل • كل فرد في الجماعة يصبـح مرآة للآخـر ، والكل يرى نفسه في المـرآة الكبرى وهي الزعيم • كل الصراعات تزول بشكل سحري ، مما يشكل وظيفة هامة جدا لهذه الميول التعصبيـة •

على النقيض من الحب والخير والقيمة المطلقة التي تكتسبهـا الجماعة ، تبخس الجماعات الخارجية (المختلفة قوميا أو عرقيا أو طائفيا) من خلال اسقاط كل العدوانية عليها • وهكذا تصبح جماعة غريبة، مصدر كل سوء ، صورة الشر بعينه ، منبع كل تهديـد للجماعـة النرجسية • الجماعة الغريبة من خلال تجذير الاختـلاف بينها وبين الجمـاعة الاولى المتعصبة ، تصبح العقبة الوجودية الاساسية التي تقف في سبيل وصـول هذه الاخيرة الى أهدافها في الرفعة والمنعة وتحقيق الذات • انها تحمـل كل الآثام والاوزار ، في حالة من تفريغ كل المسؤولية الذاتية وكل السوء والشرور عليها •

عند هذا الحد تنهار علاقة التعاطف والمشاركة في المواطنية • وتفتح الطريق عريضة أمام صب كل العنف على الجماعة الغريبة دون قيـد أو ضابط • تحدث استباحة لها ، ولكيان أفرادها ، الذين يتحولون الى مجرد

أساطير للسوء والشر يجب القضاء عليها بابادتها دون هوادة . ويفتح باب المجازر الدموية على مصراعيه وبشكل مذهل . فالجماعة المتعصبة فيما تقدم عليه من مجازر لا ترتكب اثما بحق أناس لهم كياتهم ، بل انها تقوم بواجب الدفاع المشروع عن النفس . وأكثر من هذا تقوم بواجب القضاء على الاوبئة التي تقف في سبيل تقدم البشرية . مجازر الدم والابادة ، تتحول الى عمل نبيل في وهم وقناعات أعضاء الجماعة المتعصبة. فالامر لا يعدو مجرد قضاء على رموز مجسدة في اناس من الجماعة الغريبة ، التي تحاط بمجموعة من الاساطير ، تنتزع منها انسانيتها .

وهكذا ينفجر العنف مكتسحا كل شيء ، ويفرغ التوتر الداخلي الذي تحول الى حقد خارجي ، ويتحول المصير بشكل سحري من مهانة وخوف ، الى رفعة ومجد، في حالة من النشوة المريضة، وما يزيد خطورة هذا الامر أن الجماعة الغريبة ، ضحية التعصب ، لا بد أن تثار فيها نوازع من نفس النوع ، وتتحرك دينامية مشابهة . فتنغلق على ذاتها وتتمحور حول زعيم يقود حربها ، يعزز اللحمة بين أعضائها ويوجه عدوانيتها الى الخارج . ويستخدم رد الفعل هذا كتبرير للجماعة المتعصبة كي تسير قدما في عنفها . وتنشأ عن ذلك سلسلة متصاعدة من العنف الذي يقطع الجسور كلية بين الجماعتين . فيقوم جدار من الخوف والحذر المتبادل ، الخوف من الانتقام ، مما يزيد من تبعية الفرد لجماعته ويدفعه الى مزيد من الغرق في أشد الانفعالات والمخاوف والرغبات البدائية : خوف مطلق ، يقابله رغبة في الانتقام بدون حدود ، ورغبة في السيطرة المطلقة التي تلغي الآخر تماما .

تلك كارثة تتكرر من آن لآخر في هذا أو ذاك من المجتمعات المتخلفة، تاركة وراءها صورة سوداء عن العلاقات الانسانية . خطر هذه الكارثة وارد طالما لم توجه طاقات الانسان المقهور في اتجاه البناء والتغيير الذي

يعود خيره عليه وعلى الجميع . الانسان المقهـور معـرض للوقـوع في التعصب والانجراف في موجات الفاشية ، يشكل وقودها الذي به تتأجج، مع أن مصلحته هي بالضبط في مقاومتها والتصدي لها . فالعنف الفاشي والمتعصب لا يحمل سوى وهم الخلاص ، انه حـل سحري وانتحاري في آن معا .

واذا كان انفجار العنف على هذا الشكل أمرا محدود الانتشار بين المجتمعات المتخلفة ، فانه يظل دوما كخطر محتمل . وقبل هذا الانفجـار يأخذ العنف الاضطهادي المتعصب أشكالا ملطفة ومحددة في دمويتهـا ، وقد يقتصر على التبخيس المعنوي ، والعدوانية الرمزية أو اللفظية . طبعا للمتسلط الداخلي ، وحليفـه الاجنبي اليد الطولى في تفجير هذا العنف واستغلاله . وهو عندما يتأجج أو ينفجر ، يشكل عقبة أمام التوجه نحو التغيير البنّاء . العنف المتعصب لا يعرف سوى التدمير وسيلة الى تحقيق الآمال والاهداف بشكل وهمي .

ثانيا : النظريات النفسانية في العدوانية والعنف

العدوانية من مشكلات البشرية الدائمة . كل الاديان والفلسفات، كل المعايير والقوانين والقواعد السلوكية اهتمت بتنظيم العدوانية وطرق ضبطها أو تصريفها . ولا زال الانسان حائرا حتى الآن ازاء عدوانيته ، كيف يسيطر عليها ويتصرف بها . لا هو ولا ما توسله من عقائد وفلسفات تمكنه حتى الآن من ايجاد سبيل ملائم لتوظيفها والسيطرة عليها . وقد كانت محاولات الحل عديدة ولكنها جزئية ؛ تتذبذب ما بين اسقاطها على الخارج ، على موضوعات خرافية كالجن والشياطين ، أو على الآخرين ، وبين ردها الى الداخل (اتهام الذات) ، واتهام الطبيعة البشرية الشريرة. البعض حاول السيطرة عليها بفلسفتها وعقلنتها ، مما يفرغها من شحنتهـا

النزوية . البعض الآخر يرى انها شر يميز الوجود الانساني ، لا خلاص منه . وعلى العكس من ذلك هناك من رأى فيها عنصرا ثانويا معتبرا الخير كأساس .

يقول بوتول في مقدمته لكتاب « الانسان الغاضب [1] ، من تأليف فوستو انطونيني » ، ان احدى الخصائص الرئيسية لكل حضارة هي الطريقة التي تفهم وتنظم بها العدوانية . هذا الفهم يغرس في نفوس جميع أفرادها منذ حداثة سنهم . كل تربية تتضمن توجيها للعدوانية . فهي تعلم متى وكيف يجب أن تكبح ، أو بالعكس يسمح بها حتى تثار . ويتابع قائلا : « الوظيفة الاساسية للدولة تتلخص بمنع أو تحديد العنف بالنسبة للافراد ، واحتكار استعماله لها فقط . الصلاحيات العليا للسيادة تتلخص في ادارة العدوانية الجماعية . محك الدولة ذات السيادة في قانوننا الدولي هو سلطة شن العنف المنظم ، أي اعلان الحرب » . جمال هذه الافكار يكمن خصوصا في مدى انطباقها على بلدان العالم المتخلف ، حيث توجه العدوانية الى الداخل على شكل قمع وارهاب تمارسه السلطة ، بينما هو يتوجه الى الخارج في الدول الصناعية . سيكون لنا وقفة عند هذه الافكار في القسم الثالث من هذا الفصل . ما نود قوله هنا ، هو أن العدوانية مشكلة حقيقية من مشكلات البشرية الاساسية . نزيد فنقول لم تعجز القوانين والقواعد وحدها عن حل هذه المشكلة ، بل ان المذاهب الفلسفية والعلمية المختلفة قد عجزت حتى الآن عن وضع نظرية متكاملة تفسرها .

النظريات في هذا المضمار ، واذا اقتصرنا على الناحية النفسية ، والنفس اجتماعية ، عديدة جدا ، كل منها ينطلق من منظور محدد، ويركز

---

(1) Fausto Aatonini , L'homme furieux", Paris, Hachette,1970 , Introduction par Gaston Bouthoul , p. (9) .

على منطلقات معينة يعتبر فيها تفسيرا للعدوانية . كل منها يفيدنا في بعض النواحي ، ولكن أياً منها لا يقـدم تفسيرا شامــلا . اذا كان هذا شأن النظريات التي وضعت لتفسير العدوانيــة في المجتمعات الغربية . فان العدوانية وما تتسم به من مظاهر عنف في البلدان النامية لا زالت بحاجة الى صيغة تفسيرية.هذه الصيغة التي تراعي خصوصية التخلف الاجتماعي لا زالت مفقودة تماما . لذلك سنحاول في هذا القسم أن نستعرض بايجاز كبير بعض النظريات النفسية حول العدوانية ، محاولين الاستفادة من بعض العناصر التفسيرية التي تقدمها ، في محاولتنا لالقاء الضوء على ظــاهرة العنف في المجتمع المتخلف .

ولا بد قبل الخوض في هذه النظريات من ازالــة الالتباس حــول أسطورة العدوانية الهمجية ، والعدوانية الحيوانية الشرسة التي يتمسك بها أفراد المجتمعات المتحضرة . فالعدوانية بلا حدود التي تملأ هواملت هؤلاء الناس عن دموية وشراسة الحيوان والبــدائي ليست سوى أفكار منمطة [1] ، ذات طابع تحيزي يهــدف الى اسقــاط ما يخشاه هؤلاء في أنفسهم على كائنات غريبة أو أدنى منهم .

يخبرنا أوتو كلاينبرغ [2] عن البدائيين « بأن الحروب البدائية قليلة الخسائر في الأرواح عادة .. البدائي ليس وحشيا ولا همجيا بالدرجة التي تظهر في حروب المجتمعات الصناعية . في معظم الحالات تخضع حروب البدائيين لقواعد محددة في التعامل مع الاعداء ، مثلا : بعضهم (الاستراليون) يقدمون أسلحة للبيض غير المسلحين قبل الهجــوم ، وآخرون يرسلــون قوارب مؤن غذائية للاعداء الجائعين كي تكون الحرب متكافئة ، وهناك من روى ان بعض الهنــود اقتسموا بارودهم مع أعدائهــم . في كل تلك

(١) الإفكار المنمطة Stereotypes
(2) Atto Klinberg, Social psychology, New York, N. Holt, 1954.

الحالات تتخذ طابع المباراة الرياضية • ومن ناحية أخرى فان الغارات المفاجئة دون انذار ، غير معروفة تقريبا في الحرب البدائية (صفحة ٩٣ — ٩٤) •

١ — وجهة نظر علم نفس الحيوان

أما في العالم الحيواني ، فلقد أبدع العلامة « كونراد لورنز »[1] في دراسة العدوانية وخصائصها مبينا أن شراسة الحيوان المفترس ودمويته ليستا سوى أسطورة • العلاقات الدموية والعدوانية المفرطة لا تلاحظ الا بين الحشرات • أما بين الحيوانات الفقرية فللعدوانية وظيفة محددة في الامور الاربعة التالية ، منفردة أو متداخلة فيما بينها :

— الدفاع عن المجال الحيوي ، عن الطريدة أو منطقة الصيد •
— البحث عن الغذاء •
— المكانة المرتبية ضمن الجماعة ، بغية تحقيق توازن وظيفي • وتقع على الاعلى مرتبة مهمات حماية الجماعة من الاعداء ، وحراستها ، وارساء العدالة بين أعضائها •
— التزاوج ، اذ تبرز أكثر أشكال القتال ضراوة بين أفراد الجنس نفسه ، وتكتب الغلبة للاقوى مما يؤدي الى تطور الجنس • على العكس فالقتال بين الاجناس المختلفة لا يحدث الا لاسباب دفاعية محضة أو للحصول على الطعام (ص ٣٣) •

ويستخلص « لورنز » من دراساته المستفيضة على سلوك الحيوانات في القتال عدة أمور هامة :

— هناك توازن بين سلاح الحيوان المفترس ، ودفاعات الفريسة •

(1) Konrad Lorenz, (L'histoire maternelle du mal) , Paris, Flammarion .

فبمقدار ما يزداد الدفاع فعالية تشتد قـوة السلاح والعكس صحيح (ص ٣٤) ٠

ـ يصل السلوك القتالي أقصى شدته في حالة الاستجابة الحرجة[1] اذ يبذل الحيوان أقصى امكاناته في حالة من اليأس من النجـاة بالهروب أو الاستسلام ٠ كما تصل درجة قتالية الحيوان حدها الاقصى بمقدار اقترابه من مركز منطقته أو مجاله الحيوي ٠

ـ كل سلوك عدواني عند الحيوان ، أو كل ميل عدواني يقابلـه ويضبطه ميل كابح [2] يمارس عمله من خلال سلوك طقسي [3] يقوم به الحيوان الاضعف (يأخذ طابع الرضوخ والاستسلام)٠ تزداد قوة الكابح كلما قويت الميول العدوانية والسلاح العدواني٠ وتصل أقصى فعاليتها تجاه العناصر الاكثر ضعفا ٠ من خـلال طقوس الرضوخ التي يقوم بها الاضعف تتحول عدوانية الاقوى الى مسالمة ٠ فأصل العلاقة الانتقائية في رأي « لورنز » هو ميل عدواني تحول الى ضده من خلال الكبح ٠

ـ مأساة الانسان بعدوانيته التي تتفجر عنفا وشراسة وحقدا تعود، في رأي « لورنز » الى فقدانه التكيف النزوي، أي فقدان الكوابح الغريزيـة لعدوانيته ، التي حلت محلهـا الكوابـح الخلقيـة والحضارية ٠ ولكن المشكلة ان هذه لم تصل بعد درجة الفعالية التي تحصنه ضد عدوانيتـه كما هو شأن الحيـوان ٠ وهكذا فنفس العوامل التي ارتقت بالانسان فوق كل الكائنات الحية ، وضعته في وضعية محفوفة بالخطر ٠ ففقدان التكيف النزوي مع

---

(١) استجابة حرجـة — Reaction critique

(٢) كابح — Inhibiteur

(٣) سلوك طقسي — Conduite rituelle

المحيط حدث قبل بروز تكيف حضاري مضمون .

- غربة وبعد العدو موضوع الهجوم يسهلان كثيرا اطلاق العنان للسلوك العدواني ، (ص ٢٩٨) . فكبر المسافة المكانية (ونضيف نحن العاطفية كما سنرى فيما بعد) التي أصبحت الاسلحة النارية فاعلة في مداها ، جعلت الانسان في منأى عن الوضعيات المثيرة التي كان يمكن في حالات أخرى أن تنشط صدوده ضد القتل (ص ٢٥٧) .

- العدوانية غريزة تلقائية . انها ليست مجرد رد فعل على مثير خارجي محبط . فهي تتحرك تلقائيا . واذا لم تجد لها فرصة للتفريغ ، فان عتبة اثارتها تهبط بشكل ملموس . اذا لم تجد العدوانية لها عدوا خارجيا تصرف من خلال التهجم عليه ، فانها ستتوجه الى داخل الجماعة في تناحر شديد يقضي على حدتها متعللا بأوهى أسباب الخلاف .

- على العكس من ذلك هناك الحماس المناضل [1] . وهو نوع من العدوان المشترك يرتبط بالحاجة الى الانتماء . ويستند الى استجابة غريزية تنطلق في ظروف خاصة للدفاع عن الجماعة . ويظهر عند الحيوان والانسان على حد سواء . ولكن بينما يتخذ في الحالة الاولى شكل الاستجابة المقننة غريزيا من حيث الموضوع والهدف ، فانه قابل للتعلق بموضوعات وأهداف متعددة عند الانسان . وشروطه الاساسية هي : أحساس بتهديد فعلي للجماعة التي ننتمي اليها ، وجود عدو خارجي محدد هو مصدر التهديد ، صورة بطل أو زعيم تلتف حوله الجماعة ،

---

(١) الحماس المناضل Enthousiasme militant

ازدياد عدد أفراد الجماعة التي تلتف حول هذا الزعيم . والحماس المناضل استجابة انفعالية لا تخضع لمنطق أو اقناع عقلاني . ويؤدي عندما ينطلق الى التضحية بالذات او ابادة العدو دون أي ضوابط او حدود . من خلاله يفرغ ، عند الانسان ، بامتياز العدوان المبرر .

- يضيف « انطونيني » الى ذلك كله ، أن الحقد هو أهم ما يميز عدوانية الانسان عن عدوانية الحيوان . فليس هنالك حقد عند الحيوانات . كما ان عدوانية الحيوانات لا تصل أبدا درجة الاستقلالية التي تلاحظ عند الانسان . فالحقد هو عدوانية تسامت حتى تجاوزت البيولوجي كليا ، كي تصل مرتبة نفسية خالصة (أنطونيني ، نفس المرجع ، صفحة ٦٠) . ويأتي الحقد اجمالا من تراكم مزمن للعدوانية .

هذه الافكار ذات فائدة كبرى لنا في محاولتنا رسم صورة عن العنف في المجتمع المتخلف . فهي تلغي الاسطورة عن عنف الحيوان ، وتضعنا أمام مصيرنا بوضوح كأناس ، كما أنها تتضمن مبادىء أساسية في تفسير دينامية العدوانية الانسانية : العدوان الموجه الى خارج الجماعة أو الى داخلها ، ومسألة الغربة والبعد المكاني .

٢ ـ وجهة نظر التحليل النفسي

هنالك عدة وجهات نظر حول العدوانية والعنف يقول بها المحللون النفسيون على اختلاف نزعاتهم ، انطلاقا من آراء « فرويد » وما حدث بصددها من انشقاقات . يقول فرويد بنزوتين أساسيتين توجهان المتعضي [1] وتمدانه بالطاقة الحيوية . نزوة الحياة (ويطلق عليها اسم

---

(١) متعضي Organisme

ايروس) ونزوة الموت (ويطلق عليها اسم ثاناتوس) • توصل فرويد الى القول بهما في نهاية بحثه العيادي والنظري • أما نزوة الحياة فهي منبع الطاقة الجنسية ، المسؤولة عن كل رباط ايجابي مع الآخرين ، عن كل علاقة عاطفية متعاطفة ، هي المسؤولة عن التقارب والتوحيد والتجميع وتكوين وحدات حية أكبر فأكبر • على العكس منها ، نزوة الموت التي تهدف الى التدمير ، الى تفكيك الكائن الحي والعودة به الى وضعية الجماد • وهي حين تتركز في المتعضي أو ترتد اليه تؤدي الى تدميره وافنائه ، أما اذا توجهت الى الخارج فانها تأخذ كل أشكال العدوانية والتدمير والعنف والحقد • عندما تتوجه الى الذات بشكل مخفف فانها تأخذ طابع مشاعر الاثم وادانة الذات والقسوة عليها والتشدد معها (فيما يسمى الأنا الأعلى القاسي) • على العكس منها نزوة الحياة التي اذا ما تركزت في الذات تشكل أساس ومصدر كل اعتبار ذاتي ، محبة الذات والحفاظ عليها ، وقد تصل حد الانوية المفرطة •

ومن رأي « فرويد » أن الليبيدو (وهو الطاقة الجنسية الممثلة لنزوة الحياة) في صراع مفتوح مع غريزة الموت في كل متعض • مهمة الليبدو هي لجم نزوة الموت ومنعها من تدمير المتعضي ، وذلك بتوجيه القسم الاكبر منها الى الخارج • فالنزوتان متفاعلتان دائما داخليا وخارجيا ، ولا توجدان الا في حالات نادرة بشكل صاف • أمر آخر من الضروري الاشارة اليه ، هو أن هاتين النزوتين لا تمارسان تأثيرهما كطاقتين حيويتين بشكل خام • انهما تتركزان منذ الطفولة الاولى في العلاقات مع الأم خصوصا ، ومع الوالدين عموما • موقف الرضيع الانفعالي من أمه متجاذب يتضمن أقصى درجات الحب مع أقصى حالات الغضب الحاقد عندما تحبط هذه الام رغباته ، وكذلك الحال تجاه الاب • هذا التركز النزوي في العلاقات الاولى وما يتخذه من طابع متجاذب ، يولد ويكون التصورات الاولى عن

الشخص الانساني وعن العلاقة عموما فيما يسمى بالصور الوالدية الاولية . هذه الصور بجانبها المحبوب ، وبما تستقطبه من حقد ، هي النموذج الاولي لكل علاقة تالية . كل علاقة لا بد متأثرة بتلك الصور الاولية التي قد يطغى عليها الطابع الايجابي المرحب ، الرحوم ، (الصور الجيدة الطيبة) أو الطابع القاسي المهدد ، العنيف (الصور السيئة أو الشريرة).وهناك ميل عام لانكار الصور السيئة ، وما تستقطبه من عدوانية وما تشكله من تهديد لتكامل الذات، من خلال نفيها واسقاطها على الخارج . يصاحبه ميل آخر لاعلاء شأن الصور الطيبة (نموذج الحب والحماية) كدفاع اضافي ضد قلق العدوان .

تلك هي باختصار وضعية النزوات . ولقد حدث خلاف كبير بين المحللين النفسيين حول أولويتهما . فهناك من يتبع فرويد ويتمسك بتقسيمه حرفيا ، قائلا بأولية نزوة الموت . أشهر من يمثل هذا التيار «ميلاني كلاين» ومدرستها.وهناك من ينكر أولية نزوة الموت،وينكر حتى وجود نزوة كهذه أصلا ، راداً الامر الى عوامل مختلفة أهمها احباط الحب واعتبار الذات . أشهر هؤلاء (رايش) .

أما مدرسة (كلاين) فلها مكانتها الخاصة في شأن تحليل العدوانية، نظراً لاسهامها القيّم في دراسة ديناميتها وتوظيفاتها المختلفة وتفاعلها مع نزوة الحب .

فاذا ظلت نزوة العدوان على حالتها ، فانها تهدد المتعضي بالتدمير من الداخل . وهذا ما يولد فيه أشد حالات القلق الذي يأخذ شكل الخوف من الفناء ، أو الاحساس بالاضطهاد . فان نزوة الموت ، باندماجها مع نزوة الحياة وتوجهها الى الموضوع الاول لاهتمام الطفل وهو الأم ، تخلق صراعات عنيفة داخل الطفل . فهو يخشى من ميوله التدميرية على ذاته ، وعلى علاقته مع أمه ، وعلى صورتها التي تكونت لديه . ولذلك

فانه يحتمي عادة بنزوة الحب من الخطر التدميري الذي تتضمنه نزوة الموت . وهكذا فان تدامج النزوتين يلطف الثانية ويكبح جماحها . ولكن هذا التدامج لا يكفي ، بل ينشط الجهاز النفسي للطفل كي يتسلح بعدة أواليات دفاعية . من أهم هذه الدفاعات وأكثرها بدائية في رأي « ميلاني كلاين » ما يلي [1] : الانشطار [2] ، المثلنة [3] ، والاسقاط. أما الانشطار فيعني فصم الذات ، وفصم النزوات ، وفصم الموضوع . تقسم الذات الى كيانين غريبين عن بعضهما البعض ، الاول هو الطيبة كلها وهو المحبة الخالصة ، والثاني هو السوء والشر والعدوانية خالصة أيضا . أما فصم الموضوع فيتخذ أيضا نفس المظهر ، فصل قاطع للجوانب السيئة الشريرة عن الجوانب الطيبة المحبة . وأما فصل النزوات ، فهو فصل الحب عن الحقد . في هذا الفصم المثلث يحدث اعلاء لشأن الموضوع المحبوب ورفعه الى مرتبة المثال الصافي (المثلنة) . هذه المثلنة للموضوع المحبوب تؤدي الى مثلنة مقابلة للذات ، عنوان الطيبة والحب والجودة . ولا تتم هذه المثلنة بالطبع الا بانكار كل عدوانية أو ميل تدميري عند الموضوع وعند الذات . فالعدوانية التي أنكرت ، لا تظل عائمة هكذا ، فهي تنفي من خلال اسقاطها ، أي بنبذها الى الخارج . في هذا الاسقاط تتركز في موضوع مكروه هو رمز الشر ورمز العدوان ، فيما تسميه « ميلاني كلاين » بالتماهي الاسقاطي. أي اننا بعد أن نصب كل سوئنا وعدوانيتنا على شخص خارجي ، يصبح رمز هذه العدوانية ، وحاملها ، لا ندرك منه الا جانبه هذا . وبذلك نتهرب من عدوانيتنا وسوئنا ، ونجنب من نحب شرهما ، كما نجنب أنفسنا شر ما قد يتهددنا من عدوانيته .

---

(1) Melani Klein, Notes sur quelques mécanismes schizoides in developpement de la psychanalyse , paris . P.U.F. 1972, p.575

(٢) انشطار Clivage

(٣) مثلنة . Idealisation

•• « ان الاسقاط نشد جدا في العلاقات بين الناس (خصوصا المهنية والحزبية) فيما يتعلق بمصدر السوء والشر والعدوانية : الآخرون هم المخطئون [1] » في الاسقاط تحول النزوة العدوانية الى الخارج ، وفي مرحلة تالية تتخذ من هذا الخارج هدفا لصب عدوانيتنا المتبقية • في اتهام الآخرين نجد راحة مزدوجة : تصريف العدوان بصبه عليهم (الانتقاد) واثبات البراءة الذاتية (نفي تهمة العدوان عن الذات) ، ذلك ما يحدث في التعصب الديني والطائفي والسياسي (نفس المرجع ، ص ٥٤) • ليست العدوانية وحدها التي تسقط على الخارج ، بل أيضا مشاعر الذنب (الآخر هو المذنب وهو الذي يستحق العقاب ، ومن هنا تصبح العدوانية الذاتية مشروعة ومبررة ، انها احقاق الحق من خلال قصاص الآخر) (ميلاني كلاين ، المرجع السابق) •

تذهب بولا هايمن [٢] (من اتباع ميلاني كلاين المرموقين) المذهب نفسه حين تقول « انه في حالة القسوة العمياء يحدث نوع من الكارثة النزوية • فلسبب ما ينكسر الدمج بين النزوتين الاساسيتين ، وتستيقظ نزوة الموت داخل الشخص الى درجة قصوى، دون امكان تلطيفها بتدخل نزوة الحياة • الدفاع الأكثر بدائية ضد نزوة الموت هو التحويل الفظ للخطر الداخلي الى الخارج بصبه على ضحية ما » وتقول بهذا الصدد « انه بسبب ضرورة تحويل الحقد والتدمير ، وفي المقام الاخير نزوة الموت ، من الذات نحو الموضوعات ، نحن بحاجة الى موضوعات « سيئة » ونحن نخلقها اذا لم نجدها في متناولنا » (نفس المرجع ، صفحة ٣١٥) •

(1) M. Klein et Joan Riviere., L'amour et la haine, paris., p. B. payot, 1972, p. 51.

(5) paula Heimann, Developpments de la psychanalyse, paris, p. U.F. 1972, p. 309

لا تعتقد هذه الباحثة ان القاتل يعي التهديد الذي تشكله كارثته الداخلية ... ولكن أفعاله لا يمكن فهمها الا بافتراض انه مأخوذ بحاجة ماسة لايجاد ضحية ـ كبديل عن نفسه ـ هذا الافتراض وحده يمكنه تفسير الغياب الكلي للتعاطف مع عـذاب الضحيـة ، تلك الهمجية التي تمارس خلال فعل القتل والتلذذ بنزاع الموت الذي تمر به .

مهما يكن من أمر نزوة العدوان هذه ، أولية كانت أم ثانوية ، فان ما نستطيع الاستفادة منه بلا جدال، من وجهة نظر ميلاني كلاين وأتباعها، هو هذه الدينامية النفسية التي توضح الصراع العلائقي : التنكر للعدوانية الذاتية ، ولمشاعر الاثم الذاتية ، وايجاد موضوع ضحية يجسدها ويعبّر عنها في الخارج ، والتهجم عليه لدرجة ابادته . وكذلك انشطار العواطف الى الميول السيئة والحسنة ، والاحساس بأننـا ومن نحب ، وكذلك من يحالفنا ، مثال البراءة والارتقـاء واسقاط كل الشر والخطر والعـدوان على الاعداء .

يبقى هذا الاسقاط للعدوانية ولمشاعر الاثم أوالية فاعلة في حياتنـا اليومية وفي كل صراعاتنـا العلائقية . ولذلك نجد الكثير من العلماء قد قالوا به . يقول (أنطونيني) بهذا الصدد « ان هناك في كل الحـالات تقريبا جهدا لازاحة العدوانية خارج الذات ، بشكل يمكننـا من نفيها ، من عدم رؤيتها في ذاتنا ، يمكننا من التعـامي عنها ، فاكتشاف الحقـد الكامن فينا ظاهرة مولدة للقلق . أما اكتشاف الشر عند الآخرين فيمنعنا من رؤية الشر الذي فينا » (انطونيني ، المرجع السابق ، صفحة ٨٨) .

هناك نفر يربطون بين الميول التدميرية واحباط تحقيق الذات عموما أو الاحباط الجنسي خصوصا . هؤلاء ينكرون اجمالا ربط العدوانيـة بنزوة الموت كنزوة أولية .

يقول (يونج) : « ان المرء يمكن أن يشعر بالذنب لا على أثر فعل

ممنوع ، ولكن أيضا عندما لا يستطيع الوصول الى تحقيق ذاته ، ابراز فرديته الخاصة والعميقة . هذا الشعور بالذنب هو الذي يولّد عدوانية غير محدودة » (ذكره أنطونيني في كتابه صفحة ١٢٩) .

ويذهب (ماندل) المذهب ذاته حين يقول « لا جدال في أنه يوجد عند الانسان قوة استثنائية من النزوات العدوانية التي يمكن ارجاعها لما سميناه سابقا الجرح النرجسي الاصلي (النابع من وضعية القصور والعجز والاحباط التي لا بد أن يعانيها الطفل بالمقارنة بقوة والديه وما يعتقد انهما يتمتعان به من جبروت) ، الذي يتغذى فيما بعد من مجموع احباط وقيود وتبعية الطفولة . يجب أن تعتبر العدوانية في الواقع كجواب الأنا على معاناته النرجسية » [1] .

أما (رايش) فهو يحتج على التشويش بين مصطلحات العدوانية ، السادية ، التدمير وغريزة الموت . ويقول انه لم يجد مطلقا في أبحاثه العيادية حول أصل الحقد ، رغبة في الموت ، أو غريزة موت كنزوة أولية. من رأيه ان للعدوانية ونزوة التدمير هدفا دفاعيا هو الحفاظ على الحياة. التدمير في وضعيات الخطر ينبع من الرغبة في العيش والرغبة في تجنب ألم القلق [٢] . الغريزة التدميرية تخدم هدف الرغبة في الحياة . فالتدمير والعدوان هما في خدمة ارادة الحياة . كل حركة ايجابية في الحياة عدوانية : النشاط الجنسي ، كالبحث عن الطعام ، كالسادية الخ .. العدوانية هي اقتراب من الاهداف المرغوبة واستحواذ على الموضوعات المرغوبة . العدوانية ليست غريزة بالمعنى الدقيق ، بل وسيلة لارضاء أي غريزة ، خصوصا غريزة الجنس .

---

(1) G . Mendei ; La revolte contre le père , paris, payot , 1968 , p. 43 .

(1) W. Reich, Fonction de l'orgasme , paris , L'arche , 1955,p.126

كل نوع من أنواع الفعل التدميري هو في حد ذاته رد فعل المتعضي على رفض اشباع حاجة حيوية ، وتحديدا الحاجة الجنسية (نفس المرجع، صفحة ١٢٧) . فالقمع الجنسي كالكبت الجنسي ، يترك العدوانية المصاحبة له حرة تنطلق عندها في سادية تبحث عن لذتها . فان فقدان الهدف الحقيقي للحب يولد السادية التي تنبع من انعدام امكانية الاشباع الجنسي عن طريق الحب . (نفس المرجع ، صفحة ١٢٧) . ويقرر (رايش) بهذا الصدد ان التدميرية السادية العامة المميزة لعصرنا الحالي هي نتيجة الصد الطاغي لحياة الحب الطبيعي . ولذلك فكلما زادت القدرة على الاشباع الجنسي قلت السادية وبالعكس . (نفس المرجع، صفحة ١٢٨).

ان الاحباط الجنسي ، أو احباط تحقيق الذات بشكل أعم وما يرافقه من جرح نرجسي يوصلنا الى ذكر نظرية (دولار) ، عالم النفس الاجتماعي ، في الاحباط والعدوانية .

تقوم هذه النظرية على المبادىء التالية :

كل توتر عدواني ينتج عن الاحباط . شدة العدوانية تتناسب مع شدة الاحباط من ناحية وقوة الحاجة المحبطة من ناحية ثانية . تزداد العدوانية مع نمو عناصر الاحباط . صد العدوانية (احباطها) يولّد عدوانية لاحقة ، بينما يخفف تفريجها من شدتها بشكل مؤقت أو دائم . صد أفعال العدوانية الموجهة يشكل احباطا جديدا ينتج عدوانية موجهة لمصدر الاحباط ، ويزيد قوة الدفع نحو أشكال أخرى من العدوانية التي تنتشر عندها لتنبث في مختلف أشكال النشاط وأوضاع الوجود . تزداد العدوانية الموجهة نحو الذات، حيثما صعب توجيهها نحو الخارج، وحيث يستمر منع تصريفها الخارجي . (مستقاة من كتاب انطونيني ، الانسان الغاضب ، صفحة ١٩٦ ــ ١٩٧) .

هذه الاراء جميعا على ما فيها من تناقض نظري ، تلتقي في نتائجها

العامة ، فيما يمكن أن نسميه نزوة السطوة أو السيطـرة ، في جبـروت السيادة على الآخر . عند هذه النقطة لا بد من وقفة سريعة عند السادية .

السادية في أساسها حالة نفسية عامة ، وضعية علائقية مع الاخر تتخذ طابعا مأساويا ، أكثر منها مسألة حصول على اللذة الجنسية من خلال انزال الالم بالقرين . السادية الجنسية هي حالة نوعية خاصة من السادية العامة . بهذا المعنى تنطلق السادية مما يمكن تسميته بنزوة السطوة[1] . انها سيطرة على الاخر وحط لشأنه من أجل اعلاء شأن الذات بواسطة العنف .

يكمن جوهر السادية ، في نظر انطونيني ، في البحث اليائس عن الانا ، في الحاجة الى توكيد الذات ، في دفع الاخر للاستجابة الى حقيقتك الذاتية : هذا أنا ، أنا هنا ، يقول السادي ، يجب أن تلاحظ وجودي ، اذا لم تلاحظه بمحبتي فعليك ان تدركه من خلال ألمك ، اني أنا من يجعلك تتألم . بألمك تعترف بوجودي الذي يصبح اكثر واقعية بمقدار ما تكبر معاناتك (نفس المرجع ، صفحة ٩١) .

السادية النفسية تهدف اذا الى السيطرة على الاخرين واذلالهم : تجميدهم ، شلهم ، اخافتهم ، صدهم ، وضعهم تحت رحمته ، تحقيرهم ، تحطيم انطلاقتهم ، ومبادرتهم : « فالسادي يجمد الآخرين كي يتمكن من التحرك هو » (صفحة ١٠٧) . يعتقد السادي أن أكبر اثارة ممكنة ، الاعتراف الحقيقي بالذات ، تحقيق الذات الاكثر عمقا يحصل عليه من خلال التحقق من قدراته على انزال العذاب والمعاناة في الاخر . انها سيطرة تتميز بجبروت القدرة على اعطاء الموت ، تعاش كمجد ذاتي نرجسي . وهي تتضمن نوعا من نشوة القوة بدلا عن نشوة المتعة الجنسية . ما يود السادي الوصول اليه هو اذاً نشوة الجبروت من خلال مسح

(١) نزوة السطوة pulsion d'emprise

وجود الاخر . بذلك، فحسب يطمئن الى قوته غير الواثق منها ، ويخفف من حدة قلقه .

الحاجة الى الاطمئنان واضحة تماما عند السادي ، الذي يعمل في الآخرين ما يخشاه على وجه الدقة لذاته . انها الطمأنة على القوة الذاتية ، من خلال تدمير الآخرين وابادتهم . بهذا وحده يتمكن من حسم مشاعر القلق من خلال هذا الفعل الكارثي المجسد في عنف بلا حدود .. السادي اذاً يسقط كل ضعفه على الضحية التي يبيدهـا، في حالة من انكار هـذا الضعف بعد تجسيده في الخارج . والهدف هو الوصول الى شعور بدائي بالجبروت الذي يجعل التدمير ضرورة لا مناص منها .

بالاضافة الى السادية الفردية هناك السادية المؤسسية . هناك مؤسسات تحكمها ايديولوجية سادية توجه تصرفات العاملين فيها وتفرض المازوشية والقهر على أفرادها : الجيش ، التنظيمات البوليسية ، السجون، الاصلاحيات ، مستشفيات الامراض العقلية ، الامتحانات ....وخصوصاً، في رأينا السلطة في مختلف مظاهرها في المجتمع المتخلف ، فالعلاقات ضمن مؤسسات هذا المجتمع يحكمها أساسا منطق ولغة الادانة .

٣ ـ وجهة نظر ظواهرية

احتلت المدرسة الظواهرية مكانة قيمة في دراسة العنف في الفترة الاخيرة لانها طرحت المسألة من منظور جديد ثري بمعطياته وآفاقه . تنطلق هذه المدرسة من دراسة التجربة الذاتية للانسان في تفاعله العلائقي مع الآخرين . فالعنف ، كغيره من أشكال السلوك ، هو نتاج علائقي أو بكلمة اكثر دقة ، نتاج مأزق علائقي . اما التدمير والقتل فهو كارثة علائقية تصيب الذات في نفس الوقت الذي تنصب فيه على الاخر وتبيده . العدوانية هي طريقة معينة للدخول في علاقة مع الآخر ، يقول أينار[1] :

(1) A. Hesnard , psychologie du crime , paris , payot ,1963, p. 300

توكيد الذات يتم في حالة من الجبروت السحري ، من خلال انكار الآخر بواسطة العنف • نرى من ذلك الانتقال المستمر من التحليل النفسي (من خلال الحديث عن السادية) الى وجهة النظر الظواهرية التي أعطت العلاقة مكانتها الحقة في تحليل العنف • الفارق الاساسي بينهما هو أن الظواهرية تدرس العلاقة المعاشة الواقعية ، وما يصاحبها من تجربة وجدانية ، بينما اهتم التحليل النفسي بالعلاقة الهوامية ، أو العلاقة الاسقاطية • نقاط الالتقاء عديدة بين هذين التيارين ، وقد تتضح لنا بجلاء بعد استعراض وجهة النظر الظواهرية •

حللت هذه المدرسة في دراستها لمسار العنف ، أو تجسيده في فعل حركي كارثي ، التحولات الذاتية التي تتم عند المعتدي ، وكذلك التحولات التي تصيب علاقته بالآخر • وهي تحولات لا يمكن دونها الاعتداء على الاخر • فليس هناك مطلقا عنف مجاني ، اعتباطي ، أو فجائي أو بدائي (نزق) كما قد يتصور البعض • العنف الذي نراه مجسدا في كارثة علائقية ، هو وليد عملية تغير بطيء داخليا وعلائقيا ، يقضي على عواطف الحب والمشاركة ليفجر مكانها العنف حرا •

أول خطوات السير نحو السلوك التدميري هو فك الارتباط العاطفي بالاخر • تنهار روابط الالفة ، أو المحبة ، أو الحماية ، أو التعاطف ، (على المستوى الفردي) كما تنهار روابط المواطنية أو المشاركة في المصير وكل ما عداها من الروابط التي تحمي حياة الاخر وتدفعنا الى احترامها • تحل محل تلك الروابط مشاعر الغربة والعداء والاضطهاد ، مما يؤدي الى بروز الانوية والتقوقع على الذات أو الجماعة المرجعية • والانوية هي في الاساس العجز عن اعتبار مسألة ما ، الا من خلال وجهة النظر الذاتية • الوجه الاخر للانوية هو فقدان الاخرين لاعتبارهم • تتركز كل العواطف الايجابية في الذات بعد أن كانت موزعة بينها وبين الخارج ، أو في

الجماعة المرجعية ، بعد أن كانت موزعة بينها وبين بقية الجماعات .

يرافق فك الارتباط العاطفي ، سحب كل التوظيف العاطفي من الاخر، وارجاعه الى الذات فتتضخم أهميتها على حساب الخارج الذي تتبخس قيمته . يطغى البرود العاطفي اذاً لدرجة قد تصل حد انعدام الحساسية كليا تجاه الضحية . هذا البرود هو الذي يجعل المعتدي يقدم أحيانا على فعل القتل أو الابادة ببرود كلي ، بلا مبالاة وكأنه يقدم على أمر تافــه لا قيمة له .

فك الارتباط العلائقي وما يرافقه من برود عاطفي يخلق اذاً غربــة كبيرة بين المعتدي وضحيته ، يسلخ عنها مشاركتها له في الانسانية . بعد قمع مشاعر الحب والمشاركة ، تنفجر مشاعر الحقد الذي يفتح باب العنف على مصراعيه . وحتى يتجسد هذا العنف في فعل تدميري يمس الاخر ، لا بد من عملية شرعنة[1] ، تغطي المعتدي وتزيل عنه المسؤولية بوضعها على الضحية .

عملية الشرعنة هذه تتضمن تحولات في النظرة الى الذات والى الآخر الذي يشكل الضحية المقبلة . يعيش المعتدي المقبل وضعه تحت شعـــار الغبن المفروض[2] وذلك من خلال تضخيم ما لحق به من ظلم أو وقع من حيف الضحية عليه . انه بريء ومظلوم ولا مسؤولية له فيما حدث . ولا بد له أن يتحرك اذاً لاحقاق الحق ، ورفع الضيم وازالة الغبن . يتم هذا التحرك من خلال بروز الاتجاه الانصافي[3] . ان من واجبه ان يدافع عن نفسه التي امتهنت ، وعن حقوقه التي اغتصبت . تتغذى مشاعر الغبن المفروض

---

(١) شرعنة : جعل الامر مشرعا ، يقوم على حق المعتدي في ارتكابه . Légitimation

(٢) الغبن المفروض Injustice subie

(٣) الاتجاه الانصافي Attitude justicier

وما يرافقها من اتجاه انصافي من الانوية • وتغذيها بدورها مما يضخمهـا بشكل مفرط • هذا التضخم يبالغ في خطورة الغبن الذي وقع عليها ، ويعظم من شأن الخسارة (الفعلية أو الوهمية) التي حلت بها • نتيجـة كل ذلك تصعيد الحقد على الآخر ، والاحساس بضرورة التعويض على الذات والاهتمام بها •

يقابل هذه التطورات الذاتية تغير حثيث في ادراك الاخر ، من خلال مجموعة من الاساطير التحقيرية • فالاتجاه الانصافي لا يستمر الا من خلال التحقير الثابت للضحية • يصف (أينار) بشكل رائع عملية التحقير هذه « في الجريمة يتحول الآخر الى اسطـورة (اسطـورة الخيانة ، السوء الحسد ، الاضطهاد ، انعدام القيمة الخ ••) • الشخص الحقيقي المقصور ينمحي تدريجيا في حالة من التعامي الموجه والموافق عليه عن انسانيته » (نفس المرجع ، صفحة ٢٥٤) •

يفقد الاخر حقيقته كشبيه انساني (في عيني القاتل) متحولا الـى اسطورة لا واقعية (مفهوم التماهي الاسقاطي عند كلاين) تبرر بتصرفاتها أو خصائصها الاعتداء عليها ، يتحول الى اسطورة العقبة الوجودية ، أو السوء أو انعدام القيمة • هذه الاسطورة تؤدي الى تغيير شخصية القاتل وتبرر له اتجاهه الانصافي • وبمقدار ما تحقر الضحية وتتحول الى اسطورة يزداد تسلط حق القاتل في القتل •

تصل عملية التحقير هذه حدا بعيدا فتحمل الضحية المقبلة كل الأوزار والصفات المحطة ، يعبر عنها أولا بالسباب والشتائم ، ثم بالنعوت المتصاعدة في تبخيسها ، وقد يعمم الامر من المستوى الفردي الى مستوى كوني : الضحية كائن خطر على الجميع ويجب القضاء عليها ••ولذلـك « يبدو القتل عندها في نظر القاتل كشيء طبيعي تفرضه الظروف وله ما يبرره ، دون ان يثير أي احساس بالندم » (نفس المرجع ، صفحة ٢٦٦) •

في هذه الكارثة العلائقية ، تتحول الضحية اسطوريا باختزال عادي في ذهن المعتدي لا الى مستوى الشيء فحسب ، ولكن الى مستوى الشيء حامل اللعنة الذي يجب تحطيمه • الآخر المحقر ، يحتل في ذهن المعتدي دلالة العقبة الوجودية التي تسرق له حقه في السعادة ، حقه في الاستقلال ، حقه في الحرية الخ ••• ولذلك يصبح فعل القتل ، لا فقط بريئا من الاثم ومبررا فحسب ، بل مطلوبا كواجب نبيل هو الدفاع عن الذات وكرامتها وقدسيتها ، أو الدفاع عن الجماعة وقيمها ، أو حتى الدفاع عن الحضارة والانسانية من العناصر المخربة الهدامة • وهكذا يبدو العنف التدميري كضرورة مبررة ، لا بد منها لاعادة الامور الى نصابها ، كواجب على المرء النهوض به ، من أجل بدء وجود جديد لا تسممه ولا تعرقله الضحية ـ العقبة الوجودية •

هذه التحولات تلاحظ بوضوح كبير في تصرفات العنف والابادة ذات الطابع السياسي • فحين يجسد عدة قواد نشيطين الشرعنة الجماعية لفعل القتل ، تثار الجماعة وينتشر فيها التبرير الجماعي انطلاقا من افكار سياسية أو مواطنية • وقد يصل الامر حد الوحشية الدموية ، يساهم فيها اناس عاديون ، معتقدين انهم يقومون بواجب جماعي ، أو باحقاق العدالة واستعادة الاعتبار للجماعة • في هذه الحالة يحل محل الرباط الانساني مع الآخر ، رباط كارثي ينفجر في عدوانية صماء متخذا طابع الخيار المأزقي (أنا أو هو ، نحن أو هم) • محل رباط المشاركة تحل علاقة السيطرة الجبروتية للذاتية المطلقة التي لا يمكن أن تتأكد الا من خلال ابادة الآخر ، أو على الاقل انكاره بواسطة العنف (نفس المرجع ، صفحة ٣٠٢) • وهكذا ينفجر جبروت الفعل المسيطر في حالة من نشوة سيادة النرجسية ، سيادة الانا ممارسة على الآخر ، من خلال الابادة • وهكذا فالقتل ومختلف أشكال العنف الذي نلحقه بالاخرين هو انفجار للرباط الانساني ، كارثة تصفية لعلاقات المشاركة •

لا شك ان هذه الافكار تسلط اضواء قيمة على ظاهرة العنف التي تسود حاليا في لبنان ، وتعيننا بالتالي على فهم تصرفات جماعية مذهلة في كارثيتها ، تنفجر من آن لآخر في هذا أو ذاك من المجتمعات المتخلفة .

ثالثا : محاولة لفهم العنف في المجتمع المتخلف

العنف هو آفة المجتمع المتخلف . وكما أن الحب قد يكون بدون حدود من خلال تدفق العواطف ، كذلك فان العدوانية قد تكون متفجرة في المجتمع المتخلف . العدوانية والعنف بمظاهرهما المختلفة ينخران بنية ذلك المجتمع رغم كل مظاهر السكون والدعة والمسالمة الظاهرية . العنف هو لحظة انفجار الحقيقة الكامنة في بنية التخلف . وان الاشكال الدموية والكاسحة التي يأخذها تؤكد هذه الحقيقة . وقبل ان ينفجر العنف فانه يعاش كأمل ، نرى البرهان عليه في التعطش المفرط الى القوة بكل مظاهرها ، الى الجبروت والسيطرة بكل عنفوانهما ، عند جماهير المجتمع المتخلف . ان للقوة سحرا لا يضاهيه أي سحر . والواقع ان العنف المدمر هو في نهاية كل تحليل فعل سحري ، فعل قوة مطلقة تسيطر على الواقع وتقلب المصير رأسا على عقب. واقع المهانة والعجز والقهر ، والمصير المجهول الحافل بكل احتمالات القلق وانعدام الشعور بالطمأنينة .

ولذلك فان العنف في المجتمع المتخلف بحاجة الى نظرية نوعية تنطلق من واقعه تحديدا ، اذ ان النظريات التي أوردنا عناصر من بعضها لا تحيط به ، ولا تستوعبه لحظة انفجاره ، وان كانت تسلط بعض الاضواء عليه . ليس من الممكن وضع نظرية كهذه الا انطلاقا من دراسات ميدانية عدة ، تحتاج الى وقت كبير وتضافر جهود عدد هام من الباحثين في العلوم الانسانية . ان (فرانز فانون) من الرواد الذين حاولوا فهم هذا العنف وسلطوا اضواء قيمة عليه ، خصوصا العنف المرتد الى الذات ، والعنف

الموجه الى الآخر المثيل الذي هو في الواقع صورة للذات ومرآة تعكس مهانتها وعجزها .

أما نحن فنقترح تسليط ضوء آخر من خلال تحليل علاقة القهر التي تستحكم بالانسان في المجتمع المتخلف ، ومن خلال ما تتضمنه هذه العلاقة من تبخيس وهدر لانسانيته . في رأينا أن العنف هو الوجه الاخر للقهر ، وأن العدوانية المدمرة التي تتخذ طابعا فاشيا ، هي قرينة الارهاب . العنف هو الوجه الاخر للقهر والارهاب ، أو على العكس ، الارهاب والقهر هما الوجه الخفي للعنف في العالم المتخلف . لا يوازي حدة العنف ولا يفوقه الا شدة القهر والقمع والارهاب . فهما من العناصر الثابتة ابدا في بنية أي مجتمع متخلف . وكلما تصعّد الارهاب زاد احتمال انفجار العنف الكاسح . وهذا الاحتمال لا يقابل الا بمزيد من القهر والقمع . ولا ينتج عن هذين سوى رضوخ مشدود ، يتفجر عند اول بوادر تراخي السلطة . ولذلك قلنا : ليس هناك ضوابط خلقية عند الانسان المتخلف . هنالك خوف من القمع الخارجي . وعندما يزول هذا الخوف ، أو يتوارى شبح القمع ينفجر العدوان متخذا شكل عنف مباشر مدمر ، أو شكل السلب والاستباحة .

علاقة الانسان مع السلطة في المجتمع المتخلف ، وعلاقة هذه معه خاصة جدا . السلطة لا تعرف من أسلوب للتعامل سوى الارهاب والقمع، سوى الاخضاع دون حدود ، أو هي تنحو منحى التضليل . ردود فعل السلطة عنيفة ومباشرة ، وتأخذ طابعا ماديا . البنية الاجتماعية التي تنتج عن هذه الوضعية جامدة متصلبة ، لا تتضمن أي صمامات امان ، أو أي تقنية للعدوانية التي لا بد أن تتراكم . ولذلك فان هذه العدوانية لا بد منفجرة في الخارج أو الداخل تبعا للظروف . اذ كلما زاد جمود البنى نتيجة سيطرة سلطة فردية تحكمية تفرض مرتبية قطعية ، زادت العدوانية .

ولكن العدوانية تعزز بدورها هـذه البنى . الخوف من نتائج العدوانية يدفع المرء الى البحث عن سلطة تمارس المزيد من القمع والارهاب .

ليس هناك علاقة تكافؤ ، أو حوار ، بين السلطة والجماهير في المجتمع المتخلف . ليس هناك اعتراف متبادل ، وسير متبادل للالتقاء عند نقطـة تحفظ التوازن العلائقي في مناخ مرن ومتكيف . السلطة لا تريد مواطنين، بل أتباعا . انها تخشى المواطنية التي تعبر عن ذاتها ، تخشى المواطنية التي تنزلها من مكانتها الجبروتية الى مستوى اللقاء الانساني . فالسلطة قطعية تصاب بالذعر من اللقاء الانساني مع المواطن ، ذلك اللقاء الذي يتضمن اعترافا متبادلا ، وتساؤلا متبادلا في الوقت نفسه . اذ أن السلطـة في المجتمع المتخلف تخشى وضعها موضع التساؤل وهـو شرط الاعتراف بشرعيتها .

وهكذا فإن علاقة القهر بما تتضمنه من قمع وارهاب وتضليل ، تخلق وضعية خاصة جدا مولدة للعنف بمختلف وجوهه . يمكـن بحث هـذه الوضعية من خلال حالة قطبي العلاقـة : صورة الـذات عند الانسان المقهور ، وصورة المتسلط التي تتكون لديه .

أما صورة الذات فتتلخص بشعور ممض ومثير للذعر بانعدام القيمة، بهدر الانسانية ، باحساس بالاختناق نظرا لاستحالة التعبير عـن الذات وتوكيدها من خلال صرخة احتجاج أو نداء . تثير هذه الصورة جرحـا نرجسيا جذريا . كما أنها تفجر على صعيد آخر عقدة خصاء شديدة . إنها صورة الانسان العاجز عن أن يكون في مخيلة نفسه ، رغم ما يتوسله من أقنعة وأدوات تمويه ، يغطي بها عريه الوجودي . حتى الحرمان المادي ، والغبن الاجتماعي يعاشان تحت شعار انعدام القيمة . الذعر وحده ينتج عن التنظر في هذه الذات ومواجهتها ، وانه الشعور الشديد بالاثم . هـذه الوضعية تفجر أكثر درجات العدوانية بدائية وتدميرا . تتوجه في البداية

الى الداخل لتزيد من الجرح النرجسي ، ومن شدة قلق الخصاء لما تحدثه من تبخيس وتأثيم ذاتي . ولكن وجهتها العادية هي الخارج . وهنا تتخذ شكل نزوة السطوة ، شكل السيادة السادية بكل ما فيها من جبروت . ولا بد لنزوة السطوة هذه من جماعة ، ينتمي هذا الكائن اليها كي يتمكن من التعبير عنها . جماعة يقودها زعيم اضطهادي . تلك هي الفاشية ، تنصب تدميرا ومجازر على الآخرين الذين يتحولون الى أسطورة محقرة ، تحمل كل ما تتهرب منه الذات المطعونة في قيمتها وكبريائها . وتشتط نزوة السطوة بمقدار فداحة الجرح النرجسي ، وطغيان قلق الخصاء ، أي بمقدار الحاح مشاعر الضعف والمهانة الذاتية .

ويتخذ العنف طابع التشفي الذي لا يعرف الارتواء ، لان الجرح النرجسي النابع من القهر غير قابل للاندمال . فان علاقة الارهاب تولد بشكل ملغز افراطا في الاستكانة تجاه المتسلط ، وافراطا في جبروت القوة والسطوة تجاه الاضعف ، أو تجاه من يسمح بتوجيه العدوانية نحوه . والعنف هنا يتخذ دلالة التغيير السحري للمصير وللمعنى الذاتي ، ومن هنا وظيفته الدفاعية .

ما عدا القمع الخارجي والخوف ، تبقى عدوانية الانسان المقهور دون توازن داخلي من قوة مضادة تكبح جماحها وتلطفها . ذلك ان نزوة الحياة (الجنس والحب) الكفيلة وحدها بالقيام بهذه المهمة ، لا تفلت من القمع في المجتمع المتخلف . اذ ان كل قمع ، لا بد له بغية احكام سيطرته على الانسان من فرض قيوده على حياته الجنسية . فالقمع الجنسي هو في النهاية تغلغل تحكم المتسلط بالانسان ، نفاذ الى أعماقه ، وضبطه من الداخل . ذلك ان التعبير الجنسي الارادي هو عنوان الاستقلال ، وبالتالي فالقضاء على هذا الاستقلال لا بد أن يمر بالقمع الجنسي . وهكذا يضاف الى الغبن المادي والقهر العلائقي ، احباط جنسي يؤزم ويعمق

الجرح النرجسي ، ويصعد من حدة قلق الخصاء (انعدام الرجولة ، انعدام حالة الرشد المستقل) • ان قصة الجنس مع البنى الاجتماعية القمعية أفصح من أن تحتاج الى من يرويها • ذلك ان الارضاء الجنسي والعاطفي وحده ، مع تحقيق الذات اجتماعيا ، يفتح الطريق أمام مشاعر الود والتعاطف والعلاقات المرحبة بين الناس • فهو الكفيل بتصريف العدوانية وموازنتها (لا شيء يوازن العدوانية سوى الحب الفعلي) • وذلك انه يثير مشاعر الاعتبار الذاتي ، مشاعر القيمة الذاتية • وذلك انه يعوض الجرح النرجسي الناتج عن الاحباط ويعوض مشاعر الخصاء ، ويمد المرء بمشاعر الامتلاء الحميم والوفاق مع الوجود ، انه يعزز الصورة الايجابية الطيبة عن الذات وعن العلاقات •

أما القمع الجنسي فيعطل تدخل نزوة الحياة لضبط نزوة الموت ، وهكذا تتفجر العدوانية دون ضابط ، ويتسرب الجنس من خلال هذه العدوانية بتصعيد خطورتها من خلال تحويلها الى حقد • هذا الحقد هو المعول الذي يهدم كل علاقة ايجابية ، هو النبع الذي يغذي تصرفات العنف المتشفي ، كما يغذي الميول التعصبية •

وأما صورة المتسلط ، فهي بدورها عامل تفجير للعدوانية • انها لا تمثل الاب الحامي العطوف ، بل تثير صورة الاب المهدد القاسي • تعاش كسلطة مهددة لا يتمكن المرء من التماهي الايجابي بها ، الذي يتم عادة مع صورة الاب الطيبة ، والذي يفتح السبيل أمام نشأة العلاقات الانسانية الايجابية • انعدام التماهي يجعلها تظل خارجية وتعاش بشكل اضطهادي ، وهي في حقيقة امرها كذلك ، نظرا لما تتصف به من عدوانية وما تحمله من تهديد • وحده الرضوخ يظل ممكنا ازاءها بشكلهاالخام ، مع سيطرة مشاعر الذنب وما تفجره من مآزم داخلية • والاحتمال الاخر تجاهها هو التحالف ضدها : تحالف الابناء ضد الاب الخاصي ، ومحاولة التمرد عليه

حين تسنح الفرصة . وأما الاحتمال الاخير فهو التماهي بها من خلال أوالية التماهي بالمعتدي ، وذلك ينشىء انا أعلى قاسيا واضطهاديا ، ويفجر العدوانية التي تتوجه نحو الخارج في أفعال سيطرة ونيل من الضعفاء واعتداء على كل ما يمكن الاعتداء عليه .

وطالما استحال التماهي مع صورة ايجابية متعاطفة وحامية للحاكم ، فان ذلك يزعزع روابط الانتماء الى الجماعة والاخاء في المواطنية . ففقدان روابط الانتماء الاجتماعي ، يقود مباشرة الى فقدان الالتزام تجاه الاخرين، وفقدان الاحترام لما هو عام ومشترك ، مما يفتح السبيل أمام بروز الانوية المفرطة . تنهار قيمة الآخر ، في هذه الحالة ، لان العلاقة معه لا تؤمن للمرء قيمته الذاتية ، لا تمده بالاعتراف بذاته من خلال اعتراف الاخرين به . وهكذا تسود الانانية على حساب المصلحة العامة . تبرز هذه الانانية التي لا تعرف حدوداً ولا ترعى للاخرين حرمة ، حين تضعف السلطة القامعة أو تغيب عن المسرح لأمر ما . عندها يتحول المجتمع الى غابة ذئاب . انعدام الشعور بالانتماء ، مع ما يستتبعه من انعدام للشعور بالعدالة والعدل في نيل الحظوظ ، يولد عند الانسان قلق الوحدة ، وقلق التهديد يأتيه من الاخرين ، مما يفجر عدوانيته دون حدود . تتخذ العدوانية هنا تحديداً طابع تغليب المصلحة الذاتية بشكل مطلق ، وقد تتخذ طابع السلب واستباحة الاخرين ، في حالات خاصة .

بالاضافة الى انهيار الانتماء الاجتماعي والمشاركة في المواطنية ، تعطي صورة المتسلط نموذجا سلبيا يشجع على فقدان الالتزام تجاه الاخرين . السلطة في المجتمع المتخلف فرصة من أجل التسلط والاستغلال. وهكذا فكل من تمكن من شيء من قوة أو سيطرة ، فانه سيسلك النهج نفسه ، لان ذلك هو النموذج الشائع ، ذلك هو القانون الفعلي الذي

يحكم السلوك ، وراء القانون الرسمي الذي يكاد أن يفرغ من كل معنى ومحتوى في المجتمع المتخلف . اذ ما معنى القانون سوى الالتزام تجـاه الاخرين ؟..

وهكذا ، فاذا كان القهر من خلال الارهاب والقمع هو الحقيقة التي تعشش في بنية المجتمع المتخلف تنخرها وتلغمها ، فان العنف على مختلف صوره لا بد أن يكون السلوك الاكثر شيوعا حين تسنح الفرص . تلـك هي كارثة الرباط الانساني طالما لم تتغير العلاقة بأخرى أكثر مساواة تعيد الاعتبار الى الحاكم والمحكوم .

الفصل التاسع

وضعية المرأة

المرأة هي أفصح الامثلة على وضعية القهر بكل أوجهها وديناميتها ودفاعاتها في المجتمع المتخلف • في وضعيتها تتجمع كل تناقضات ذلك المجتمع ، وفي سلوكها وتوجهها تظهر كل الاوليات التي عددنا • انها أفصح معبر عن العجز والقصور ، وعقد النقص والعار ، وأبلغ دليل على اضطراب الذهن المتخلف من حيث طغيان العاطفية ، وقصور التفكير الجدلي ، واستحكام الخرافة • كل الاواليات الدفاعية التي سبق الحديث عنها تتجمع عندها ، فهي رائدة الانكفاء على الذات والتمسك بالتقاليد ، وضعيتها تمثل أقصى درجات التماهي بالمتسلط من خلال ما تعانيه من استلاب ، توجهها الوجودي تتحكم فيه وسائل السيطرة الخرافية على المصير ، وهي الى ذلك اكثر العناصر عدوانية ، وان اتخذت هذه اشكالا مقنعة •

اضافة الى ذلك تتجمع في شخصية المرأة ، أو بالاحرى في النظرة اليها ، اقصى حالات التجاذب الوجداني • فهي أكثر العناصر الاجتماعية تعرضا للتبخيس في قيمتها على جميع الاصعدة : الجنس ، الجسد ، الفكر ، الانتاج المكانة • يقابل هذا التبخيس مثلنة مفرطة ندر أن وجدنا لها نظيرا عند الرجل ، هذه المثلنة تبدو في اعلاء شأن الامومة ، في اغداق الصفات الايجابية عليها (الطيبة ، المحبة ، ينبوع الحنان ، رمز التضحية الخ ••) ، كما تبدو فيما ترفع اليه المرأة المشتهاة جنسيا من مكانة اسطورية عند الرجل المحروم • وهكذا تتفاوت مكانة المرأة في نظر الرجل ونظر المجتمع

عموما بين أقصى الارتفاع (الكائن الثمين مركز الشرف الذاتي ، رمز الصفاء البشري الذي يبدو في الامومة) وبين اقصى حالات التبخيس ، المرأة العورة ، المرأة رمز العيب والضعف ، المرأة القاصرة ، الجاهلة ، المرأة رمز الخصاء ، المرأة الاداة التي يمتلكها الرجل مستخدما اياها لمنافعه المتعددة .

ومن حالات التجاذب الوجداني الاخرى ، تذبذب الموقف منها ما بين التبعية والطفلية . فهي تابع لا حرية له ولا ارادة ولا كيان ، انها ملكية الاسرة منذ ان تولد وحتى تموت (الاب اولا ، ثم الاخ ، وبعد ذلك الزوج) مكانتها في أن تكون ما أريد لها ليس الا . وعلى العكس من ذلك نجدصورة المرأة المرجع (خصوصا الام) التي يقف منها الزوج والابناء موقفا طفليا اتكاليا .

يتلاقى في هذه التجاذبات في الموقف من المرأة ، الاضطراب الاجتماعي ، والاضطراب النفسي . ليس هناك حالة أكثر فصاحة في التعبير عن التفاعل واللقاء بين المستوى الاجتماعي والمستوى اللاواعي من الحياة ، من حالة المرأة .

على المستوى الاجتماعي نلاحظ التذبذب الهائل في الموقف منها واحاطتها بمجموعة كبيرة جداً من الاساطير التي تسلبها كيانها الانساني بما فيه من أوجه قوة وضعف . وعلى المستوى اللاواعي تتحول المرأة الحقيقية (من لحم ودم واحساس) الى مجرد سند هوامي لكل العقد والمآزم والتصورات والمخاوف والرغبات والاحباطات المكبوتة . ليس أكثر مثلنة وتبخيسا للمرأة على المستوى الاجتماعي ، من مكانتها في لا وعي الرجل المقهور . اسقاط العيب والعار ، والضعف عند الرجل على المرأة اجتماعيا ، يقابله اسقاط نقص وخجل الخصاء على المستوى اللاواعي . المرأة اداة المجتمع ، وخصوصا المتسلط ، هي في نفس الوقت أداة الرغبات

اللاواعية ، في كلا الحالتين تحرم الاعتراف بوجودها ككائن قائم بذاته له غيريته وأصالته . القوانين العديدة المدنية والدينية ، التي تقيد المرأة ، في حريتها ، وقدرتها على الاختيار ، وفي حركة جسدها وامكان التصرف به ، تخدم في آن معا اغراض السيطرة الاجتماعية عليها كأداة للانجاب ، والامتاع ، والانتاج ، وأغراض السيطرة الهوامية على كيانها الذي هو محط الرغبات اللاواعية وملتقى اضطراباتها . في الحالتين تستخدم المرأة كوسيلة للتعويض عن المهانة التي يلقاها الرجل المقهور اجتماعيا، وللتعويض عن قصوره اللاواعي باسقاطه على المرأة . في الحالتين تفرض على المرأة وضعية من القهر تقضي على امكاناتها الذهنية والابداعية والاستقلالية والمادية . ويكرس هذا القصور ، كما تكرس صفات الانوثة المبخسة ، التي هي تتاح لوضعيتها السفلى في المجتمع ، ومكانتها الهوامية في لا وعي الرجل ، كجزء من طبيعتها ، أو تكرس على أنها طبيعتها تحديدا . ويتوج الغبن اللاحق بها ، من خلال اسباغ صفة الطبيعة والانوثة على مختلف الوان التبخيس التي مورست عليها ، بشكوى الرجل من قصورها وجهلها، ونزويتها . فالرجل كتعبير عن نظام التسلط في المجتمع ، يشكو في الحقيقة من ثمار ما صنعت يداه اجتماعيا ، ومن آثار اسقاطاته اللاواعية في آن معا . انه يتنكر لعاره الاجتماعي الذي الصقه بالمرأة ولخصائه اللاواعي الذي أسقطه عليها . بذلك التنكر يتحرر من مسؤوليته ويتجنب تفجر القلق الشديد الذي لا بد عاصف بكيانه ، لو لم يتهرب من عاره ومن خصائصه بهذا الشكل . تلكم هي في نظرنا ، أقصى حالات الغبن والاستغلال اللذين يصيبان المرأة ، باعتبارها اكثر العناصر قهراً في المجتمع. حيثما وجد قهر واستغلال لا بد أن يصيب المرأة منهما القسط الاوفر ، وحيثما وجدت الحاجة الى حشر كائن ما في وضعية المهانة ، لا بد أن يقع الاختيار على المرأة . ولكن الواقع أن طبيعة المرأة لا علاقة لها بهذا القهر. فالفروق البيولوجية والتشريحية بين الرجل والمرأة لا تبرر مطلقا ما فرض

على كيانها من تبخيس ، ولا تقدم أي سند طبيعي فعلي لما يلحق بها من غبن • الواقع البيولوجي يذهب في اتجاه معاكس تماما ، فالمرأة اكثر مناعة من الرجل ، وابناؤها البيولوجي الوراثي أكثر متانة • كذلك فان الرصيد العصبي الدماغي الذي تولد فيه لا يقل بأي حال عن رصيد الرجل، والفرق هو في المكانة التي تعطى لكل منهما ، وما فيها من فرص تنمي امكانات الرجل ، وتطمس امكانات المرأة • حتى ما يقال عن مازوشية بيولوجية نفسية عند المرأة ، هو اسطورة في معظمه ، تابع من التشريط المستمر والمنظم الذي تخضع له منذ الميلاد • أبرز هذا التشريط هو القمع المنظم لعدوانية المرأة في تعبيراتها الحركية العضلية ، وقمع تعبيرات الجسد عندها عموما ، مما يجعل الطاقة الحيوية ترتد الى الداخل على شكل فوران انفعالي مفرط • جزء كبير مما يسمى مازوشية المرأة ، ليس سوى ارتداد عدوانيتها المتفجرة نتيجة للاحباط المزمن ، الى ذاتها • اما الجزء الاخر فيتخذ سبيله الى ممارسات الكيد والدس والحقد والحسد التي تشتهر بها المرأة ، أو يشاع اجتماعيا اشتهارها بها •

أما العاطفية الزائدة ، وسيطرة الانفعالات ، واستفحال الخرافة عندها ، فهو ليس سوى ثمرة ما فرض عليها من تجهيل ، بسبب حرمانها من فرص تنمية طاقاتها الذهنية التي تسمح وحدها بسيطرة العقلانية والمنطق • فإن سجنها في حدود منزلها ، مع ما يتضمنه من حرمان لفرص التعامل مع الواقع والتدريب على السيطرة الفعلية عليه ، واستلابها ارادتها وقدرتها على الاختيار ، هو الذي أدى الى تفشي الخرافة في وجودها وممارساتها ونظرتها الى العالم • وان حرمانها حرية التعبير عن الذات ، هو الذي يلجئها الى الوسائل الملتوية • وان وضعها في موضع المهددة ، الفاقدة للسيطرة على مصيرها ، لا يترك لها مجالا سوى الشعوذة والتطير ، سوى جبروت الفكر السحري ، والسيطرة الخرافية على المصير •

وهكذا فنحن لسنا مطلقا بصدد كيان وخصائص بيولوجية ، لسنا بصدد ما تشيع تسميته بطبيعة المرأة • اننا بصدد وضعية تفرض عليها ، ومكانة تعطى لها • تناط بالمرأة وظائف اجتماعية علائقية ولاواعية محددة ، تتلخص في ضرورة حصر المهانة ، واسقاط الاضطراب على كائن «معين» ، كي يستقيم الامر للاخرين (للرجل والمتسلط) • ذلك هو لب وضعية القهر الذي تخضع له المرأة ، أي تحويلها الى أداة لخدمة اغراض المتسلط ، والى محط لتناقضات المجتمع • ويتم ذلك من خلال سلسلة من الاستلابات والاختزالات تفرض على كيانها ، تماما كما هو حال كل وضعية اعتداء على انسان آخر • قبل الحديث عنها ، لا بد من وقفة قصيرة عند الوظائف الاجتماعية التي يناط بالمرأة القيام بها في المجتمع المتخلف ، والتي تشكل ملامح وضعية القهر •

اولا : ملامح وضعية القهر

يتناسب القهر الذي يفرض على المرأة مع درجة القهر الذي يخضع له الرجل في المجتمع • فالامر ليس مطلقا غبنا ورضوخا يقابلهما مجرد سيادة وتسلط • كلما كان الرجل اكثر غبنا في مكانته الاجتماعية ، مارس قهرا أكبر على المرأة • ويمكننا بهذا الصدد ان نميز بين حالات عدة ، نختار مستويات ثلاثة أساسية منها : وضعية المرأة في الطبقة الكادحة ، وضعية المرأة في الطبقة المتوسطة والمثقفة ، ووضعية المرأة في الفئة ذات الامتياز • تلاحظ هذه المستويات عموما في الاوساط الحضرية • يختصر كيانها كله في جسدها الذي تحول الى مجرد أداة انجاب للاولاد ، الى مجرد رحم ، قيمته في درجة خصوبته ، وتحديدا في قدرته على انجاب الصبيان ، عندما يستنزف ، تهمل المرأة ، ويتحول الرجل السيد عنها الى غيرها • والمرأة في هذا الوسط هي أداة للمصاهرة ، اقامة الروابط بين العشائر من أجل زيادة قوتها وسطوتها ومالها ، أو ضمن العشيرة (تزويج الفتاة الى ابن عمها)

من أجل زيادة لحمة العشيرة والحفاظ على ثروتها . المرأة أداة التحالف والتلاحم ، لا وجود لها خارج اطار هذا الدور . المرأة ذات الجسد ، أداة الانجاب والمصاهرة ، تقتل في نفسها ، ويندثر عقلها طي النسيان .. قيمتها كلها ، شرفها كله يركز في عفافها الجنسي ، المتمثل سطحيا بغشاء البكارة . شرفها يتلخص في صفة تشريحية ، كما تقول الدكتورة نوال سعداوي[1] قد يولد بها الانسان أو لا يولد . ان ربط الفتاة بالبكارة ، وربط شرف الرجل (الاب) بالامر نفسه يشير الى مدى الركاكة التي تميز اعتباره الذاتي ومكانته بين الاخرين ، ومدى عظم الاخطار التي تتهدد هذه المكانة. ذلك يجعلنا نفهم لماذا يقبل العشائري على الفعل الذي يسمى « جناية شرف » بكل هذا الهياج الانفعالي ، وكل هذا الاصرار . فالانسان العشائري هو ذلك الانسان ذو القيمة المعرضة في صلبها . ورد الفعل ، هو بمقدار التهديد الذي تتعرض له قيمته الجذرية . الانسان العشائري يسقط كل عاره اذاً على المرأة مما يتيح له الاحتفاظ بمظهر القوي، راسخ البنيان، أمام الاخرين، بعد تحميل الزوجة والبنت والاخت خصوصا عبء تجسيد عاره . فظاظته الظاهرية تتناسب مع ركاكته الداخلية وتخفيها . يضاف الى ذلك كله ، أن جناية الشرف هي ببساطة فعل استرداد وردع للمرأة الي حاولت ان تكون لذاتها ، أو التي غرر بها ، فعل اعادة لوضعيتها كأداة تمتلكها العشيرة ، وتنتقل ملكيتها لقاء مصلحة ، أو لقاء مقدار من النقود أو المتاع من الاب والاخ ، والعم والخال الى الزوج .. جناية الشرف بقدر مأساويتها، وبقدر كشفها للقهر الذي تتعرض له المرأة ، تشير الى ما يعتمل في بنية العشيرة من اختلال ومآزم ، نابعة عن وصول القهر المفروض على الجميع الى أقصى حدوده .

---

(١) د. سعداوي ، المرأة والجنس ، القاهرة – بيروت ، الناشرون العرب ، ١٩٧١ ، ص ٢٥

نعود الى البيئة الحضرية في المجتمع المتخلف ، فنحاول ان نقف قليلا عند كل نموذج من النماذج الثلاثة التي اخترناها .

١ ـ المرأة في الوسط الكادح وما تحت الكادح :

هنالك تحديد وتوزيع للادوار بين الرجل والمرأة في هذا الوسط ، بشكل متكامل جدليا من خلال تناقضه . كل من المرأة والرجل يتمم الاخر وظيفيا مما يسمح بشيء من التوازن الحيوي في هذا الوسط . هذا التوزيع يتمحور أساسا حول الدفاع ضد وضعية القهر التي يرزح تحتها الإنسان الكادح ، من خلال تعزيز وتضخيم مكانة الرجل ، بعد أن تحمل المرأة كل المهانة وتتحول الى المعبرة عن العجز والقصور .

نلاحظ في هذه الاوساط تعارضا واضحا ومتكاملا لتصرفات وخصائص الذكورة والانوثة . هناك مبالغة واضحة في قوة الرجل وذكورته ومكانته . وهناك مبالغة في اسقاط القدرة على المجابهة والتصدي عنده . وهناك مبالغة في تقدير مدى تحمله وجلده وعدم شكواه . وهناك مبالغة في قدرته على كسب الرزق وتدبير أحوال الاسرة ، (اسطورة الرجل الذي ينتزع اللقمة من فم السبع) . وهناك مبالغة في عدوانيته ، فورات غضبه ، سلوكه الهجومي ، من ناحية وشجاعته وقدرته على التحمل من ناحية ثانية .

فالرجل باعتباره كاسب الرزق ، والطرف الذي يجابه العالم الخارجي وتحدياته وتهديداته ، لا بد له من أن يعبأ ، ويشحن بقوة لا يتمتع بها واقعيا معظم الاحيان . ولا بد من انكار مظاهر الضعف والعجز وقلة التدبير والخوف عنده ، اذ بهذا الانكار وحده تتمكن الاسرة من الشعور بشيء من الاطمئنان الى وجود سند قوي ، اذاً ليس أكثر اثارة للقلق الوجودي من احساس الاسرة ، بضعف وهوان معيلها ، وعنصر التصدي للعالم الخارجي فيها .

وحتى يتم شحن الرجل بالقوة أو وهمها وبالقدرة أو تخيلها ، حتى يتم تحويله الى اسطورة الكفاءة التي تصور عنده ، لا بد من اسقاط الضعف والهوان ، على المرأة . وهكذا تلعب هذه دور المعبرة عن المأساة ، الناطقة بالمعاناة . تلعب دور الكائن القاصر التابع الذي يحتاج الى وصي . تلعب دور العاجزة التي ليس لديها من قدرة على السيطرة على المصير سوى الوسيلة السحرية في الدعاء والتوسل ، والرجاء والتمني من ناحية ، والشتم وصب اللعنات من ناحية ثانية .

في مقابل عقلانية الرجل ومبادرته ، يوكل اليها دور العاطفية،الانفعالية وفي مقابل الحياة الموجهة نحو الخارج ، يوكل اليها دور الانزواء ضمن حدود منزلها ، وانحسار وجودها ضمن حدود اسرتها . وفي مقابل قوة الرجل وذكورته وسيطرته ، يوكل اليها تمثيل المازوشية والرضوخ والاستسلام للاقدار . وفي مقابل كبرياء الرجل وتضخم اعتداده بنفسه وعنفوانه ، يوكل اليها دور التعبير عن العيب والعار والحاجة الى السترة. وبمقدار تهديد مكانة الرجل في الخارج ، تتعزز قوته داخل المنزل لاسباب تعويضية دفاعية ، فهو السيد مسموع الكلمة ، ذو السلطة التي لا تناقش وهي التابع ، الخاضع ، خادم السيد . وبمقدار نفي وانكار المعاناة عند الرجل ، تتفجر المعاناة عند المرأة .

وهكذا يحدث انشطار في الاسرة من خلال توزيع الادوار : الرجل مركز القوة والثقل ، بمقدار ما تتحول المرأة الى مركز الضعف والمهانة . فكل يلعب دوره المقرر له ، وكأنه لم يخلق الا له ، أو كأن هذا الدور جزء من طبيعته . عندما تختل الادوار يصاب توازن الاسرة في الصميم ، وذلك عندما يعجز الرجل عن الحفاظ على مظاهر القوة المفترضة فيه ، وتتحول المرأة الى دور الرجل . تعيش الاوساط الكادحة والمقهورة هذه الوضعية كمصدر قلق كبير وصريح.والقاعدة هي أن يعوض الرجل كل قهره ومهانته

من خلال لعب دور السيد الذي يخضع المرأة ، يستعبدها ويستغلها ، ويحولها الى اداة (١) ، تخدمه ، تنجب له الذرية التي تعزز قوته الذكرية ، تتحول الى وعاء لمتعته بشكل أناني لا يراعي حاجاتها ورغباتها ، تموت نفسيا كي يستمد هو من هذا الموت وهم الحياة ، تسحق كي يستمد هو من هذا الانسحاق وهم تحقيق الذات ، باختصار يستغلها كليا وعلى جميع الاصعدة ، كي يتهرب من هوان استغلال المتسلط له . المرأة في الاوساط ما تحت الكادحة تصل اقصى درجات القهر من خلال تنكر المجتمع والاسرة لوجودها . فهي تستقبل حين تولد بالتذمر والتبرم والضيق ، اذا لم تستقبل بالرفض الصريح . وهي توضع كطفلة في مرتبة ثانوية أو هامشية بالنسبة للصبي الذي يعطى كل القيمة . وهي تتحول الى خادمة للاخوة والاب ، حين تستنزف طاقة الام . وهي تستخدم كأداة لتمرس اخوتها ببسط النفوذ الذكري من خلال الوصاية وبزعم الحماية الوهمية لها . وعليها تنصب كل الضغوط وتفرض كل القيود في طور البلوغ . وتتابع مسيرتها متوجهة نحو مصيرها كأداة للمصاهرة ، يباع جسدها لقاء تغطية أعباء نفقاته ولقاء مبلغ من المال ، من الزوج كي يتخذ منه أداة لمتعته ، ووعاء لذريته ، وجهازا حركيا يقوم على خدمته . أما نفسها وكيانها فيفرض عليهما موت معنوي بطيء . غير إن استعباد المرأة لا يتخذ دوما هذا الشكل الصارخ لحسن الحظ ، ولكنه موجود ابدا ، وهو يتخذ اشكالا معنوية ، اذا لم يظهر بطابعه المادي . ولكن الشيء الاكيد ، هو أن المرأة توضع دوما في المكانة الاكثر اجحافا وقهرا وتنكرا لكيانها . ذلك هو السبيل الوحيد أمام الرجل المقهور والمستغل كي يكون ، طالما لم تتيسر امكانات التغيير ، والقضاء على القهر ، من خلال عملية تحرير اجتماعي . فان قهر المرأة على هذا المستوى هو دفاع الرجل ضد القهر الذي يصبه عليه المتسلط . ذلك أن كل قهر يصيب المرأة في علاقتها بالرجل ، يقابله قهر عند هذا الاخير يصيبه به المتسلط . نجد هذه الظاهرة منتشرة في جميع جوانب حياتهما ، ويمكننا ذكر بعض

الأمثلة عليها .

تستغل المرأة الى الحد الاقصى (طاعة ، خضوع للزواج ، تحديد للرغبات ، والارادة ، اداة انجاب وانتاج) مما يستنزف طاقاتها بسرعة مذهلة . تظهر عليها وهي لا زالت في شرخ الشباب امراض القصور المتنوعة والاختلالات الوظيفية المتعددة . ويقابل ذلك عند الرجل استنزاف لقواه الجسدية والنفسية ، في عمل استغلالي لا يعطيه المردود المستحق . وكما تطلق المرأة أو تهجر عندما تستنزف ، كذلك هو حال الرجل حين يطرد من عمله اذا أقعده المرض ، الناتج عن قلة التغذية ، وقلة العناية الصحية ، والارهاق الجسدي .

ان عبودية المرأة التي تباع وتشترى بعقد زواج لقاء مبالغ يقبضها الاهل ، يقابلها عبودية الفلاح الذي يباع مع الاقطاعية من اقطاعي الى آخر .. وان استغلال جهد المرأة وتبخيس مردوده ، عدم تثمينه اقتصاديا كما يستحق ، خصوصا العمل المنزلي الذي يعتبر جهدا دون مقابل ، يقابله استغلال جهد الكادح وتبخيسه ، عدم اعطائه الاجر الذي استحقه . كذلك فان طفيلية المرأة وتبعيتها وتقابلهما طفيلية الانسان ما تحت الكادح وهامشيته المهنية وتبعيته .

في العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ، يقع الغرم على المرأة دائما ، المرأة هي المذنبة ابدا . مذنبة ان استسلمت للاغراء قبل الزواج ، ومذنبة ان هي حرمت المتعة برفقة زوجها ، نظرا لما تعرض له جسدها من قمع ، ومذنبة ان هي لم تنجب ، ومذنبة ان لم تنجب الذكور . تتحمل المرأة الوزر كله ، كما يتحمل الرجل الكادح الوزر كله في الحياة اليومية (هو الجاهل ، الكسول ، غير المنتج ، غير المدبر الخ ..) افلات الرجل من المسؤولية والمحاسبة هو كافلات المتسلط والمستغل والاقطاعي بالتمام . هكذا فان علاقات الرجل الجنسية مع المرأة تسودها الانانية الذاتية . انه لا يفكر الا بنفسه ومتعته . والمرأة ليست سوى أداة لهذه المتعة . تماما كأي علاقة

أستغلال ، الرجل الكادح فيها ، مجرد أداة للغني وزيادة الثروة . وكما يتخذ الرجل من نقص عقل المرأة وضعفها وقلة حيلتها مبررا كي يستغلها ، كذلك يفعل الاقطاعي بالفلاح البائس العاجز ، الذي لا يصلح الا للعمل المضني .

وكما يقيد جسد المرأة ويؤجر جنسيا واقتصاديا ، من خلال القوانين المختلفة الدينية والمدنية التي تحاول تطويقه بقسوة ، من أجل ترويضه وبالتالي تعويد حاملته على الرضوخ غير المقيم على الصعيد الاقتصادي . وكما « تعتبر القوانين عمليا سلاحا في يد الرجل في مواجهة جسم المرأة - الام ، الذي يخيف ويفترس جسم الرجل - الابن [1] » كذلك فانها سلاح في يد المتسلط لاستغلال طاقة الرجل وتطويق جسده بقسوة ، وسلاح في يده للجم كل التعبيرات التمردية التي تتهدد المتسلط وتخيفه .

ان القوانين التي تفرض على المرأة العفة وغيرها من القيم التي تقمع جسدها ، نجد لها مطابقا في القوانين التي يفرضها المتسلطون على المقهورين (الاغنياء على الفقراء ، وأصحاب رؤوس الاموال على العمال) ، من خلال غرس قيم الطاعة ، والزهد في الحياة ، والقناعة بضآلة الاجور ، والوفاء لأولياء النعمة ، وبذل الحياة في الدفاع عنهم بينما يستمتعون هم بقيم الجشع والنهب والربح المتزايد ، والافراط في كل المتع التي جرموها على الطبقات الكادحة (د. نوال سعداوي ، نفس المرجع ، صفحة ٢٨) .

أخيرا ، المرأة التي تنبغ تسحب منها صفة الانوثة : « التفوق والنبوغ في نظر المجتمع صفة الرجل فحسب ، فاذا ما أثبتت امرأة ما نبوغها بما لا يدع مجالا للشك ، اعترف المجتمع بنبوغها ، وسحب منها شخصيتها كامرأة

---

(١) د. عباس مكي ، الجسم ، محرماته وتشريعاته وتعبيراته الانفجارية الرمزية ، مجلة « دراسات نفسانية » ، كلية الاداب ، الجامعة اللبنانية ، العدد الاول ، بيروت ١٩٧٤ ، صفحة ١٢٢ .

وضمها الى جنس الرجال » • (نوال سعداوي ، نفس المصدر) ، فالمرأة القادرة يطلق عليها لقب رجل ، أو « أخت الرجال » • تماما كما يضم الرجل المقهور اذا تمكن من النبوغ والافلات من القهر ، الى الطبقة ذات الامتياز ، قاطعا الصلة بينه وبين أصله الشعبي المتواضع •

ان الامثلة غير هذه كثيرة ، كل ما نود قوله هنا هو أن المرأة يفرض عليها دور مجسد القهر والغبن ، كيما يتمكن الرجل المغبون من الاحتفاظ بشيء من توازنه وكبريائه الظاهري • وما تعيشه المرأة ظاهرا صريحا من قهر وغبن واستغلال ، هو نفسه ما يعانيه الرجل الكادح بشكل ضمني •

ب ـ المرأة في الطبقة المتوسطة

بين أفراد هذه الفئة ، تحديدا ، تطرح مشكلة المرأة بكل حدتها ،نظرا لما تتميز به الطبقة المتوسطة عن غيرها من مرونة وتطور وسير في اتجاه التغيير • هذه الفئة هي التي تعي مشكلة المرأة،على عكس الفئتين الاخريين (الفئة الكادحة ، والفئة ذات الامتياز) حيث تفرض على المرأة أدوار جامدة ، ويوكل اليها وظائف ثابتة • فقد اتيح للمرأة في الفئة المتوسطة ، أن تخرج من سجنها التقليدي ، وأن تأخذ قسطا متفاوتا من العلم ، وأن تبدأ حياة منتجة ، وتشارك الرجل الاعباء والمسؤوليات داخل الاسرة وخارجها كما أن الرجل ، من ناحية ، بدأ يعي وضعية المرأة الفعلية وأهمية مشاركتها وضرورة نمو شخصيتها وبناء كيانها الذاتي ، كشرط لارتقائه هو بدوره • اذ لا يمكن مطلقا ان يرتقي الرجل بمفرده ودون المرأة ، مهما دلت الظواهر الخارجية على العكس • ذلك ان رقيه بمفرده سيظل سطحيا أو جزئيا لا محالة ، طالما ظلت المرأة على قهرها وانشدادها نحو الخرافة • فالرقي ليس شيئا يكتسب فقط من خلال الدراسة والممارسة ، بل قبل ذلك تمرس أسسه من خلال تربية الطفل وأعداده للحياة • وهنا تكمن خطورة دور

المرأة . فاذا كانت متخلفة ستغرس في نفسه لا محالة بذور الخرافة ، وتعطيه عن العالم تصورا سحريا ، انفعاليا تحيط به الاوهام من كل جانب ، مما يحرمه السيطرة على الطبيعة من خلال المعرفة العقلية المنطقية . ان رقي الرجل رهن بارتقاء المرأة ، تلك حقيقة تفرض نفسها على الواقع ولا مجال للمكابرة فيها . والمرأة المقيدة تشكل قيدا صريحا أو خفيا لانطلاقة الرجل. ولا مراء اننا نستطيع أن نحدد مدى ارتقاء مجتمع ما ، دون خطأ كبير ، انطلاقا من وضعية المرأة فيه ، ومدى ما بلغته من تحرر .

على أن هذه الفئة في المجتمع النامي ، لا زالت تعاني الكثير من رواسب الماضي وذلك عند كلا الجنسين على حد سواء . والصفة المميزة هي الاختلال في توزيع الادوار ، وغموض الممكنات لكل من الرجل والمرأة. فالمرأة تتوق الى الانطلاق وتعي ضرورته لها وحقها فيه . والرجل يتوق ايضا الى الانطلاق له ولقرينته . ولكن كلا منهما لا زال اسير قيود تكبله من الداخل وفي أساس بنية شخصيته، وتحتاج للتخلص منها الى مغالبة شديدة للنفس. فالمرأة تريد أن تنطلق ولكنها لا تجرؤ على طرح قضيتها جذريا. والحق يقال ان الرجل لا يشجعها على هذا الطرح الذي يضعه هو في المقام الاول موضع التساؤل ، ولا بد أن يدفع به الى اعادة النظر بوضعيته واسلوب علاقته بها.

ان المرأة أسيرة عملية تشريط مزمن تدفعها لتلعب دور الراضخ المقهور، أو دور الاداة ، وهي تطمئن لهذا الدور وقد أعدت له نفسيا ، ولكنه لم يعد يرضيها على مستوى الوعي بكيانها والوعي بحقوقها . والرجل يتحدث عن المساواة وعن تحرير المرأة ، ولكنه لا يستطيع التخلي عن امتيازاته بسهولة . وهكذا يعاني كل منهما من صراعات نفسية وتناقضات داخلية وعلائقية . فهي لا زالت محافظة مقيدة داخليا مع تحرر ظاهري . وهو ما زال متمسكا بوضعية السيد وامتيازاته مع ادعاء المساواة وتأييد حقوق المرأة . وبالمقابل فان المرأة تخشى الاقدام على تحمل مسؤولية مصيرها ، وفرض ذاتها ، لما غرس في نفسها من مخاوف بغية ابقائها في حالة تبعية .

وهي تجد في تلك التبعية نوعا من الاستقرار والشعور بالحماية والامن ضد العالم الخارجي الذي صور لها كغول ، أو وحش مفترس يتربص بها. كما أنها تخشى ان يسيء فهمها الرجال الذين لم يعوا بعد ضرورة تحررها ، أو الذين يحرصون على امتيازاتهم . وهكذا تتراجع الى مواقعها السابقة مترددة أمام عظم التحديات وكبر المهمة ، خصوصا انها غير متأكدة من الظفر ، وتخشى ان تدفع كيانها أو سمعتها ثمنا لمحاولة فيها قليل أو كثير من الجرأة . ولكنها تعود بعد استكانة تطول أو تقصر ـ فتعبىء نفسها ضد وضعية العبودية المفروضة عليها ، وتحس احساسا ممضا بثقل ماضيها ، وما فرض عليها من غبن من قبل محيط تجاهلها كانسانة ، ولم يرد لها أن تكون سوى اداة . وتصدر عنها ردود فعل متشنجة ، على شكل تمرد جزئي وآني ترفض كل رموز الماضي ، وكل وظائف دورها التقليدي ، ترفض خصوصا دور المرأة الخادم ، المستلب اقتصاديا ، ودور آلة التفريخ والمتعة . تثور على صورة الانثى التي تراها في أمها . وقد تشتط في هذا الرفض كي تصل حد رفض الانوثة بمجملها ، من خلال التنكر لجسدها وخصائصه البيولوجية وحاجاته . ترى امامها الرجل كنموذج للتحرر والانطلاق ، فتحاول ان تقلده ، وأن تصبح نسخة عنه . وهي في ذلك تستلب ذاتها لا محالة . انها تخسر انوثتها دون أن تربح الرجولة . او هي تمر بفترات من التذبذب ما بين الافراط في الانوثة فتلعب دور الغاوية ، والافراط في التنكر لتلك الانوثة من خلال الانخراط في ممارسات وتصرفات تتصف بالذكورة . وقد يغلب عليها ان تلعب دور الانثى ظاهريا دون ان تعيشه في علاقة حميمة .

أما الرجل فمعاناته ، وان كانت أقل من معاناة المرأة ، فان أزمته ليست بالبسيطة . فهو متحرر فكريا وثقافيا ، وهو من أنصار المساواة ولكنه ينتظر أن تقوم المرأة بذلك ، دون أن يشارك فيه بشكل فعال . والغالب ان يكون حماسه نظريا ، أما في الممارسة اليومية التلقائية فلا زال أسير التقسيم العبودي للادوار ، لا زال شديد الحساسية لكل ما يمكن

أن يعتبر نيلا من سلطاته وحقوقه على المرأة . والحقيقة انه في معظم الحالات يخشى أن تفلت المرأة من سلطته . يخشى ان تنافسه وان تتفوق عليه ، ولذلك فهو يحتمي وراء حقوقه التاريخية ، وما تعطيه له من سلطة على المرأة . انه يخشى اذا أفلتت المرأة من سلطته ، أن يجد نفسه امام امتحان عسير لذكورته ، التي ارتبطت لسوء حظه : بالتسلط أكثر مما هي مرتبطة بالقدرة على الوصول الى المشاركة في متعة اللقاء الجسدي . وهكذا فاكثر الرجال تحررا ، لا زال عمليا يتصرف انطلاقا من توزيع للادوار يعطيه بعض المكاسب ، ويشد المرأة الى الوراء ، ويتصرف خصوصا من موقع تجنب وضعية امتحان قدراته الفعلية ، ووضعها موضع التساؤل .

بين هذه الفئة ، هناك بالتأكيد فروق كبيرة على سلم المحافظة والتحرر ، وعند الجنسين على حد سواء . والصراعات بالتالي كثيرة نظرا لعظم التناقضات الذاتية والعلائقية . ولا زالت المرأة على كل حال تدفع الثمن الاكبر . فتحررها الاقتصادي النسبي ؛ لم يحررها بعد من اعباء الاسرة التي لا زالت بدون تقويم . فهي تبذل جهدا مضاعفا كي تحصل على حقوق ومكانة ليست متوازية مع ذلك الجهد .

ج ـ وضعية المرأة في الفئة ذات الامتياز

لا تعاني المرأة في هذه الطبقة التي تحظى بامتيازات الثروة والمكانة، من القهر بالمعنى المادي . فهي تعزز ، وتحتل مكانة رفيعة الشأن ، تحظى بكل التسهيلات الحياتية ، وتتقلب في ضروب النعيم ، على حساب نسوة أخر يقمن بالعمل بدلا عنها . ولكنها اذا افلتت من القهر ؛ فهي لا تفلت مطلقا من الاستلاب . انها أداة رغم كل شيء . يطمس عقلها ، وتستلب ولذلك فهو يحتمي وراء حقوقه التاريخية ، وما تعطيه له من سلطة على شخصيتها لقاء تقديسات مادية تحظى بها . تحدد لها وظيفة معينة ذات ابعاد عدة ، تدور كلها حول خدمة حياة الاسرة والتعبير عنه . المرأة هي اولا المحافظة

على الاسرة وتقاليدها وامتيازاتها، وهي تذوب كليا في هذه الاسرة ، حتى لا يبقى لها اي كيان خاص ، وهي في المقام الثاني اداة زيادة سطوة هذه الاسرة وبسط نفوذها ، من خلال المصاهرة ، اذ تضم ثروة الاب الى ثروة الزوج ، أو جاه الاول الى جاه الثاني ، فهي من هذه الناحية أداة احتكار الامتيازات والاحتفاظ بها ضمن اسرة متفاوتة في عرضها . والويل لها اذا أرادت ان تشذ عن هذا الدور ، فستحاصر من كل صوب بالترغيب والترهيب . واذا قاومت ، فستوصم بالعقوق ، وجحود النعمة ، ويكون مصيرها النبذ . والاسرة لن تقبل ان تمس مصالحها ، أو جاهها أو ثروتها من خلال اختيار تقوم به البنت ولا يخدم مصلحتها . ذلك أن هامش الحرية المعطاة لها ضئيل جدا ، لها الحق في التصرف كما تشاء ، ولها أن تشتهي ما تشاء ضمن القفص الذهبي للاسرة ذات الجاه ، فاذا تمردت عليه ، فليس من المستبعد أن تسجن حريتها فعليا . ان قيمتها الانسانية الحقيقية ، حياتها العاطفية ، لا حساب لهما ، حين تزف ، لا الى قرين تتعاطف معه وتنسجم ، بل الى رصيد مالي ، أو عقار ، أو لقب . تلك هي أهم مواصفات شريك حياتها المختار ، والحقيقة انها لا تختار انسانا ، ولا تزف الى شريك ، بل تقترن برمز .

تتعرض المرأة في هذه الفئة الى أخطر انواع العبودية ، وهي الاستلاب العقائدي ، حيث تزين لها وضعيتها كأداة ، وتربط قيمتها ، بمقدار كلفة الجهاز والاثاث ، ومدى ترف وفخامة الزفاف . وعندما تتزوج لا يتغير وضعها في قليل أو كثير . انها مجرد اداة ثمينة يقتنيها زوجها ، أداة كلفه الحصول عليها غاليا . ولكنه يعتز بقدرته على ذلك ويتباهى ، فالمردود دائما أكبر من الكلفة أو هو مواز لها على أقل تقدير . فهو على كل حال لم يتزوج امرأة انسانة ، بل اسطورة جمال ، أو جاه ، أو مال .

بعد الزواج تقوم المرأة بدور هام جدا ، تكاد حياتها تقتصر عليه ، وهو تحديدا ، استعراض جاه الاسرتين ، وثروتهما . انها بكل بساطة أداة دعاية لزوجها ووالدها ، من خلال استعراض ما أنفقت ، مقدار ما أسرفت

في الانفاق • دورها أن تتبارى في الدعاية ، في سوق الوجاهة ، المسمى حفلات ومناسبات اجتماعية ، وعائلية ، مع وكيلات الدعاية الاخريات (زوجات وبنات بقية الاسر) • تعتز بمقدار ما أنفقت ، وما تخطط لانفاقه• وبالمقابل فان اسرتها بحاجة لتكليفها بهذه الوظيفة التي تكاد تصبح النشاط الوحيد ، القادرة على النجاح فيه ، والمجال الوحيد كي تحقق ذاتها من خلاله• هذه المرأة ، أداة الجاه ، ووسيلة الاعلان عنه،هي بكل بساطة المرأة القناع• ونظرا لفراغ حياتها ، وفراغ شخصيتها من كل محتوى يحدد قيمتهما ، ويحقق لها ذاتها ، فانها تسرف في وظيفة القناع هذه ، وبمقدار خوائها الداخلي وموت عواطفها ، تهرب الى الامام ، الى التمسك بالمظاهر،وهكذا تنطلق في سباق محموم مع بقية النساء الاقنعة • فتصبح قضيتها الوحيدة هي الظهور كأسلوب للوجود • وتتحول الى قشرة خارجية ، الى أداة اعلان عن كل مستجد من السلع ، واللباس ، والاثاث • تشير الدكتورة نوال سعداوي ، الى هذا الواقع بحدس عميق يملؤه الالم حين تقول: « ان افراغ المرأة من مسؤوليتها ، افراغ لشخصيتها من لب الانسان وجوهره، وتميزه عن سائر المخلوقات • بهذا الافراغ لم يعد للمرأة الا قشرتها الخارجية،الظاهرة أمام الاعين،لم يعد للمرأة الا غلافها الجسدي الخارجي• ويؤكد لها المجتمع من حولها هذه الحقيقة • فالصحف والمجلات حين تخاطب المرأة ، تخاطبها كطبقة من الجلد تحتاج الى تدليك بأنواع خاصة من الكريم ، وكرموش تحتاج الى تقوية وتغذية ، وكشفاه تحتاج الى طلاء بلون الورد ، وكشعر يحتاج الى صبغات تتناسب من لون الفستان » •
(نفس المصدر ، صفحة ١٢١) •

وهكذا فاذا أفلتت المرأة ، في هذه الفئة ، من القهر المادي ، فانها ستعيش أسيرة قهر قد يكون أمر وأدهى ، وهو الاستلاب المعنوي لكيانها، الذي لا يقل عن كونه موتا نفسيا • والضجر هو أبرز ملامح هذا الموت الناتج عن انعدام الالتزام بقضية انسانية ، تمد الوجود بدفقة الحيوية

والامل ، وتجعل للحياة طعما ومعنى • ان الضجر ، والسأم هما آفة هـذا الاستلاب وأبرز أعراضه ، وأكثر المؤشرات دلالة على القحط الداخلي • ولا تجد المرأة علاجا له الا الاسراف في مزيد من الاستلاب ومزيد من الظواهر والاستهلاك •

ثانيا : اوجه القهر ووسائله
الاستلاب والاختزال

وضعية القهر التي تفرض على المرأة تتخذ أوجها متعددة تجسد هذا القهر في القطاعات الاساسية من حياتها • ولقد لخص بعضهم هذه الاوجه في استلابات ثلاثة تتعرض لها المرأة بقدر متفاوت في حدته•وهي الاستلاب الاقتصادي ، والاستلاب الجنسي ، والاستلاب العقائدي • من خلال هذه الاستلابات تبتز المرأة وتستغل • ولكن هذا الاستغلال لا يتم بشكل خام ومباشر ، انه يتطلب ، كأي اعتداء على كيان انسان ما ، تبريرا يجعله ممكنا• انه بحاجة الى طمس طابعه الاستغلالي من خلال احاطة المرأة بمجموعة من الاساطير تجعله يبدو مشروعا ، وحتى طبيعيا • ولذلك تتعرض المرأة الى مجموعة من الاختزالات لكيانها ، كل منها يختصر وجودها في جانب واحد منه فحسب ، متغاضيا عن وحدته الكلية ، وبالتالي متنكرا لاستقلاليته وحقه في الارادة والرغبة والاختيار • من خلال هذه الاختزالات تتحول المرأة الى أداة لخدمة اغراض متنوعة تصب كلها في قناة مصلحة الرجل والمتسلط •

١ ــ الاستلاب الثلاثي

يتخذ استغلال المرأة شكل الاعتداء على كيانها على ثلاثة أصعدة رئيسية ، من خلال ما يفرض عليها من وضعية اجتماعية وعلائقية وجنسية ، لا تتيح لها أن تصل الى الاستقلال ، وبالتالي الى المساواة ، والحصول

على حقوق المواطنية بالشكل الكامل • والاستلاب الاقتصادي هـو والاستلاب الجنسي من موضوعات الساعة في حركة تحرير المرأة • الامر هنا واضح لا يحتاج الى تدليل مطول لتأكيده • ولكن هناك استلابا ، اخطر من الاثنين السابقين ، وهو الاستلاب العقائدي • ونعني به ان تتبنى المرأة عقيدة استعبادها معتبرة ذلك جزءا من طبيعتها الانثوية • وسنرى أن هذا التبني مسؤول الى حد كبير عن تأخير تحرر المرأة •

أ ـ الاستـلاب الاقتصـادي

تتعرض المرأة لعملية تبخيس دائم لجهدها ، مما يسمح للرجـل باستغلال هذا الجهد دون مقابل أحيانا ، وبمقابل هزيل أحيانا اخرى • كما تتعرض لتبخيس امكاناتها ، مما يدفع بها دوما الى مواقع انتاجية ثانوية، بعيدة عن الخلق والابداع • وتتعرض ، في المقام الثالث ،الى طمس هذه الامكانات والطاقات من خلال حرمانها فرص التدريب الملائمة وبشكل متوازن مع الرجل • وتتعرض رابعا لغرس عدم الثقة بنفسها وامكانياتها، مما يجعلها تكتفي بمكانة مهنية هامشية وتتوجه كي تحقق ذاتها الى ميادين اخرى لا تعطيها سوى وهم تحقيق تلك الذات •

هناك طبقية واضحة في توزيع النشاطات المهنية بين الرجل والمرأة • فهي تعطى دوما الاعمال الثانوية ، أو الهامشية ، أو الرتيبة التي تخلو من الابداع • وتظل في حالة تبعية للرجل الذي يحتكر الاعمال الاساسية ، مما يتيح له بسط نفوذه عليها • ويقسم العمل عادة انطلاقا من اعتقادضمني بالدونية المهنية للمرأة • وتحاط هذه بمجموعة من الاساطير والمعتقدات حول امكاناتها الذهنية ، أثبتت الدراسات النفسانية الحديثة بطلانهـا بشكل قاطع ، كأسطورة عدم صلاحية المرأة للنشاطات العقلية والرياضية والعلوم المجردة والتطبيقية ، والبحث العلمي العالي • وحال المرأة فـي

ذلك تماما كحال الفئة دون الكادحة التي توكل اليها الاعمال المبخسة ، أو فضلات النشاط المهني الذي يرفضه المحظوظون • وحتى حين تتساوى الكفاءة المهنية ، نجد ميلا واضحا نحو تفضيل الرجل على المرأة، اذ أن القناعة بدونية المرأة المهنية ، متأصلة في عقل الانسان المتخلف المبني على نمط طبقي أساسا ، على نموذج السيادة والتبعية ، والتفوق والدونية • هذه القناعة تؤدي بدورها الى فقدان المرأة للثقة بنفسها مهنيا ، مما يولد لديها عقدة انعدام الكفاءة الاجتماعية التي تحدثنا عنها بصدد الانسان المقهور • هذه العقدة متضخمة بالضرورة عند المرأة نظرا لحشرها في أكثر الامكنة قهرا •

ان الامر لا يستند الى أي اساس بيولوجي ، أو ذهني ، بقدر ما هو نتاج عملية تشريط اجتماعية ، تخضع لها المرأة منذ نعومة اظافرها • فمنذ البداية حرمت المرأة في المجتمع المتخلف ، كل فرص الارتقاء النفسي والذهني وكل فرص التقدم المهني، من خلال سجنها في البيت، وفرض مهمات الخادم عليها (كنس ، ومسح ، وغسل ، وغيره) بينما احتفظ الرجل بالاعمال ذات القيمة ، مترفعا عن اعمال المنزل التي تستنزف كيان المرأة بحجة انه كاسب القوت ، ومعيل الاسرة ، وان له حق الخدمة على زوجته ، التي ستجوع وتعرى من دونه • لقد فرض على المرأة وضع لا خيار لها فيه سوى الرضوخ لهذا المستوى الذي يستنزف كيانها دون مقابل ، كي يأتي الرجل فيما بعد، معتدا بذاته لانه يعيلها ، ويسترها ••

منذ البداية تعد المرأة لمكانة هامشية ، ولوضعية التبعية للرجل • انها في دراستها وفي اعدادها المهني ، تحرم الكثير من الفرص التي تسمح بتفتح امكاناتها وطاقاتها، وتساعدها على الانطلاق في الحياة أسوة بالرجل• حتى أن دراستها هذه ، بعد أن بدأت تذهب الى المدرسة ، لا تؤخذ على محمل الجد • انها وسيلة تزيد من قيمتها كزوجة مقبلة ليس الا • فاذا كانت تتمتع بقسط من الجمال ، اعتبرت الدراسة غير ضرورية ، لانها تمتلك

رصيدا يتيح لها الزواج السريع . بينما نرى الاهل يقلقون ايما قلق على دراسة الصبي ويحيطونها بكل الجدية التي تستحقها ، لانها الطريق الى المستقبل . أما الاعداد المهني للفتاة ، فهو جهد ضائع في نظر الاهل معظم الاحيان ، أو هو مجرد خسارة مالية ، طالما ان مصيرها هو الزواج والبقاء في المنزل . ولذلك فانهم يختارون لها معظم الاحيان مجالات مهنية متوسطة المستوى ، قصيرة المدى ، لن تقودها الا الى مكانة هامشية ، أو وضعية تبعية ، ومن الطريف هنا ملاحظة ردود فعل الاهل على الفشل الدراسي والتأهيلي لكل من الصبي والبنت . فبينما يعتبر الامر كارثة في حالة الاول، اذا به يؤخذ بكثير من اللامبالاة في حالة الثانية .

هذا التشريط ادى الى خمول المرأة وطمس طاقاتها الذهنية ، وغرس في نفسها دونية ذهنية ومهنية من الصعب علاجها . لقد حول اهتمامها من الكيان الابداعي ، الى المظاهر المثيرة،وحول توجهها الىميادين الاستهلاك والظهور التي ألصقت بطبيعة الانثى ، كمجالات لتحقيق ذاتها . وغرس في نفسها القناعة بأن العلم ، والعقل ، أمران ثانويان طارئان وان الاهتمام المهني العالي امر عابر أو مستبعد كليا . وبعد أن يبخس كيانها على هذا الغرار ، نرى الرجل المتسلط يتخذ من هذا التبخيس حجة وسلاحا يحاربها به ، ويطمس كيانها اكثر فأكثر في التبعية . ذلك أن هذا الكيان الضحل ، الانفعالي ، الذي لا يعرف الجدية ، ولا يكترث الا للتفاهات ، لا يمكن الاطمئنان اليه والثقة به . ذلك هو دوما اسلوب المتسلط لتبرير استغلاله للانسان المقهور ، يطمس امكاناته ، ويبخسها كي يتخذ منه سلاحا لزيادة استغلاله . ولقد تغلغل هذا التشريط في أعماق المرأة لدرجة بدأت معها تقتنع فعليا انها غير مخلوقة الا للمكانة التي أعطيت لها ، وأن ليس من مجال للخروج الى الحياة واثبات الذات فيأعماق بناءةتضمن لها الاستقلال والمساواة مع الرجل .

اضافة الى الاجحاف في نوع العمل ، ومستوى الاعداد المهني ،يلحق بالمرأة حيف واضح على مستوى التقويم المادي لعملها . الى وقت قريب كان هناك ميل لتبخيس ثمن عملها ، على شكل أجور زهيدة ، واجحاف في الترقية ، وجور في قوانين التعويضات والاجازات .

ولكن الاخطر من ذلك والاكثر جورا هو تجاهل تقويم الجهد المنزلي الذي يكاد يعتبر مجانيا ، أو كجزء من مهمات المرأة التي لا تدخل في نطاق التقويم . وهكذا فالمرأة العاملة في الخارج ، تعود الى منزلها كي تعمل عددا موازيا من الساعات دون مقابل في تدبير شؤون المنزل والعناية بالاولاد، بينما ينصرف الرجل الى متعه ولهوه في المنزل أو خارجه . وهكذا تبذل المرأة جهدا مزدوجا كي تحصل على أجر أقل .

وتبلغ حالة المرأة في الريف ، وفي بعض الاوساط العشائرية ، من هذه الناحية ، قمة الاستغلال . اذ لا يكتفى بتبخيس انسانيتها ، ورهنا بالرجل تماما ، بل تستغل الاسرة جهدها لدرجة الاستنزاف الكلي . فهي تدفع الى أحد البيوت الصغيرة ، كي تعمل كخادم تتعرض لقسوة أسيادها وجورهم، ولاستغلال والدها الذي يقبض كل الاجر ، كي يظل عاطلا عن العمل يعيش بشكل طفيلي على جهد بناته وزوجته أو زوجاته ، تماما كما هو شأن المتسلط المستغل . وعندما تكبر تنتقل كخادم من عند الاب الى عند الزوج ، لا يتغير شيء كثير في حياتها سوى زيادة همومها ، وسوى المزيد من استنزاف صحتها في ولادات متتابعة تؤدي بها الى الشيخوخة في شرخ الشباب . وعندما تفقد كل طاقة ، ويفقد جسدها كل جاذبية تهمل ، تطلق أو تهجر لغيرها ، كي تستمر عملية الاستغلال . وهي تعيش راضية فلا خيار لها ، طالما ظل فيها رمق من شباب وحيوية . ولكن المأساة هي في بروز قلق الطلاق أو الهجر حين تتقدم بها السن ، قلق لا تجد له من علاج سوى المزيد من الرضوخ لما يفرض عليها من عبودية ، علّها تثير بعض

الرضى عند سيدهـا الذي يقضي أيامـه في الثرثـرة والكسل ، وشرب الشاي .. ذلك هو أفصح نموذج على القهر الذي يقع عليها .

ب ـ الاستلاب الجنسي

في الاستلاب الجنسي ، يصل القهر الذي يمارس على المرأة درجـة صارخة . فهو أشد في تأثيره على مصير المرأة من الاستلاب الاقتصادي ، وان كانت الرابطة بينهما وثيقة . اذ يتمشى مقدار الاستلاب الجنسي عادة مع درجة التبعية الاقتصادية التي تفرض على المرأة .

مظاهر وأوجه الاستلاب الجنسي عديدة وتتضمن تناقضات هامة ، تجعل وضعية المرأة مأزقية ، كما تفجر عندها الكثير من المآزم النفسية .

في البداية هناك اختزال للمرأة الى حدود جسدها . واختزال لهذا الجسد الى بعده الجنسي : المرأة مجرد جنس ، أو أداة للجنس ووعـاء للمتعة . هذا الاختزال يؤدي مباشرة الى تضخم قيد البعد الجنسي لجسد المرأة بشكل مفرط ، وعلى حساب بقية أبعاد حياتها . انه يمحور المـرأة ويركزها حول المسألة الجنسية ، يركز كل قيمتها في هذا البعد من حياتها، كما يفجّر كل مخاوفها الوجودية حول حلول كارثة ما تعصف بوجودها. هاجس المرأة قبل الزواج ، يتحول الى قلق حول غشاء البكارة وسلامته، والى قلق حول قدرات الجسد على حيازة اعجاب الرجل بضمان الزواج . هذا التركيز يفجر عند المرأة أشد الرغبات وأعظم المخاوف في آن معا . تلك هي المعضلة الاولى التي تتعرض لها المـرأة في الاستلاب الجنسي ، خصوصا انها تعيش كيانها بشكل مهـدد ، تتهدده رغباتهـا الذاتيـة ، وتتهدده رغبات الرجل خارج الزواج ، وتتهدده الحوادث على اختلافهـا (تشويه الجسم ، اصابته بعاهة ، فقدان البكارة لسبب ما الخ ..) .

يقابل التركيز الجنسي المفرط والاختزال لجسد المرأة ، قمع له يبلغ

اقصى درجات الشطط والقسوة . فالممنوعات التي تفرض على جسد المرأة دينيا ومدنيا أشهر من أن تعرّف . قانون المجتمع في أشد وجوهه قمعا ، منقوش منذ الطفولة على جسد المرأة ، في حركية هذا الجسد ، وتعبيراته ، ورغباته . جسد المرأة المختزل الى بعده الجنسي ، هو عورة يجب أن تستتر وتصان وتحمى . وهو قبل ذلك ملكية الاسرة ومن ورائها المجتمع ، اسرة الاب في البداية ، ثم اسرة الزوج فيما بعد . ليس للمرأة سلطة على جسدها (جنايات الشرف تشهد على ذلك بشكل صارخ وفادح) .

وهكذا ، وكما يقول صديقنا د. عباس مكي [1] ، كان جسد المرأة وما يزال مادة غنية للتشريع ، تحديد المسموح والممنوع من تحركات الجسم وتعبيراته ومتطلباته ، تبعا لانماط مقبولة اجتماعيا ، أي في النهاية تبعا لانماط تخدم مصلحة المتسلط الذي يمتلك هذا الجسد . هناك قوة المنع المدنية ، وقوة التحريم الدينية ، التي تثقل جسد المرأة بقيود الخطيئة ومشاعر الاثم . « الحركية الحرة للجسم جنسيا أساس معنى العيب ، وضبطها المقنن أساس معنى الشرف » (نفس المرجع ، صفحة ١١٧) . جسم المرأة مقيد تاريخيا ، انه جسد مؤسس [2] ، كل قوانين التحريم والمنع تهدف لاحتواء هذا الجسد ووضع مفاتيحه في يد الرجل .

فالقوانين هي اذاً وسيلة الرجل وسلاحه لامتلاك جسد المرأة والسيطرة على كيانها بالتالي . اذ من المعروف ان أقصى درجات السيطرة تتم من خلال الجسد والتحكم به . عندما يفلت الجسد ويعبّر عن طاقاته ورغباته بحرية ، يفلت الانسان من التسلط والقهر . ولذلك فالمرأة حين

---

(١) د. عباس مكي ، المرجع السابق .

(٢) جسد مؤسس Corps institutionalise

تتمرد ، فانها تفعل ذلك أساسا من خلال اعطـاء نفسها حريـة التصرف بجسدها جنسيا في المقام الاول .

وهكذا يمتلك الرجل جسد المرأة ، أي يمتلكها بعد اختزال كيانها ضمن حدود جسمها في أغلب الاحيـان ، لا من خـلال رضى وتوافـق متبادلين ، بل من خلال قوة القانون ، العلاقـة حقوقية قبـل أن تكون عاطفية . ولكن حقوقية العلاقة لا تترك للمرأة أي حق تقريبا ، بينما تعطي الرجل كل الحق مما يدفع به الى الانانية ، حتى في المتعة ، اذ أنه لا يراعي حاجاتها ووتيرة الاثارة والمتعة عندها . حتى الجماع يتحول في معظـم الاحيان الى فعل سيادة للرجـل على جسد المرأة من خـلال اثبات القوة القضيبية ، في العلاقات الجنسية المتخلفة المتسمة بالقهر ، بدل أن يكون وسيلة للمتعة المتبادلة .

وهذا كله يوقع المرأة في وضعية مأزقية ، في حالـة تناقض مذهـل بين اختزال كيانها الى مجرد جسد جنسي (تضخيم أهمية الجنس) والقمع المفرط الذي يفرض على هذا الجسد ، وعلى امكاناته التعبيرية . ويزداد المأزق حدة ، والتناقض عنفا نظرا لموقف الرجل الذي تتجاذبه المرأة . فهو ينجذب نحو الجسد الذي يضج بالحيـاة والجاذبية ، ويتمتع بقدر من التعبير ، ولكنه لا يتحمل مسؤولية علاقته الجنسية ولا مسؤولية نتائجها، تقع المسؤولية على المرأة ، ويقع الغرم كله عليها . وهو ان أصاب حظا في محاولاته التي لا تخلو من تغرير وخداع ، يزدري المرأة ، كي يتزوج من أخرى قد صدّ جسدها . ولكنه يشكو فيما بعـد من برودها الجنسي ويضع اللوم عليها لحرمانه من المتعة ، وقد يتوسل القانون للانفصال عنها. وهكذا تتحول المرأة الى ضحيـة للقمـع والتسلط مرتين ، ضحية قمـع الحيوية في جسدها ، وضحية نتائج هذا القمع بعد الزواج وما قد يعقبه من انفصال . وقد يشكو الرجل من تزمت المـرأة ، ولكنه يتهرب منهـا ويخشاها ان هي تجـرأت على التعبير عن جسدها . تلك مأساة علاقـة

التسلط والقهر التي تخضع لها المرأة من خلال الاستلاب الجنسي .

وقد يؤدي القمع الجنسي عند المرأة ، الى جمود كيانها كليا، وهكذا تصبح جسدا جامدا ، تقيده الموانع والصدود ، فاقدا كل حياة ، فهو مجرد مظهر . ذلك هو الحال حين يختزل المجتمع المرأة الى مجرد رحم للانجاب ، وكيان يضحى به لتربية الاولاد وخدمة الزوج ، دون الاعتراف لها بحق التمتع بجسدها . تلك بالطبع حالة مفرطة من القمع ، تلاحظ في المجتمعات المغرقة في تخلفها وتزمتها ، التي لا ترى من وظيفة للمرأة ، سوى وظيفة الاداة . المرأة في هذه الحالة جسد صنمي ذو تعابير باردة ، تخلو من كل حياة . ذلك تناقض آخر صارخ ، ينتج عن وضعية القهر ، فالجسد مجرد أداة جنس ، ولكنه يجب ألا يحمل أي رغبة جنسية ، أو يبدي أي تعبير جنسي .

تتائج هذه التناقضات كارثية بالنسبة للمرأة وللرجل على حد سواء. أولها تزييف التعبير عندها . فبدل التعبير التلقائي المتكامل مع توجه الشخصية ، تقع المرأة في مأزم الازدواجية التعبيرية ، ازدواجية الصريح والضمني ، القبول والرفض ، الاعتراف والانكار ، القرب والبعد . وهنا يعاني الرجل من هذه الازدواجية ويتهم المرأة (مرأة أخرى ..) بالاحتيال والمكر والتلاعب ، أو يتهمها بأنها لا تعرف ما تريد . والحقيقة هي أنها أكثر من يعرف ما تريد ، ولكنها تعرف اضافة الى ذلك ما يتهددها من أخطار ، ان هي تصرفت تبعاً لما تريد وتمردت على القمع المفروض عليها . هذه المعرفة يتجاهلها الرجل ، المستفيد من نظام القهر المفروض عليها . ومن النتائج المرضية لوضعية القمع ، كل مظاهر الاستعراض المسرحي ، كل الهتاك [1] الذي تبديه المرأة . ذلك أنه عندما تحرم حق امتلاك جسدها ، والقدرة على التعبير المعافى عنه ، فانها لا بد تلجأ الى

---

(١) هتاك (Exhibitionisme) اللذة الجنسية من خلال الاستعراض.

التعبير المرضي • فجذوة الحياة في الجسد لا تموت ، مهما اشتد القمع ، بل تتسرب في مسارب غير سليمة وغير سوية ، مسارب تقود الى اضطراب العلاقة بين الرجل والمرأة لا محالة • مـن خلال الهتاك تتحول المرأة الى كائن نرجسي يستعرض جسده ، كمظهر ، كوسيلة للحصول على الاعجاب، وانتزاع الشهوة • ولكنها تقف عند هذا الحد عاجزة عن المتعة ، وحارمة اياها الرجل في آن معاً •

وفيما عدا هذه الحالات ، فانه عندما تقمع الحيـاة الجنسية للمرأة كلياً في حالة من التنكر الاجتماعي الصريح لها ، تتحـول المرأة الى كائن متزمت • وتتحول الطاقة الجنسية الى مسارب نزوة العدوان متخذة شكل الحقد • والتزمت ، مضافاً الى الحقد ، يفتح السبيل أمام التعصب على اختلاف أشكاله ، تغرسه المرأة في أطفالها • تنشأ على يديها نماذج بشرية تحمل بذور الفاشية • كما تعاني هذه النماذج من قمع حياتها الجنسيـة وطاقة الحب لديها • وهكذا فالمرأة التي قهرت في جسدها ، سوف تقتص دون أن تدري بتنشئة رجال فاقدين للقدرة الجنسية ، للقدرة على الحب والمتعة • ذلك ما يوجزه (ماندل) بشكل فصيح : « كلما كانت المكانـة الاجتماعية العاطفية للمرأة ضمن ثقافة ما ، هي مكانة خصاء ، بمعنى انها مجرد رجل مخصي (كائن مبتور) ، كلما زاد ميلها اللاواعي الى خصاء طفلها الذكر (بمعنى القضاء على رجولته الجنسية وقدرته على المتعة)[1] • تلك هي كارثة الاستلاب الجنسي ، تعطي المرأة لابن الزوج نفس البضاعة التي أخذتها منه ومن أبيها قبله •

ج ـ الاستـلاب العقائـدي

أخطر من الاستلاب الجنسي ، والاستلاب الاقتصادي ، الاستلاب

(1) G . Mendel , La revolte contre le père , paris , payot , 1968 , p. 411 .

العقائدي . فهنا تتبنى المرأة كل الاساطير والاختزالات التي يحيطها بها الرجل ، كما أنها تجتاف احكامه الجائرة بصددهـا ، فتتقبل مكانتهـا ، ووضعية القهر التي تعـاني منها ، كجزء من طبيعتها ، عليها أن ترضى بها وتكيّف وجودها بحسبها . ولا شك ان خطورة الاستلاب العقائدي تنبع في المقام الاول من مقاومة التغيير التي يشكلها . فهي لا تتصور لها وضعاً غير وضعها الذي تجد نفسها فيه . وهي تقاوم تغييره ، وكأن هذا التغيير خروج على طبيعة الامور ، وعلى اعتبارات الكرامة والشرف .

الاستلاب العقائدي ، هو ان تقتنع المـرأة بدونيتها تجاه الرجل ، وتعتقد جازمة بتفوقه ، وبالتالي بسيطرته عليها ، وتبعيتها له . والاستلاب العقائدي هو أن توقن المرأة أنها كائن قاصر ، جاهل ، ثرثار ، عاطفي ، لا يستطيع مجابهة أي وضعية بشيء من الجدية والمسؤولية ، وبالتـالي لا تستطيع الاستقلال وبناء كيان ذاتي لها . والاستلاب العقائدي ، هو أن تعتقد المرأة أن عالمها هو البيت ، وان الزوج والاولاد والاسرة تشكل حدود كيانها . والاستلاب العقائدي ، هو في تنمية امكاناتها كأم وخادم، وطمس كل ما عداها من امكانات مهنية انتاجية . الاستلاب العقائدي هو في يقين المرأة بأن جسدها عورة ، وبأن هذه العورة يجب أن تستر ، من خلال الاب والاخ ، والزوج وابن بعدهما ، وأن الشرف بالنسبة اليها هو في الحفاظ على هذه السترة . والاستلاب العقائدي هو تبني أسطـورة حواء بضعفها واحتيالها ، ومكرها ، وغيها ، حواء مجسدة الآثام والشرور، ومصدر كل غواية . والاستلاب العقائدي هو أيضا على العكس من ذلك تبني أسطورة الام المتفانية في خدمة أولادها وزوجها ، تلك التي تتلخص سعادتها في استنزاف ذاتها تحت شعار العطاء . والاستلاب العقائدي هو أن تشعر المرأة انها تحقق ذاتها ، وتصل الى غاية وجودها من خلال القيام بالادوار التي تناط بها ، وانها عبء ، طالما لم تصبح أماً . واذا كان لكيانها من معنى فهو في هذه الصفة تحديداً .

والاستلاب العقائدي هو في النهاية أن تقتنع المرأة في أعماقها ان من واجبها الطاعة للزوج وللأب قبله ، وأن لها عليهما حق الستر والحماية والاعالة ، وأن طبيعتها تتلخص في جسد يلبس ، وقوام يجذب ورحم ينجب ، ولسان يشكو ويتطلب ويكذب ، وأيد تطهو وتغسل وتمسح .

من خلال هذا الاستلاب يصل القهر أقصاه ، لان المرأة تعتز عندها بمظاهر قهرها ، وتعرّف نفسها من خلال استلابها . وبالتالي فان هذا الاستلاب يطمس امكانات الوعي بوضعها ، ويطمس الرغبة في التغيير ، كما يطمس القدرة على التحرير . وهكذ تفتح أبواب استغلال المرأة على مصراعيها ، وتكون هي المتواطئة الاولى على مصالحها الحقيقية .

والحق ان المرأة ، لم تصل الى الاستلاب العقائدي بشكل تلقائي . انه نتيجة عملية تشريط [1] منظمة ومستمرة ، تحيط بكيانها من كل جانب ، تقوم بها الاسرة منذ طفولتها ، من خلال ما تقسم لها من أدوار ، وما تحدد لها من وظائف ، وما تعطي كيانها من دلالات سالبة أو موجبة ، تحاصر المرأة منذ أن تولد بشكل لا يترك لها منفذاً ، ولا متنفساً ، خارج القوالب المحددة لها . وليس أمامها في معظم الحالات الا الرضوخ لما أعدّ لها ، اذا أرادت تجنب المضايقات والضغوط التي تنوء بحملها . فمنذ أن تولد تتعرض لعملية خصاء ذهني وعملية صد لطاقاتها الحيوية الا فيما يخدم الوظائف المعدة لها . ثم تأتي النظريات النفسانية بعد ذلك لتكرس هذا الخصاء الذهني والحيوي والارادي ، وباختصار الخصاء الكياني ، من خلال الزعم بعقدة خصاء عند المرأة ، وعقدة غيرة من الصبي واشتهاء لامتلاك القضيب الذي جعل في تلك النظريات ، خصوصا التحليل النفسي التقليدي ، المرجع الاساسي للمرأة لا على المستوى الواعي فحسب ، بل خصوصا على المستوى اللاواعي . وهكذا تعرّف هذه النظريات المرأة

---

(1) تشريط Conditionnement

أساسا كنقص ، أو فراغ ، يقابله امتلاء الرجل الذي يمتلك القضيب • نحن نعتقد أن هذه النظريات لم تفعل سوى تكريس وتنظير وضعية القهر التي فرضت على المرأة ، من خلال زعم الانبناء النفسي المتصف بالنقص « manque » الذي يميزها • اذا كان لا وعي المرأة مبنيا على هذا الغرار (نقص وتمحور حول القضيب) ، فما ذاك الا لما فرض عليها من تبعية للرجل ، ورضوخ لسيادته • وككل علاقة تسلط ـ رضوخ ، تعرّف القيمة على أنها دائما في السيد الذي يحتل موقع المرجع • ولقد تساءلنا في جدل علمي مع نفر من هؤلاء ، حول ما اذا كانت الامور قابلة للتغيير على هذا المستوى اللاواعي ، اذا تغيرت ظروف المرأة في مجتمع يخلو من القهر والطبقية ، ويعترف للانسان بقيمته بذاته ، ومساواته للآخرين • نحن نعتقد ان لاوعي المرأة ، كلاوعي الانسان المقهور ، مبني على غرار وضعية القهر المفروضة على كل منهما • فان انبناء اللاواعي هو الوجه الآخر لانبناء المجتمع والنظام الذي يسوده •

ولقد قيل ان الاطفال يحتلون قيمة نرجسية كبيرة في حياة المرأة • ذلك صحيح ظاهريا • وقيل انهم يحتلون هذه القيمة لانهم يلعبون وظيفة التعويض القضيبي (الطفل الذكر هو قضيب الام ••) اذا كان الامر كذلك ، أفلا نستطيع أن نرجعه ، الى وضعية المرأة نفسها ، وتحديدا الى انعدام قيمة الانوثة الا كتابع ، للقيمة المرجعية ، وهي الرجل وامتيازاته وتسلطه ، والتي يرمز اليها بالقوة القضيبية ؟ ألا يرجع التعلق النرجسي بالابناء عند المرأة الى اختزال كيانها الى أم ، أو رحم ينجب ، والى سد جميع سبل تحقيق الذات أمامها خارج هذا الاطار • اذا خرجت المرأة الى المجتمع واحتلت مكانها أسوة بالرجل ، وبنت لذاتها كيانا مستقلا ، واذا وجدت ان لها دورا فعليا في عملية البناء الاجتماعي ، ألا تتغير نظرتها الى طفلها كأداة تعويضية ؟ اذا كانت المرأة الام تملكية ، واذا كان هذا الحب التملكي مصدر شكوى علماء نفس الطفولة ، والمتخصصين في علاج

اضطراباتها ، فما ذاك الا لانها حرمت امتلاك نفسها وجسدها وكيانها ، حرمت فرصة أن تكون كشخص قائم بذاته ، يجد معناه في اسهامه في القضايا العامة .. ذلك هو رأينا على أي حال ، وهو مطروح للنقاش .

المهم ان الاستلاب العقائدي للمرأة ، وما يتلقاه من تعزيز دائم من الخارج ومن الذات في آن معا ، يحكم عليها بالبقاء رهينة وضعية القهر ، لا هي تعيها ، ولا هي تقبل أن تغيرها ، انها تتمسك بها باعتبارها طبيعة الانثى وقدرها . وينعكس ذلك لا محالة على التغيير الاجتماعي بأكمله فيكبحه لا محالة . لا تطوير دون تغيير وضعية المرأة ، ولا تغيير لوضعيتها دون تمزيق حجب الاستلاب العقائدي التي تمنع عنها رؤية ذاتها ، ورؤية العالم على حقيقته .

٢ ـ الاختزالات

لا يمكن للاستلاب في أوجهه التي استعرضناها وغيرها ، أن يتم الا من خلال عملية اختزال يخضع لها كيان المرأة . شأن الاستلاب في ذلك هو شأن أي عملية استغلال أو امتلاك أو عدوان ، حيث لا بد كي تتم من سلب الآخر انسانيته وكيانه القائم بذاته ، والحاقه بنا كأداة لخدمة نوايانا ورغباتنا . هذا السلب يتم من خلال تحويل الآخر الى أسطورة تأخذ شكل اختزال كيانه الى احدى صفاته أو خصائصه أو وظائفه ، وتوحد بين هذا الجانب الجزئي والكيان الكلي . والاختزال يسجن الآخر في صورة لا يسمح له بتعديها ، انه اذا نفي لتنوع وجوده وتعدد وجوهه ومستوياته ، انه نفي لارادته في أن يكون غير ما نريد أو نحتاج . بذلك فقط يمكن التحكم بالآخر والسيطرة عليه ، دون مشاعر اثم نابعة من اعتداء على انسانية كائن شبيه بنا . والاختزال عملية ضرورية كي يصبح العدوان على الغير ممكنا ، كذلك استغلاله ، أو امتلاكه . وبالتالي فهو موجود دائما في كل عملية قهر .

يخضع كيان المرأة ، لأشكال عديدة ومتنوعة من الاختزال تجعل منها امرأة أسطورة . وتقسم هذه الاختزالات الى فئتين أساسيتين : الاولى ايجابية تبالغ في قيمتها وتمثلنها ، والاخرى سلبية تبالغ في تبخيس هذه القيمة . والنتيجة واحدة في الحالتين ، اذ أننا لا نرى من المرأة الا ما نريد ونحتاج ، في عملية تعميم مقصودة على بقية جوانب كيانها ، تحولها الى مجرد كائن خرافي ، الى سند هوامي نبيح لأنفسنا أن نتحكم فيه كما نريد .

أما الاختزالات السالبة ، أو التبخيسية فهي الغالبة ، منها : المرأة القاصر ، المرأة الانفعالية ، المرأة الغاوية ، المرأة العبء ، المرأة المظهر ، المرأة الماكرة ، والمرأة الخادم .

المرأة القاصر ، هي الطفلية ، العاجزة ، التي لا تعرف كيف تتحمل مسؤولية وجودها ، ولا بد لها من وصاية واعالة ، وهي لقاء ذلك تدفع الثمن على شكل تبعية كلية للرجل . عندما تختزل المرأة الى هذا البعد من وجودها تطمس كل امكاناتها على تعددها ، وتتحول الى مجرد ملكية للرجل ، الى مجرد أسطورة يسقط عليها كل عجزه الذاتي ، ويسومها مختلف ألوان العسف انطلاقا من هذا الاسقاط . ويقرب من ذلك صورة المرأة العبء ، يعتبرها الاب مصدر همّ له وهي صغيرة ، ومصدر قلق على عفتها حين تصبح مراهقة ، ومصدر همّ له ولأمها حين تبلغ سن الزواج ، ومصدر همّ آخر قبل أن تنجب لزوجها الاطفال (خصوصا اذا تأخر الحمل ، أو هي لم تنجب سوى بنات) . أما الزوج فيعتبرها أيضا عبئا عليه ، كفم لا بد أن يُطعم ، وجسد لا بد أن يُكسى . وهنا قد تتحول المرأة الى أسطورة المستنزفة للرجل ، لجهده وماله ، المرأة التي لا تكتفي ، وترهقه من أمره عسراً .

على العكس من ذلك هناك المرأة الخادم ، من خلال أسطورة خاق

المرأة كي تسخر لخدمة الرجل • خدمة الاخوة وهي صغيرة ، وخدمة الزوج وهي كبيرة • لا أهمية لها الا اذا قامت على شؤون المنزل ، وتحملت بصمت وصبر كل الاشغال التي تستنزف كيانها ، وتقضي على الحياة في نفسها • واذا كانت المرأة خادما ، فمن الطبيعي اذاً أن يستغلها الرجل دون تورع •• هذه المرأة الخادم تطمس رغباتها وارادتها • تطمس حاجتها للبروز وتحقيق ذاتها كما يطمس جسدها وقدرته على الجاذبية ، وحاجته الى الاشباع الجنسي والعاطفي ، وكما يطمس أملها في الخروج الى العالم العريض كي تكون انسانة قائمة بذاتها •

أما المرأة الغاوية ، فهي مجرد جسد يشتهى ، مجرد وعاء جنسي ، لا يهم بعد ذلك ان تتمتع بأي ذكاء ، أو عقل ، أو حس ، أو قدرة على العطاء الاجتماعي • انها اناء لذة الرجل ينبذها ويزدريها بعد قضاء وطره• أما أن تكون غاوية جنسيا وتكون أماً في آن معا فهذا ما لا يمكن تصوره• انها تشتهى ولا تحترم، كما يوضع عليها اللوم فيأنها مصدر الشر والفتنة، مصدر الضلال وصرف الرجل عن مهامه النبيلة ، وقضاياه السامية ، انها مجسدة الشيطان ، وسبب الآثام •

وأما المرأة الماكرة ، فهي الاسطورة التي يسقط عليها الرجل كل تناقضاته الذاتية ، ويحمّلها مسؤولية كل صراعاته العلائقية • انها المرأة التي لا يؤمن لها ، والتي يجب الاحتراس لكيدها ودسها • كل خلافات الرجل الأسروية تلصق بالمرأة المحتالة الماكرة ، التي تبث بذور الشقاق بين الاشقاء ••

في كل هذه الحالات وغيرها ينطلق الرجل في حربه ضد المرأة ، ويبرر ما يمارسه عليها من قهر من خلال النعوت التي يلصقها بها • فهو عندما يستغل لا يستغل انسانا له قيمته ، وعندما يعتدي ، لا ينال من حرمته ، بل هو بكل بساطة يحارب الشر ، ويسيطر على العجز والمكر •

أما الاختزالات الايجابية الايجابية ، فهي الاقل عددا ، وفيها ترفع المرأة الى مرتبة مثالية ، تحاط بهالة من التقدير تبلغ حد التقديس أحيانا. ولكنه تقدير وتقديس يرفض للمرأة الا أن تكون مثالية ، يرفض أن تكون لديها نوايا عدوانية ، أو تطلعات تمردية ، أو رغبات آثمة ، أو حاجات جسدية وجنسية . وبقدر حاجة الرجل الى الاختزال السلبي للمرأة ، فهو بحاجة الى الاختزال الايجابي، الذي يجد فيه طمأنينة ضد قلق الهجر، وملاذاً ضد آلام ومصاعب وتهديدات الحياة . ولكن الامر في الحالتين واحد ، وهو تسخير المرأة لخدمة غايات الرجل وعدم التعامل معها ككيان قائم بذاته .

أشهر الاختزالات الايجابية هي المرأة الأم محط أساطير التفاني والتضحية ، والحب الذي لا ينضب ، والرجاء الذي لا يخيب ، والملاذ الامين ، والعزاء الاكيد حين تقسو الحياة ويعز الاصدقاء . ولقد بالغ الرجل في العالم المتخلف في اعلاء شأن الامومة نظرا لما يعصف بوجوده من أخطار ، وارزاء . ووصل به الامر حد اعتبار الامومة غريزة لا يمكن أن يعتورها الخلل ، أو يتطرق الى عطائها الشك . ولكن العلم الحديث أثبت ان غريزة الامومة عند الانسان ، اذا كان لها أصلها البيولوجي ، فانها تحاط بالعديد من الاساطير ، وبالكثير من الرغبات والافكار المحببة لا تجد لها سندا من الواقع على الدوام . والدليل على ذلك انتشار اضطرابات الامومة وتنوعها ، مما ليس هنا مجال الخوض فيه . وكادت أسطورة الام أن تحرم المرأة حقها في أن تكون غاوية ، أو تكون صنواً للرجل في المهمات الاجتماعية ، أو أن تستقل بذاتها عن الزوج والولد . انها تسجن الام في تصورات مثالية من العطاء بدون حدود ولا مقابل .

ويرتبط بالمرأة الام ، المرأة مصدر الحب والحنان ، ينبوع الرقة ، وكذلك المرأة الملاك ، نموذج الطهر (الذي يلغي جسدها ورغباته في الحقيقة) .

على عكس المرأة ـ الام هناك المرأة ـ الوجاهة الاجتماعية ، وهي المرأة المختزلة الى جمالها ، أو حسبها ونسبها • انها دمية يستعرضها الرجل كي يتباهى بملكيتها أمام الآخرين ، مدللا بذلك على ما له من حظ وحظوة • وليس المهم الشكوى من الكلفة المادية لهذه الدمية ، بل المهم هو اثارة غيرة الآخرين ، كي يتمكن من الشعور بالاستعلاء والتفوق عليهم • ولكنه في الوقت نفسه سيرهق بالعناية بهذه الدمية وحمايتها من الأعين الحاسدة ، والنفوس المشتهية • ما يطلب من المرأة في هذه الحالة ، ليس فهم ، ولا عاطفة ، ولا شخصية ، بل مظهر براق يلفت النظر ويدلل على ما حظي به صاحبها من غنم •

في هذه الاختزالات السلبية منها والايجابية ، تحرم المرأة فرصة عيش كيانها بكل أبعاده وتنوعه وتناقضه • ان الاختزال هو اختصار الوجود الى صفة مستحبة ، أو منفرة ، اختصار للمرأة الى موضوع مرغوب فيه ، أو موضوع يستقطب كل التناقضات الذاتية عند الرجل ، ويجسد كل ما ينفر منه في نفسه • ويتغذى الاختزال من الهوامات الكثيرة اللاواعية التي تحيط بكيان المرأة وصورتها • هذه الهوامات تعزز الاختزال الاجتماعي ، لانها تقوم بدورها على القطعية من خلال استنادها الى أولية الانشطار العاطفي ، الى حب مطلق يتبعه مثلنة الموضوع ، وكره صاف يتبعه تبخيس واعتداء •

من خلال الاختزال الاجتماعي والهوامي يتمكن الرجل من تسخير المرأة لأغراضه ، ويتم له استلابها دون الشعور بالاثم • ان تفشي ظاهرة الاختزال في المجتمع المتخلف مسؤول عن كثرة الصراعات والتناقضات والاختلافات الزوجية • فالاختزال لا بد أن يقود المرأة الى التمرد على سجنها في صورة تجمد كيانها وتلغي رغباتها وارادتها • هذا التمرد يفاجىء الرجل الذي يتستر وراء ردود فعل البراءة ، واضعا اللوم على المرأة

وطبيعتها ، ومنطلقا كي يدفع التهمة عن نفسه في مزيد من اختزالها وتبخيسها . وهكذا فوضعية القهر التي تفرض على المرأة في المجتمع المتخلف ، لا تترك لها من سبيل سوى التمرد والصراع ، أو الاستكانة التي هي أسوأ من التمرد ، لانها بالتحديد تتخذ طابع التوافق الزائف بين الرجل والمرأة . فكل توافق ليس معافى بالضرورة ، خصوصا توافق السيد والعبد . تلك مأساة أخرى من مآسي القهر في المجتمع المتخلف .

ثالثا : دفاع المرأة ضد وضعية القهر

المرأة أكثر الكائنات غبناً وقهراً ، تقوم في نفس الوقت بالنسبة للرجل بوظيفة الدفاع ضد وضعية القهر التي يخضع لها . انه يتنكر لقهره ويتهرب من مجابهته والوعي به من خلال قلب الادوار في علاقته بالمرأة ، اذ يحتل دور السيد القوي ، ليفرض عليها دور التابع ، حيث يسقط عليها قصوره النفسي ، ملصقا اياه بالانوثة وخصائصها الطبيعية .

ولكن المرأة لا تظل هكذا فاترة ، مستسلمة ازاء وضعية القهر التي تفرض عليها ، ازاء ما يلحق بها من حيف ، نتيجة لما يوكل اليها من وظائف ، وما ينصب عليها من اسقاطات تبخيسية . ان الاستمرار في وضعية كهذه مستحيل على كل حال من ناحية التوازن النفسي . فلا بد للمرء ، وتحت كل الظروف من الاحساس بشيء من الاعتبار الذاتي ، من وسيلة تضمن تحقيقا للذات فعليا أو وهميا . وكما تلعب المرأة وظيفة دفاعية ضد القهر الذي يعاني منه الرجل ، فانها بدورها تلجأ الى أساليب دفاعية عدة لمجابهة مأزقها . تتراوح هذه ما بين الاعتداد بقيم الانوثة وخصائصها ، وبين السيطرة الخفية على الرجل . يتخذ الامر في الحالة الاولى طابع التضخم النرجسي ، أما في الحالة الثانية فانها تلجأ الى حرب ضمنية أحيانا ، أو صريحة أحيانا أخرى ضد الرجل ، ولكنها تكاد تكون تاريخية على كل حال ، طالما استمرت وضعية القهر ..

أ ــ التضخم النرجسي

ينطلق التضخم النرجسي لكيان المرأة من المثلنة التي يحيطها بها الرجل والمجتمع عموما ، في جسدها وفي بعض وظائفها الاسرية . من خلال هذا التضخم تشعر المرأة بافتخار خاص بجنسها ، وبكبرياء تؤمن لها الرضى عن ذاتها . فالمثلنة تضعها من الناحية العلائقية في منزلة سامية هي على النقيض تماما من وضعية القهر التي تخضع لها . ذلك ما يساعدها على الوصول الى توازن نفسي يجعلها على وفاق مع ذاتها ، ويمكنها من تقبل وجودها .

تعيش المرأة تضخمها النرجسي ، من خلال احساسها بأنها كائن على درجة عالية من الاهمية ، وبأنها خصوصا مرغوب فيها ، وذلك في عدة قطاعات ، أولها بلا جدال وظيفة الامومة . ان هذه الوظيفة تضخم اجتماعيا لدرجة مفرطة في المجتمع المتخلف ، بشكل يربط قيمة المرأة ومغنى وجودها الاساسي في تلك الوظيفة . المرأة الام هي قيمة اجتماعية بلا جدال ، وبالتالي فانها تصبح قيمة نفسية ، تدفع بها الى التمركز حول ذاتها ، حول جسدها الخصب الذي ينجب الذرية للزوج وللاسرة ، وحول قدرتها على العطاء العاطفي ، والتفاني في خدمة الابناء . تكاد المرأة في الاوساط المغبونة ان لا تكون شيئا آخر سوى أم . وهي تشعر بالرضى الداخلي لما يتوجب لهذه الام من أعتبار الاولاد ، ولما تحاط به الامومة من معاني السمو والقدسية .

واذا كان الرجل يمتلك المرأة في علاقة السيطرة والتبعية ، فانها تجد لنفسها تعويضا عن ذلك في امتلاك الاطفال . فمن خلال تضخيم قيمة الامومة تتضخم قيمة الطفل ، ولكن كشيء تمتلكه الام أساسا ، كجزء من كيانها . وهكذا تقع في العلاقة التملكية ، ويدفع الطفل في النهاية ثمن تعويض المرأة عن الغبن يلحقه بها المجتمع . وبمقدار ما تتفانى في أمومتها

فانها تطلب من طفلها التحول الى شيء تمتلكه هذه الامومة وتوجه اليه اهتمامها . ولذلك فمن النادر أن يستقل الصبي عن أمه نفسيا في المجتمع المتخلف ، مهما كبر فسيظل مرتبطا بروابط خفية للام ، تجعله في النهاية بشكل ما تابعا للزوجة ، التي تلعب نفس دور الام . طبعا تكون التبعية ضمنية ، تتقنع بستار من الاستقلال والسيطرة على المرأة ، وتعي المرأة هذه الحقيقة تماما ، وان لم تصرح بها ، فهي في النهاية تعيش علاقتها الزوجية ، تحت نفس الشعار التملكي ، الذي يرضيها تماما ، ويعوض لها غبنها . ومن هنا حالات تشبث المرأة بالرجل واحاطته من كل ناحية ، وما ينشأ عنها من محاولات الرجل للافلات من أسر المرأة . ومن هنا أيضا تجاذب الرجل في الاقدام على الزواج ، وشيوع الامثال على حرية الرجل العازب وعلى سجن المتزوج وقيوده .

ويرتبط بوظائف الامومة ، وظيفة هامة ترضي المرأة ، وهي احتلال دور المعبّر عن الشرف (شرف الاسرة في صيانة نسائها) والكرامة (كرامة الرجل في الحفاظ على سمعة بناته) . لعب هذه الوظيفة يعطي المرأة انطباعا بأهمية شأنها في شبكة العلاقات الاسروية ، وفي المجتمع بشكل عام ، انها التي تجسد أكثر القيم حساسية وسموا . وهي لذلك تلعب دور المتزمت ، والحارس الامين لذاتها وجسدها ، وتنتظر أن يلعب الجميع الدور نفسه تجاهها . كما يرتبط بهذا الامر وظيفة الحفاظ على سمعة الاسرة وصياتنها من خلال صيانة الذات ، ودور آخر مرافق له ، وهو الحفاظ على تقاليد الاسرة وتراثها . المرأة هي التي تجسد التقليد وتحميه وتنقله ، ولو انها في الواقع أكثر الكائنات تعرضا لغبن ذلك التقليد . هي التي تمد المعايير الاجتماعية بقوة خاصة ، ولو أن هذه المعايير تمارس أقصى درجات التزمت تجاهها .

بالاضافة الى الامومة ، تحصل المرأة على تعويض نرجسي من خلال

مثلنة جسدها كموضوع جنسي مرغوب فيه • وتتضخم هذه المثلنة نظرا لحرمان الرجل جنسيا ، ولما يحيط بجسد المرأة من ممنوعات ، وكل ممنوع للرغبة (خصوصا الرغبة الجنسية) يتعرض لتضخم قيمته بشكل لا واقعي • وتعتز المرأة بهذا التضخم لقيمة جسدها ، وتشعر بالرضى الذاتي • وتحس انها تستلك شيئا ثمينا تملك منعه عن الرجل ، كما تملك امكانية جذبه اليها وربطه بها ، من خلال الامل الذي تثيره في نفسه • يحدث هنا قلب للادوار يستند الى أساس طفلي قوامه علاقة الطفل بأمه، كينبوع كل عطاء وتحقيق كل حاجة ، ومصدر كل متعة • ينكص الرجل المحروم جنسيا الى مستوى الطفل المتلهف الى حنان الام ، وحليبها ، وتحس المرأة هذا الواقع مما يمدها بمشاعر الانتصار ، فهي التي تعطي أو تمنع • وتلعب كثيرا على أمل الاشباع ووطأة الحرمان عند الرجل • وتستخدم هذا السلاح أفضل استخدام كي تستمد منه أهمية واعتبارا يعوضان لها قهرها • وهكذا فهي تحول التحريم الذي فرضه الرجل على جسدها وعلى حرية حركته وتعبيره عن رغباته ، الى سلاح للسيطرة على الرجل ، تلك واحدة من مفارقات وضعية القهر •• وهي تتدرب منذ حداثة سنها على اجادة التعبير الجسدي الذي يعد ويمتنع ، يجذب الرجل ويفلت منه • وتجد في هذه اللعبة متعة تغطي حرمانها الجنسي ولكنها لعبة مرضية ليس فيها سوى وهم الاشباع ، ووهم ارضاء الجسد والنفس •

ثم هناك تضخم نرجسي يحمل تعويضا هاما للمرأة ، خصوصا في المجتمع الاستعراضي ، من خلال المظهر ، كالتوظيف العاطفي والجنسي الذي يحدث عند المرأة بالنسبة الى استخدام الملابس والزينة ، وهي ظاهرة ليست بحاجة الى برهان • وهكذا تتباهى المرأة بلعب دور عارضة الجاه والثروة ،من خلال ما تلبس ، وما تتحلى به (وكأن جسد المرأة لا يتضمن قيمة كافية بحد ذاته ، فهو بحاجة الى الادوات والامتعة من كل

نوع كي تخفي قصوره ، أو ما أسقط عليه من نقص) • وهنا أيضا يزيف كيان المرأة، وتزيف عواطفها الحقيقية من خلال تحولها الى آلةاستعراض، تعتز بهذا الـدور لدرجة يلهيهـا عن القيم الذاتيـة والاثراء العـاطفي والعلائقي •

تلك أمثلة سريعة عن تعويضات تجد المرأة لنفسها قيمة ذاتيـة من خلالها وتدفعهـا الى التمسك بها • ولكنهـا تنسى ان هذه التعويضات تدخل جميعها ضمن حالات الاستلاب الذي تتعرض له، جنسيا وعقائديا•

ب ـ السيطرة غير المباشرة على الرجل

يعتقد الرجل انه يسيطر على المرأة ، وتعتقد هذه في دخيلة نفسهـا انها هي التي تمتلك زمام السيطرة الفعلية عليه • وان سيطرته الظاهرية ، ليست سوى وسيلة توهمه بقوته كي لا يتنبه الى ما تفرضه عليه المـرأة من سيطرة • هذا في الحالات العادية ، أما في حالات الصراع ، فان الامر يتخذ طابع حرب سيطرة حقيقية ، الحرب الازلية بين الرجل والمـرأة ، وتحس هذه بأنها المنتصرة أبـدا في هذه الحـرب • فهي قـد ترضخ ، وتضعف ، ولكنهـا تنتظر وتعـرف كيف تصبر ، كي تنتصر حين تأنس من الرجل ضعفا أو عجزا ، أو تهاونا • أنها تستغـل ضعفها الظـاهري كسلاح للتمويه على قوتها الضمنية • وتحس لذلك بأحاسيس الانتصار التي ترضيها ، توهم الرجل أنه هو الذي يمتلك زمام الامور ، كي تحركها هي تبعا لرغباتهـا بشكل خفي • سلاح الضعف ، تستخدمه المرأة حتى تضع الرجل في موضع الضعف ، ولذلك تجـد في استعمال هذا السلاح متعة خاصة ،وقد تبالغ في ذلك أي مبالغة •

بالاضافة الى سلاح الضعف هناك سلاح الاحتيال والمكر الـذي ألصق بحواء • ولكنـه سلاح يفصح أكثر عن العدوانيـة التي لا بد أن

تكمن في علاقة المرأة المغبونة بالرجل • قدرتها على استخدام هذا السلاح تنمو بالضرورة نظرا لما يفرض على كيانها من حدود وقيود ، علاقة المكر هذه هي نتاج مباشر لوضعية القهر ، وهي احدى مظاهر التشويه الـذي لا بد أن يصيب كل علاقة سيطرة ورضوخ •

أحيانا تعلن المرأة الحرب بشكل شبه صريح على الرجل ، خصوصا حين تأنس منه ضعفـا ، أو حين يعجـز هو عن القيـام بخصائص دوره المتسلط • ويتخذ الامر في هذه الاحوال عدة مظاهر • منها الابتزاز الذي تدرب الام عليه ابنتها المتزوجة حديثا ، أو تحثها عليه كرد فعل على اهمال الزوج ، أو تسلطه • وهكذا تستنزف المرأة الرجـل بالطلبات العديدة والمتنوعة ، وترهقه من أمره عسرا • ويعاني الكثير من الرجال في المجتمع المتخلف من ظاهرة الاستنزاف هذه • فالمرأة تحشرهم في وضعية مأزقية، تسلط عليهم نظرتها الحاكمة ولسانها الذي ينطق بتقصيرهم اذا هم لـم يستجيبوا لطلباتها ، وتستلب مظاهر قوتهم (خصوصا اذا ركزها هؤلاء في الامتلاك والثروة) ان هم استجابوا • وليس من تهديـد يتعرض له الرجل في الحرب بين الجنسين ، أكثر خطرا على كبريائه واعتداده بذاته من حكم المرأة عليه بالتقصير ماديا ومعنويا ، وجسديا • كل ميدان يدعي فيه الرجل التفوق على المرأة والسيطرة عليها من خلاله ، تقف هي بالمقابل من موقع الضعف لتتحول الى حاكم قاس يضع سطوته وتفوقه وقوتـه على المحك • ذلك محتوم ، طالما استمرت وضعية القهر التي تفرض على المـرأة • وتجد المرأة لا شك نوعـا من التعـويض ، وتحس بأحاسيس الانتصار من خلال استنزاف الرجل والحكم عليه ، أو التهديد بنطق حكم النقص والعجز عليه •

يضاف الى الاسلحة السابقة ، سلاح التنغيص الذي تتفنن فيـه بعض النساء ، فتطارد الرجل بلا هوادة حتى تسمم حياته ، وتقضي على

سكينته ، تثير في وجهه الصراعات ، لتخرجه عن طوره وتدفع به الى الهروب بعيدا عن العلاقة الزوجية (التي فرضت عليها العبودية) ، أو تدفع به الى فقدان سلطته المعنوية في الاسرة من خلال حشره في سلوك عدواني يدينه في المقام الاخير . ذلك أيضا محتوم ، بما تفرضه عليها وضعيتها من استلاب وجودي حرمها تحقيق ذاتها .

واذا عجزت عن استخدام هذه الاسلحة الهجومية ، لا تفقد المرأة القدرة على رد الفعل الدفاعي . انها تحتمي بالمرض ، أو تلجأ الى محاولات السيطرة الخرافية على المصير من خلال السحر والشعوذة والاولياء ، والكتابات وغيرها .. تلك هي درع الحماية الاخيرة تلازمه عادة الدفاع من خلال التماهي بالرجل المتسلط وادانة الانوثة التي تلجأ اليها المرأة في وضعية القهر المفرط . تتنكر لذاتها كمرأة معبرة عن القصور ، في حالة من الذوبان في الرجل كقيمة وحيدة .

دفاعات المرأة ، التي أوردنا نماذج منها ، تذهب جلها في اتجاه مرضي ، لانها وليدة علاقة مرضية بين الرجل والمرأة (علاقة التسلط والقهر) . وهي دفاعات لا تفسح مجالا أمام بروز علاقات معافاة ، تحمل الاثراء المتبادل لكل من الرجل والمرأة . ذلك مستحيل في وضعية القهر ، لانها تنخر انسانية الانسان في العالم المتخلف ، وتلقي به في كل اشكال الاضطراب والاختزال . ولا يمكن في هذه الحالة ، أن يصل انسان هذا العالم الى التوازن النفسي والى الشخصية المعافاة والمتوازية والغنية ، الا اذا تحرر من وضعية القهر التي تفرض عليه . لا يمكن للرجل ان يتحرر الا بتحرر المرأة ، ولا يمكن للمجتمع أن يرتقي الا بتحرر وارتقاء اكثر فئاته غبنا ، فالارتقاء اما ان يكون جماعيا عاما ، أو هو مجرد مظاهر وأوهام .

خلاصة

تعود فكرة هذا البحث الى عدة سنوات خلت . فلقد برزت الحاجة تدريجيا ثم بالحاح الى وضع دراسات خاصة ببنية شخصية انساننا العربي وديناميانها ، خلال التعامل العيادي والارشادي مع الاحداث والاطفال ممن يؤمون مؤسسات الرعاية ، ومع ذويهم والراشدين عموما الذين يلجأون الى خدمات مراكز الخدمات الاجتماعية . اتضح أن النظريات النفسانية الموضوعة في البلاد الصناعية ، اذا كانت مفيدة للاختصاصي من ناحية الدرس المنهجي، فهي في محتواها لا تحيط بالخصائص النوعية لانسان العالم المتخلف ، وتوجهاته الحياتية وممارساته السلوكية . الكثير من التفسيرات الجاهزة كانت مضللة تخفي مشكلات محلية ذات طابع مغاير .

واذا كان المجتمع المتخلف ، قد حظي بالعديد من الابحاث والدراسات القيمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فانه محروم الى الآن من دراسات نفسية خاصة به تعكس واقع انسانه الحي .

من هذين الاعتبارين ، ألحت علينا فكرة القيام بهذه الدراسة . المشروع طموح جدا ويحتاج واقعيا الى تضافر جهود نفر كبير من العلماء والباحثين ، يكرسون طاقاتهم له خلال ردح طويل من الزمن . هذه المحاولة ليست اذا سوى بداية متواضعة على طريق اقامة علم نفس خاص بمجتمعنا . همها أن تقترح طريقا وتطرح منهجا ، يمهد السبيل بعض الشيء امام الابحاث اللاحقة . واذا انطلقت الافكار الواردة في هذا البحث من العمل العيادي والارشادي ، فانها قد تغذت من ملاحظات وقراءات حول الواقع العربي . من ذلك تبرز ملامح أولية لسيكولوجية الانسان العربي .

بدت لنا بنية شخصية الانسان المتخلف ، حين التعامل السطحي الاولي معها ، سكونية جامدة . ثم ما لبثت حيويتها ان اتضحت تدريجيا اثناء التقدم في البحث ، فاذا بها في غاية الغنى والدينامية . ولقد بدت

بسيطة ثم ما لبث تعقيدها ان اتضح . وبدت مفتتة ومشتتة فاذا بها تظهر على درجة عالية من التماسك . اكثر الظواهر اختلافا وبعدا عن بعضها البعض ، اتضح ارتباطها فيما بينها في بنية جدلية لها تاريخيتها . ومن المهم اذا قبل هذه او تلك من الظواهر التي قد تستهوي القارىء او تثير اهتمامه بشكلها المعزول ، من المهم النظر الى الروابط الانبنائية والوظيفية بينها . فالامر لا يتلخص في تعداد خصائص وردت في مختلف الفصول بقدر ما هو محاولة استخلاص بنية تعطي صورة متماسكة ومنطقية عن واقع الانسان المتخلف من الناحية النفسية .

واذا كان التخلف درجات ومستويات ، فلا بد انه يتضح بأشد درجاته وضوحا في اكثر الفئات تخلفا ، وهي تحديدا ، اكثر القطاعات غبنا في المجتمع. شخصية الأنسان المتخلف هي نتاج المجتمع المتخلف بالضرورة . كل خصائصها هي انعكاس بنية ذلك المجتمع في حركته التاريخية .

وراء المنظور التقني والاقتصادي والاجتماعي للتخلف الذي شاع في الدراسات التقليدية للموضوع ، هناك بنية التخلف ذات الطابع العلائقي المميز . تتصف هذه البنية بخصائص اساسية اهمها اعتباط الطبيعة الذي يتعرض له انسان العالم المتخلف . فهو لا يملك مصيره ولا يتحكم برزقه وعمله على هذا الصعيد . وهو متروك ازاء غوائل الطبيعة دون ضمانات او حماية كافية . الوجه الآخر لاعتباط الطبيعة هو اعتباط التسلط الذي يتحكم بانسان هذا العالم على شكل قهر يفرضه صريحا او ضمنيا . من خلال هذين الوجهين المتكاملين والمتضافرين يبدو التخلف اساسا ، كهدر لقيمة الانسان جسديا وماديا ومعنويا . ولذلك فان التخلف الاجتماعي قد ظهر منا على المستوى النفسي ، على شكل قهر لا حماية للانسان منه ، ولا ضمانة له ضده . وهكذا فسيكولوجية الانسان المتخلف ، هي سيكولوجية الانسان المقهور . من خلال اعتباط الطبيعة والتسلط وانعدام الضمانات ، يتخذ الامر طابع علاقة جامدة تذهب في اتجاه واحد هو التسلط ــ القهر . هذا النموذج يعمم على مجمل العلاقات وينبث في مختلف النشاطات حتى الذهنية منها . ولذلك فاذا كانت ذهنية الانسان المتخلف تتصف بالجمود والقطعية والحسية ، وتفتقر الى التجريد والجدلية والمرونة ، واذا كانت انفعالية مفرطة يعوزها العقلانية والضبط المنطقي ، فما ذاك الا نتيجة استفحال العلاقة ذات الاتجاه الواحد وبشكل جامد ، وهي علاقة التسلط والرضوخ . هذا التسلط وما يرافقه من اعتباط طبيعي يستحكم بالذهن

مفقدا اياه مرونته ودافعا اياه الى حيز الانفعال والخرافة والسيطرة السحرية على ظواهر الحياة .

موقف الانسان المتخلف من وضعية القهر والاعتباط هذه ، دينامي تاريخيا . فهو يتراوح ما بين الرضوخ المستسلم ، مع ما يرافقه من عقد نقص وعار ومهانة واستكانة وفقدان للثقة بالنفس والجماعة ، وبين العدوانية المفرطة التي تتخذ شكل علاقات اضطهادية تعزز مناخا عاما من العنف العلائقي ، وبين التمرد المتفجر فرديا وبشكل عابر ، او جماعيا بشكل يهز بنية المجتمع وقد ينتهي بتغييرها .

وضعية القهر وانعدام الضمانات مع ما تتصف به من هدر جذري لقيمة الانسان ، تفجر اكثر اشكال القلق عنفا عند الانسان المقهور ، اذ انها تحرك اكثر الدوافع اللاواعية بدائية، التي ترتبط بقلق الفناء وقلق الخصاء. وهكذا تحاصر الانسان المقهور من كل جانب قوتان لا قبل له بمجابهتهما منفردتين ، فكيف الحال اذا اجتمعتا . نقصد بذلك ان القهر الاجتماعي وهدر القيمة وفقدان الشعور بالامن والضمانة يفجر صنوة ونتاجه اللاواعي، ويتبادل واياه التعزيز ، مما يجعل وطأة القلق على الانسان المقهور غير محتملة . انه يعيش وجوده كوضعية مأزقية تحتاج الى حلول تؤمن له حدا ادنى من التوازن الحيوي ، من خلال تخفيف وطأة القلق وتأمين شيء من الاعتبار الذاتي وتحقيق الذات اللذين دونهما تصبح الحياة غير ممكنة . بالاضافة الى الخصائص النفسية لهذا الوجود المأزقي ، هناك اذا الحلول التي يلجأ اليها الانسان المتخلف . وهي كثيرة ومتنوعة ، ولكنها مترابطة فيما بينها في بنية جدلية ، تتكون من ثنائيات متعارضة تشكل محاور حركة الانسان المقهور . تبعا للظروف التاريخية التي تحدد في كل لحظة معادلة ضغط قوى القهر والاعتباط ، مع قوى الدفاع والمجابهة الذاتية . كلما زاد الضغط الخارجي برزت الحلول الاستسلامية والانكفاء على الذات ، اللجوء الى السيطرة الخرافية على المصير ، وكذلك الذوبان في المتسلط . اما حين تتأكد قوى الدفاع والمجابهة بعض الشيء ، فان ما يبرز هو الحلول العنيفة التي تتخذ اشكالا متعددة ، فتتوجه الى الاقران المشابهين أو الى الجماعات الغريبة او تنحو نحو التمرد المباشر والتصدي للمتسلط . يبقى ان العلاقة بين الرجل والمراة في المجتمع المتخلف تلعب دورا هاما من الناحية الدفاعية . يتهرب الرجل من مأزقه بصبه على المراة من خلال تحميلها كل مظاهر النقص والمهانة التي يشكو منها ، في علاقته مع المتسلط وقهره والطبيعة واعتباطها .

ولذلك يفرض على المرأة اكثر الوضعيات غبنا في المجتمع المتخلف ، أنها محط كل اسقاطات الرجل السلبية والايجابية على حد سواء . وهي تدفع نتيجة لذلك والى اقصى حالات التخلف . ولكنها من هوة تخلفها وقهرها ترسخ تخلف البنية الاجتماعية من خلال ما تغرسه في نفوس اطفالها من خرافة وانفعالية ورضوخ .

لم نستعرض في هذا البحث سوى بعض الملامح البارزة لبنية التخلف الاجتماعي ، وما تولده من سيكولوجية خاصة عند الانسان المقهور . كما أننا لم نتناول بالبحث سوى بعض الاساليب الدفاعية الاكثر بروزا التي يجابه الانسان المتخلف من خلالها مأزقه الوجودي . هنالك لا شك جوانب هامة كثيرة على صعيد لا بد للابحاث الميدانية ان تكشف عنها ، فالميدان لا زال بكرا ، وقد يكون ما يخبئه من معطيات اهم واخطر مما ظهر لنا منها . ما نستطيع توكيده منذ الان هو ان الخصائص النفسية التي تميز شخصية الانسان المتخلف واوالياته الدفاعية تشكل في الكثير من الحالات عقبات جدية في وجه التغيير الاجتماعي، وتكون كوابح هامة لمشاريع التنمية. وهنا يكمن خطرها تحديدا ، وتبرز أهمية اكتشافها والوعي بها ومعرفة كيفية تحريكها لحياته وتحكمها بها . ذلك هو ايضا المبرر الاساسي لبذل جهد كبير للابحاث في هذا الميدان ، اذا اردنا لمشاريع التغيير والتطوير في مجتمعنا العربي ان تنطلق من اسس صلبة تحيط بالواقع وتتحكم بالقوى التي تحركه . بذلك وحده يمكن للآمال التي نضعها فيما ترسم من مخططات تنموية ان تؤتي بعض اكلها .

بعد المصطلحات في ترقيم الصفحات :

المراجع الوارد ذكرها في النص

ــ د. ابراهيم بدران ود. سلوى الخماش ، دراسات في العقلية العربية ــ الخرافة ــ بيروت دار الحقيقة ، ١٩٧٤ .

ــ د. ابراهيم سعد الدين ، في « مجلة دراسات عربية » ، السنة السادسة ، عدد ٥ ، بيروت ١٩٧٠ .

ــ بسام الطيبي ، في « مجلة دراسات عربية » ، السنة السادسة ، عدد ٧ ، بيروت ١٩٧٠ .

ــ عباس محمد علي ، في « مجلة دراسات عربية » ، السنة السابعة ، عدد ٢ ، بيروت ١٩٧١ .

ــ د. عباس مكي ، الجسم ، حرماته ، تشريعاته ، وتعبيراته الانفجارية ، مجلة دراسات نفسانية كلية الآداب ــ الجامعة اللبنانية ، العدد ١ ، بيروت ١٩٧٤ .

ــ فالكووسكي ، مشكلات تنمية العالم الثالث ، بيروت ، دار الحقيقة ١٩٧١ .

ــ نجيب يوسف بدوي ، سيكولوجية التطير ، مجلة علم النفس ، مجلد ، عدد ١ ، يونيو ــ سبتمبر ١٩٤٩ ، القاهرة ، دار المعارف .

ــ نجيب يوسف بدوي ، الفرج والضيق في احلام المصريين ، مجلة علم النفس ، مجلد ٨ ، عدد ٣ ، فبراير ــ مايو ١٩٥٣ ، القاهرة ، دار المعارف .

ــ د. نديم البيطار ، في « مجلة دراسات عربية » ، السنة العاشرة ، عدد ٩ ، بيروت ١٩٧٤ .

ــ د. نزار الزين ، تعريب التعليم العالي في لبنان ، مجلة المقاصد ، العدد ١ ، بيروت ١٩٧٣ .

ــ د. نوال سعداوي ، المراة والجنس ، القاهرة ــ بيروت ، الناشرون العرب ١٩٧١ .

Antonini (Fausto), l'homme furieux, Paris, Hachette, 1970.
Encyclopaedia Universalis, vol. V.
Freud (Anna); le moi et les mécanismes de défense, 4e éd., Paris P.U.F. 1967.
Heinmann (Paula), in développements de la psychanalyse, Paris, P.U.F. 1972.
Hesnard (A.) psychologie de crime; Payot, 1963.
Klein (Melanie), notes sur quelques mécanismes Schizoïdes, in développements de la psychanalyse, Paris, P.U.F. 1972.
Klein (Melanie) et J. Rivière, l'amour et la haine, Paris P.B. Payot, 1972.
Klinberg (Otto), social psychology, New York, N. holt and Co.
Lacoste (Yves), géographie du sous-développements; Paris, P.U.F. 1968.
Laplanche et pontalis, vocabulaire de psychanalyse, Paris, P.U.F. 1968.
Lorenz (Konrad), l'agression, (l'histoire naturelle du mal), Paris Flammarion, 1969.
Malinowski (B.), myth in primitive psychology, London, Kegow Paul, 1926.
Pinatel (Jean) et Boujot (P.), traité de droit pénalet de criminologie, forme III, Paris, Dalloz, 1963.
Reich (W.) Fonction de l'orgasme, Paris, l'Arche, 1952.
Safouan (M.), Etudes sur l'œdipe, Paris, Seuil, 1974.

معجم المصطلحات

الواردة في البحث

يتناول هذا المعجم الموجز المصطلحات ذات الطابع الفني المتخصص الواردة في النص ، بالتبسيط مما يقرّ بها الى ذهن القارىء غير المتخصص . فهو اذاً لا يهدف الى عرضها بشكل شمولي واكاديمي مفصل ودقيق ، بقدر ما يبتغي تيسير فهمها، مما يمكّن القارىء من متابعة النص بالسهولة الضرورية ، ويجنبه عناء الرجوع الى القواميس المتخصصة .

اتجاه انصافي

Attitude justicière

تحول نفسي ضروري في الصراع العلائقي الذي ينتهي الى العدوان على الآخر . فالمعتـدي يحس انه ضحيـة غبن مفروض عليه لغير ما ذنب اقترفه ، وبالتالي يحس انه بريء في حالة من اسقاط كل المسؤولية الذاتيـة ، والعدوانيـة الذاتية على ضحيته المقبلة. هذه الاحاسيس وذلك الاسقاط، يجعل العدوان يبدو كفعل مبرر ، كدفاع مشروع عن النفس، كتخليص للحق المهضوم والكرامة المستلبة . العدوان الموجه الى الضحية يتخذ عندها طابع احقاق الحق واقامة العدالة واعادة الامور الى نصابها .

الوظيفة الاساسية للاتجاه الانصافي هي اذاً تبرئة الذات من مسؤوليتها ومن عدوانيتها في آن معا .

الاتجاه الانصافي ، والغبن المفروض الذي يستند عليه (أنظر هذا المصطلح) هما في أساس شرعنة الفعل العدواني.

أثر الاستعراض

Effet de démonstration

مصطلح يستخدمه علماء اجتماع واقتصاد التنمية . ويقصدون ، تحديدا توجه الفئات الميسورة والقادرة ماديـا في المجتمع المتخلف ، الى الافراط في اقتفاء وسائل الاستهلاك المادي ، وتبديد الثروة الوطنية على المظاهر الخارجية وذلك على حساب التوظيف من أجل التنمية الفعلية بعيدة المدى . يحاول الواحد من هؤلاء أن يتنكر لوضعه كمتخلف من خلال احاطة نفسه بكل مظاهر الوجاهة الماديـة ، بكل ما يبهر . وقد نجد أثر الاستعراض نشطا على مستوى الحكومات التي

تنطلق في مشاريع تنموية ذات وجاهة وطنية ، ولكنها لا تنعكس على بنية المجتمع الكلي كي تطورها ، بل تظل كواحة تقدم في محيط متخلف .

اجترار سوداوي (اجترار اكتئابي)

Rumination mélancolique

السوداوية (الاكتئاب) مرض عقلي يتميز بطغيان مشاعر الذنب الشديدة على المريض مما يدفع به الى عملية ادانة ذاتية وتحضير ذاتي ، والصاق جميع النعوت المحطة غير الخلقية بنفسه ، فهو يعتقد أنه ارتكب اثما لا يمكن غفرانه.

مظهريا وعلى مستوى الاعراض يتصف السوداوي بشلل النشاط العام ، الجمود في حالة من الاستسلام ، بطؤ العمليات الذهنية والنفسية ، بطؤ الحركة ، فقدان الاهتمام بالعالم الخارجي ، طغيان مشاعر الحزن ، فقدان الحيوية العامة على مستوى الجسم في خضم كل ذلك يجد المريض افكارا سوداء عما أقدم عليه من آثام ، وما سيحل به من عقاب مستحق . ومن خلال اجتراره لمعاناته هذه يجمد الديمومة ويضع نفسه في وضعية المدان الذي لم يعد يخشى شيئا مجهولا ، بذلك وحده يتمكن من السيطرة على القلق.

الاجترار السوداوي بهذا المعنى هو نوع من السيطرة على مأساة وجودية ، وما تسببه من آلام من خلال الغرق فيها . فالسوداوي لا ينفك يستعيد ويكرر هذه المأساة وكأنه في حالة حداد دائم . يلجأ الانسان المقهور الى هذه الاوالية أحيانا لمجابهة آلام المعاناة الوجودية من خلال الانغماس الكلي فيها .

اجتياف (ادماج)

Intrajection

عملية نفسية لاواعية اجمالا، يتمثل الشخص بواسطتها موضوعات وخصائص وصفات خارجية ، كي يجعلها جزءا

من ذاته . وعلى غرار ادماج الطعام جسديا ، فالشخص يجتاف (أي يدخل في جوفه) انماط العلاقات بينه وبين الآخرين ، يجتاف في البداية تصوره عن أمه من خلال علاقته بها . ولذلك فالاجتياف هو عملية نشطة جدا في الطفولة ، يستوعب الطفل الرضيع العالم من خلالها ، بما يصطبغ به من شحنات وخصائص وجدانية .

والاجتياف عملية فعالة جدا في التماهي "Identification" وهي تتواجد دوما مع عكسها المكمل لها وهو الاسقاط "projection" . التفاعل مع العالم من الناحية النفسية ، يتم في البدء من خلال هاتين الاواليتين : تلقي وتمثل كل ما هو مرغوب فيه ، ونبذ واسقاط كل ما هو منفر ومؤلم داخليا . واوضح دورها في الحياة النفسية الاولى في الصحة والمرض وفي تكوين الشخصية .

احباط
Frustration

كل عرقلة أو صد لتحقيق حاجة ، او رغبة او امل ماديا ، وبسبب ظروف خارجية ، يعاش وجدانيا كتفشيل وجودي ، او حرمان مادي او معنوي . يولد الاحباط اجمالا مشاعر الغبن غير المستحق . وهذه تفجر العدوانية ومشاعر الحقد التي تتوجه الى الخارج الى الموضوع المسؤول عن الاحباط ، او الى موضوع بديل ، او هي ترتد الى الذات على شكل قسوة عليها .

الاحباط يولد اذاً مشاعر العداء او مشاعر القهر والمهانة .

احتماء دمجي
Protection fusionnelle

تشير الى وضيعة نكوصية اساسا ، يرجع فيها المرء الى حالة الطفل الصغير الذي يلوذ بأمه او بوالديه يلتصق

بهما ، وكأنه يذوب كجسد في جسدهما ، او كأنه يعود رمزيا وهواميا الى بطن الام ، حيث كان ينعم بالسكينة والاطمئنان بعيدا عن كلّ ميزات الالم والقلق . الاحتماء الدمجي لا يتخذ بالطبع شكلا جسديا ، بل هو علاقة رمزية، علاقة تبعية وذوبان في شخص او صورة يعتبر مصدر الحب والحدب والحماية ويتمتع بقوة كبيرة تستطيع التصدي للاخطار التي يخشاها من يلجأ الى تلك الوسيلة . الثمن هو فقدان الاستقلالية والتخلي عن وضعية الرشد . تظهر هذه الحالة بكثرة في أوقات الكوارث او الاخطار التي تثير الذعر الشديد ، مع أحساس بالعجز عن رد الخطر بالوسائل والقوى الذاتية .

ارصان (صياغة)

Elaboration

يقصد بها تنسيق وتوليف عقلاني لمعطيات وضعية ما، مما يعطيها وحدتها وتماسكها بعد أن كانت مشتتة ، مفككة أساس الارصان كعملية ذهنية هو اذاً الوصول الى نظرة متماسكة وديناميةعن الظواهر كوحدات منطقية مفهومة .

استجابة حرجة

Réaction critique

Critical reaction

مصطلح يستخدمه كونراد لورنز في حديثه عنالعدوانية بين الحيوانات وخصوصا السلوك القتالي .. هذا السلوك يصل حده الاقصى ، ويعبىء كلّ طاقات الحيوانات بشكل مركز عندما يقع هذا الاخير في وضعية مأزقية تحملّ اليه خطر التهديد الخارجي او العدوان الخارجي ، بشكل لا يستطيع تجنبه بالهروب او الاستسلام . الخيار الوحيد هو بين الحياة والموت ولذلك يستجيب الحيوان بأقصى طاقته ويبدي قدرة قتالية ندر أن ظهرت لديه في الاحوال العادية .

والاستجابة الحرجة ليست خاصة بالحيوان وحده ، الانسان ايضا يستجيب بسلوك قتالي مذهل في عنفه وفعاليته في بعض الوضعيات المصيرية ، بشكل يفاجىء المهاجم الذي يفوقه قوة وعددا. الاستجابة الحرجة هي التي تقلب احيانا، ضد كل التوقعات ، القتال لمصلحة الفئة الاضعف والتي تهدد في مصيرها .

اسقاط

Projection

عملية عامة عصبية ونفسية يميل المتعضي من خلالها الى تحويل كل ما يزعجه الى الخارج ، على شكل نبذ .

بالمعنى التحليلي النفسي ، الاسقاط هو اوالية يطرد الشخص من خلالها صفات ، او مشاعر ، او رغبات ، او نزوات ، او افكار ، لا يعترف بها ولا يستطيع ان يقبلها كجزء من ذاته . انه يطردها كي يركزها في الخارج في الاشخاص والظواهر المادية والعلاقات ملصقا اياها بهم ، ونافيا للتهمة عن ذاته . لان ما يسقط عادة يثير مشاعر ذنب او خجل او عار اذا وعاه الشخص كجزء من ذاته . ولذلك فهو يتهرب منه بالصاقه بالغير او اتهام الغير به في نوع من تبرئة الذات .

الاسقاط يشيع خصوصا في مرض الفطام والعلاقات الاضطهادية ، ولكنه منتشر بكثرة في الحياة العادية ، خصوصا في حالات العلاقات العدائية مع الآخرين .

الاسقاط اوالية نفسية بدائية جدا ، تعتبرها ميلاني كلاين هي والاجتياف الاسلوب الاول الذي يستخدمه الطفل للتعامل مع العالم وابعاد كل ما يؤلمه او يؤذيه عن ذاته . انه عبارة عن تخلص من كل ما هو سيء باتهام الأخرين به .

اضطهاد

Persécution

الاضطهاد هو البعد النفسي العلائقي للعدوانية . وهو فاعل في اتجاهين : حب العدوانية على الأخرين والنيل منهم، او الوقوع ضحية لعدوانهم وكيدهم .

الاضطهاد هو عدوانية تنطلق من ادانة الآخر والصاق الذنب فيه وتحميله المسؤولية التي نخشى أن نجابهها ازاء ضميرنا . في الاضطهاد يتحول الآخر الي مذنب يجب عقابه ، مما يجعل العدوانية التي تصب عليه مبررة ومشروعة . ذلك هو جوهر الاضطهاد . اما الاحساس بالاضطهاد فينطلق على العكس من رد فعل البراءة ، من نفي تهمة العدوانية ، ونفي المسؤولية عن الذات ، واعتبار المعتدي هو المذنب ، وبالتالي التهجم عليه كرد فعل دفاعي مشروع عن النفس .

ذلك هو لب مرض العظام الذي يتنكر فيه المريض لعدوانيته ونواياه الآثمة فيصبها على الآخرين ، معتبرا نفسه بريئا ومعطيا اياها الحق في التهجم على الغير دفاعا عن نفسه.

ولذلك فالاضطهاد يدور حول مسألة الذنب والبراءة في العدوانية : من يحمل وزر العدوانيــة ومن هو البريء . وكل معتد يقوم عادة بعدوانه من خلال هذه الاوالية تأثيـم الآخرين والشعور بالبراءة والدفاع المشروع عن النفس .

الافكــار المنمطــة

Les stéreotypes

مجموعة افكار ، تأخذ شكل الاحكام المسبقة الجامــدة والقطعية ذات الطـابع الاداني او التحقيري التـي تلصق بمجموعة سكانية انطلاقــا من فروق عرقيــة او دينيــة او قومية ، او سياسية . فيعمم الحكـم الاداني على جميـع افراد هذه الفئة بدون استثناء . ويؤدي ذلـك الى بـروز تحيزات ومواقف عدائية : مثلا الموقف من الزنوج انطلاقا من احكام منمطة يطلقها عليهم الاميركان البيض. .الاسودالكسول،

الخامل ، الخرافي ، الحيواني ، الشهواني ، المتخلف ذهنيا.

وللافكار المنمطة وظيفة تبريرية ، فمن خلالها يصبح العدوان والاستغلال مشروعين تجاه من الصقت بهم التهمة المحطة . وبالتالي فهذه الافكار تخلق حواجز انسانية بين مختلف الفئات والجماعات مما يمنع تفاعلها الانساني ولقاءها، ويسد السبيل أمام التفاهم والتفهم المتبادلين .

تشيع هذه الافكار كثيرا في الجماعات التي يطغى عليها التعصب ، وتعاني من احباطات وصراعات داخلية ، توجهها نحو الخارج حتى لا تتفجر داخليا وتؤدي بوحدة الجماعة .

التمــاس

Approche

في الاصل اسلوب محدد بتقنيات معينة لمجابهة وضعية ما ، بغية دراستها منهجيا والخروج باستنتاجات محددة تصنف الظاهرة او تشخصها .

تستعمل هنا بمعناها العيادي من زاوية تلمّس الاختصاصي لطريقه كي يفهم الآخر ، ويكون صورةمتماسكة عن أنبناء شخصيته وديناميتها . وهي بهذا المعنى قريبة من المقابلة العيادية (Interview clinique)

ويقوم الالتماس العيادي أساسا على فهم دينامية التفاعل بين الاختصاص التفساني والمفحوص كأسلوب رئيسي في الدراسة ، باعتبار أن الشخصية تتفصح من خلال هذا التفاعل الذي يتخذ أبعادا ومستويات متعددة وغاية في الغني.

اللاوعي (اللاشعور ، العقل الباطن قديما)

Inconscient (Unconscious)

يعتبر التحليل النفسي ، أن النفس الانسانية تقسم الى قسمين أساسيين : النفس الواعية وتسمى الوعي (الشعور) وهي مركز العمليات الذهنية العادية من تفكير وادراك واحساس وارادة وتخطيط ، وتفاعل مع العالم ..

والنفس اللاواعية وهي التي تضم كل القوى النزوية وكل الميول الطفلية والبدائية ذات الطابع الحيوائي التي لا تعرف المنطق ولا تراعي الزمان ولا المكان .

هذه القوى تظل بعيدة عن ادراكنا ولكنها تؤثر فينا ، توجه سلوكنا ، وعلاقاتنا ، واختياراتنا ، بدون أن ندري حتى انها قد تتقنع باعتبارات عقلانية منطقية .

واللاواعي في رأي التحليل النفسي ، يشكل الجانب الاكبر من الحياة النفسية وتأثير حاسم في بنية الشخصية وتوجهاتها الاساسية . تظهر محتويات اللاوعي المكبوتة عادة بشكل مقنع في الاحلام ، والاعراض المرضية ، والهفوات ، وفلتان اللسان . وهي اجمالا من النوع غير المقبول خلقيا واجتماعيا ولذلك فان صاحبها يتنكر لها أشد التنكر ، ويقاوم الوعي بها بشدة .

الوعي بها يثير قلقا شديدا يصعب على الشخص احتماله . اللاوعي يتبع مبدأ اللذة ، ويهدف الى اشباع النزوات المكبوتة فيه . ولكن هذا الاشباع لا يتم بشكل خام بل يتخذ اشكالا رمزية ومقنعة ، وينبث في كل تصرفاتنا اليومية .

علم النفس الحديث ، في جله ، لم يعد بامكانه تجاهل هذه الحقيقة المكونة للنفس البشرية .

انا أعلى
Surmoi (Superego)

أحد أركان الجهاز النفسي الثلاثة : الأنا ، والأنا الأعلى والهو (Ego, Superego) (Moi, Surmoi et ça) تبعا لنظرية التحليل النفسي في بنية الشخصية . الأنا هو الجزء الواعي مركز الارادة والتعامل ، مع العالم الخارجي ، مصدر العقلانية والمنطق . اما الهو فهو مركز النزوات البدائية والرغبات المكبوتة لانها غير مقبولة ذاتيا واجتماعيا، وهو مركز كل ما يهدف الى اللذة من النوع المدان خلقيا . اما الأنا الأعلى فهو يلعب دور القاضي المسؤول عن مراعاة

النواهي الخلقية في السلوك والرغبات . انه الضمير الخلقي الذي يراقب الهو ونزواته ويمنعها من التحقيق ، نظرا لما تتضمنه من اعتداء على محرمات وخرق للنواهي، كما يراقب الأنا في سلوكه كي يمنعه من الانسياق وراء ضغط رغبات الهو . انه يشكل بمعنى آخر الرقابة الذاتية وهو يتحرك كلما هددت الاوامر والنواهي بالخرق ، على شكل اثارة موجات من الشعور الشديد بالذنب ، والميل الى عقاب الذات . في الحالات العادية ، حالة الصحة النفسية، يرتبط الأنا الأعلى أيضا بالمثل العليا للشخص .

انبناء (بنية ، هيكل)

Structure

كل كيان عضوي او غير عضوي ، اجتماعي او نفسي ، يتكون في الاصل من انبناء ، اي تركيب معين للعناصر التي يتكون منها . هذا التركيب يحدد شكل التفاعل بين تلك العناصر ، ويعطي الانبناء دينامية خاصة به قابلة للدراسة والتحديد . والانبناء ليس ساكنا او جامدا انه متطور دوما بدرجات متفاوتة من السرعة والوضوح . يتخذ هذا التطور شكل سلسلة من التوازنات الداخلية ، والتوازنات مع المحيط .

الانبناء قد يكون ماديا او نفسيا او اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا . ولكن نفس الانبناء له عدة أبعاد على الدوام .

هذا المصطلح ينطلق من مدرسة منهجية في بحث الظواهر الانسانية يطلق عليه اسم الانبنائية او البنيانية او الهيكلية ، على عكس المدرسة الوظيفية، والمدرسة التطورية.

انسنة

Anthropomorphisation

اعطاء الظواهر الطبيعية ، او الادوات والآلات المادية

صبغة انسانية . النظر اليهـا ليس كوقائع ماديـة تخضع لقوانين الفيزياء الطبيعية ، بل اعتبارها قريبة او شبيهـة بالذات الانسانية من الناحية الوجدانية .

وهو ميل شائع جدا عند البدائيين الذين يعتقدون أن لظواهر الطبيعة أرواحا كأرواح البشر وأنها تتصرف انطلاقا من قصدية ذاتية . انه اسلوب طفلي في النظر الى الامور من خلال اسقاط الذات ورغباتها ونواياها على الظواهر والادوات المادية .

انشطـار
Clivage (Cleavage, Splitting)

اوالية نفسية بدائية جدا عرفتها بتفصيل ميلاني كلاين وهي تعتبرها من أكثر الاواليات بدائية للدفاع ضد القلق ارتبط بالنزوة العدوانية .

فالطفل الصغير كي يبعد الخطر التدميري الذي تتضمنه عدوانيته عن الشخص المحبوب (الام) وما يولده هذا العدوان عليها من قلق شديد ، يفصل العدوانية عن الحب ، او نزوة الموت عن نزوة الحياة اللتين تتلازمان عادة بشكل مزيج في مختلف العلاقات . من خلال هذا الفصل يتمكن من توجيـه محبة خالصة الى الام ، وتوجيـه العدوانية خالصة الـى موضوع آخر يتركز فيه كل السوء والشر . كذلك قد ينشطر انا الطفل الى جزء طيب محبوب يرضى عنه ، وآخر سيء مصدر كل خطر وشر ينبذه .

الانشطار يؤدي الى القطيعة النزوية (حب خالص ، او عداء خالص) وبالتالي الى قطيعـة النظرة الى الـذات والوجود والآخرين . انهم مثال الطيبة ، او مثال السوء . وهكذا فالانشطار يهدف الى تركيز المحبة في الذات والموضوعات المقربة منها وتركيز العدوانية في الخارج الذي يهاجم ويدمر. اوالية الانشطار نشطة جدا في تصرفات العنف ويصاحبهـا عادة اسقاط الذنب على الضحية مما يجعل العدوان عليهـا مبررا ومشروعا .

. انعدام الكفاءة الاجتماعية

Incapacité sociale

احساس ذاتي يعيشه الإنسان الذي يرزح تحت وطأة مشاعر النقص والذنب . حيث يشعر انه أقل من الآخرين ، وانه دوما دون مستوى الوضعيات الاجتماعية . وهو احساس داخلي معظم الأحيان أكثر منه موضوعيا فعليا .

يعاني من هذا الاحساس الانسان المقهور ، والانسان المعزول الذي لم تتح له فرصة العيش في مجتمع معقد . انعدام الكفاءة الاجتماعية نجد نموذجا بارزا عليه عند الفلاح الذي ينزل من قريته المعزولة عن العمران الى العاصمة لأول مرة . هذه المشاعر تدفع به عادة الى تجنب المجابهة والمواجهة ، نظرا لافتقاره الى الثقة بنفسه ، واحساسه بعدم القدرة ، مما يؤدي به الى الانحسار ضمن حدود ضيقة هي حدود الظواهر المألوفة لديه .

انوية (تركز حول الذات)

Egocentrisme

يعني هذا المصطلح حرفيا التركز حول الذات (ذات (Ego) وتركز او تمحور (Centrisme) ويقصد به باختصار ، رد كل الامور الى الأنا ، الانطلاق من وجهة نظر فردية ، العجز عن رؤية ! واعتبار وجهة نظر أو رغبة خارج عن الذات وعند الآخرين . وبالتالي فالأنوية هي ضد الغيرية = الاعتراف بالآخرين . في الانوية يتركز كل الاعتبار وكل المحبة في الذات التي تتضخم على حساب العالم الخارجي الذي تحسر قيمته بنفس القدر . الانوية ظاهرة طفلية اساسا ، لانها تشكل احدى مراحل النمو .. وهي تكون عقبة جدية امام التعاطف مع الآخرين والتفاعل معهم واعتبار مصالحهم . هؤلاء يتحولون عند الانوي الى مجرد افلاك تدور في عالمه . وكأن الكون قد وجد لخدمة مصالحه وتحقيق أغراضه .

يستجيب الشخص الأنوي عادة بعدوانية شديدة تجاه رغباته، يشعر بالحقد والغبن اذا لم تسخر له كلّ الامور .

اهتياج (هياج ، هوس)

Agitation maniaque

حالة مرضية تميز المرض المعروف بهذا الاسم Manie حيث تتسارع كلّ العمليات العقلية والنفسية ويستثار الجهاز الحسي الحركي . فينطلق المريض في نشاط عارم ومشتت يرقص ، يغني ، يركض ، يتحرك ، يتحدث بدون انقطاع ، منتقلا من فكرة الى أخرى بدون اي ترابط سوى تداعي الافكار والالفاظ . كل ذلك في حالة من النشوة العارمة ، الشعور بالسعادة والوفاق مع الوجود والرضى عن الذات وتضخم الذات بشكل يعطي الاحساس بنسف كلّ الحدود والقيود . اذا لم يتخذ الامر طابع المرض العقلي الصريح والكامل ، فقد يكون الاهتياج عبارة عن رد فعل نفسي وجدائي من الاحساس بالقوة والجبروت والسطوة على العالم الخارجي يرافقه مشاعر غبطة ورضى عن الذات، لا تستند جميعا الى أي اساس من الواقع . والاهتياج بهذا المعنى قد يكون رد فعل على مشاعر العجز والتقصير والمهانة وما تولده من قلق شديد .. الاهتياج هو نوع من القلب السحري للمعادلة الوجودية لمصلحة الانسان المسحوق والعاجز .

أواليـة أو أواليـات

Mécanisme (Mechanism)

خصوصا أوالية دفاعية ، تعني مجموعة عمليات تلجأ اليها النفس الانسانية للاحتماء من القلق النابع من وطأة النزوات الداخلية ، او مشاعر الذنب النابعة من الأنا الأعلى، او الخطر والتهديد الخارجي : خطر مادي ، او معنوي يمس القيمة الذاتية .

أواليات الدفاع متعددة ، كل شخص يلجأ عادة الى نوع سائد منها ، أشهرها : الكبت ، الاسقاط ، انقلب الى الضد ، النفي ، النكوصي ، الاجتياف ، التسامي ، التماهي بالمعتدي ، الازاحة .

الاوالية الدفاعيـة الاساسيـة هي الكبت ، وكـل ما عداها يأتي كتتمة له عندما لا ينجح بمفرده في ابعاد شبـح القلق :

تتعقد الاواليات الدفاعية ، تبعا للسن ولنوع النزوات والمآزم النفسية الناتجة عنها . ولكن كل شخص يلجأ عادة الى عدد محدد منها في مختلف المآزم الداخلية والخارجية ، مما يعطيه نمطا خاصا به .

تأثير عكسي (تغذية عكسية)

Feed - Back

أحد قوانين نظرية الاتصال. فالأمور تبعا لهذه النظرية لا تسير في اتجاه واحد من مصدر محدد الى مصب جامد . التواصل عملية تفاعل أساسا . المعلومات التي يبعث بهـا الطرف (أ) الى الطرف (ب) ، يتلقاها هذا الاخير ويفسرها تبعا لوضعيته وظروفه وامكاناته من ناحيـة ، وتبعا لنمط علاقته بالطرف (أ) من ناحية ثانية . وهو لا يتلقاها بشكل فاتر ، بل يستجيب لها . هذه الاستجابة تشكل معلومات او رسالة جوابية موجهة الى الطرف (أ) . هذه الرسالـة يتلقاها (أ) ويفهمها بشكل معين ، مما يؤدي الى تعديل بثه لرسالته الاصلية : قد يستمر في حالة الاحساس بتشجيع ، او يوضح ، او يلطف ، او يؤكد او يتوقف في حالة تلقيـه رسالة برفض الاستجابة . وهكذا يحدث ضبط وتوجيـه متبادل بين الطرفين. مبدأ التغذية الرجعية هو احد القوانين التي اكتشفتها القبطانية (Cylacrnetique) ولقد سمح بفهم عمل الجهاز العصبي عند الانسان بشكل دينامي جـدلي . وفتح المجال أمام ابتكارات عديـدة في عـالم الالكترونيك ،

والادوات المؤللة (automation) . كل هذه الادوات تبنى على مبدأ التأثير العكسي كوسيلة للضبط الداخلي ، كل طرف يضبط حركة الطرف الآخر بشكل متبادل .

تبخيس
Dépréciation

الحط من قيمة شيء او انسان . تحدث هذه الظاهرة كثيرا في العلاقات الصداعية ، وخصوصا في علاقات الاستغلال والسيطرة . فلا بد حتى نتمكن من توجيه عدوانيتنا تجاه كائن آخر من الحط مسبقا من قيمته ، مما يجعل العدوان عليه مشروعا ومبررا . ولا بد كي نستغل ونسيطر أو نتسلط من تبرير العدوانية التي تتضمنها هذه المواقف بالضرورة من خلال الحط من شأن نستغلهم . المثل الابرز على ذلك هو استغلال المستعمر لشعوب العالم الثالث بعد تبخيسها ، كشعوب متخلفة جاهلة ، خاملة ، لا تعرف كيف تستثمر ثرواتها الوطنية ولا تعرف كيف تحكم نفسها .

تجاذب وجداني
Ambivalence

حرفيا تعني تذبذب الانسان بين ميلين متعارضين متواجدين معا ، كل منهما يشده في اتجاهه . وهو مصطلح يستخدم في وصف الحياة العاطفية للانسان ، حيث يعني تواجد متآن لميول او اتجاهات او عواطف متعارضة في علاقتنا خصوصا عواطف الحب والحقد .

والتجاذب الوجداني هو الخاصية الاساسية للحياة العاطفية . فليس هناك مطلقا في علاقتنا بكائن ما عواطف صافية . كل عاطفة لا بد أن تتضمن نقيضها في آن معا ، ولو انه في الحالات العادية لا يبرز الا وجه واحد : الحب ، او الحقد . الا أن الوجه الآخر كامن وضمني قد يتفجر في ظروف معينة ، ومن هنا نفهم تحول الحب الى حقد ، أو تحول النفور الى حب .

التجاذب الوجداني يتخذ شكلا صريحا في بعض حالات الصراع النفسي والاضطراب النفسي ، فيتذبذب الانسان ما بين الحب والحقد يتجاذبانه في نفس الوقت . في حالات السواء عواطف المراهق تشكل نموذجا ممتازا للتجاذب الوجداني ، حيث يتذبذب هذا بين الرغبة والنفور ، بين الحب والحقد بشكل واضح .

تخريف

Falculation

تزوير الواقع باتجاه المبالغة والاختلاق الذاتيين ، بغية تغيير المكانة الذاتية ، او طمعا في تغيير نظرة الآخرين الينا . والتخريف هو مجموعة ادعاءات تحاول من خلالها تزيين واقعنا تسترا على نقص ، او بؤس ، او قصور واملا في الحلول الوهمي في وضعية تتجاوزنا. وبهذا المعنى، التخريف يهدف دوما الى اثارة اعجاب واكبار الآخرين بنا ، اذا لم نحصل على ذلك من خلال واقعنا الفعلي . وأساس التخريف هو التضخيم . وقد يتخذ التخريف طابع التخويف فيحالات الدفاع عن النفس ، أو التهرب من الحساب .

ويشجع التخريف عند الاطفال بعد مرحلة الكمون . فيروي الطفل قصة مختلقة هي عبارة عن مغامرة قام بها مليئة بالبطولات ومحفوفة بالاخطار . كذلك تلجأ البنات المراهقات اليها . ويجد الطفل نوعا من العزاء ورفع الشأن في ذلك كما يجد فيه وسيلة للتهرب من الحساب من خلال التضليل .

يلاحظ التخريف في بعض الامراض العقلية في اتجاه المبالغة في تصور الجاه والثروة ، خصوصا عند النفاجيين .

كما يلاحظ كثيرا في الحياة اليومية فيالمجتمعاتالمتخلفة التي يحتاج فيها المرء للتستر على مهانته من خلال تضليل الآخرين وايهامهم بارتفاع شأنه .

تشريط
Conditionnement

نظرية في التعلم قال بها (Conditioning) خصوصـا العالم الروسي الشهير بافلوف. وأكثر من طورها من الناحية التطبيقية والنظرية العالم الاميركي المعاصر سكنر .

يعني التشريط حرفيا ربط مثير طبيعي او اصطناعي محددا (اللحم يثير لعاب الكلب) بمثير طبيعي او اصطناعي لا يثير هذا السلوك تلقائيا (ربط الجرس بتقديم اللحم في تجربة بافلوف الشهيرة على تعلم الكلاب) . وهكذا من خلال تكرار هذا الربط يكتسب المثير الثاني فاعلية المثير الاول . (يكتسب الجرس فاعلية اللحم في اثارة لعاب الكلب) ويصبح مجرد تقديمه منفرداً قابلا لاثارة السلوك موضوع البحث (اللعاب) ويسمى هذا المثير الثاني بالمثير الشرطي ، ويسمى السلوك الذي أثير من خلاله باسم السلوك الشرطي . وللتعلم الشرطي قوانين أساسية تحدد هذه العملية من حيث تعزيزها وانطفاؤها .

ونقصد بالتشريط في النص عملية تدريب مقصودة تمارس على الانسان في وضعية ما بغية قولبته في اتجاه معين من خلال غرس تصرفات ، او انتقاء تصرفات وتوجهات مفضلة وتحريم أخرى . وكذلك غرس نظرة معينة عند الشخص عن نفسه وعن العالم وعن الآخرين تترسخ عنده حتى تصبح وكأنها طبيعته .

تشييء
Chosification

هو اختزال وجود كائن انساني الى مرتبة الشيء . يتعلق هذا المصطلح بعمليات التبخيس التي تصيب قيمة الانسان ، كآخر شبيه بنا ومعادِ لنا في علاقة تكافؤ ، فيحل محل الاعتراف بانسانيته ، انهيار لقيمته في نظرنا . وبالتالي فقدان هذه الانسانية لقدسيتها وما تستوجبه من احترام ،

وما تتطلبه من التزام تجاهها . يتحول الآخر في هذه الحالة الى مجرد أداة ، او رمز ، او اسطورة ، يفقد خصوصيته واستقلاليته كليا ، ويدمج في مخططاتنا . تحدث هذه العملية في وضعيات حياتية كثيرة وهي اساسا ذات طابع سلبي خصوصا في حالات القتل والاعتداء والاستباحة ، الآخر يفقد صفته الانسانية ويتحول الى شيء ، الى رمز الشر الذي يجب ابادته .

كذلك تحدث في العلاقات العاطفية ، مثلا الأم التي تمتلك طفلها ولا تقبل استقلاله ، تستخدم في اغراضها المتنوعة (الحرب ضد الاب ، تحقيق الرغبات الخ . .) ، بدون اعتبار لكيانه . التشييء اذاً على صلة بانهيار العلاقة الانسانية التي تقدم على الاعتراف بغيرية الآخر .

تفريج (تصريف ، تنفيس)
Catharsis (Methode cathartique)
(cathartic method)

عبارة عن تفريغ الشحنة العاطفية ذات الطبيعة المؤلمة، من خلال وضعية تثار فيها الوجدانات لدرجة تزول معها الضوابط الواعية ، في حالة من المشاركة الوجدانية بين الشخص الذي يعاني وآخرين يتعاطفون معه . والتفريج يعقبه عادة ارتياح عام وعودة السكينة الى النفس تنقاد للتعبير عن المعاناة او المأساة بحرية تسمح بتصريف كل التوتر المتراكم . المشاركة الوجدانية في حالات الحزن والنوائب (كالموت مثلا) لها قيمة تفريجية .

علميا استخدمت الطريقة التفريجية في بدايات التحليل النفسي . كان يعتقد ان المرض ناتج الى حد تراكم التوترات النفسية الصدرية المقموعة . ويكفي رفع هذا القمع بواسطة التنويم المغناطيسي ، حتى يتمكن المريض من استرجاع الحادثة المؤلمة، وتصريف الانفعالات الشديدة التي صاحبتها. هذا التصريف يؤدي الى الشفاء ، لانه يخلص المريض من ضغط الانفعالات وما تحدثه من آلام .

تماهي (توحّد ، تعيين)
Identification

عملية نفسية يتمثّل الشخص من خلالها ، جانبا ، او خاصية ، او صفة من الآخر ، ويتحول كليا او جزئيا على غراره . تتكون الشخصية عادة من سلسلة من التماهيات الجزئية بأشخاص مرجعيين (الاهل ، الاساتذة ، الرؤساء ، الاصدقاء ، الزعماء الخ ...) .

التماهي يختلف عن المحاكاة في أن هذه الاخيرة تظل سطحية وواعية ، اما التماهي فهو عملية نفسية لاواعية ، تؤدي الى انبناء الشخصية تبعا لنموذج معين . فتأثير التماهي ، (اي ان يصبح الشخص هو الآخر ، او ان يكتسب هويته) حاسم في تكوين الشخصية .

يظل التماهي في الحالات العادية جزئيا ، يكتسب الانسان من خلاله صفات مرغوب فيها يتمتع بها الآخر . واساس التماهي هو الاعجاب . في الحالات المرضية يصل التماهي درجة كلية مما يفقد المريض كل استقلاليته وذاتيته في حالة من الذوبان في الآخر .

يعتمد التماهي من الناحية الدينامية على أواليتي الاجتياف والاسقاط : تمثل صفات مرغوبة ثم اسقاطها مضخمة على الآخر ، مما يؤدي الى تدعيم الاجتياف ، واعلاء شأن الآخر بالتالي .

تماهي اسقاطي

Identification projective
(Projective identification)

مصطلح ادخلته ميلاني كلاين لتدل به على أوالية يحاول الشخص من خلالها ادخال ذاته هواميا داخل شخص آخر (موضوع الحقد عادة) كي يسيء اليه يمتلكه ويسيطر عليه. تشيع هذه الاوالية كثيرا عند الفصاميين أثناء العلاج . فهم

يحاولون السيطرة على المعالج والقلق الذي يثيره في نفوسهم من خلال التماهي الاسقاطي .

بشكل اكثر عمومية ، نعني بهـذا المصطلـح ، ادراك الآخر كجزء من انفسنا ، تحديداً كمعبر ومجسد لاحـدى نزعاتنا التي نخشاها او صفاتنا التي ننفر منها ، وذلك من خلال التنكر لها في أنفسنا واسقاطها على الخارج . يفقـد الشخص في هذه الحالة غيريته كي يتحول الى مجرد سنـد لخاصيته نسقطها عليه . ونحن نعامله تبعا لموقفنا من تلك الخاصية . نعتدي عليه ليس ككائن بل كأسطورة ، كرمز لما هو ممنوع ومكروه في داخلنا . بهذا المعنى كل اسقاط هو تماه اسقاطي . وقد يعمل التماهي الاسقاطي باتجاه الحب. فقد نحب شخصا ليس لما هو عليه ككائن مستقـل ، بل لما نسقطه عليه من مثالية نرغبها جاعلـين منه رمـز الحب او الطهر او الخير . مبالغات الحب تقوم على هذه الاوالية .

تمـاهي بالمعتـدي

Identification à l'agresseur
(Identification with the agressor)

اوالية قالت بها آنا فرويد (١٩٣٦) خلال بحثها للاواليات الدفاعية التي يستخدمها الأنا لمجابهـة القلـق . التمـاهي بالمعتدي هو تمثل عدوانيته التـي نخشاها أيمـا خشية ، نخشى خطرها علينا عندما نحس بالعجز عن التصدي لهذا الخطر بقوانا الذاتية . فهنا نلعب دورا عدوانيا ، نتمثـل العدوان لحسابنا ونصبه على ضحية ، على كائن أضعف منا في حالة من نفي خوفنا وضعفنا واسقاطه على الآخـر . في التماهي بالمعتدي يحدث اذاً قلب للادوار : انا لا اخاف هو (الضعيف) يخاف ، انا لست ضعيفا ، انا قوي ، انا أخيفه. بذلك يسيطر الانسان على قلقه .

تشيع هذه الاوالية كثيرا عنـد الاطفـال في مجابهـة قلقهم : فالطفل الذي يخشى اللص ، يلعب دور اللص محاولا بث الذعر في نفس طفل أصغر . بذلك يسيطر على خوفه .

والطفل الذي يخشى عقاب الام ، يلعب دور الام المعاقبة التي تعنف أخا أصغر على غلطته .

والتماهي بالمعتدي قد يتخذ شكل التماهي بسلوكه ، أو بخصائصه او بأدواته ، او بعدوانه . تشيع هذه الظاهرة بين الشعوب المستعمرة التي تتماهى بعدوان المستعمر (أنظر الفصل السادس التماهي بالمتسلط) .

توليف (تنسيق)

Synthèse

بعد خطوة تحليل ظاهرة ما الى عناصرها المكونة لها ودراسة خصائص كل منها . وبعد تحليل العلاقة بين مختلف هذه العناصر . تأتي مرحلة تنسيق هذه الروابط والعلاقات في صورة متماسكة ذات قيمة معرفية . فالتوليف هو عملية عقلية عليا تسمح بتنسيق شتات معطيات الواقع في وحدات دينامية . وهي عملية تسمح بالوصول الى استنتاجات وقوانين وبالتالي اتخاذ قرارات منطلقة من سيطرة فعلية على الواقع . بدون توليف يظل الواقع مشتتا ويفلت منا . التحليل والتوليف هما قوام التفكير الجدلي من الناحية المنهجية وهما وسيلة الارتقاء الى التفكير المجرد والابداعي. فالابداع الفكري هو في النهاية توليف جديد لمعطيات قديمة .

جبروت

Toute puissance (omnipotence)

اسباغ القوة المطلقة على اشخاص ، او رموز سلطة خارجية، او على الافكار والنوايا والرغبات الذاتية . وهي حالة يعيشها الطفل أساسا حيث يعتقد في مرحلة ما أن أفكاره ونواياه ورغباته لها قوة التحقيق الفعلي منذ ساعة بروزها الى حيز الوعي . يكفي أن يرغب حتى تتحقق هذه الرغبة آنيا . يكفي أن يفكر بشيء حتى يكون . وذلك ما يبث في نفسه الطمأنينة والخوف في آن معا . يطمئن الى قوته

الذاتية ، قدرته على مغالبة الصعاب والأخطار الخارجية ، ويخشى أن تتحقق رغباته وأفكاره العدوانية تجاه من يحب (الوالدين والاخوة تحديدا) .

في مرحلة تالية يسقط الطفل الجبروت على الوالدين خصوصا الاب معتقدا أن هذا الاخير قادر على كل شيء .

وفي ذلك احساس بالطمأنينة لان قدرة الاب على حمايته وتحقيق رغباته لا تحد .

جبروت الافكار هو في الاساس النفسي للممارسات الحرية والخرافية للسيطرة على المصير . والجبروت عموما هو رد الفعل الدفاعي ضد الاحساس بالعجز والنقص .

جرح نرجسي
Blessure narcissique

النرجسية ترجع من حيث اشتقاقها اللغوي الى أسطورة نرسيس اليونانية ، ذلك الانسان الجميل الذي أعجب بصورته على صفحة الماء وما زال منكبا عليها يتأملها حتى أودى به الغرق . تعني النرجسية نفسيا تركز كل نزوة الحب في الذات بشكل يمنعها عن رؤية ما عداها ، يسجنها في حدودها في حالة من الفتنة والاعجاب ، ويؤدي الى موتها بالتالي نظرا لحرمانها العلاقة والتفاعل مع الغير باعتبارهما : اساس كل وجود وكل تحقيق للذات .

يعتقد فرويد أن طاقة الحب تتركز كلها في البداية في الذات فتضخمها بشكل مفرط . ثم تتوزع فيما بعد بين الذات والموضوعات الخارجية . ويؤدي ذلك الى اعتبار الذات وتقديرها من ناحية والتعلق بالموضوعات الخارجية التي استقطبت نزوة الحب (أشخاص ، قضايا ، قيم ، الخ ..) من ناحية ثانية . وتتفاوت قيمة الذات من وجهة نظر شخصية محض تبعا لمقدار نزوة الحب التي تركزت فيها .

الجرح النرجسي يعني انطلاقا من ذلك الاساس بأعمق

جوانب الذات والنيل من التقدير الذاتي والاعتبار الذاتي المحوري . والجرح النرجسي يولد بالتالي آلاما معنوية وحميمة شديدة جدا ويفجر القلق ، لان الانسان لا يستطيع أن يعيش بدون اعتبار ذاتي ، كما أنه يولد عدوانية هائلة صريحة او ضمنية تجاه العوامل التي أدت الى ذلك الجرح النرجسي . أبرز مثل على الجرح النرجسي أن تنجب الام طفلا مشوها أو ذا عاهة مما يمس انوثتها بالصميم .

جمدة

Catatanie

هي أحد أعراض مرض الفصام . تتخذ طابع التخدير الكلي للاحساسات في حالة من الاعراض عن العالم وادارة الظهر كليا للوجود . حتى الجهاز الحركي يتوقف عن الرد والتفاعل مع المحيط متخذا طابع المواقف الشخصية (الثبات على نفس الوضعية الجسدية وعدم التأثر بالمثيرات الخارجية) ، وتتضمن الجمدة عدوانية داخلية هائلة تنفجر في فورات غضب فجائية تتخذ طابعا خطيرا . كما تتضمن عنادا ذهنيا شديدا ورفضا للتجاوب مع الآخرين . الجمدة هي أساسا دفاع متطرف ضد طغيان التهديد الخارجي للذات ، او بكلمة أدق الاحساس بذلك التهديد . انها تعني التأثر بالمحيط وما يتضمنه من قلق وآلام واحباطات . فاذا انتفى التأثر من خلال ابطال الاحساس وصد الاستجابات الحركية يتمكن المريض الذي يعيش حالة تهديد كارثي لتوازنه الوجودي من الاحتفاظ بشيء من تماسكه تجاه القوى الخارجية التي يسقط عليها ، في الواقع ، قوة مبالغا فيها ، هي بالتحديد التهديد الذي يعاني منه من داخل على شكل انفجار في شخصيته .

خصـاء (عقـدة)
Complexe de castration
(Castration complex)

عقدة مركزة حول هوام الخصاء ، اي فقدان القضيب كعقاب على ذنب اقترفه الصبي . هـذا الذنب عـلى صلة برغبات جنسية آثمـة اساسهـا الرغبـة في امتـلاك الام والاستحواذ عليها من خلال ابعـاد الاب والقضاء عليـه . ولذلك فعقدة الخصاء على علاقة بعقدة أوديب التي تعتبـر نفسيا الجسر الذي يمر عليه الطفـل الصبي للدخـول الى العالم الانسـاني ، عـالم الثقافة والقانون ، ويصل في نفس الوقت الى هويته الذكرية .

وتثار عقدة الخصـاء أيضا انطلاقا من الممارسات ذات الدلالة الرمزية على الفعل الجنسي (الاستمناء ، البوال) ، ولا يندر أن يهدد الاهل الطفل حين يعبث بعضوه التناسلي او حين يبول في ملابسه بحرقه بالنار او قطع ذلك العضو .

وترتبط عقدة الخصاء بلغز الفروق التشريحيـة بين الجنسين خصوصا عدم وجود قضيب عند المراة (والاخت) مما يثير قلقا عند الطفل على قضيبه . وهو يعتقد أن اخته قد فقدت قضيبها عقابا لها على رغبة آثمة او فعلة ممنوعة.

والخصاء من الناحية النفسية الرمزية هو التعبير عن قانون الاب الذي يحد من حرية الرغبة عند الطفل . أمـا عقدة الخصاء فتأخذ على نفس المستوى النفسي طابع عدم الاكتمال ، طابع النقص والعجـز على مستوى الذكـورة ، وعلى مستوى التعبير الرمزي عنها ، على شكل اقدام مفرط للسلطة (رمز الاب) وعجز عن توكيد الذات ازاءها في حالة من الرضوخ والتسليم . وعندما تستفحل هذه العقدة تعقد الانسـان عن توكيد ذاته وتـؤدي به الى الفشل لانه يحس بانعدام الجدارة ، او انعدام الحق في النجاح الحياتي ــ كل نجاح هو كبر وهو مضاهاة للاب . ومن يعـاني من عقـدة الخصاء ممنوع عليه أن ينافس الاب ويضاهيه ، ولذلـك

يظل في وضعية العجز والقصور . عقدة الخصاء ترتبط بمشاعر ذنب شديدة ، وتثير القلق . وقد يستجيب الانسان لها ليس بالرضوخ وانما بالافراط في السلوك التعويضي على شكل مبالغة وتضخيم لمظاهر الذكورة والقوة والرجولة والاقدام الخ ...

كل ضعف حياتي ، كل فشل وجودي يعاش على المستوى اللاواعي كخصاء . وابرز مثل على عقدة الخصاء الرضوخ الانقيادي للسلطة في مختلف مظاهرها، والاحساس بالذنب تجاهها ، او تجاه الرغبة في مجابهتها .

خصاء ذهني
Castration mentale

تعبير مجازي للدلالة على حالات صد الذهن ، وعجزه عن توكيد ذاته والتعبير عن ديناميته وخصوصا عجزه عن التعبير عن قدرته على السيطرة على العالم الخارجي . فالذهن هو اداة سيطرتنا الاولى والارقى على المحيط . وعندما يصاب بالصد تفقد تلك السيطرة ، ذلك هو المقصود تحديدا بالخصاء الذهني . والتعبير مجازي لان الذهن في قوته وسطوته هو كالقضيب رمز الذكورة والسيطرة على الانثى الام . الطبيعة ترمز الى الام .

والخصاء الذهني قد يتخذ شكلاً مفرطا في شدته فيتحول الى ضعف عقلي صريح ، ولكن ذو اسباب نفسية قابلة للعلاج على عكس الضعف العقلي ذي الاسباب العصبية العضوية . وفي الحالات البسيطة قد يتخذ الخصاء الذهني شكل صد القدرة على الاستيعاب ، والتركيز والتحليل والتوليف ، وبكلمة موجزة يتخذ طابع فقدان السيطرة الفكرية على العالم .

خواف
Phobie (Phobia)

الخواف هو خوف مرضي من اشياء او كائنات او

اماكن او وضعيات لا يفترض أن تثير الخـوف عند الأنسـان الراشد العادي .. يصاب المريض مـن هؤلاء بذعر شديـد عندما يلتقي بموضوع خوافه وهو لذلك يتجنب ذلك اللقاء من خلال طقوس عديدة واحتياطات كثيرة .

موضوعات الخـواف متنوعـة (خـواف الحشرات والحيوانات ، خواف الاماكـن المغلقـة ، خواف الاماكـن الفسيحة ، خواف الارتفاع ، خواف الجمهرة في الشارع ، خواف وسائل المواصلات كالطيارة والسيارة والقطار) .

موضوع الخواف يثير عنـد المريض نوبـة قلـق بكل مظاهرها النفسية والفسيولوجية . ويستند في الواقع الى اسقاط القلق الداخلي المتأزم مرضيا على موضوع محدد ، وحشره بالتالي في زاوية معينة من الوجود ، مما يترك حرية الحركة كاملة للمريض بعيدا عن موضوع خوافه . ولذلك قد نجد أحيانا ظواهر خوافية حتى عنـد ابطـال الحـرب والمغامرة ، كالخوف من حشرة ما ، أو من حقنة الخ . .

الموضوع المخيف له اغلب الاحيان دلالة رمزية عامة او خاصة عند المريض ، ويشير الى مآزم ذات طبيعة جنسيـة أو عدوانية او الاثنين معا .

ديمـومـة
Durée

وحدة الزمن في مساره . وحـدة الماضي والحـاضر والمستقبل كما تعاش نفسيا . والزمن المعاش يختلف عـن الزمن الفيزيقي المكاني . فالزمن الفيزيقي لا يضطرب ، انما الديمومة قد تتعرض للاضطراب ، سواء في مسارها ، أم في وطأتها ، أم في التوازن بين مراحلها الثلاث . وقد تتجمـد الديمومة على الماضي ، كما في بعض الامراض النفسية ، او قد تنسد آفاق المستقبل . وقد يهرب الانسان من واقعـه في العيش بالحاضر في اللحظة الراهنة كما يحدث للجانح ، وذلك على عكس العصابي الذي يهرب من الحاضر في الماضي، وعلى عكس السوداوي الذي تسد أمامه آفاق المستقبل .

والديمومة في اضطرابها او توازنها على علاقة وثيقـة بالتكييف الحياتي العام ، اذ أن هذا التكيف يندرج دائما في ديمومة متحركة .

سلـوك التفـاف

Conduite de détour

من المفاهيم التي تحدثت عنها نظرية الجشكلت ومن بعدها نظرية الحقل بصدد الذكـاء والسلـوك التكيفـي . فالسلوك المتكيف هو القادر على الالتفاف ، اي الذي يبدي قدرا من المرونة تمكنه من الابتعاد الآني عن الهدف بقصـد الوصول الاكثر فعالية ودواما اليـه . وهو السلوك الـذي يتوسل أدوات مباشرة او غير مباشرة للوصول الى هدفه . بالطبع سلوك الالتفاف (وتعني حرفيا الالتفاف حول الحاجز او العقبة التي تقف بين الكائن وهدفه والبحث عن منفـذ يسمح بالوصول اليه ، ولو ادى الامر الى شيء من الأنتظار، او الابتعاد المؤقت عنه) ، يسمح للكائن الحي بالتغلب على الكثير من الصعوبات التي يصطدم به لا محالة الوصول الى الهدف اذا اتخذ طريقا مبـاشرا وبشكل جامـد . ويرتبط سلوك الالتفاف بمدى اتساع المجال الحيوي الذي يوضـع فيه الهدف وطرق الوصول اليه . كلما ضاق هذا المجـال قلت فرص الالتفاف ، والعكس صحيح . كلما اتسع المجال ارتقى السلوك .

سلـوك طقسي

Comportement rituel
(Ritual behavior)

مصطلـح يستخدمه كونراد لورنـز في الحـديث عن العدوانية بين الحيوانات .. ففي حالة القتال بين حيوانين من نفس الفصيلة ، يقدم الحيوان الاضعف ، بعد أن تتضح له قوة خصمه ، على سلـوك طقسي يعبـر عن الرضـوخ

المستسلم ، ويبرز الضعف او يلعب دور الضعيف أمام الحيوان الاقوى .

هذا السلوك ذذو طبيعة استرضائية ، يؤدي الى نتيجة مباشرة هي كبح عدوانية الحيوان الاقوى، مما يوقف القتال عند حدود غير مؤذية ، وقد يؤدي أيضا الى بروز سلوك الصداقة بين الحيوانين ، وحلول موقف العدوان . يبرز هذا التحول خصوصا تجاه الصغار والاناث .

شرعنة (مصطلح مقترح)

Légitimation

عملية نفسية علائقية تهدف الى تبرير العدوان على الغير من خلال تأثيمه ، من خلال وضع كل اللوم عليه وتحميله مسؤولية المأزق الذاتي او المأزق العلائقي . عندها يصبح هو المذنب ، وهو مصدر الخطر والتهديد ، ومصدر العلة في حالة من تبخيس انسانيته والحط من قدره وتحويله الى عقبة وجودية في وجه السعادة الذاتية والوصول الى تحقيق الذات . عند هذا الحد يحدث رد فعل براءة تجاه الذات التي تصور تضحية يقع عليها كل الغرم من الخارج . ومع رد فعل البراءة هذا يفتح السبيل امام اطلاق العنان للعدوانية الذاتية في فعل تهجمي تدميري ضد الآخر المسؤول . وتعاش هذه التصرفات التدميرية تحت شعار الدفاع المشروع عن النفس .

عماد شرعنة العدوان على الغير هما اذاً الاحساس بالغبن المفروض ، وبروز الاتجاه الانصافي (انظر هذا المصطلح) .

صد (كف)

Inhibition

الصد هو كف النشاط السلوكي او الذهني او التعبيري او العاطفي نتيجة لقيود وكوابح داخلية نفسية ،

وذلك على عكس القمع الذي يكف هذا النشاط بفعل قوى خارجية ضاغطة .

والصد عملية لا ارادية يتحكم بها اللاوعي ويعاني منها الشخص على شكل تجربة مؤلمة من القصور الذاتي والقيد الداخلي الذي يمنع الانطلاق .. وقد يحاول مغالبتها دون كبير جدوى معظم الاحيان . والصد على علاقة عكسيةبدرجة الحرية النفسية الداخلية التي يتمتع بها الانسان . كلما انحسرت حرية التعبير عن الذات ، كان الصد أكبر ، وعلى العكس كلما كبرت هذه الحرية ، انحسر الصد .

والصد على علاقة وثيقة بمشاعر الاثم ، انها في الواقع وليدة هذه المشاعر بشكل مباشر ، وهذه تنبع من تشدد الأنا الأعلى وارهاقه للشخص بسبب وجود ميول ورغبات مكبوتة لانها لا اخلاقية وغير مقبولة (رغباتجنسية أو عدوانية) .

صورة أموية (صور)

Imago (maternelle)

بشكل عام النموذج اللاواعي الاولي للاشخاص ، الذي انطلاقا منه يدرك الشخص الآخرين . وتبنى الصورة عموما انطلاقا من العلاقات الاولى بين الطفل ووالديه ، خصوصا الام ، هذه العلاقات بما فيها من واقعية ، وما يدخل هذه الواقعية من عناصر ذاتية من خلال الاسقاط .

والصورة هي الممثل النفسي اللاواعي للنزوة (نزوة الحب ، او نزوة العدوان ، او امتزاجهما بمقادير متفاوتة). وهي كذلك لأن النزوة تتوجه حتما الى موضوع خارجي هو الام في البداية ثم الاب . وهكذا ينشأ عند الطفل صورة عن الام هي نتاج موقفها وتصرفها الفعلي نحوه متفاعلا مع توقعاته ونزوات الحب والعدوان عنده . وقد تكون صورة الام طيبة اذا طغت على العلاقة معها تجربة الحب ، او تكون سيئة اذا طغت تجربة الاحباط والعدوانية والحقد .

الصورة الاولى هي نموذج كل علاقة حب ، وكل علاقة وفاق تالية مع العالم .. اما الثانية فهي نموذج كل علاقة خوف وعداء وخطر واضطهاد وتشاؤم .

صورة الام هي اذاً ينبوع وسند الحياة العاطفية في مختلف احوالها . على العكس منها صورة الاب (التي تتخذ أيضا شكلين مرحب وعدوائي) فهي سند حياة العقل والتمايز والاستقلال .

ضد خوافي
Contraphobique

مجموعة من الاجراءات التجنبية (اساسا) يقوم بها الخوافي (المريض بالخواف) للاحتماء من خطر مجابهة موضوع خوفه المرضي ، وتجنب نوبة القلق التي تصاحب هذه المجابهة . ويلتقي الخوافي في ذلك مع المتطير في اسقاط قلقه الداخلي على موضوع خارجي واتخاذ الاحتياطات المتنوعة لتجنبه وابطال تأثيره .

ضعف عقلي زائف
Pseudo-débilité

على عكس الضعف العقلي الفعلي الناتج عن اضطرابات عضوية ، عصبية او شراحية ، او وراثية الخ ... الذي يشكل تخلفا ذهنيا حقيقيا يصعب علاجه وشفاؤه تماما ، هناك الضعف الزائف . هذا الاخير له معظم السمات الدينامية والعرضية للآخر ، ولكنه لا يستند الى اساس عضوي ، انه وظيفي او نفسي ، وهو قابل للتحسن والشفاء بدرجات متفاوتة .

وللضعف العقلي الزائف اسباب رئيسية أهمها ثلاثة :

— الاضطراب النفسي المتفاوت في شدته والذي يتخذ شكل الصد المفرط للنشاط الذهني ، كما يحدث في حالات الذهان الطفلي .

ـ الاختلال الحسي : في السمع او البصر مما يجعل الذهن محروما من قسط هام من المثيرات الخـارجية التي تحفزه على النشـاط .

ـ نقص المدد الثقافي ، او البؤس الثقافي ، كالعيش في وسط جـاهل وبائس ، يفتقـر الى المثيرات الثقافيـة والفكرية ، مما يبقي الانسان في حالـة بدائية ساذجة ، كما هو شأن الجماعات السكانية التي تقطن مناطق نائية ومعزولة تماما عن المثيرات الثقافية الشائعـة . وقد تتـلاقى هذه الاسباب الثلاث لتعزز درجة التخلف وتجعله صعب العلاج.

طقس هجاسي

Rite obsessionnel

مجموعة تصرفات منمطة ، تطبق مع مراعاة الكثير من الدقة في تسلسلها وتنفيذها ، ومراعاة الثبات في اسلـوب ذلك التنفيذ ، يقوم بها المريض بالهجاس . وهي ذات هدف دفاعي أساسا ، غايتها الحرب ضد خطـر بروز نزوات او رغبات او افكار ، او الاقدام على تصرفات مرفوضة نفسيـا وخلقيا من قبل الهجاسي ، ولكنها تمثل في الواقع رغبتـه اللاواعية . اذا منـع الهجاسي من القيـام بطقوسه ، فان القلق الشديد ينتابه . لا يشعر بالامن الا اذا قام بها، ولذلك فهي تأخذ طابعا ارغاميا قهريا .

عظام (جنون العظمة والاضطهاد)

Paranoïa

ذهان (مرض عقلي) مزمـن يتصف بطغيان هذيـان منظم يغلب عليه طابع التأويل ، وغياب التدهور العقلي .

ويسمى جنون العظمة والاضطهاد لان المريض تطغـى عليه معتقدات مرضية (هذيانات) لهـا بنظره صفة اليقين القاطع ولكنها لا تستند الى واقع موضوعي وهي غير قابلـة للتغيير بالاقناع او البراهين العملية . هذه المعتقدات ذات

طابع اضطهادي يقتنع المريض انه ضحية مؤامرة تحاك ضده وتريد النيل منه ويستجيب لها بمجموعة الاجراءات الدفاعية والهجومية التي تستغرق كل وقته وتصرفه عن الاهتمام بمصالحه الحياتية ، اشدها : هذيان الدعاوى ، هذيان الاضطهاد ، هذيان التأويل .

ويستجيب اذا بشكل عدواني يتخذ طابع الدفاع المشروع عن النفس ، من خلال سلوك الاضطهاد المضاد . ويرافق ذلك نوع من مشاعر العظمة ، حيث يضع المريض نفسه في مرتبة من الاهمية تبلغ حدا كونيا .

يحتفظ الواحد من هؤلاء بكل صفائه الذهني خارج اطار الهذيان ويتمتع بذاكرة حادة ، وميل مرضي للملاحظة والتحليل المتربص بكل شيء .

العظام من اشد الامراض العقلية المزمنة وشفاؤه صعب اجمالا .

علم الأنام

Ethnologie(gy)

من (Logos) علم و(Ethnie) شعب او مجموعة سكانية . هو أحد فروع العلوم الانسانية وثيق الصلة خصوصا بعلم الاجتماع . أو هو كما جرت العادة قديما علم اجتماع الشعوب البدائية التي لم تصل مستوى الحضارة الصناعية المميزة لبلدان العالم الغربي وما يماثلها .

يدرس ثقافة الشعوب في بناها الفوقية والتحتية : أساطيرها ، معتقداتها ، مؤسساتها ، انظمتها ، تقنياتها وادواتها ، انظمة الانتاج والتوزيع والعلاقة .

علم اللسان

Linguistique

احد فروع العلوم الانسانية الحديثة . موضوعه دراسة اللغة ليس كمجموعة كلمات ، بل كبنية او انبناء لغوي . ينطلق من مهمة اساسية هي أن الكلمة لا تجد

معناها في ذاتها ، بل من خلال موقعها في سياق الخطاب . وهي على صلة بذلك الخطـاب ذات مستويين ، مستـوى تاريخي أنسيابي (Diachronie) حيث يتجدد معنى الكلمة انطلاقا مما سبقها وما يتلوها ، ومستـوى تزامني عمقـي (Synchronie)، حيث ترجعنا الكلمة من معناها الى معنى آخر . وهذا الى معنى ثالث . وهكذا فالكلمة يتحدد معناها من خلال موقعها في سلسلتين جدليتين تتكون منهما اللغة : سلسلة تراتب المعاني وسلسلة تتابع الكلمات .

علم اللسان غني جدا بمعطياته ، منه انطلـق تطبيـق النظرية الانبنائية كمنهج بحث في العلوم الأنسانية . ولقـد ساهم هذا العلم الناشىء في القاء أجزاء قيمة على مشكلات هامة في العلوم الانسانية وفهم الانسان معبرا عنه من خلال اللغـة .

وعلم اللسان هو اخيرا اكثر العلـوم الانسانية دقـة واقترابا من العلوم المضبوطـة ، لانه قابـل اكثر من غـيره لتكميم مواده .

علاقـة اثريـة

Rélation archaïque

يقصد بها العلاقة الأولية تماما مـع الأم كما تكونـت صورتها في اللاوعي . هذه العلاقة تتصف بالتطرف العاطفي وبشـدة الطاقة النزوية المركزة فيها نظرا لعدم قدرة العقل على التدخل في تلك المرحلة المبكرة من العمر كي يلطف مـن طغيان الانفعالات .

عندما تكون العلاقة الأثرية ذات طابع سلبي ، متميـز بالعدوانية ، فانها تصبح مصدرا لأكثر أشكال القلـق شدة وبدائية ، القلق غير القابل للضبط العقلاني .. وهي في راي ميلاني كلاين ذات طبيعة اضطهادية نظرا لشدة تركز نزوة العدوان فيها . وهكذا فاثارة هذه العلاقات الأثرية مع الأم أو الأب ، أو معهما متحدين يفجر أقصى درجـات القلـق

النفسي ، الذي يصل الفصام العظامي . هذه العلاقة تكبت في اعماق اللاوعي . ولكن الوضعيات المأزقية الشديدة قد تفجرها مما يجعلها تسقط على الواقع الخارجي وعلى الاشخاص الفعليين في علاقة عظامية . العلاقة الأثرية هي باختصار السند الهوامي لأشد درجات نزوة العدوان تدميرا.

علاقة دمجية (ذوبانية)

Rélation fusionnelle

هي علاقة تنتفي منها الاستقلالية والغيرية. فعلى عكس علاقة اللقاء بين طرفين شبيهين على درجة ما من التساوي ولكنهما يتمتعان بالغيرية ، فان العلاقة الدمجية هي نفي للغيرية ، ذوبان للذات في الآخر الى حد استلاب الشخصية . والعلاقة الدمجية هي نموذج علاقة الطفل الأولى بأمه ، هي نموذج الوضعية الطفيلية حيث يتحدد الطفل كهوية انطلاقا من علاقته بالأم . والعلاقة الدمجية هي النمط السائد للعلاقة في الحب التملكي حيث لا يقبل الحبيب من محبوبه الاستقلال ويريده له كاملا ، يستحوذ عليه من خلال الغاء استقلاليته وارادته .. وقد يذوب الحبيب في شخصية المحبوب لدرجة الاستلاب .

العلاقة الدمجية هي اذا على عكس العلاقة الراشدة التي تقوم بين طرفين لكل منهما استقلاله . وهي من أساليب الدفاع الشائعة ضد قلق الانفصال . هذا القلق لا يهدأ الا اذا انتفت كل مؤشرات الافتراق والاختلاف مهما هزل شأنها . ولا يتم ذلك الا من خلال الدمج : دمج الآخر في الذات ، أو الاندماج في ذات الآخر .

الغبن المفروض

Injustice subie

شعور يطغى على الجاني ، أو الجانح ، أو الشخص المقبل على فعل عدواني تدميري موجه ضد شخص آخر .

يحس الواحد من هؤلاء أنه ضحية ظروف ظالمة ، أو ضحية اعتداء وقع عليه من قبل ضحيته المقبلة . ويؤدي هذا الاحساس الى تراكم العدوانية ضدها وتفجير الحقد ، واصطباغ العلاقة معها أو مع المحيط بصبغة اضطهادية يتحول العالم ، الى وجود لا مكان فيه للحب . ويفجر هذا الاحساس رد فعل البراءة ، نفي المسؤولية فيما آلت اليه الامور عن الذات ، ونفي تهمة العدوانية بالتالي . وهنا يتحول العدوان على الضحية أو المحيط الى فعل مبرر ومشروع متخذا صفة الدفاع عن النفس . ويؤدي الشعور بالغبن المفروض الى بروز الاتجاه الانصافي وكلاهما عماد شرعنة (أنظر هذا المصطلح) العدوان على الغير وتبريره .

فاتر

Passif

صفة لموقف من الوضعيات الحياتية والعلائقية يتصف بانعدام المبادرة ، بالتلقي والانتظار ، عكسه نشط (Acty) وهو موقف مبادر مؤثر فعال يتدخل في الوضعية فيغيرها أو يحور اتجاهها في وجهة مقصودة .

والفاتر هو غير السالب (négatif) كما يشيع خطأ في الاستعمال الدارج . فالسالب هو أساسا موقف معارض قد يكون نشطا أو فاترا ، عكسه ايجابي (positif) أي موقف بناء يتدخل في الظواهر كي يؤثر فيها نحو غايات معتبرة طيبة ومرغوب فيها .

قلق الهجر

Angoisse d'abandon

قلق يعاني منه الطفل المفصول عن والديه ، أو الذي يخشى أن يتخلى عنه هؤلاء ، خصوصا الأم ويرتبط قلق الهجر عادة بشعور ضمني بخطيئة ارتكبها الطفل ويكون نبذه عقابا عليها . كما أنه يثير الخوف من الفناء نظرا لفقدان

السند والحماية . يحس الطفل الذي يعاني من حالة الهجر أو من قلق الهجر ، أنه معرض لأخطار خارجية تتهدده من كل ناحية ، العالم يتلون بصبغة اضطهادية مخيفة ، مسكون بقوى تريد به الشر ولا قبل له في القضاء عليها أو مجابهتها . ومصدر قلق الهجر هو الحقيقة البيولوجية التي تفرض نفسها كحتمية لا مفر منها ، وهي القصور البيولوجي الفعلي في الطفولة والحاجة الى الاعتماد على قوى خارجية ، على العلاقات مع الوالدين لتأمين الحماية والغذاء .

يولد قلق الهجر معاناة وجودية تأخذ شكل المساس المؤلم بقيمة الذات (لو كنت ذا قيمة لما هجرت ، اذا أنا لم أحب فلأني لا أستحق الحب) .

الكبت (المكبوت)
Réfoulemen t(réfoulé)
(Repression)

الكبت هو الأوالية الدفاعية الأساسية . بواسطته يتمكن الأنا الواعي ، من طرد الرغبات والأفكار والانفعالات المصاحبة لها خارج حيز الوعي ، طردها الى اللاوعي هربا مما يسببه الوعي بها أو تنفيذها من قلق نظرا لتعارضها مع رغبات أخرى أو مع أوامر الأنا الأعلى الذي يفرض تزمتا خلقيا صارخا على الشخصية ، محرما اشباع تلك الرغبات . كل الأواليات الدفاعية من اسقاط او قلب الى الضد ، وازاحة، وغيرها مساعدة للكبت تدعمه عندما لا ينجح بمفرده في عملية الابعاد هذه . وهكذا فالكبت هو أحد العوامل الأساسية لتكوين اللاوعي . وهو بهذا المعنى عملية تدل على تأثير الحضارة . فكلما كان هذا التأثير أكبر ، كان كبت النزوات بشكلها البدائي الحيواني أشمل .

الرغبات المكبوته لا تزول ، بل تظل نشطة جدا في لا وعي الانسان تمارس ضغطا مستمرا كي تبرز الى حيز الوعي والتحقيق من خلال السلوك . في الحالات العادية تبرز بوسائل مقنعة أو رمزية أشدها الأحلام والأعراض النفسية

المرضية . ولذلك فان الأنا يستنفذ جزءا من طاقته في ابقاء الكبت فعالا . وهو يفشل في ذلك في بعض الظروف : المرض، الارهاق ، الكوارث ، شدة ضغط المكبوتات . وهنا يعود المكبوت الى الظهور ، وتتخذ هذه العودة شكل تفجر الاضطراب النفسي ، أو العقلي .

الهستيريا هي اشهر الأمراض النفسية التي ساعدت على اكتشاف أوالية الكبت .

عندما تكبت رغبة ما ، يحدث انفصال بينها وبين الانفعالات المصاحبة لها والأفكار الخاصة بها . في الهستيريا مثلا تكبت الرغبة والأفكار وتفلت الانفعالات من الكبت . أما في الهجاس فيحدث العكس حيث تكبت الانفعالات وتفلت الأفكار التي تظل واعية .

مؤسس ، مؤسسي

Institutionnel

نسبة الى مؤسسة (Institution) وهي نظام اجتماعي في المقام الأول . والانسان منذ أن يولد يجد نفسه مباشرة منخرطا او متموضعا في عدد من المؤسسات تسن له قواعد سلوكه وتحدد مكانته ومعناه ، وتفرض عليه المحرمات والنواهي ، كما تحدد المسموحات . من اشهر المؤسسات الأسرة ، والمدرسة ، والمرجع الديني ، والجيش . تأثير المجتمع على الفرد وادماجه فيه يتم عادة من خلال مؤسسات من هذا القبيل .

أما الجسد المؤسس فنعني به ان جسم الانسان عموما والمرأة خصوصا ليس مجرد متعض بيولوجي ، بل هو دلالة اجتماعية ونفسانية من خلال ما تسن لحركته وتعبيراته وتصرفاته ورغباته من قوانين تحددها ، ومن خلال الدلالات والقيم التي تعطى له . وكذلك من خلال ما يعطى لمختلف اعضائه من مرتبية (الأعضاء النبيلة والأعضاء أو المناطق المعيبة ، الأعضاء التي يسمح بظهورها وتلك التي تحجب) .

الجسد المؤسس هو اذا تحول الجسم من كيان طبيعي الى كيان نفس اجتماعي . وجسد المرأة على هذا المستوى يخضع لتأسيس مفرط نظرا لشدة القواعد وشموليتها التي تحدد تفصماته .

مثلنة (مصطلح مقترح)
Idéalisation

أي رفع انسان ، او موضوع ، الى مرتبة المثل الأعلى وتنزيهه عن الشوائب والنقائص ، في حالة من تضخيم قيمته وأهميته وجاذبيته بالنسبة للشخص الذي وضعه في ذلك المقام .

المثلنة مصطلح تستخدمه ميلاني كلاين في الحديث عن انشطار النزوات وانشطار الموضوعات . في هذه الحالة تنفصل نزوة الحب تماما عن نزوة العدوان ، توجه نزوة الحب عندها الى موضوع خارجي (محبوب) هو الأم في الأصل ، مما يجعلها رمز الحب ، مثال الموضوع المرغوب فيه ، المنزه عن كل شوائب الحقد والتهديد والاضطهاد .

المثلنة هي احدى الأواليات الدفاعية التي يحاول بواسطتها الطفل الصغير أن يحفظ الموضوع من الأخطار التي تشكلها عليه نزوة العدوان . انه نفي مطلق للميول أو النوايا العدوانية تجاه ذلك الموضوع من خلال تحويلها الى موضوع ثان يصبح رمز الشر والسوء والتهديد . هذه الأوالية نجدها فاعلة في العلاقات الاضطهادية بين الجماعات ، حيث تحدث مثلنة للجماعة التي تنتمي اليها وتضخيم لقيمتها من خلال توجيه كل العدوان الى جماعة غريبة .

المرحلة الفمية
Stade oral (ou phase)
(oral stage)

اولى مراحل تطور اللبيدو . تتركز خلالها اللذة الجنسية بالفم وترتبط اساسا بالأحساسيس الخاصة

بالتجويف الفمي والشفتين . وهي ترافق في تلك المرحلة من النمو عملية التغذية (خصوصا الامتصاص والرضاعة). من خلال طبيعة ومنحى هذه التجربة (سارة أو مؤلمة) تتكون عند الطفل الوليد أولى الصور عن حياة العلاقة ، صورة الأم ، وصورته عن نفسه وعن الوجود عموما ، تصطبغ بطابع فمي . وتقسم هذه المرحلة الى مرحلة امتصاص وهي مرحلة التلقي ، ومرحلة العض وخلالها تبدأ العدوانية الفمية في ارساء اسسها الأولى . الموقف من العالم يصبح اقتحاميا تملكيا .

صعوبات الحياة المتنوعة والاحباطات الجذرية قد تقود الانسان الى النكوص الى تلك المرحلة الأولى من النشاط الذي كان يؤمن المتعة . وقد تتشبث الشخصية على هذه المرحلة فيصبح المرء اتكاليا ، يميل الى الطفلية في علاقاته ، يجب أن يتلقى اكثر مما يعطي او يبادر . للنشاط الفمي قيمة تعويضية كبيرة الاقبال على الطعام ، لذة الكحول والتدخين كلها تستقي أصولها من تلك المرحلة الفمية المبكرة من الحياة .

مكاملة (تكامل)
Intégration

هذه العملية النفسية هي في اساس وحدة الشخصية واتزانها وتوافقها . تعني حرفيا قدرة الذات على استيعاب تجاربها المختلفة ومآزقها وصراعاتها ورغباتها ، والتنسيق بين الذات والخارج بشكل متوازن وايجابي ، يسمح للشخصية ان تصل مرتبة متقدمة من النضج والارتقاء . فالنضج وما يرافقه من حيوية ودينامية مشروط في النهاية بدرجة مكاملة التجربة الحياتية (عاطفيا، وعقليا وعلائقيا) . في المرض النفسي تنخفض درجة التكامل الحيوي ، مما يولد صراعات بين قطاعات الشخصية التي تفتقر الى التنسيق والتوليف . ويؤدي ذلك عادة الى بروز قطاعات منفصلة ، يعمل كل منها بمفرده ، مما يلقي بالشخصية في التفتت

والتبعثر . ويصل انهيار التكامل حدا واضحا في مرض الفصام حيث تتفكك الشخصية تماما ، ويفقد التنسيق بين الانفعالات والأفكار والسلوك والعلاقات .

اما المكاملة فيقصد بها القدرة على استيعاب خبرة او رغبة ذات طابع وجداني مفرط ، فاذا حدثت هذه المكاملة بنجاح ، فقدت الانفعالات قوتها الضاغطة التي تعرقل تكيف الشخصية ووحدتها .

ميل اختزالي (اختزال)
Tendance réductioniste

الاختزال عملية نفسية علائقية ، يختصر فيها الشخص الآخر الى أحد ابعاده ، أو أوجه وجوده ، أو احدى خصائصه فقط . يبنى انطلاقا من ذلك حكم يعمم على كل وجوده . وهكذا لا نعود ندركه الا باعتباره تلك الصفة أو الخاصية . وفي هذا بالطبع اعتداء على انسانيته وغناها ، واعتداء على حريته في أن يكون غير ما نريد . ويتخذ الاختزال طابعا سلبيا معظم الأحيان ، كأن لا نرى من الشخص الا احدى خصاله السيئة ونوحده معها ، وهنا تتدخل التحيزات والأحكام المسبقة والأفكار المنمطة كثيرا ، وتؤدي الى مواقف ادانة وتعصب .

ولكن قد يختزل الآخر الى احدى خصاله الطيبة ، كاختزال المراة الى مجرد دور الأم فقط مع ما له من قيمة . وهكذا فالميول الاختزالية تمنع رؤية الآخر على حقيقته ، فهي قد تبخسه ، أو ترفعه الى مصاف المثل الاعلى . وتنطلق الميول الاختزالية من اتجاهات انانية ، أنوية ، أن لا يكون الآخر سوى ما نريده له .. هذه الميول تتضمن لا محالة بذور الصراع العلائقي .

نزوة
Pulsion (Instinct, drive)

نسق دينامي متكون من شحنة دافعة (طاقة حيوية)

تدفع بالمتعضي نحو موضوع محدد لها كهدف، بقصد تخفيف التوتر الناتج عن تراكم تلك الطاقة داخل الجسم ، والعودة به الى حالة من التوازن .

النزوة هي اذاً الطاقــة الحيوية التي تدفع السلوك (أهمها نزوة الحياة ونزوة الموت من وجهة نظـر التحليـل النفسي) .

والنزوة هي صنو الغريزة بمعنى أن لها موضوعا تتوجه اليه وهدفا هو الوصول الى ذلك الموضوع والحصول عـلى الامتاع من خلال ذلك . ولكن يفضل عند الانسان الحديث عن النزوة (خصوصا بشأن الحب والعدوان) ، اذ أن الغريزة متبعة وراثيا ومحددة من حيث هدفها وطرق الوصول اليه بشكل جامد . أما النزوة فهي تتمتع بدرجة أكبر من الحرية ، ولذلك فقد تستبدل موضوعها الأصلي وأهدافهـا وطـرق الوصول بغيرها ، كما يحدث خلال الارتكاسات الجنسية ، وكما يحدث حين تنصب العدوانية على موضوعات غير مباشرة أو ترتد الى الذات أو تأخذ طابعا رمزيا .

نزوة الحياة

Pulsion de vie (life instinct)

احدى النزوتين الاساسيتين اللتين تحركان المتعضي من ناحية الطاقة الحيوية الدافعة . النزوة الاخرى هي نزوة الموت .

نزوة الحياة ، وتسمى أيضا أيروس (Eros) ، تهدف الى الصلة ، الربط والعلاقة ، الى تجميع وتكوين وحـدات حيوية اكبر فأكبر . الطاقة الجنسية وعاطفة الحب همـا التعبير المباشر لنزوة الحياة ويطلق عليهما معا اسم الليبدو (obidiL) نزوة الحياة ذات طابع دينامي متحرك فهي تتوزع ما بين الذات فتؤدي الى مشاعر الاعتبار ومحبــة الـذات وتقديرها وقد تؤدي الى الأنويــة فالنرجسية اذا حـدث توظيف مفرط لها في الذات . وتتجـه الى الخـارج نحـو

موضوعات الحب فتمد العلاقات بلحمتها العاطفية .. أو هي تتوجه الى موضوعات مجردة ومثل عليا وعقائد .
ونزوة الحياة هي على صراع دائم داخل المتعضي مع نزوة الموت التي تهدف الى التدمير . فهي توازنها وتؤمن بذلك توازنا مقبولا للمتعضي ، كما انها تمتزج معها بمقادير متفاوتة في كل انماط العلاقات التي تضم دوما جانبين متكاملين حب وحقد .

نزوة السطوة
Pulsion d'emprise
(Instinct to master)

مصطلح استخدمه فرويد احيانا ، دون أن يحدد معناه بدقة . ويقصد به نزوة غير جنسية ، لا ترتبط بالجنس الا فيما بعد ، وتهدف الى استعباد الموضوع الجنسي بالقوة . ويرتبط هذا المصطلح اكثر مما يرتبط اضافة الى ذلك بمفهوم السادية ، باعتبارها تتغذى أساسا من الرغبة في السيادة على الآخر ، والاحساس بالقوة من خلال ضعفه ، واعترافه بقوة السادي وسيطرته عليه . منهم ممن يضع نزوة السطوة في أساس الاتجاه التملكي الاقتحامي من العالم .

نظار (تملكي)
Voyeucisme (possessif)

كل نظار ، هو في الواقع نظار تملكي ، لأنه أساس تملك او محاولة تملك وسلب الآخر ما يملكه بالنظر .
في المعنى العيادي الدقيق ، النظار هو احد أشكال الارتكاس (Perversion) الجنسي . فعوضا عن الوصول الى الاشباع الجنسي من خلال العضو التناسلي في فعل الجماع ، يقتصر الامر على مرحلة تمهيدية من الفعل الجنسي العادي وهو الاثارة من خلال البصبصة . في هذه الحالة يمتلك المريض الموضوع الجنسي المرغوب فيه من خلال النظر وما يرافقه من اثارة بدل امتلاكه من خلال علاقة جسدية

فعلية وتامة .. والنظار بهذا المعنى يختلف عن شدة الرغبة في الموضوع الجنسي التي تصاحب حالات الحرمان العادية نتيجة الفصل بين الجنسين ، والتي لا تسمح سوى بتفاعل من خلال الاستعراض والبصبصة . النظاري يكتفي بذلك مع أن بامكانه واقعيا الوصول الى مستوى الفعل الجنسي السوي .

يخفي النظار عقدة خصاء فعالة ، تضع المريض في حالة عجز جنسي واضح ، وحالة خوف من القرين الجنسي أو الاقتراب منه .

النظار التملكي بالمعنى المستخدم في النص هو امتلاك بديل لمظاهر الثروة أو النعمة ، والخطر من خلال النظرة المشتهية والعدوانية .

نفاج
Mégalomanie

عبارة عن حالة من التضخم الذاتي الذي يأخذ طابع المبالغة الخرافية لقدراتها وممتلكاتها ومكانتها . مع حالة من الامتداد الوجودي بشكل يجعل المحيط يبدو منحسرا أمام الذات . فالنفاج هو مبالغة في الادعاء لا تستند الى اي احساس من الواقع الذاتي او الموضوعي . والنفاجي هو كائن مهووس بالعظمة وارتفاع الشأن ، أو هو يقدم نفسه هكذا مباشرة بدون جهد فعلي للوصول الى تلك العظمة . يبالغ النفاجي في كل ما يمت اليه بصلة ، خصوصا في تصوير قدراته . وقد يصل النفاج حد المرض الفعلي فيتخذ عندها شكل هذيان العظمة حيث يعطي المريض من هؤلاء لنفسه بعدا كونيا ، أو يدعي امتلاكه لثروة خرافية (جبال من الذهب ، مئات من النساء) أو لألقاب مفرطة في تفخيمها .

والنفاج هو نوع من رد الفعل التعويضي على مشاعر نقص ذاتية شديدة .. انه رد فعل تمرد خرافي على العجز . وهو على صلة ما بعقدة الخصا ورفضها ، وبقلق الهجر ،

ونبذ الأم له . التضخيم الخارجي متواز عموما مع النقص الداخلي .

نفسدي (نفس جسمي ـ نفسي جسمي)

Psychosomatique

نوع من الاضطرابات ، والأمراض الجسمية التي لا ترجع الى علة جرثومية ، أو كلمية (جروح اصابات) ، أو اختلالات فسيولوجية شراحية ، بل تنشأ عن صراعات نفسية مكبوتة أو صريحة ، والأغلب أن تكون مكبوته . فالمرض النفسدي هو اذا المرض الجسمي ذو الأصل النفسي . ولقد اصبح الطب النفسدي احد فروع الطب المتزايدة في انتشارها . ومصدر المرض في هذه الحالة هو الوحدة الجدلية الدائمة بين النفس والجسم . كل معاناة نفسية شديدة ومزمنة لا يسمح لها بالتعبير المباشر على المستوى النفسي تؤدي لا محالة الى اختلالات جسدية وتظهر فيما بعد كاضطرابات جسمية . فمن خصائص الطاقة النفسية سواء أكانت سوية ام في حالة مأزمية أن تنصرف من خلال الجسد ووظائفه .

ولكن لا بد في حالة المرض النفسدي من تواطؤ جسمي على شكل ضعف جبلي أو شراحي في العضو الذي ستظهر من خلاله الاضطرابات . من امثلة الاضطرابات النفسدية الأكثر شهرة قرحة المعدة ، وارتفاع ضغط الدم .

نكوص

Regression

نكص تعني حرفيا رجع من حيث اتى .. وتعني نفسيا العودة الى أساليب في التعبير والتماهي والسلوك تجاوزها المرء خلال نموه وتقدمه نحو النضج الراشد . فالنكوص يفترض عملية النمو تمر بعدها مراحل على المستوى العاطفي الجنسي ، العلائقي والسلوكي والانبنائي ، ويحدث فيها اذاً عودة الى الوراء من مرحلة نضج متقدم ، الى أخرى طفلية ،

مثلا النكوص من مرحلة الاستقلال والمسؤولية ، الى مرحلة اكثر طفلية تتميز بالاتكال والتبعية . والنكوص ظاهرة شائعة عند الأطفال الذين يتقهقرون في نموهم اذا أعترضتهم أزمات جديه . فقد يعود الطفل الى البوال في فراشه ليلا بعد ان يكون قد ترك هذه العادة . وقد يعود الى التشبث بالأم بعد أن بدأ يستقل .

أما عند الراشد فالنكوص يحدث أيضا كرد فعل على مآزق لا يجد له منها مخرجا ، ولا تؤمن له اشباعا لحاجاته الحيوية ، فينكص الى اساليب اكثر بدائية في مجابهةالواقع. انه لا يعود طفلا بشكل فعلي ، بل يتصرف انطلاقا من وضعية الطفل وأسلوبه .

وقد يكون النكوص عاما : تتقهقر الشخصية بشكل اجمالي فيه ، أو جزئيا يمس قطاعا محددا منها ، خصوصا القطاع الجنسي . وقد يكو مؤقتا كرد فعل على مأزم عابر أو دائما يطبع الشخصية كلها بطابع أدنى ارتقاء من الناحية النفسية .

هتاك

Exhibitionisme

اضطراب جنسي يتلخص في استعراض الأعضاء التناسلية (عند الرجل خصوصا) كوسيلة للحصول على اللذة الجنسية ، وذلك بدل الحصول عليها من خلال الفعل الجنسي . فالهتاكي يكتفي بمرحلة أولية من الوصال الجنسي ، وهي اغراء الآخر واثارته . يتلخص الفعل الجنسي اذا باحدى مراحله التمهيدية ، ولكنه يتخذ طابعا قهريا أو ساديا . في الحالة القهرية يقف الفاعل موقف الضعف ويستعرض أعضاءه تحت شعار الخجل والعار ، وبشكل اضطراري . أما في الحالة السادية فيحاول الفاعل أن يصدم من خلال منظر أعضائه التناسلية فتاة صغيرة عادة يتحرش بها في مكان منعزل .

والهتاك هو احد حالات العجز الجنسي ، اذ ندر أن يكون الفاعل قادرا على القيام بجماع ناجح مع امرأة ناضجة .

المقصود في النص ليس الهتاك بمعناه التناسلي ، بل بالمعنى الجنسي العام ، حيث تجد المرأة رضى ومتعة من خلال عرض مفاتن جسدها واثارة الرغبة عند الرجل ، رغبة تبقى بدون اشباع . انها محاولة السيطرة على الرجل من خلال اثارة رغبته وعدم تحقيقها ، في نوع من نشوة قوة الاغراء تشعر به المرأة .

هجاس (حواز ، وسواس ، افعال قهرية)

Obsession

مرض نفسي مشهور ، من علاجه وعلاج الهستيريا انطلق التحليل النفسي . وهو مرض وظيفي اي أن منشأه نفسي ولا أساس عضوي له .

من ناحية الاعراض ، تسيطر على المريض مجموعة متنوعة من الافكار أو الأفعال التي تتخذ طابعا قهريا ، يجد المريض نفسه مرغما على القيام بها ، رغم رفضه لها وما تسببه من ازعاج . من أمثلة الأفعال القهرية : العد القهري مرات لا متناهية ، القيام بطقوس معينة قبل النوم كغسل اليدين عدة مرات متتالية وبدون مبرر منطقي سوى احساس المريض أنه قد لا يكون قد طهر يديه تماما ، التأكد عدة مرات من اقفال الأبواب أو صنابير المياه الخ ...

ومن الأمثلة على الأفكار القهرية الوقوع تحت حالة من انعدام اليقين والحاجة الى التكرار . الحاح أفكار ذات طابع جنسي أو عدواني يكثر القلق والذعر في النفس نظرا لتعارضها مع الاخلاق (الخوف مثلا من قتل شخص عزيز عليه ، الحاح صورة امرأة عارية على ذهن رجل دين اثناء الموعظة الخ ..) .

من الناحية النفسية يتصف الهجاسي بالدقة المفرطة ، الاهتمام بالتفاصيل ، التزمت ، شحاح العاطفة وتحفظها .

الهجاس في اعراضه هو تعبير عن صراع حاد بين رغبات تلح كي تشبع ولكنها تلقى مقاومة خلقية ضارية لأن الفرد يعيشها كرغبات غير مقبولة . الأعراض الخارجية هي دفاع مضن ضد تلك الرغبات الملحة .

هوام (تطييف)

(Phantasy) Fantasme

نوع من السيناريو الحسي (خصوصا بعدي) أو حركي عضلي ، يجتاز المجال الادراكي بسرعة خاطفة ، تماما كومضة برق ، يمثل وضعيات ، أو مشاهد ، أو أعمال ، أو مخاوف، تبدو جميعا دخيلة على الذهن وكأنها ليست تابعة منه .

الهوام هو في الواقع سيناريو تمثيل رغبة تتحقق مع ما يصاحبها من لذة وخوف من التجريم الذي يضرب هذه الرغبة اللاواعية عادة . فهو اذا تحقيق رغبة وعقاب عليها في آن معا ، يظهر بشكل يفاجىء ويمتع ، أو يخيف .. والهوام هو تمثيل لأشكال الاشباع البدائية جدا واللاواعية للرغبات : هوام قتل ، هوام اغتصاب ، هوام جماع مرم الخ ... الشكل الواعي للهوام هو أحلام اليقظة ولكن الواقع هو أن هذه الأحلام ليست سوى القناع الذي يخفي الهوام اللاواعية، ولا يمكن اكتشافها الا بالتحليل . فهي التي تغذي الأحلام ، والأعراض المرضية على اختلافها .

النزوة (جنس ، أو عدواني) لا تظهر عادة بشكلها الخام عند الانسان ، بل تأخذ شكل الرغبة . والرغبة هي أصلا في علاقة ، رغبة في موضوع خارجي (شخص) أو خوف من هذه الرغبة . وهذه الرغبة في علاقة تأخذ شكلا ديناميا هو السيناريو الهوامي ، حيث تتحقق متضمنة العقاب عليها أو القلق النابع من العقاب عليها .

وهكذا تنتظم الحياة اللاواعية بما فيها من نزوات ومكبوتات في مجموعة من الهوامات الأولية أو الأصلية : هوامات الخصاء ، هوامات الجماع ، هوامات الحياة الرحيمة،

هوامات الغواية الجنسية ، هوامات المشهد الأولي (فعل الجماع بين الوالدين) هذه الهوامات اللاواعية هي التي تمد الحياة الواعية بتخيلاتها وأحلامها في اليقظة والنوم ، وفي تخريفاتها ، وفي اعراضها المرضية .

والواقع أن العلاقات بين الذات والآخرين تتأثر جدا بنوع السند الهوامي الذي تستمد زخمها وطاقتها منه . ليس هناك علاقة واقعية مادية بالمعنى الدقيق للكلمة عند الانسان .. كل علاقة لا بد لها أن تصطبغ بالهوامات اللاواعية، أي بنوع التجارب الانفعالية والنزوية التي رافقت العلاقات البدائية بين الطفل وامه ، وبالتالي الصور عن الذات والآخر ودور كل منهما في اشباع الرغبة . وهكذا فالعلاقة الواقعية لها بعد هوامي بالاضافة الى بعدها المادي . الهوام من أهم أوجه نشاط الحياة اللاواعية ، انه منظم هذه الحياة ومجسد لها في سيناريو ، وهو الى ذلك من أكثر الأفكار غموضا بالنسبة لغير المتخصصين في علم نفس الأعماق .

المحتوى

هذه الدراسة

ألم يحن الوقت كي نتنبه الى واقع الانفصام بين اهتماماتنا الشاملة بالتنمية الاقتصادية والعمرانية ، وبين الأمل من هذه الاهتمامات بتنمية الانسان العربي ومجتمعه ، الذي يقع عليه عبء التطور التاريخي الشامل ؟

ان معهد الانماء العربي الذي آلى على نفسه التنبه الى تصحيح بعض المفاهيم المجتزأة عن أهداف التنمية السائدة في وطننا ، يشرع اعتبارا من هذه الدراسة النفسية الاجتماعية في شق الطريق امام محاولة استيعاب علمية ، لما تقتضيه حقا عملية التنسيق والتآزر بين مختلف خطوط النهضة ، وأهمها ولا شك اتجاه العمران واتجاه الانسان ، وكيف تنمو على محوريهما التنمية الحضارية الشاملة المنشودة .

وكل تصد علمي ، انما يبدأ بمسح واقع الموضوع أولا . وهذه الدراسة تفتح الطريق أمام عملية وصف وتحليل كلية لظاهرة التخلف ، عبر آليات تحققها النفسية وانماط علاقاتها الاجتماعية . عسى ان يشرع هذا المسح الاولي الابواب فسيحة امام الدراسات الميدانية التفصيلية من اجل فهم علمي لواقع ورثناه ، حتى نغيره لواقع آخر تصنعه عقولنا وارادتنا المتآخية تحت سلطة المعرفة وحدها .



١٥ ل ل او ١٥٠٠ درهم ليبي او ما يعادلها